

محمد بنشريفة

تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس والمغرب

بحوث ونصوص

الجزء الأول

منشورات



وزارة الثقافة







بسم الله الرحمن الرحيم



تاريخ الأمثال والأزجال
في الأندلس والمغرب

بحوث ونصوص

محمد بنشريفة
عضو أكاديمية المملكة المغربية
والمجامع العربية





لاَ غَالِبَ إِلاَّ اللهَّ

تاريخ الأمثال و الأزجال في الأندلس والمغرب (الجزء الأول)
الإيداع القانوني : 2006/0249
ردمــــك : 5-5051-0-9954
سحـــب : مطبعة دار المناهل - 2006



تنبيه

«وسينتهي بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة وما روي عن الأشراف والأئمة فيهما، فإذا مر بك أيها المتزمت حديث تستخفه أو تستهجنه أو تعجب منه أو تضحك له فاعرف المذهب فيه وما أردنا به. واعلم أنك إن كنت مستغنيا عنه بتنسكك فإن غيرك ممن يترخص فيما تشددت فيه محتاج إليه، وإن الكتاب لم يعمل لك دون غيرك فيُهيّأ على ظاهر محبتك، ولو وقع فيه توقي المتزمتين لذهب شطر بهائه وشطر مائه ولأعرض عنه من أحببنا أن يقبل إليه معك. وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين.

وإذا مر بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة أو فرج أو وصف فاحشة فلا يحملنك الخشوع أو التخاشع على أن تصعر خدك وتعرض بوجهك، فإن أسماء الأعضاء لا تؤثم وإنما المأثم في شتم الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب... فتفهم الأمرين وافرق بين الجنسين.

ولم أترخص لك في إرسال اللسان بالرفث على أن تجعله هجيراك على كل حال وديدنك في كل مقال، بل الترخص مني فيه عند حكاية تحكيها أو رواية ترويها تتَنقّصها الكناية ويذهب بحلاوتها التعريض، وأحببت أن تجري في القليل من هذا على عادة السلف الصالح في إرسال النفس على السجية والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع، ولا تستشعر أن القوم قارفوا وتنزهت وثلموا أديانهم وتورعت.

وكذلك اللحن إن مر بك في حديث من النوادر فلا يذهبن عليك أنا تعمدناه وأردنا منك أن تتعمده، لأن الإعراب ربما سلب بعض الحديث حسنه وشاطر النادرة حلاوتها... ألا ترى أن هذه الألفاظ لو وفيت بالإعراب والهمز حقوقها لذهبت طلاوتها ولاستبشعها سامعها وكان أحسن أحوالها أن يكافئ لطف معناها ثقل ألفاظها».

الإمام الحافظ ابن قتيبة الدينوري في مقدمة كتاب «عيون الأخبار».





تقديـــم



نشرت منذ أزيد من ثلاثين سنة "أمثال العوام في الأندلس" ونشرت بعد ذلك "ملعبة الكفيف الزرهوني" وقد بدا لي من المفيد أن أعيد نشرهما بعد نفادهما لقلة عدد ما طبع منهما، ورأيت أن أضم إليهما أمثالا وأزجالا لغير أبي يحيى الزجالي والكفيف الزرهوني فقمت بتحقيق أمثال أبي بكر ابن عاصم وأمثال ألونسو القستلي وأمثال أبي مدين الفاسي وأمثال مؤلف مجهول واخترت أزجالا أندلسية ومغربية من مختلف العصور تناسب في الغالب موضوع ملعبة الكفيف الزرهوني ؛ وقد تيّسر لي مما جمعته وحققته ودرسته هذا العمل الذي وضعت له العنوان التالي "تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس والمغرب" وجمعت بين العدوتين لأني وجدتهما في هذا المجال لا ينفصلان ويتضح من العنوان المذكور أنه يتألف من قسمين :

القسم الأول : في الأمثال الأندلسية المغربية ويشتمل على دراسة عامة لتاريخها وتطورها ومضامينها الاجتماعية ودلالاتها اللغوية مع ملاحق لها فائدتها ويلي هذه الدراسة خمس مجموعات من الأمثال جمعها من سميتهم آنفا، وقد عنيت بالتعريف بجامعيها وتحقيق نصوصها وشكل ألفاظها وشرح معانيها ومقارنتها بغيرها.

والقسم الثاني : في الأزجال قاعدته ملعبة الكفيف الزرهوني التي كان لها الحظ الأوفر في هذا القسم مثلما كان النصيب الأكبر لمجموع الزجالي في القسم الأول، وسبب ذلك أني بدأت بهما ووجدت مادة غنية حولهما جعلت من كل منهما جزءا مستقلا.

وقد رتبت هذين القسمين في خمسة أجزاء أعرض محتوياتها بإيجاز فيما يلي :

فالجزء الأول : يتألف من فصول أولها أرخت فيه للأمثال فصيحها وعاميها في الأندلس وهو يبدأ بتمهيد قصير عن تطور التأليف في



الأمثال العربية يليه دراسة مفصلة عن دخول كتب الأمثال إلى الأندلس وتاريخ دخولها وعناية الأندلسيين بدراستها وشرحها مع تحليل دقيق لشروح الأندلسيين واختصاراتهم لأمهات كتب الأمثال ومؤلفاتهم فيها، وأحسب أنها دراسة شاملة متقصّية لجانب من جوانب التاريخ الأدبي لا يوليه الباحثون ماً يستحق من اهتمام وإنما بدأت بتاريخ كتب الأمثال الفصيحة في الأندلس ورصد انتشارها بها لأني رأيت أن الصلة وثيقة بين الأمثال الفصيحة وبين الأمثال العامية، فهناك طائفة من الأمثال العامية ما هي إلا أمثال فصيحة في الأصل صاغها العامة صوغا جديدا أو اعتراها تغيير في ألفاظها وتراكيبها، وذلك ما يسميه أبو عبيد القاسم بن سلام وغيره بالابتذال، وانتقلت من الأمثال الفصيحة إلى الأمثال العامية في الأندلس، فتكلمت بإيجاز مركز في ظهور الأمثال الإقليمية وتطورها في البلدان الإسلامية العربية، وتتبعت هذه الأمثال العامية الإقليمية في أمثال أبي عبيد المخطوطة، وحكاية أبي القاسم البغدادي، ورسالة الأمثال البغدادية للطالقاني، والأمثال المولّدة لأبي بكر الخوارزمي، ونثر الدرر للآبي، ومعجم الأمثال للميداني وغيرها، وأشرت إلى وجودها في الشعر العباسي، وبينت أن الاتجاه إلى تدوين الأمثال العامية بالمعنى الدقيق لم يظهر فيما يبدو إلا في القرن السابع الهجري وما بعده، ثم درست بتفصيل نشأة الأمثال العامية في الأندلس فذكرت أمثلة لهذه الأمثال ترجع إلى أواخر عصر الولاة وأوائل العصر الأموي بالأندلس، وتتبعت تدوين هذه الأمثال في العقد لابن عبد ربه، وتوصلت بالمقارنة بين الأمثال العامية في العقد وبين الأمثال العامية في كتاب أبي عبيد إلى أن الأمثال المنسوبة إلى العامة في العقد هي أمثال كانت مسموعة بالأندلس وليست منقولة، وبذلك يكون ابن عبد ربه أول من فتح باب تدوين الأمثال العامية في الأندلس، ثم استعرضت ما وقفت عليه من الأمثال الأندلسية في ثنايا المؤلفات الأندلسية التي ألفت بعد العقد مثل

كتاب قضاة قرطبة للخشني، وطبقات اللغويين والنحويين للزبيدي، والمقتبس لابن حيان، والمسالك والممالك للبكري، وبهجة المجالس لابن عبد البر، والتبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة لعبد الله بن بلقين، وانتقلت إلى مجموعة ابن هشام اللخمي التي دونت في القرن السادس فحللتها تحليلا دقيقا، وتليها الأمثال الواردة في منامات الوهراني ثم مجموعة الزجالي التي عنيت بتحقيقها فأوضحت أنها - فيما وقفت عليه - أول تدوين حقيقي لأمثال العامة بمعناها الدقيق في الأندلس، كما أنها - من حيث عدد أمثالها - أكبر المجموعات العامية القديمة المعروفة، ودرست طريقة الزجالي في ترتيبها، وتاريخ جمعها ومكانه، وقررت أن الطابع الأندلسي غالب عليها سواء من حيث الشكل أو من حيث المضمون، وبينت أنه اعتمد في جمعها على السماع المباشر من أفواه الناس في قرطبة وشاطبة وغيرهما من المدن الأندلسية التي عاش فيها، ولم أستبعد أن يكون قد جمع بعضها في المغرب حيث هاجر مع من هاجر إليه من الأندلسيين بعد ضياع القسم الأكبر من الأندلس الإسلامية. كما سقت بعض الأدلة التي تشهد بأنه حافظ على تدوينها كما سمعها ولم يتصرف فيها بنوع من أنواع التصرف كالإعراب ونحوه، وقلت أن صنيعه هذا يدل على سعة أفق ورحابة صدر واستنارة ذهن قلما نجدها في العصور المتأخرة، وقد أشار في مقدمة كتابه «ري الأوام» إلى ما كان يتوقعه من النقد من بعض معاصريه الذين لم يكونوا يستسيغون مثل هذا العمل، وذلك لأن الإقدام على تدوين الأدب العامي كان بدعة في نظر كثير من الناس، وكان معظم المؤلفين في المشرق والمغرب يزورّون عنه، ويأنفون من تسجيله، وقد كان هذا الرأي سببا في ضياع كثير من الآداب العامية والآثار الشعبية، وبعد دراسة أمثال الزجالي درست أمثال ابن عاصم الغرناطي التي دونت بعدها بنحو قرن، وقارنت بين المجموعتين، وبينت ما بينهما من وجوه الاتفاق والاختلاف، وتبيّن من



البحث أن ابن عاصم لم يطلع على مجموعة الزجالي، ولذلك كانت مظاهر الاختلاف بينهما مفيدة في المقارنة ومتابعة تطور الأمثال وما طرأ عليها من تغيير خلال قرنْ تقريبا، وأشرت بعد ذلك إلى مجموع أبي علي الحسن ابن القفال البسطي في الأمثال العامية الأندلسية، وهو مفقود. وقد أُلِّف بعد آمثال ابن عاصم قبيل سقوط غرناطة وجاء بعده مجموع ألونسو القستلي ويعتبر آخر ما ألف في الأمثال العامية بالأندلس. وختمت هذا الفصل بجدولين أولهما لبعض الأمثال المشتركة بين ابن هشام والزجالي وابن عاصم، والآخر يوضح الفروق بين أمثال الزجالي وأمثال ابن عاصم، وذلك كنموذج لتطور صيغ الأمثال خلال ثلاثة قرون تقريبا.

ودرست في الفصل الثاني بعده أصول الأمثال العامية في الأندلس ومصادرها، وذكرت من الأصول التي اشتركت في تكوينها : الأمثال العربية القديمة، والأمثال المولدة وبينت أن الثانية كانت أقوى من الأولى تأثيرا في الأمثال الأندلسية، ولعل ذلك راجع إلى ملاءمتها للمزاج الحضري في الأندلس وتشابه الأوضاع الحضرية بين المجتمع الأندلسي وبين المجتمعات العباسية حيث ظهرت الأمثال المولدة، وأشرت إلى طرق دخول الأمثال المولدة إلى الأندلس وتعددها، وقلت أن انتقال هذه الأمثال من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب دليل على أنها كانت عملة متداولة في الأمصار العربية، وبرهان على أن وحدة الأمثال الحالية في البلدان العربية كما أبرزتها المقارنات لها أصول تاريخية قديمة وجذور بعيدة. وقد سقت بعض أمثلة قارنت فيها بين صيغ الأمثال المولدة في المشرق وبين صيغها في الأندلس. ويرجع أصل بعض الأمثال إلى أخبار ونوادر وأجوبة تروى في بعض كتب الأدب ووصلت أصداؤها إلى أسماع العامة فتمثلوا بها وفي ذلك أمثلة عديدة، وهنالك



أمثال متولدة من أساطير كان لها صداها في المشرق والمغرب، كما أن القصص الديني كان منبعا من منابع هذه الأمثال، وكانت الحوادث التاريخية أصلا لبعضها، ونشأت مجموعة أخرى من الأمثال حول المدن والبلدان الأندلسية وأهلها، وثمة قسم آخر يدور حول أشخاص كانت لهم حكايات معينة أو عرفوا بصفات خاصة، ومن أصول الأمثال الأندلسية أبيات من الشعر المشرقي أو المغربي كانت تنتشر بين العامة وما يزال بها الاستعمال والابتذال حتى يخرجها عن وزنها ومعناها، ونشأت بعض الأمثال كأوعية للمعارف العامية المختلفة في الطب والفلاحة والأنواء وأحوال الجو وغير ذلك، وترجع بعض الأمثال الأندلسية إلى أصول عجمية أو رمانثية، ونصادف فيها أمثالا هي في أصولها قواعد أو كالقواعد الفقهية ونشير هنا إلى أن بعض عبارات الشيخ خليل أصبحت مما يتمثل به كعبارة لا يستنجى من ريح. وتحدثت في الشق الثاني من هذا الفصل عن صدى الأمثال العامية في الشعر الأندلسي الفصيح والعامي، وكان هذا نتيجة قراءات كثيرة في الشعر الأندلسي في مختلف عصوره، وقد ذكرت أمثلة مما عثرت عليه في شعر يحيى الغزال وابن مسعود القرطبي الذي كان في الأندلس كابن حجاج في المشرق، والسميسر الإلبيري وغيرهم، وكان صدى الأمثال في الأزجال أقوى رجعا وأوضح ترديدا، ولذلك وجدت طائفة من الأمثال الأندلسية في أزجال ابن قزمان ومدغلّيس من زجّالي القرن السادس، وعند ابن ناجية اللورقي والحداد البكازور وأبي الحسن الشُشتري من زجّالي القرن السابع وقد وقفت طويلا عند الأمثال الواردة في ديوان ابن قزمان. وختمت هذا الفصل بالكلام على استمرار الأمثال الأندلسية وانتشارها في الأمثال الإسبانية والمغربية والمشرقية وقد أثبتت المقارنات بما لا يدع مجالا للشك استمرار كثير من الأمثال الأندلسية في الأمثال الإسبانية إلى يومنا هذا، ويخيل إلي أن هذه المقارنات من أهم ما حققته

هذه الدراسة كما درست في آخر هذا الفصل بتفصيل استمرار الأمثال الأندلسية في أمثال بلدان المغرب الكبير، وشرحت أسباب ذلك، وأشرت أيضا إلى نظائر عديدة للأمثال الأندلسية في أمثال المشرق العربي سواء في المجموعات القديمة أو في المجموعات الحديثة وافترضت أن تكون هذه الأمثال المتشابهة منحدرة جميعا من أصول مشتركة كانت شائعة في الأمصار العربية منذ عهود الخلافة العباسية.

وفي الفصل الثالث : قمت بمحاولة في دراسة بعض الجوانب من الحياة الاجتماعية كما تتراءى من خلال الأمثال، وذلك بالقدرالذي سمحت به نصوص هذه الأمثال وأتاحه فهمنا لها، وهكذا درست عناصر السكان والفئات الاجتماعية المختلفة كما تصورها الأمثال، وشرحت في ضوء التاريخ ما ورد من أمثال في الصراع بينها، أما العناصر والفئات المدروسة فهي العرب والبربر وأهل العدوة والمولدون والعجم والصقالبة واليهود والعبيد، وانتقلت بعد هذا إلى دراسة الحكام كما صورتهم الأمثال، وبدأت بالسلطان فالكاتب فالقاضي فصاحب المدينة والشرطة فالمحتسب فالفقهاء، كما درست التعليم والأطعمة والأعياد والمرأة والزواج ومشكلاته والتجارة والمعاملات والحرف والفلاحة والملاهي والألعاب كالزامر والعجايبي والشطرنج ثم شرحت بعض أمراض المجتمع الأندلسي من خلال أمثاله، وختمت هذا الفصل بتقديم نماذج من بعض القيم الاجتماعية التي تبدو بارزة في الأمثال الأندلسية.

أما الفصل الرابع : وهو الأخير في الدراسة ـ فقد كان عبارة عن محاولة لدراسة الجانب الأدبي واللغوي في الأمثال الأندلسية حيث درست ـ في شيء من الإيجاز والتركيز ـ سمات بينة وملامح واضحة في بنية المثل الأندلسي وطبيعة أسلوبه من حيث الشكل والمضمون، كما عرضت بعض الظواهر اللغوية التي تلحظ في العامية الأندلسية من خلال

الأمثال، والحق أنني آثرت في ذلك كله المنهج الوصفي تقيدا مني بشرط هذه الدراسة التراثية والوقوف عند حدها. ثم ذيلت هذه الدراسة بلواحق تعزز الجانب الاجتماعي في الأمثال وتؤيد ما تنطوي عليه من دلالات اجتماعية وأخلاقية وتكون بمثابة الشواهد على صحة مضمونها.

والجزء الثاني خاص بأمثال العوام المستخرجة من كتاب ري الأوام لأبي يحيى عبيد الله الزجالي القرطبي نزيل مراكش ودفينها وقد عرّفتُ في مقدمة هذا الجزء بالزجّالي وهو شخصية لا يكاد الدارسون يعرفون من أمرها شيئا، ولم أقف له إلاّ على ترجمة قصيرة في «درة الحجال في غرة أسماء الرجال» لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد المعروف بابن القاضي المكناسي المتوفي سنة 1025هـ. وقد نقل ترجمة الزجالي بإيجاز مخل من مصدر متقدم رجحت أنه كتاب «الذيل والتكملة» لابن عبد الملك المراكشي، ولما كانت معرفة جامع الأمثال مهمة في توثيق الأمثال نفسها، والثقة بها، والاطمئنان إليها، وتحديد نسبتها الأندلسية، فقد عنيت عناية خاصة بدراسة الرجل دراسة مستفيضة لم تكن الترجمة القصيرة التي وردت في درة الحجال إلا مفتاحا لها ومدخلا إليها، واعتمدت في هذه الدراسة على قراءات كثيرة في كتب التراجم والطبقات والتاريخ والبرامج والرحلات، كما أفدت كثيرا من الإشارات القليلة المتعلقة بالمؤلف في كتابه «ري الأوام». وهكذا درست المؤلف في أسرته من جهة أبيه وهي أسرة الزجالين القرطبية التي كان لها ذكر كبير في حياة الأندلس السياسية والعلمية والعمرانية وغيرها طوال نحو أربعة قرون، كما درسته في أسرته من جهة أمه وهي أسرة بني قطرال الأنصاريين الذين تولى عدد منهم منصب القضاء في عهد دولة الموحدين، وانتهيت في هذا إلى أن جامع الأمثال أبا يحيى الزجالي من كلا طرفيه مغربي الأصل والوفاة، وإن كان قرطبي البيت والنشأة، وأنه وليد العنصرين البربري والعربي، فأبوه من

أصل بربري نفزي، وأمه من أصل عربي أنصاري. وقد عنيت عناية خاصة بتوضيح الأثر الذي كان للقاضي أبي الحسن بن قطرال جد المؤلف لأمه في حياته. ثم فصلت القول في حياته منذ ولد بقرطبة سنة 617هـ أو سنة 618هـ إلى وفاته سنة 694هـ وتتبعت أطوار حياته في قرطبة وشاطبة ومراكش، ودرست بتفصيل تكوينه الثقافي، وشيوخه الذين أخذ عنهم، والكتب التي درسها وما إلى ذلك، واستنتجت من هذا كله أنه كان على مستوى طيب من الثقافة الأدبية بالمعنى العام، كما يشهد بذلك أيضا كتابه «ري الأوام»، وقومت نثره وشعره تقويما في حدود بيئته الزمانية والمكانية، وكان ما وصل إلينا من شعره معينا في إنارة بعض الجوانب من حياته وسلوكه، ولم يفتني أن أرسم ملامح من الحياة السياسية والأدبية بالأندلس والمغرب في عصره بالقدر الذي يتصل بحياته اتصالا مباشرا.

ثم عرّفت بعد هذا بكتاب «ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام» الذي استخرجت منه نصوص الأمثال، واشتمل هذا التعريف على تمهيد في كتب المحاضرات الأندلسية التي ينتمي إليها كتاب "ري الأوام" أشرت فيه بإيجاز إلى بعض ما ألف في هذا الفن بالأندلس وأوردتها مرتبة بحسب العصور، ثم درست في هذا الفصل موضوع الكتاب ومنهج المؤلف فيه ومصادره والباعث على تأليفه وقصد المؤلف إلى محاذاة كتاب التمثيل والمحاضرة للثعالبي. ولما كان الكتاب مخطوطا فقد بينت محتوياته في ثبت سردت فيه أبوابه كما درست ما يشتمل عليه من اختيارات نثرية وشعرية منسوبة وغير منسوبة، وللدلالة على قيمة هذا الكتاب من هذه الناحية فقد أدرجت ثبتا للشعراء المشارقة وآخر للشعراء المغاربة الوارد ذكرهم فيه. وختمت هذا الفصل بتحقيق نسبته إلى الزجالي ودراسة نسخه المعروفة وتبيين المنهج الذي سلكته في تحقيق أمثاله.

ويشتمل الجزء الثالث على أربع مجموعات من الأمثال العامية الأندلسية والمغربية هي مجموعة ابن عاصم ومجموعة ألونسو القستلي ومجموعة أبي مدين الفاسي ومجموعة مؤلف مجهول، وقد عرّفت في مقدمة كل واحدة بصاحبها ومصدرها وسلكت في تحقيقها كلّها المنهج الذي سلكته في أمثال الزجالي. ويظهر من الأجزاء الثلاثة المذكورة آنها تشتمل على ما يقرب من ستة آلاف مثل مما قيل في الأندلس والمغرب خلال عشرة قرون.

وجعلت الجزء الرابع من هذا العمل مخصصا للكفيف الزرهوني وأزجاله، ويحتوي هذا الجزء على تعريف مطول بهذا الزجال الذي وُفّقت بحمد الله إلى الوقوف على بعض أزجاله وأشهرها الملعبة التي كان لها الحظ الأكبر في هذا الجزء، كما عثرت له على زجلين آخرين لا يقلان أهمية عن الملعبة، وقد ترجم أحدهما إلى اللغة الإسبانية في القرن السادس عشر الميلادي، بينما تُرْجِمَت الملعبة إلى اللغة الإسبانية بعد ظهور طبعتها العربية التي حققتها وقدمت لها بمقدمة اشتملت على ما أمكن الوصول إليه من أخبار صاحبها وعرضت مضمون ملعبته بشيء من الإطناب وذكرتُ ما يتعلق بالجانب الشكلي فيها، وحققت متنها وأغنيتها بالشروح والتعليقات اللازمة وعززتها بلواحق تخدم محورها التاريخي، وقد قمت بما يقرب من ذلك في الزجلين الثاني والثالث من أزجال الكفيف الزرهوني وبهما ينتهي الجزء الرابع.

أما الجزء الخامس فهو عبارة عن مختارات من الأزجال الأندلسية والمغربية من مختلف العصور، وقد راعيت في اختيار معظمها أن تكون مساوقة لموضوع الملعبة الذي يدور حول حدث تاريخي بارز هو وقائع السلطان أبي الحسن المريني في إفريقية وهكذا اخترت زجل الزلاقة لابن قزمان وزجل القيسي في حصار مدينة المرية وزجل ابن الخطيب

في عودة السلطان الغني بالله من ملجإه بالمغرب إلى ملكه في غرناطة وزجل الحربي لابن عبود في وصف معركة تادلة الفاصلة بين الوطاسيين والسعديين وزجل العزو لعبد العزيز المغراوي في موت المنصور السعدي وزجل السلوانية لمحمد بن الحسن السلاوي في هجوم الفرنسيين على مدينة سلا وزجل التطوانية للحاج إدريس السناني في استيلاء الإسبان على تطاون وزجل السعداني في دخول الفرنسيين إلى وجدة وزجل عبد الهادي بناني في مقاومة أهل الشاوية للاحتلال الفرنسي وأزجالا جزائرية وتونسية في المحور نفسه، وختمت بزجلين جفريين أحدهما للموقت الكبير والثاني منسوب لسيدي الحسن أوعلي. وقد أردت أن أراعي الترتيب التاريخي في عموم الأزجال كما راعيته في الأمثال فوجدت أن ذلك يبخس ملعبة الكفيف التي هي أكبر من سواها حجما وأكثر قيمة ووزنا ولا سيما بعد ضم زجلين آخرين إليها من نظم الكفيف نفسه ولهذا رأيت تقديم أزجال الكفيف وتخصيصها بجزء منفرد، ثم إني راعيت الترتيب في الأزجال الأخرى وقمت في الجملة بالتعريف بأصحابها وضبط متونها وشرح بعض ألفاظها مع الإشارة إلى عروضها وبحورها، كما أثبتت ترجمات إسبانية وفرنسية تساعد على فهمها. وقد جاء اختياري لهذه الأزجال في الواقع على هامش اشتغالي بالملعبة وكان الهدف هو وضع نواة لمختارات من مختلف العصور يُتوسّع فيها فيما بعد لكي تساعد الدّارسين على تتبع التطور الذي حصل في هذا النوع من تراثنا الشعبي، ومن المعروف أنه تراث غني جمع منه المرحرم الأستاذ الفاسي كما قال خمسة آلاف قصيدة وعرّف بتسع وثمانين وخمسمائة من شعراء الملحون. وإني لأعترف أن ما قمت به في مجال الأزجال المغربية ليس سوى إضافة صغيرة للأعمال الكبيرة التي قام بها المعنيون بهذا الموضوع ومنهم الأستاذ المرحوم محمد الفاسي والأخ الزميل الأستاذ عباس الجراري وغيرهما ؛ كما أني أرجو أن يكون هذا

العمل المتواضع في عمومه مساهمة في تجميع تراثنا الشعبي على اختلاف أنواعه وبداية لضبطه وتوثيقه ومقدمة لدراسته وتحليله ومحاولة في تاريخه. وقد بدا من هذه المحاولة أن لدينا تراثا كبيرا من الأمثال والأزجال وأن لهذا التراث تاريخا طويلا لا نكاد نجد له عند غيرنا مثيلا.

ولا بدّ لي في آخر هذا التقديم من التنبيه على ما ورد في بعض الأمثال من تصريح بما يتحرّج الناس من التصريح به كتسمية بعض أعضاء الإنسان وما يخرج منها بأسمائها فقد أبقيت عليها كما وردت في أصولها، ومثل هذا يوجد في عدد من المؤلفات المطبوعة، وفي تراثنا العربي على العموم، ومما يروى في هذا الموضوع أن ابن عباس رأى رجلا يتردد في ذكر السوأتين فأنشد:

إن تصدق الطير ننك لميسا. وقام إلى الصلاة يريه أن ذكر ذلك مما لا يحرج، وقد جرت عادة المؤلفين الذين يروّحون الأرواح بمستحسن المزاح أن يشفعوها بالاستغفار والدعاء سائلين من الله التجاوز والإغضاء، ومن هؤلاء الزجالي جامع أمثالنا الذي ختم أمثاله بهذا الدعاء.

«أسأل الله أن يتجاوز عني فيما اعتمدت، ويرزقني إغضاء منه وتغمّداً برحمته فيما أوردت، وهو سبحانه يعصم من الزلل، والخطإ في القول والعمل، اللهم إن مؤلفه لا رجاء له إلا في سعة مَنِّك، ودعَة أمنك، فاعف عنه واغفر له هفوه وعمده، وهزله وجدّه، وكل ما تعلم من هنة عنده، برحمتك يا أرحم الراحمين».

وقد لقي هذا العمل استقبالا حسنا وترحيبا كريما لدى معالي الأخ الوزير الشاعر السيد محمد الأشعري الذي حرص على أن يكون من منشورات وزارة الثقافة فله جزيل شكري وتقديري.

دخول الأمثال العربية
إلى بلاد المغرب
وأثرها في نشوء الأمثال المحلية



1- بدأ تدوين الأمثال العربية في القرن الأول الهجري ومن الرعيل الأول الذين تنسب إليهم كتب في الأمثال وأخبارها، عبيد بن شرية الجرهمي وعلاقة بن كُرْشُم (أو كرسم أو كريم) الكلابي، وصحار بن العياش (أو العباس) العبدي، وكتبهم مفقودة اليوم، ويبدو أن بعضها ظل معروفا حتى آخر القرن الرابع، والظاهر أنها كانت مدونات صغيرة، وفي مجموعات الأمثال، التي ألفت بعدها نقول منها.

وجاء بعد هؤلاء في القرن الثاني وأول الثالث طبقة من الرواة عنيت فيما بعد بجمع الأمثال وتدوينها، وهم : الشرقي بن القطامي، وأبو عمرو ابن العلاء، والمفضل بن محمد الضبي، ويونس بن حبيب، وأبو فيد مؤرج السدوسي، والنضر بن شميل، وأبو عمرو الشيباني، وأبو عبيدة، وأبو زيد الأوسي والأصمعي، ولم يصل إلينا من كتبهم في الأمثال إلا كتاب المفضل بن محمد الضبي وهو مطبوع [1] وكتاب أبي فيد مؤرج السدوسي وقد طبع مؤخرا في الرياض [2].

ثم كثر عدد الذين ألَّفوا في الأمثال خلال القرن الثالث فكان منهم : أبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو الحسن علي بن حازم اللحياني، وأبو عثمان سعدان بن المبارك الضرير، وأبو عبد الله محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي، وأبو محمد عبد الله بن محمد التوزي، وأبو يوسف بن السكيت، ومحمد بن حبيب، وأبو إسحاق إبراهيم بن سفيان الزيادي، وأبو عكرمة

1- طبع في مطبعة الجوائب سنة 1300.
2- طبع أخيرا في الرياض بتحقيق الدكتور أحمد محمد الضبيب وطبع أيضا بتحقيق الدكتور رمضان عبد التواب.



عامر بن إبراهيم الضبي، والجاحظ، وابن قتيبة، والمفضل بن سلمة وغيرهم.

وقد انتهى إلينا من آثارهم في الأمثال : كتاب أبي عبيد أشهر كتب الأمثال القديمة، وهو مطبوع ولكن طبعة الجوائب المعروفة لا تمثل أصوله المخطوطة[1]، وكتاب أبي عكرمة وما يزال مخطوطا[2]، ولا يحتوي إلا على مجموعة صغيرة من الأمثال أو ما يجري مجراها، وكتاب الفاخر للمفضل، ويشتمل على 521 مثلا أو ما يجري مجراه، وقد طبع مرتين.

وفي القرن الرابع ظهرت مجموعات كبرى في الأمثال، ومنها كتاب الزاهر لأبي محمد بن الأنباري، وقد نحا فيه منحى الفاخر للمفضل ابن سلمة، وما يزال مخطوطا، وكتاب حمزة الأصفهاني، وهو فيما جاء من الأمثال على قولهم : هو أفعل من كذا[3]، وكتاب جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري، ويشتمل على ما يقرب من ألفي مثل.

أما في القرن الخامس فنجد الواحدي[4] - علي بن أحمد المتوفى سنة 468هـ يؤلف في الأمثال «البسيط» و«الوسيط» و«الوجيز» وقد انتهى إلينا منها الوسيط في نسخة بخط مشرقي محفوظة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 102 ويبدو أنها النسخة الوحيدة المعروفة من هذا الكتاب، ويذكر الواحدي في ديباجة «الوسيط» أنه «ألّفه برسم المجلس السامي

1. ذكر المستشرق الألماني زلهايم أنه قام بتحقيقه وإعداده للطبع ولكنه لم يصدر، وقد حققه الأستاذ الصديق الدكتور عبد المجيد قطامش وأهدانيه مشكورا عندما طبع سنة 1980.
2. يوجد مخطوطا بدار الكتب المصرية وهو يشتمل على 111 مثلا أو ما يجري مجراه.
3. حققه الأستاذ عبد المجيد قطامش ونال به «الماجستير من كلية دار العلوم، وقد تفضل فأهدانا نسخة من النص مكتوبة على الآلة الكاتبة. وطبع أخيرا بدار المعارف بمصر.
4. أنظر ترجمة الواحدي في وفيات الأعيان 3 : 303 (تحقيق الدكتور إحسان عباس).



الأميني النجيبي الخطيري "وقد جعله في 29 بابا على حروف المعجم ويبدو أن الميداني الذي تلمَّذ للواحدي اعتمد على مؤلفاته المذكورة في الأمثال ولكنه لا يشير إليها على الإطلاق ولا نعرف سبب ذلك[1]. وفي هذا القرن أيضا ألف البيهقي كتابه، «غرر الأمثال» الذي ما يزال مخطوطا.

واستمر التأليف في الأمثال إلى أن وصل إلى صورته الكاملة في المستقصى للزمخشري ومجمع الأمثال للميداني الذي يحتوي على ستة آلاف ونيف من الأمثال رجع الميداني في جمعها إلى أكثر من خمسين كتابا من كتب الأمثال الذي دونها الأعلام السابقون مثل أبي عمرو بن العلاء والمفضل بن محمد وأبي فيد وأبي عبيدة وأبي زيد والأصمعي والمفضل بن سلمة وغيرهم.

وقد دخلت هذه الكتب وغيرها الأندلس في عصور مختلفة وعني الأندلسيون بروايتها ودراستها، وتسعفنا هنا كتب البرامج والطبقات الأندلسية في معرفة كتب الأمثال التي كانت مستعملة بالأندلس ورائجة فيها، كما تفيدنا أحيانا في تاريخ انتقال هذه الكتب من المشرق إلى الأندلس وتحديد تاريخ دخولها، ولعل أهم كتاب في هذا الباب هو فهرسة ابن خير الإشبيلي (ت 575هـ) الذي يعتبر أوفى مرجع يعتمد عليه في رصد حركة الكتب المروية بالأندلس وتتبع أسانيد روايتها المتصلة بمؤلفيها، وقد ذكر ابن خير في فهرسته طائفة من كتب الأمثال المقروءة بالأندلس في زمنه وقبله، ومنها :

1ـ مجمع الأمثال 1 : 4 وقد طبع الوسيط بتحقيق الدكتور عفيف عبد الرحمن.

- كتاب الأمثال لأبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري.

- كتاب الأمثال لعبد الملك بن قريب الأصمعي.

- كتاب الزاهر لابن الأنباري.

- كتاب أفعل من كذا لأبي علي البغدادي.

وكانت مما أدخله إلى الأندلس أبو علي البغدادي سنة 330 هـ[1].

- كتاب المجلة في الأمثال لأبي عبيدة معمر بن المثنى.

وهو مما أدخله إلى الأندلس أبو بكر بن العربي[2] من رحلته المشرقية التي عاد منها سنة 493هـ[3]. ولا نستغرب تأخر دخول كتاب أبي عبيدة إلى الأندلس حتى هذا التاريخ، فقد ذكر ابن بشكوال أن ابن العربي «قدم بلده إشبيلية بعلم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق»[4].

ومن كتب الأمثال التي كانت تدرس بالأندلس كتاب الأمثال للمفضل بن محمد الضبي[5].

---

1. فهرسة ابن خير : 340، 341، 353، 371 ط بيروت.
2. فهرسة ابن خير : 341.
3. انظر في رحلته : نفح الطيب 2، 232 ـ 250.
4. صلة ابن بشكوال 2 : 558.
5. فهرسة ابن خير : 384.



أما كتاب أبي عبيد في الأمثال فيبدو أنه دخل الأندلس أول مرة بواسطة وهب بن نافع الأسدي القرطبي (ت 273هـ) جاء في تاريخ العلماء لابن الفرضي «وذكر بعض الرواة أن وهب بن نافع أخذ كتب أبي عبيد، عن علي بن ثابت وأبي جعفر محمد بن وهب المسعري وهو أول من أدخلها الأندلس، وأول من أخذت عنه، ثم أدخلها الخشني بعده»[1]. والرواية الثانية تنسب الأولية إلى محمد بن عبد السلام الخشني (ت 286هـ) وكانت رحلته إلى المشرق قبل سنة 240هـ[2]، ويستفاد من فهرسة ابن خير[3] وبرنامج ابن أبي الربيع[4] أن رواية كتاب الأمثال لأبي عبيد انتشرت في الأندلس بطرق متعددة، ويلاحظ أنها كلها ترجع إلى واسطتين : الأولى عن طريق طاهر ابن عبد العزيز القرطبي (ت 405هـ) الذي سمع الكتاب بمكة من علي بن عبد العزيز كاتب أبي عبيد، ويوضح هذا ما جاء في تاريخ العلماء لابن الفرضي : «وسمع الناس من طاهر بن عبد العزيز كتب أبي عبيد والخشني باق»[5] أما الواسطة الثانية فكانت عن طريق أبي علي البغدادي المشهور بالقالي[6].

ونرى من تراجم الأندلسيين أنهم عنوا عناية خاصة برواية كتاب الأمثال لأبي عبيد، ويبدو أنهم آثروه على غيره من كتب الأمثال، وقرروه في مناهج الدراسة الأدبية، ومن هنا نجد الكتاب يذكر في كثير من تراجمهم.

1- تاريخ العلماء لابن الفرضي 2 : 160.
2- المصدر نفسه 2 : 16.
3- فهرسة ابن خير : 339 - 340.
4- برنامج ابن أبي الربيع : 269 في مجلة معهد المخطوطات العربية- المجلد الأول - الجزء الثاني - نوفمبر 1955.
5- تاريخ العلماء 1 : 243 وترجمة طاهر بن عبد العزيز في طبقات الزبيدي : 297 وجذوة المقتبس : 230 وبغية الملتمس : 313 وبغية الرعاة 2 : 19.
6- فهرسة ابن خير : 340.

ومن مظاهر حظوة الكتاب في الأندلس ذلك الاهتمام البالغ بخدمته، وهو اهتمام لم يظفر به الكتاب ـ فيما نحسب ـ حتى في المشرق نفسه وتتمثل خدمة الكتاب في صور مختلفة كالشرح والتعليق، والتجريد والتتميم، والاستخدام والتضمين، والترتيب والتبويب.

وأول من عنى من الأندلسيين بأمثال أبي عبيد هو أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الخشني القرطبي الذي رحل إلى المشرق قبل سنة 240هـ، ودخل البصرة ولقي بها أعلام مدرستها يومئذ كأبي حاتم سهل بن محمد السجستاني وأبي الفضل العباس بن الفرج الرياشي وأبي إسحاق إبراهيم بن سفيان الزيادي، وأخذ عنهم كثيرا من كتب اللغة براوية الأصمعي وغيره، ثم قفل إلى الأندلس حاملا معه كثيرا من أصول اللغة والشعر الجاهلي بالأسانيد[1].

وللخشني هذا تعليقات على كتاب الأمثال لأبي عبيد، وقد وصلت إلينا هذه التعليقات في حواشي نسخة مخطوطة من أمثال أبي عبيد توجد في مكتبة فيض الله بالآستانة ورقمها 1587[2].

وبعد الخشني جاء ابن عبد ربه (ت 327هـ) فأدرج أمثال أبي عبيد في

---

1. تاريخ العلماء 2 : 16 ـ 17 وترجمة الخشني أيضا في طبقات الزبيدي : 290 وجذوة المقتبس : 63 ـ 65 وبغية الملتمس : 92 ـ 94 والمغرب 2 ـ 54 وبغية الوعاة 1 : 127ـ 160.
2. منها صورة في معهد المخطوطات بالجامعة العربية تحت رقم 63 أدب.



كتاب الجوهرة في الأمثال من كتابه العقد الفريد[1]. وذلك بعد أن جردها من الأخبار والآداب المتصلة بها، وأضاف إليها طائفة من الأمثال التي لم ترد في كتاب أبي عبيد، وبعض الأمثال التي جرت على ألسنة العامة في الأمصار العربية، وفي هذا يقول: «ومن أمثال العرب مما روى أبو عبيد جردناها من الآداب التي أدخلها فيها أبو عبيد، إذ كنا أفردنا للآدب والمواعظ كتابا غير هذا، وضممنا إلى أمثلة العرب القديمة ما جرى على ألسنة العامة من الأمثال المستعملة، وفسرنا من ذلك ما احتاج إلى التفسير[2]».

وعمل ابن عبد ربه على هذا هو تجريد لأمثال أبي عبيد من جهة، وتكميل لها من جهة أخرى، وقد لاحظنا بالمقارنة بين أمثال أبي عبيد وبين أمثال العقد أن ابن عبد ربه تصرف في كتاب أبي عبيد بالتغيير البسيط وفي عناوين أبوابه الأصلية والفرعية كما اختصر أو حذف بعض هذه الأبواب، ونذكر من ذلك على سبيل المثال أن أبا عبيد يعنون أحد الأبواب بقوله: «أمثال الجماعات من الأقوام وأنبائهم وحالاتهم» ويعنونه ابن عبد ربه هكذا، «أمثال الجماعات وحالتهم من اجتماع الناس وتفرقهم[3]»، وقد ذهب ابن عبد ربه إلى تغليط أبي عبيد في فهم بعض الأمثال كما فعل عند إيراد المثل: «إن الجبان حتفه من فوقه»، وهو من قول عمرو ابن أمامة:

لقد وجدتُ الموت قبلَ ذوقه إنَّ الجبان حتفُه من فوقِهِ

1ـ العقد 3 : 81.
2ـ العقد 3 : 81.
3ـ المصدر نفسه 99.



فقد قال أبو عبيد في شرحه : «أحسبه أراد أن حذره وتوقيه ليس بدافع عنه المنية[1]». ويعقب ابن عبد ربه على هذا قائلا : «وهذا غلط من أبي عبيد عندي، والمعنى فيه أنه وصف نفسه بالجبن، وأنه وجد الموت قبل أن يذوقه، وهذا من الجبن، ثم قال : إن الجبان حتفه من فوقه. يريد أنه نظر إلى منيته كأنما تحوم على رأسه، كما قال الله تبارك وتعالى في المنافقين إذ وصفهم بالجبن، «يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو» وكما قال جرير للأخطل يعيره إيقاع قيس بهم :

حملتْ عليكَ رجالُ قيس خيلَهَا　　شُعْثًا عوابسَ تحمل الأبطالاَ

ما زلتَ تحسبُ كلّ شيء بعدَهمْ　　خيلا تكُـرّ عليكُم ورجالاَ

ولو كان الأمر كما ذهب إليه أبو عبيد ما كان معناه يدخل في هذا الباب لأنه باب الجبان وما يذم من أخلاقه، وليس أخذ الحذر من الجبن في شيء لأن أخذ الحذر محمود، وقد أمر الله تعالى به فقال : «خذوا حذركم» والجبن مذموم من كل وجه»[2].

وفي النصف الأول من القرن الرابع كذلك ألف برية بن أبي اليسر الشيباني الرياضي كتابا في الأمثال سماه «تلقيح العقول» وهو في الأمثال السائرة والأبيات النادرة وقد قدمه إلى المعز العبيدي إذ كان في

1ـ المصدر نفسه : 131 وفصل المقال، 347.
2ـ العقد 132ـ131، ويلاحظ أن البكري لم يشر عند شرح المثال إلى تعقيب ابن عبد ربه.



خدمته بإفريقية كما كان والده، ويقدر أن وفاته كانت سنة 341هـ. وهذا الكتاب مرتب حسب الأغراض والمعاني ويشتمل على مائة وسبعة وخمسين بابا وتوجد منه نسخ خطية[1].

وفي القرن الخامس الهجري قام أبو عبيد البكري (ت 487هـ) بشرح أمثال أبي عبيد شرحا ضافيا أسماه «فصل المقال، في شرح كتاب الأمثال». وهو يقول في مقدمته : أما بعد، فإني تصفحت كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام، فرأيته قد أغفل تفسير كثير من تلك الأمثال فجاء بها مهملة، وأعرض أيضا عن ذكر كثير من أخبارها فأوردها مرسلة، فذكرت من تلك المعاني ما أشكل، ووصلت من تلك الأمثال بأخبارها ما فصل، وبينت ما أهمل. ونبهت على ما ربما أجمل، إلى أبيات كثيرة غير منسوبة نسبتها، وأمثال جمة غير مذكورة ذكرتها، وألفاظ عدة من الغريب فسرتها[2]».

والبكري في هذا الكتاب وفي غيره نموذج رفيع للشخصية العلمية الأندلسية التي تعتز بنفسها وتباهي بعلمها، وقد ألف كتابه في عصر تعددت فيه كتب الأمثال والأخبار، وكثرت دواوين الأدب واللغة، ووقع إليه كثير من أصولها، فتيسر له أن ينهض بشرح أمثال أبي عبيد على ذلك النحو من التقصي والاستيعاب، وقد سار البكري في شرحه على منهجه الذي قدره، يفسر المشكل، ويفصل المجمل، وينبه على أوهام أبي

---

1. أنظر مقالة محمد حسين الأعرجي في مجلة العرب ج 1، 2 س 34 وقال إنه فرغ من تحقيقه ويرجو نشره وأخبرني صديقي الدكتور محمود علي مكي أن بنته تشتغل بتحقيقه ودراسته لنيل الدكتوراه من جامعة مدريد. وانظر في أبي اليسر نفح الطيب 3 : 134- 135.
2. فصل المقال : 3.

عبيد كما نبه على أوهام أبي علي القالي في الأمالي، وأوهام غيرهما في معجم ما استعجم، والمواضع التي ذهب فيها البكري إلى نقد أبي عبيد أو مخالفته كثيرة في الكتاب، ومنها على سبيل المثال أن أبا عبيد فسر الدخن في الحديث المتمثل به «هدنة على دخن»، بأنه من الدخان وأنه على سبيل المثل والاستعارة، فخالفه البكري قائلا: «الدخن ليس في معنى الدخان كما قال أبو عبيد، وإنما الدخن فساد في القلب عن باقي عداوة، وبهذا فسر حديث النبي صلى الله عليه وسلم، ولا مدخل هنا لاستعارة الدخان[1]»، ويشرح أبو عبيد المثل: «سوء الاستمساك خير من حسن الصرعة" بقوله: «لأن يزل الإنسان وهو عامل بوجه العمل، وطريق الإحسان والصواب، خير من أن تأتيه الإصابة وهو عامل بالإساءة والخرق» فيقول البكري: «تفسير أبي عبيد لا يقتضيه لفظ المثل ولا يصح عليه لأن الذي يعمل بوجه من العمل وطريق الاستحسان ليس سيء الاستمساك، كما أن العامل بالإساءة والخرق ليس بحسن الصرعة[2]» ثم ينقل ما رواه أبو علي القالي وغيره في معنى المثل. وهو يحتد في نقده أحيانا، ومثال ذلك أن أبا عبيد فسر المثل، «عند فلان من المال عائرة عين» بقوله: «ومعناه أنه من كثرته يملأ العين حتى يكاد يعورها أي يفقأها» فقال البكري: «عبارة أبي عبيد في تفسير هذا المثل فاسدة. قبح الله كل مال يكاد يفقأ العين حين النظر[3]» وحين ينقل أبو عبيد عن بعضهم أن البيت التالي:

فتى كان يُدنيه الغنى من صديقه   إذا هو ما استَغْنَى ويُبعده الفَقر

---

1. فصل المقال: 9. 8.
2. فصل المقال: 197. 198.
3. المصدر السابق: 227.

لعثمان بن عفان، يقول البكري مستغربا : «كيف جهل أبو عبيد أن هذا البيت من شعر الأبيرد اليربوعي، وهو أشهر في الناس من أن يجهله أحد، فكيف يجهله أحد الجلة من العلماء بفنون العلم[1]».

ولا يتسع المجال هنا لتتبع نقد البكري في هذا الكتاب[2]، وحسبنا ما ذكرناه مثالا ودليلا على مشاركة الأندلسيين في هذا اللون من تراث العربية. ويقول الدكتور عبد العزيز الأهواني إن البكري التزم في هذا الكتاب* كما التزم في شروحه الأخرى ألا يلتفت لبلده الأندلس، ولا يستطرد إلى ذكر شيء من أمثالها أو ما يتصل بها[3]» وربما كان هذا فيما نرى راجعا إلى طبيعة هذه الشروح «الكلاسيكية» وإلا فقد وجدناه فيما بقي من كتابه المسالك والممالك يذكر بعض أمثال المغرب وإفريقية كما سنرى فيما بعد.

وممن شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد من الأندلسيين أيضا أبو بكر محمد بن أغلب بن أبي الدوس المرسي (ت 512هـ) أحد المؤدبين المعروفين في عصر الطوائف، تجول كثيرا في جهات الأندلس والمغرب يعلم ويقرئ، وهو الذي أدب ولدي المعتمد بن عباد، يزيد الملقب بالراضي وأخاه الفتح الملقب بالمامون. وكان له اختصاص كبير بالنحوي اللغوي الأندلسي أبي الحجاج يوسف بن سليمان المشهور بالأعلم الشنتمري، ويعتبر ابن أبي الدوس أنبغ تلاميذه[4].

1ـ المصدر السابق : 235.
2ـ انظر صفحات 65، 71، 79، 81، 115، 149، 269، 270 من فصل المقال.
3ـ أمثال العامة في الأندلس، 242 (في كتاب، إلى طه حسين).
4ـ ترجمة ابن أبي الدوس في التكملة 1 : 412 والذيل والتكملة 6 : 133 وبغية الوعاة 2 : 75 ومطمح الأندلس : 64 ـ 63.

أما شرحه فيقول فيه ابن الأبار : «وألف في شرح الأمثال لأبي عبيد ما أفاد به[1]» ويقول ابن عبد الملك : «وله في شرح أمثال أبي عبيد كتاب مفيد[2]» ولا نعرف اليوم شيئا عن هذا الشرح، ويبدو أن ابن أبي الدوس ألفه تلبية لرغبة المتأدبين به، ولعله نهج فيه نهج أستاذه الأعلم الشنتمري في شروحه المعروفة، ولا شك أنه اطلع على شرح البكري وأفاد منه، وقد يكون أضاف إليه بعض ما وجد لديه.

ثم جاء الشيخ الشهيد أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي[3] (ت 634هـ) فألف كتابه «نكتة الأمثال، ونفثة السحر الحلال» وأبو الربيع الكلاعي هذا كان محور الحركة العلمية في شرق الأندلس خلال الثلث الأول من القرن السابع الهجري، وقد تخرج به عدد من العلماء والكتاب الأعلام في القرن السابع كابن الأبار وابن عميرة المخزومي وأبي الحسن الرعيني، يقول ابن عبد الملك : «وكان بقية الأكابر من أهل العلم بصقع الأندلس الشرقي، حافظا للحديث مبرزا في نقده، تام المعرفة بطرقه، ضابطا لأحكام أسانيده، ذاكرا لرجاله وتواريخهم وطبقاتهم، ريان من الأدب، كاتبا بليغا شاعرا مجيدا خطيبا مصقعا، خطب بجامع بلنسية في أوقات واستقضي وعرف بالفضل والعدالة في أحواله جمع، ورحل الناس إليه متنافسين في الأخذ عنه، وله مصنفات في الحديث والسير والآداب تدل على رسوخ قدمه في المعارف، وبراعته فيما تولاه منها

1ـ التكملة 1 : 412.
2ـ الذيل والتكملة 6 : 134.
3ـ ترجمة الكلاعي ومصادرها في الذيل والتكملة 4 : 95 ـ 83.

جودة انتقاء وإجادة إنشاء[1]» ثم ذكر أسماء هذه المصنفات ومنها «نكتة الأمثال، ونفثة السحر الحلال»، ووصفه بقوله : «بني فيه الكلام على التوشيح بما تضمنه كتاب أبي عبيد من أمثال العرب واضطرار الكلام إليها، في مجلد لطيف[2]».

وإذا كان عمل الخشني والبكري وابن أبي الدوس قد انصب على الجوانب اللغوية والإخبارية والأدبية من كتاب أبي عبيد فإن عمل الكلاعي يختلف عن ذلك وينحو منحى آخر، لقد كان هذا الشيخ معلما ومربيا بالقول والقدوة. ولذلك عمد إلى بعض الآثار الأدبية المشرقية كخطبة الفصيح، وملقى السبيل للمعري، والمبهج للثعالبي، فعارضها على نحو يجمع بين الأدب والدين بل يجعل الأدب في خدمة الدين والأخلاق، وكان الكلاعي خطيبا واعظا ولهذا غلب الاتجاه الخطابي الوعظي فيما وصل إلينا من إنشائه الأدبي ككتاب «جهد النصيح وحظ المنيح، من معارضة المعري في خطبة الفصيح» وكتاب «نكتة الأمثال، ونفثة السحر الحلال» وينبغي أن نربط بين نزعة الحماسة الدينية البارزة في أعماله الأدبية وبين روح الجهاد التي كانت تستدعيها طبيعة الحياة في بلنسية يومئذ. والتي كان يحاول إثارتها في نفوس الناس بأساليب القول والعمل، وقد ضرب في ذلك أروع الأمثلة حين استشهد مقبلا غير مدبر وهو يقود جماعات المسلمين في وقيعة أنيشة سنة 634هـ يقول ابن عبد الملك، «وكان رحمه الله من أولي الحزم والجرأة والبسالة والإقدام والجزالة وثبات الجأش

1ـ الذيل والتكملة 4 : 85.

2ـ الذيل والتكملة 4 : 86 وقد أنجزت الدكتورة ثريا لهي بإشرافي دراسة حول أبي الربيع الكلاعي ثم حققت ودرست بإشرافي أيضا جهد النصيح له والعملان منشوران.



والشهامة ويمن النقيبة، يحضر الغزوات، ويباشر بنفسه القتال، ويبلي فيه البلاء الحسن، وآخرها الغزاة التي استشهد فيها بالكائنة على المسلمين بظاهر أنيشة عمل بلنسية على نحو سبعة أميال منها، حضرها وحرض المسلمين، وقد اختلوا، على قتال عدوهم ورغَّبهم في مكافحته، ولم يزل متقدما أمام الصفوف زاحفا إلى الكفار مقبلا على العدو غير مدبر ينادي المنهزمين: أعن الجنة تفرون؟ حتى قتل صابرا محتسبا[1]».

بنى أبو الربيع كتابه «نكتة الأمثال» على كتاب أبي عبيد وسار فيه محاذيا أبوابه، ومضمنا أمثاله، خلال فقر من إنشائه تلتزم السجع من حيث الشكل، وتتوخى العظة والنصح من حيث الموضوع، وتقع أمثال أبي عبيد من كلامه موقعها الذي يوضح مضربها ويبين مغزاها، وقد شرح أبو الربيع منهجه في مقدمة الكتاب فقال: "هذا كتاب قصدت فيه قصد التذكرة المتلوة بلسان الحقيقة، المجلوة على منصة البيان في أجمل المناظر البديعة وأبهى الصور الأنيقة، مكللة المقاطع والأجزاء بما يجل عن المثال، من لآلىء الأمثال، متخللة الأثناء بما تضمنه منها كتاب أبي عبيد الساري مسرى الخيال، في الآفاق والأجيال، ويشتمل على كثير من مكارم الأخلاق أحسن الاشتمال، ويحمل على الجد والاعتدال، في مرضاة ذي الإكرام والجلال، ويدعو إلى خدمة العليم الخلاق بصالحات الأعمال، والتجرد من أخلاق هذه الدار التي مالها من خلاق ولا فيها لموثر زينة من جمال»[2]. ونرى من هذا النموذج أنه يسلك سبيل السجع الطويل المرصع أي ما يعرف عند المحدثين باسم السجع الداخلي.

1ـ المصدر السابق 4: 89.

2ـ نكتة الأمثال: 3 مصورة دار الكتب المصرية، 18189 ز.

وبعد أن يسأل الإغضاء عما قد يدل عليه اسم الكتاب «نكتة الأمثال ونفثة السحر الحلال» من اعتزاز به وإعجاب يقول :«وسترى يا من قيد شوارد العلم بأوثق قيد، وكان على ذكر من كتاب أبي عبيد، أني مشيت على نسق اتصاله مشي المعد لسهم النقد، واستوفيت متفرقات أمثاله استيفاء الناظم للآلىء العقد، إلا أن تدعو ضرورة حسن التنظيم، إلى بعض التأخير والتقديم، فأصير إلى ما تقتضيه، وأعمل على شاكلة ما تنفذه وتمضيه، وقد وضعت لك في عرض الكتاب، ما اشتمل عليه تأليف أبي عبيد من جوامع الأبواب، ليسهل عليك أن تقف على حقيقة دعواي، وتعرف صحة منتسبي إلى الصدق ومنتماي، وربما تصرفت في بعضها تصرف المدل، وتخللت كلمها أو تعقبتها بزيادة ألفاظ بها نهض الكلام منهض المستقل، وذلك ضروري في الاستعمال، وبين لحافظي الأمثال، ثم إن التفرقة بين هذه الأمثال وبين سائر الكلام، مبينة في هذا الاعتمال من الكمال والتمام، وذلك مصروف إلى ما يتيسر على الناقلين من المغايرة بالأمدّة أو الأقلام، أو بغير ذلك من الوجوه التي يحصل بها للأفهام، مبتغى الإفهام وملتمس الإعلام[1]».

وهذا منهج واضح لا يحتاج إلى زيادة تفسير أو تبيين، وقد لاحظنا أن ناسخ النسخة التي انتهت إلينا من هذا الكتاب لم يبرز أمثال أبي عبيد الواقعة خلال كلام الكلاعي بمداد مغاير أو قلم مخالف كما رغب المؤلف، ولا يتسع المجال في هذا العرض التاريخي للأمثال الفصحى في الأندلس لدراسة كتاب «نكتة الأمثال» دراسة مفصلة، وسنكتفي

1- نكتة الأمثال : 3.

بإيراد نموذج منه يمثل أسلوبه وطريقة تضمينه للأمثال، يقول الكلاعي : «أيها الفليل المنكسر، والذليل المتسأسر، حل جنبات الطاعة فإن البغاث بأرضها يستنسر، وإذا ولجت بابها، وحللت جنابها، وعلقت موفقا أسبابها، فألق عصا تسيارك مخيما، وأبشر بمقتضى اختيارك محكما ومحتكما، تمرد مارد وعز الأبلق، ولم يبق لخفية إليك متسلق، إلا خفية من الأحرار له عبيد، والشهد لمن خالفه هبيد، فاستشعر من هذه الجهة وحدها شعار العبودية والخوف، فإنه لا حر بوادي عوف[1]». وقد ضمن هذه الفقرة ثلاثة أمثال يحتوي عليها «باب الرجل العزيز المنيع الذي يعز به الذليل» من الباب الأصلي الثالث في كتاب أبي عبيد وهي حسب ترتيبها فيه :

إن البُغاث بأرضنا يَستنسِر

لا حُرَّ بوادي عَوْف

تَمَرَّدَ ماردٌ وعزَّ الأبلق[2].

1. نكتة الأمثال : 16.
2. فصل المقال : 119 ـ 115.

وقد اضطر فيها كما نرى إلى بعض التقديم والتأخير كما تصرف في بعضها بشيء من التغيير.

ومجمل القول في نكتة الأمثال أنه عمل أدبي يهدف إلى ناحيتين :

إحداهما تعليمية قصد بها تربية الملكة الأدبية لدى المتأدبين بواسطة مثال إنشائي يمكن النسج على منواله، وتفهم الأمثال من خلاله، والثانية تربوية تخاطب الوجدان الديني وتحث على مكارم الأخلاق.

وآخر من عني من الأندلسيين المغاربة بأمثال أبي عبيد - فيما نعرف - النحوي اللغوي الأديب أبو الحكم مالك بن المرحل المالقي (ت699هـ)[1] عرف بمنظومته التعليمية التي نظم فيها كتاب الفصيح لثعلب وكتاب غريب القرآن لابن عزيز وغيرهما، ولعل نزعته التعليمية هي التي دفعته إلى أن يرتب أمثال أبي عبيد على حروف المعجم[2] تقريبا للمتأدبين وتسهيلا على الدارسين، ومن المعلوم أن أباعبيد رتب أمثاله حسب الموضوعات[3].

1ـ له ترجمة في بغية الوعاة 2 : 271 و جذوة الاقتباس : 223.

2ـ جذوة الاقتباس : 223، وأمثال أبي عبيد التي طبعت في مطبعة الجوائب سنة 1302، مرتبة على الحروف، ولعلها هذه التي رتبها ابن المرحل.

3ـ خص المستشرق الألماني الأستاذ زلهايم كتاب الأمثال لأبي عبيد وشرحه للبكري بفصلين كبيرين من كتابه : الأمثال العربية القديمة، وكنت وقفت عليه بالألمانية في أثناء إعداد هذه الرسالة ثم ظهرت ترجمته العربية للدكتور رمضان عبد التواب في خلال الطبعة الأولى لهذا العمل، ومعظم ما ذكرته هنا في تقديمي الموجز لأمثال أبي عبيد في الأندلس لا يوجد في الكتاب المذكور.



ومن كتب الأمثال العربية التي لقيت رواجا في الأندلس كتاب الزاهر في الأمثال لأبي بكر محمد بن الأنباري (ت 328هـ) فقد جلبه أبو علي القالي إلى الأندلس سنة 330هـ رواية له عن مؤلفه فرواه الأندلسيون عنه[1]، وروى الكتاب في الأندلس أيضا عن أبي عمر بن عبد البر عن أبي الفتح ابراهيم بن علي الكاتب الفارسي عن ابن الأنباري[2]، كما جلب الفقيه القرطبي أبو عبد الله محمد بن عمر المعروف بابن الفخار[3] (ت419 هـ) كتاب اختصار الزاهر في الأمثال لأبي القاسم الزجاجي[4]، والكتابان كلاهما مخطوطان، وقد ذكر أحد المعنيين بتحقيق التراث أنه ينوي نشرهما[5].

وبعد فترة من دخول الزاهر واختصاره المشرقي إلى الأندلس تناوله أبو الوليد الباجي الفقيه الأندلسي المعروف (ت 473هـ) وهذبه في كتاب دعاه تهذيب الزاهر[6]، وقام عالم قرطبي بوضع اختصار آخر له[7]، وهو أبو بكر خطاب بن يوسف الماردي القرطبي (ت بعد 540هـ). وفيه يقول ابن عبد الملك : «كان من جلة النحاة ومحققيهم والمتقدمين في المعرفة بعلوم اللسان على الإطلاق[8]» وله مؤلفات في النحو منها كتاب التوشيح[9] الذي يرد ذكره كثيرا عند أبي حيان وابن هشام، ولا نعرف شيئاعن تهذيب الزاهر للباجي ولا عن اختصار الزاهر لأبي بكر خطاب بن يوسف.

---

1. فهرسة ابن خير : 341.
2. المصدر نفسه.
3. له ترجمة في صلة ابن بشكوال 2 : 484- 483.
4. فهرسة ابن خير : 341-342.
5. مقدمة الفاخر : تحقيق عبد العليم الطحاوي.
6. ترتيب المدارك 3 ـ 4 : 807 (ط. بيروت).
7. فهرسة ابن خير : 342.
8. بغية الوعاة 2 : 353 وترجمته أيضا في التكملة 1 : 291.
9. فهرسة ابن خير : 319.



ويبدو أن الأندلسيين لم يعرفوا كتاب الفاخر للمفضل بن سلمة، وهو أصل الزاهر لابن الأنباري، ولعلهم اكتفوا بالزاهر لأنه أكثر بسطا وتفصيلا.

وهناك نوع آخر من كتب الأمثال روى بالأندلس وأسهم فيه الأندلسيون، ونعني به الأمثال المستخرجة من القرآن والحديث والأمثال الكتابية، وكانت منبعا من منابع الأمثال التي جرت على ألسنة الناس، فمن كتب الأمثال المستخرجة من القرآن :

- كتاب الأمثال الكامنة في القرآن، استخراج الحسن بن الفضل[1].
- كتاب الأمثال الكامنة في القرآن، لأبي محمد الحسن بن عبد الرحمن بن إسحاق القضاعي[2].

ومما روي بالأندلس من كتب أمثال الحديث :

- كتاب أمثال الحديث المروية عن رسول الله، تأليف القاضي أبي محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي[3].
- كتاب الأمثال السائرة التي رويت عن النبي وغيره، تأليف أبي عروبة الحسين بن محمد ابن مودود الحراني[4].

---

1. فهرسة ابن خير : 75.
2. المصدر نفسه.
3. المصدر نفسه، 186، وبرنامج الرعيني : 46.
4. فهرسة ابن خير : 176.





• كتاب الحكم والأمثال المروية عن رسول الله، تصنيف أبي أحمد العسكري[1].

• كتاب الشهاب، في الآداب والأمثال والمواعظ والحكم المروية عن رسول الله، تأليف أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي[2].

وألف من الأندلسيين في هذا الباب أبو الحسن عقيل بن محمد الباجي كتابا سماه «الأمثال الكامنة في القرآن[3]» كما كانت لهم عناية بقراءة كتاب الشهاب للقضاعي وشروحه.

ولم يقتصر عمل الأندلسيين - في ميدان الأمثال الفصحى - على شرح المدونات القديمة منها أو اختصارها، وإنما عنوا بالتأليف فيها أيضا فمن ذلك :

• كتاب حلية الكاتب، وبغية الطالب، في الأمثال السائرة، والأشعار النادرة لأبي عامر محمد بن أحمد بن عامر السالمي (ت 559هـ)[4].

• كتاب في الأمثال لأبي القاسم محمد بن ابراهيم بن خيرة المعروف بابن المواعيني (ت 570هـ)[5].

ولم يصل إلينا هذان الكتابان حتى نعرف طبيعة الأمثال فيهما، ولعلهما جمعا بين الأمثال القديمة والأمثال المولدة.

---

1. المصدر نفسه : 202.
2. المصدر نفسه : 185 - 182.
3. الذيل والتكملة 5 : 150 وترجمته أيضا في التكملة (رقم 1945) وصلة الصلة : 159- 160.
4. الذيل والتكملة 6 : وترجمة السالمي أيضا في التكملة 2 : 495.
5. التكملة 2 : 515 والذيل والتكملة 6 : 33.



واتجه بعضهم إلى نظم الأمثال كأبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري الكاتب الذي كان من وزراء الدولة العامرية، فقد نظم قصيدة طويلة كتب بها إلى بنيه وأولها :

ألوى بعزم تجلُّدي وتصبُّري نأيُ الأحبّةِ واعتيادُ تذكُّري

وهي قصيدة في الحكم والوصايا والأمثال، ومنها أبيات في جذوة المقتبس للحميدي ويتيمة الدهر للثعالبي وقد أصبحت من الأدب التعليمي، وعني بشرحها أبو الأصبغ ابن كراديس الذي كان حيّاً بعد الأربعين وأربعمائة[1].

ومنهم أبو عثمان سعيد بن ليون التجيبي[2] (ت 750هـ) ذكر المقري أنه كان «من أكابر الأئمة الذين أفرغوا جهدهم في الزهد والعلم والنصح» وقد عرف بطريقته التعليمية التي تتمثل في اختصار الكتب المطولة، ونظم الأمثال والحكم، بأسلوب سهل يقرب معناها ويوضح مغزاها، ومن مؤلفاته في نظم الأمثال والحكم :

- كتاب أنداء الديم، في الوصايا والمواعظ والحكم.
- كتاب الأبيات المهذبة، في المعاني المقربة.
- كتاب نصائح الأحباب، وصحائح الآداب.

1. الجذوة : 861 واليتيمة 1 : 437 وفهرست ابن خير، 410 والذيل والتكملة 5 : 500 وقد حققها ونشرها أخيراً الأستاذ هلال ناجي.
2. له ترجمة في الكتيبة الكامنة : 86 ـ 87 نيل الابتهاج : 123 ـ 124 ونفح الطيب 8 : 57 ـ 115.

ولقد لخصها المقري في نفح الطيب، وجمع ما فيها من نظم صاحبها، وموضوعها واحد وإن اختلفت عناوينها، وهو صوغ الأمثال والحكم في نظم تعليمي بحيث يسهل حفظها ويعم نفعها، ومعظم الأمثال التي اشتملت عليها هذه المجموعات الثلاث هي من قبيل الأمثال التي تلخص تجربة أو تمثل اتجاها معينا في آداب السلوك، وقد سلك ابن ليون في اختيارها مسلك من يبتغي وعظ الناس وإسداء النصح لهم، ولم يحترم نصوص الأمثال، فقد دعته ضرورة النظم والحرص على إيضاح المعنى إلى التصرف في ألفاظها وتراكيبها، وهي تنتظم طائفة من الأمثال الفصيحة والمولدة والعامية التي لها صلة بالأخلاق والسلوك[1]، فمن النوع الأول قوله :

هُنْ إذا عزّ أخوكا وَاخْشَ أن يقرض فيكا

إنَّ من عاند أقْوى منهُ قد ضلَّ سلوكا

نقصُ عقلٍ أن تعادي بشراً لا يتّقيكا[2]

فقد نظم هنا المثل القديم المعروف : إذا عز أخوك فهن[3]... ومن النوع الثاني قوله :

1ـ تحسن الإشارة هنا إلى أن هذا الضرب من النظم التعليمي في أمثال الأخلاق والسلوك ـ وهو عريق في التراث العربي ـ كان له صداه في التراث الإسباني والأوروبي على العموم ـ وأشير على سبيل المثال إلى PROVERBIOS MORALES التي ألفها SANTOB DE CARRION حوالي منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، وإلى LIBRO DE LOS PROVERBIOS MORALES DE ALONSO DE BARROS التي ظهرت أولى طبعاتها سنة 1598م.

2ـ نفح الطيب 8 : 96.

3ـ المثل وتخريجه في جمهرة الأمثال 1 : 65.

العَزْلُ يَضحكُ ذلُّهُ   مِن تيه سُلطَان الولايه

فإذا وليت فسرْ على   نهج الدّماثة والرّعايه

واقْصِد مداراة الورى   واحذر كيودَ ذوي السعايه[1]

وهذا نظم للمثل المولد : ذل العزل يضحك من تيه الولاية[2].

وقد وجدناه ينظم عددا من الأمثال العامية التي كانت سائرة على ألسنة الناس في الأندلس والمغرب وغيرهما كقوله :

تبديلُ شخص بشخص   خُسرانُ الاثنين جُملهْ

فاشدُدْ يديك على مَن   عَرفتَ وارفَعْ محلهْ

فإنّ قطعَ خليلٍ   بعد التواصل زَلَّهْ[3]

فقد نظم هنا مثلاً عاميا أندلسيا ما يزال مسموعا إلى اليوم، وصيغته عند الزجالي : من باع لحي بلحي، خسرهم جميعا[4]، ورواه ابن عاصم بلفظ : من بدل لحية بأخرى، خسر الاثنين[5]، وهذه الصيغة الأخيرة هي التي نظم ابن ليون لأنها هي التي كانت مسموعة في عصره وهو عصر

1ـ نفح الطيب 8 : 102.
2ـ مجمع الأمثال 1 : 286.
3ـ نفح الطيب 8 : 65.
4ـ المثل رقم 1397 في النص.
5 ـ المثل رقم 696 في مجموعة ابن عاصم.

غرناطة، وقد جرد المثل من حليته البيانية لأنه يقصد إلى التعليم وهو يقتضي الإيضاح ومن ذلك قوله :

مَن عامل الناس بالإنصاف شاركَهُم   في مالهم وأحبُّوه بلا سببِ
إنصافكَ الناسَ عدلٌ لا تزالُ به   تَعلُو إلى أنْ تُرى في أرفع الرُّتَبِ[1]

وهو نظم لمثل عامي أندلسي ما يزال يتمثل به : أنصف الناس وشاركهم في أموالهم[2].

وقوله :

لايكنْ عندكَ الخديمُ نديما   إنَّ قدْرَ الخدَيم دونَ النَّديمِ
مَنْ يُنَادمْ خَديمَه يَتَأذى   ويَصيرِ الخَديمُ غَيرَ خَديمِ
إنَّما يُصْلحُ الخديمَ ابتعادٌ   واشتغالٌ بشأنِه المعلومِ[3]

ومداره على مثل عامي كان شائعا في الأندلس وما يزال مسموعا في المغرب وهو : الخديم، لا يكون نديم[4]... وقوله :

لا تقُلْ يوماً أنا   فتُقاسي مِحَنا
مَن يُعظّم نفسَه   يَلْقَ هونا وعَنا
شرٌّ ما يأتي الفتى   مدحُهُ لوْ فطِنا[5]

---

1. نفح الطيب 8 : 93.
2. المثل رقم 452 في النص.
3. نفح الطيب 8 : 107.
4. المثل رقم 109 في النص، وقد ورد أيضا في مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين ص 203.
5. نفح الطيب 8 : 91.



وهو شرح للمثل : من قال أنا، وقع فالعنا[1].

وقوله :

قَبِّل يداً تعجزُ عن قطعها ولنْ لمَن تخشى من أضْراره[2]

وهو توضيح للمثل، يدان لا تقدر تقطعها قبلها[3]. ولا يتسع المجال هنا لتتبع الأمثال العامية في نظم ابن ليون، وحسبنا ما ذكرناه نموذجا منها[4].

وثمة أيضا ضرب منِ الأمثال يعرف بالأمثال المخترعة أو المبتكرة، ألف فيه الأندلسيون على غرار ما صنع بعض الكتاب في المشرق كالثعالبي والميكالي وغيرهما، وهو لون من الأمثال كان الكتاب يستخرجونه من بنات أفكارهم، ويصوغونه في فقر مسجوعة، مضاهاة للأمثال المروية السائرة، وكان يدرج في كتب الأمثال وإن لم يظفر بالسيرورة التي هي طابع المثل ومحكه الصادق، وقد أورد الثعالبي طائفة من هذا اللون في التمثيل والمحاضرة.

1ـ المثل رقم 1279 في النص.

2ـ نفح الطيب 8 : 86.

3ـ المثل رقم 2139 في النص.

4ـ تنبهت خلال إعداد رسالتي هذه (1966 ـ 1969) إلى أصداء الأمثال الفصيحة والعامية في «منظومات» ابن ليون التجيبي، وذكرت منها ماله صلة بأمثال الزجالي في القسم الثاني من هذه الرسالة، وقد جنحت هنا ـ بحكم طبيعة العرض وحجم الرسالة ـ إلى الاختصار على أمل التوسع في هذا الموضوع وغيره في دراسات مستقلة، وفي خلال مراجعة تجارب الطبعة الأولى لهذا القسم الأول الذي تأخر كثيرا في المطبعة أهداني ـ مشكورا ـ الأستاذ الكبير إميليو غرسية غومس دراسة له عنوانها : Los proverbios rimados de Ben Luyun de Almeria وهي منشورة في العدد الأخير من مجلة الأندلس.



وممن ألف فيه من الأندلسيين : أبو الفضل جعفر بن عبد الله بن شرف البرجي، وأبو الربيع الكلاعي، وأبو عبد الله بن الأبار. فأما ابن شرف[1] فقد عرف باتجاهه إلى معارضة كتب الأمثال والحكمة، ومن أوضاعه في هذا المنحى، كتاب الزمان، عارض به كتاب : كليلة ودمنة، وكتاب عقيل وعليم[2]. ونعته صاحب القلائد بالأديب الحكيم، وذكر أن له «تصانيف في الحكم ألف منها ما ألف، وتقدم فيها وما تخلف، فمنها كتابه المسمى بسر البر، ورجزه الملقب بنجح النصح وسواها[3]» ويبدو من نماذج حكمه أو أمثاله المخترعة أنها مبنية على أمثال كانت شائعة بين العامة في الأندلس، ومن ذلك قوله :

«لتكن بقليلِك، آغبط منك بكثير غيرك، فإن الحي برجليه وهما اثنتان، أقوى من الميت على أقدام الحملة وهي ثمان[4]».

فهو مبني فيما نرى على مثل كان معروفا عندهم وهو :

رجل الحي فاست الميت[5].

(Al Andalus ،1972) Vol XXXVII, FASC .1 .

وهذا البحث فصل من دراسة له تنشر تباعا بالمجلة المذكورة تحت عنوان :

Hacia Un «Refranero» Arabigo Andalus

وقد أخبرني الأستاذ الكبير أن عملي في أمثال الزجالي كان عظيم الفائدة له وهو يشير إليه في بحثه المذكور. ولعل عملي هو الذي دفعه إلى دراسة الأمثال في الأندلس.

1. ترجمته ومصادرها في المغرب 2 : 230.

2. المطرب لابن دحية : 73 (ط. الخرطوم). ولعله من نمط حي بن يقظان لابن طفيل الذي أخذ عن ابن شرف وربما قلده.

3. قلائد العقيان : 251.

4. المصدر نفسه والمغرب 2 : 231.

5. المثل رقم 982 في النص.

وقوله :

«ليس المحروم من سأل فلم يعط، وإنما المحروم من أُعطِيَ فلم يأخذ[1]»

وهو ليس إلا سبكاً جديدا لقولهم :

من يعطاش وياباه، يطلب وليس يعطاه[2].

أو قولهم :

من أعطى ولم يخذ، طلب ولم يعط[3].

ومن ذلك أيضا قوله :

الفاضل في الزمن السوء كالمصباح في البراح، قد كان يضيء لو تركته الرياح[4]، ويبدو أنه ينظر فيه إلى المثل :

اش يخرج قنديل لريح[5].

---

1. القلائد : 252 ـ 251 و المغرب 2 : 231.
2. المثل رقم 1493 في النص.
3. المثل رقم 662 في أمثال ابن عاصم.
4. القلائد : 251 ـ 252 والمغرب 2 : 231.
5. المثل رقم 105 في أمثال ابن عاصم.



وبعض هذه الحكم قائم على تشبيهات عامية فيما يبدو كقوله : «المتلبِّس بمال السلطان كالسفينة في البحر، إن أدخلت بعضه في جوفها أدخل جميعها في جوفه[1]». ومما يدل على ذلك أننا نجده منظوما لدى بعض الشعراء الأندلسيين[2] :

لا تغبطنَّ عامل السّلطان في ولاية قد آذنت بحَتْفِهِ

تراهُ يحْكي دهره سفينة في البحرْ لا أمن لها من خوفِهِ

إن أدخلتْ من مائه في جوفها أدخلها وماءها في جوفِهِ

ونجد الإشارة إليه أيضا في قول ابن خاتمة (ديوانه : 132) :

خف السّلاطين واحذر أن تُلابسهم مادام أمرهم في المُلكِ مُضطربا

إن الملوكَ بحارٌ في خلائقهم ومن سما البحر في أهواله عَطِبَا

وقوله :

«اعلم أن الفاضل الزكي لا يرتفع أمره، أو يظهر قدره، كالسراج لا تظهر أنواره، أو يرفع مناره، والناقص الدني لا يبلغ لنفعه، إلا بوضعه، كهوجل السفينة لا ينتفع بضبطه، إلا بعد الغاية في حطه[3]».

1ـ القلائد : 251 والمغرب 2 : 231.
2ـ عين الأدب والسياسة لابن هذيل : 27.
3ـ القلائد : 252.

ولأبيه أبي عبد الله بن شرف القيرواني كتاب في هذا الموضوع أسماه: أبكار الأفكار. ذكر ابن دحية في المطرب أنه يقع في «سفرين اخترع كله في الحكم والأمثال»[1] وذكر صاحبه أنه «يشتمل على مائة نوع من مواعظ وأمثال، وحكايات قصار وطوال[2]» وتوجد قطعة مقتبسة منه مخطوطة في خزانة كلية ابن يوسف بمراكش تحت رقم 702 ي، وتحتوي هذه القطعة على قصيدة من بحر البسيط في مائة بيت وكل بيت يشتمل على مثل «مما يستعمله الناس في أثناء كلامهم ومحاضراتهم» ونصفها ينتظم خمسين بيتا مما يتمثل به من شعر شعراء العرب المخضرمين والنصف الآخر ينتظم خمسين بيتا مما يتمثل به من شعر المتنبي. والبيت ـ المثل الأول كما يلي :

لا تسأل الناس والأيام عن خبر   هما يبثانك الأخبار تطفيلا[3]

وعارض أبو الربيع الكلاعي وكذلك تلميذه ابن الأبار القضاعي كتاب المبهج[4] للثعالبي، وهو كتاب في الأمثال المخترعة، ذكر صاحبه أنه «سار في البلاد، بل طار في الآفاق[5]»، وجاء الكلاعي فعارضه في «كتاب

1ـ المطرب، : 72.
2ـ الذخيرة ق 4 مجلد 1 ص 140.
3ـ نشر الأستاذ. إ.غ. غومس أخيرا هذه القطعة مكتوبة بالحروف اللاتينية مع ترجمة ومقدمة وتعليقات بعنوان :

LOS REF RANES POETICOS DE BENSARAF في مجلة الأندلس
AL ANDALUS 1970 ، vol XXXVI FASC.2

وقد ذكر أنه اعتمد في نشرها على مخطوط حديث كان لبعض آل ماء العينين ثم آل إلى مدرسة الدراسات العربية بمدريد، وأنا أقدر أن هذه النسخة الحديثة مأخوذة عن نسخة مراكش العتيقة كما يبدو من خطها، وتوجد منها نسخ خطية أخرى.
4ـ طبع المبهج غير مرة.
5ـ التمثيل والمحاضرة : 5.



الامتثال، لمثال المبهج في ابتداع الحكم واختراع الأمثال[1]» وتلاه ابن الآبار بعمل «كتاب إحضار المرهج، في مضمار المبهج[2]»، والكتابان مفقودان.

وبعد، فإذا كنا قد بدأنا بتاريخ كتب الأمثال الفصيحة في الأندلس وانتشارها بها، فلأننا نرى أن الصلة وثيقة بين الأمثال الفصيحة والأمثال العامية، فكثير من الأمثال العامية ماهي إلا أمثال فصيحة في الأصل، صاغها العامة صوغا جديدة أو اعتراها تغيير في ألفاظها أو في تراكيبها أو في معانيها وذلك ما يسميه أبو عبيد القاسم بن سلام وغيره بالابتذال، وقد أشرنا إلى أمثلته في تحقيقنا لمجموعة الزجالي.

1ـ الذيل والتكملة 4 : 86 وبرنامج الرعيني : 68.
2ـ الذيل والتكملة 6 : 92 (مخطوط).



2ـ كان ظهور الإسلام وانتشار العربية بعد الفتوح الإسلامية في بلدان مختلفة من أسباب ظهور أمثال جديدة لم تلبث أن سارت بين الناس سيرورة أمثال العرب في الجاهلية كما أخذت مكانها في مجموعات الأمثال المروية، وكان هذا بداية الأمثال العربية الإقليمية في البلدان التي دخلها الإسلام، وقد انبثقت هذه الأمثال من أحداث معينة ودارت حول أشخاص معروفين أو مجهولين، وصدرت ـ بالإجمال ـ عن مظاهر الحياة الجديدة.

وقد تنبه حمزة الأصفهاني إلى الجانب الإقليمي في الأمثال العربية الإسلامية إذ يقول: «ومن هذه الأمثال ما يلهج به أهل كل قبيلة بعينها، أو سكان بلدة خاصة دون سائرهم، فأهل مكة قد لهجوا بقولهم: أكسى من الكعبة، وأعرى من الحجر، وآمن من غزلان مكة، وآلف من حمام مكة. ولأهل المدينة أمثال بعينها لا يعرفها غيرهم، كقولهم «أولم من الأشعث، وأبطأ من فند، وأخنث من هيث، وأتجر من عقرب. وأهل اليمن يقولون: أوفر فداء من الأشعث. وأهل عمان يقولون: أظلم من الجلندي، وأهل الكوفة يقولون: أهون من قعيس على عمته، وأهل البصرة يقولون: أحلم من الأحنف، وأسود من الأحنف، وأبين من الأحنف كما قالوا في الحسن جعلوه في مستثنى كل غاية: هو أزهد الناس إلا الحسن، وأبين الناس إلا الحسن، وأفقه الناس إلا الحسن[1]»، ثم استشهد لما ذكره من تفرد كل قوم فيما بينهم بضرب أمثال دون آخرين بحكاية حكاها الأصمعي عن أهل الأمصار العربية تتضمن مثلا واحداً تختلف ألفاظه باختلاف الأمصار[2].

1ـ الكلمات الفاخرة، والأمثال السائرة: 12 والمقصود هو الحسن البصري.
2ـ المصدر نفسه: 13.

كما أن مدوني الأمثال الأولين كانوا يشيرون أحيانا إلى الصبغة الإقليمية لبعض الأمثال، ومنهم أبو عبيدة الذي يقول في تفسير المثل : عير بعير وزيادة عشرة، «هذا مثل لأهل الشام ليس يتكلم به غيرهم، وأصل هذا أن خلفاءهم كلما مات منهم واحد وقام آخر زادهم عشرة في أعطياتهم، فكانوا عند ذلك يقولون هذا[1]».

وهكذا نشأت في البيئات الإسلامية الجديدة أمثال إقليمية منتزعة من حياتها وأحداثها وتجاربها، ومنها ما ظهر في صدر الإسلام على عهد الخلفاء الراشدين وبني أمية، وقد ذكر الثعالبي في التمثيل والمحاضرة طائفة من أمثال هذا العصر[2]. ونلاحظ أن ما وصل إلينا من أمثال العصر الأموي قليل، ونستطيع أن نلتمس أسباب ذلك فيما عرف به الأمويون من تمسك بالقديم وحفاظ عليه، كما أن المجتمعات الإسلامية الجديدة لم تكن بعد قد تجاوزت مرحلة التكوين.

ولم تزدهر الأمثال الإقليمية إلا في العصر العباسي حين ظهر ما سمي بأمثال العامة وأمثال المولدين أو الأمثال المولدة، وكان بعضها من المستحدث الذي اقتضته البيئة الجديدة، وبعضها الآخر مما انتقل إلى العربية من تراث الشعوب الدخيلة في الإسلام كالنبط والفرس والأقباط في شرق الدولة الإسلامية والبربر وعجم الأندلس في غربها. ويبدو أن البيئة العراقية عموما ـ والبغدادية خصوصا ـ كانت المحل الخصب لتولد هذه الأمثال في صدر العصر العباسي، ومن عوامل ذلك أنها كانت دار الخلافة. وبلد الصادر والوارد، وملتقى الشعوب والأجناس والحضارات.

1ـ مجمع الأمثال 2 : 13.
2 التمثيل والمحاضرة : 39 ـ 41.



وربما كان أبو عبيد القاسم بن سلام أقدم من عنى بالإشارة إلى الأمثال السائرة على ألسنة الناس في أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث، فقد ذكر في كتابه الأمثال نحوا من أربعين مثلا من أمثال العامة أو مما تمثلت به، وهو يأتي بها في أعقاب الأمثال المروية عن العرب، وينسبها إلى العامة بعبارات متنوعة كقوله : «ومثل العامة في هذا قولهم ...» أو «والعامة يقولون ...» أو «والعامة تقول في مثل هذا المثل». أو «هذا مثل يتكلم به العوام من الناس». أو «وللعامة في هذا مثل مبتذل»، وإذا كان المثل عربيا قديما وتصرف فيه عامة زمنه بالتغيير، أشار إلى ذلك بمثل قوله : «وهذا مثل قد ابتذلته العامة»، أو «وهذا مثل قد ابتذله الناس» أو «وهذا مثل مبتذل عند العوام[1]». ونراه يستعمل «العامة» تارة و «الناس» تارة أخرى، ولعل في ذلك ما يفيد في معنى العامة عنده، ولعل مفهوم العوام في عصر أبي عبيد هو كما يقول الجاحظ : «وإذا سمعتموني أذكر العوام فإنني لست أعني الفلاحين والحشوة والصناع والباعة، ولست أعني الأكراد في الجبال وسكان الجزائر في البحار... وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا وأدبنا وأخلاقنا فالطبقة التي عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا، على أن الخاصة تتفاضل في الطبقات أيضا[2]». وربما جاز القول بأن هؤلاء العامة الذين عناهم أبو عبيد هم أهل بغداد الذين عاش بين ظهرانيهم، ويلاحظ أن الأمثال التي نسبها إليهم معربة وخالية من اللحن، ويقول الدكتور عبد العزيز الأهواني

1ـ وردت هذه العبارات وأمثالها في أمثال أبي عبيد (المخطوط غير مرقم) وفصل المقال في مواضع عديدة. أنظر الصفحات 32، 39، 46، 52، 57، 60، 69، 79، 83، 144.

2ـ البيان والتبيين 1 : 128 وانظر في معنى العامة : الدكتور عبد العزيز الأهواني، ألفاظ مغربية : 123ـ 135 وأمثال العامة في الأندلس : 139ـ 241.



في تعليل هذه المشكلة : «ونحن إزاء هذه المشكلة لا نستطيع إلا أن نفترض أحد أمرين : إما أن يكون هؤلاء المصنفون قد رووا المثل بالمعنى وصاغوه في لغة معربة، مع المحافظة بطبيعة الحال على لفظه وترتيبه في الجملة وإما أنهم قصدوا بالعامة والمولدين طائفة من المثقفين ترتفع كثيرا عن مستوى العامة بالمعنى الحقيقي الذي نفهمه اليوم»[1].

ويشهد للافتراض الأول قول أبي عبيد : «ومن أمثالهم في فساد البطانة المثل المبتذل في العامة : إن الريح إذا هبت خارج البيت استترت منها، وإذا كانت في داخل البيت لم يكن إلى الاستتار منها سبيل»[2]. فهذا مثل مروي بالمعنى ومنقول من الأسلوب العامي إلى الأسلوب الفصيح، ودليلنا على ذلك أمران إحداهما : طول العبارة التي أفقدته طابع المثل، والثاني : أن الثعالبي نسبه إلى الفرس ورواه بالصيغة التالية : «ما حيلة الريح إذا هبت من داخل[3]». وقد سار هذا المثل في مختلف الأمصار والأعصار واعتراه تغير في المبنى والمعنى وما يزال يتمثل به[4]. وقد روى أبو عبيد بعض أمثال عامية سمعها من نساء عصره، ومنها المثل: «لو قيل للشحم أين تذهب لقال : أسوي المعوج[5]» وعقب عليه بقوله : «وأكثر من يتكلم به النساء[6]» وهذا المثل كان وما يزال شائعا بين العامة[7]، وهو يشهد لأن المقصود بالعامة عند أبي عبيد هم مطلق الناس، وليس فئة بعينها.

---

1. أمثال العامة في الأندلس 239.
2. أمثال أبي عبيد (مخطوط غير مرقم) في باب اقتداء الرجل بخليله وقرينه.
3. التمثيل والمحاضرة : 43.
4. أنظر المثل رقم 6 في النص.
5. أمثال أبي عبيد (مخطوط) في باب استقامة الأمور واعوجاجها.
6. الموضوع نفسه.
7. أنظر المثل رقم 75 في النص.

ولعل من المفيد أن نورد هنا ثبتا بالأمثال التي نسبها أبو عبيد إلى العامة أو نص على أن العامة تبتذلها :

1. خبره في خوفه.
2. تنزو وتلين.
3. عبد غيرك حر مثلك.
4. من يمدح العروس إلا أهلها.
5. أكرموا الصريع.
6. من أنفق ماله على نفسه فلا يتحير به إلى الناس.
7. إن الريح إذا هبت خارج البيت استترت منها، وإذا كانت في البيت لم يكن إلى الاستتار منها سبيل.
8. أعذر من الظالم.
9. لا تأكل الحرة ثدييها.
10. أنت أعلم أم من غص بها.
11. إليك يساق الحديث.
12. لو قيل للشحم أين تذهب لقال أسوي المعوج.
13. من نهشته الحية حذر الرسن.
14. جيء به من حيث وليس.
15. من سال صاحبه فوق طاقته فقد استوجب الحرمان.
16. إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون.
17. رجع فلان من حاجته بخفي حنين.
18. لا يرحل رحلك من ليس معك.
19. أكلا وذما.



20ـ ابدأهم بالصراخ يفروا.

21ـ كل شاة برجلها تناط.

22ـ ما ظنك بجارك ؟ قال : ظني بنفسي.

23ـ الكلاب وبقر الوحش.

24ـ يمنع دره ودر غيره.

25ـ رب رمية من غير رام.

26ـ لا أبقى الله عليك إن أبقيت.

27ـ أين يضع المخنوق يده.

28ـ قد بلغ السكين العظم.

29ـ ماله سبد ولا لبد.

30ـ لا يدري أسعد الله أكثر أم جذام.

وقد كثرت أمثال العامة هذه كما سماها أبو عبيد وغيره أو أمثال المولدين كما سماها أخرون وغدت محور أحاديث الناس في مجالسهم ومنتدياتهم في المجتمع البغدادي وغيره. ونراها تتطور على ألسنة الناس في مختلف المناسبات كما في حكاية أبي القاسم البغدادي المنسوبة لأبي المطهر الأزدي وهي حكاية تصور الحياة اليومية في بغداد في مطلع القرن الرابع[1]. وقد ألفها صاحبها «لتكون كالتذكرة في معرفة أخلاق البغداديين على تباين طبقاتهم، وكالأنموذج المأخوذ عن عاداتهم[2]». وذكر أنها «حكاية مقدرة على أحوال يوم واحد من أوله إلى آخره أو ليلة كذلك[3]». وفي مقدمة الأمثال المولّدة لأبي بكر الخوارزمي

1ـ حكاية أبي القاسم البغدادي : 87 حيث يقول مؤلفها : «ولعهدي بهذا الحديث سنة ست وثلثمائة ...».

2ـ المصدر نفسه : 1.

3ـ المصدر نفسه : 2 وقد كشفت بعض الدراسات أن مؤلف الحكاية هو التوحيدي .

كلام بين فيه سبب جمعه هذه الأمثال وذكر أنه فعل ذلك «لما عليه جلّ أهل الزمان، وخدم السلطان من الميل إلى الأدب الرطب لسهولته، والنفور عن الأدب اليابس لوعورته حتى إن أحدهم يتطير من شعراء أهل الجاهلية ويتبرّم بعويص النحو واللغة ويضرب «قفا نبك» مثالا لكل مبتذل، ويجعل «عفت الديار» معيارا لكل متروك، ثم قال بعد كلام طويل من هذا القبيل : «ولما كان الشأن هذا الشأن، والزمان هذا الزمان، وضعنا هذا الكتاب وجمعنا فيه أمثالا استحدثها مولّدو العصر وأنشاء الزمان وأبناء الدولة العباسية من أهل بغداد وغيرها من العراق ودمشق وذواتها من الحجاز، وهي قريبة من الفهم، عذبة على اللسان مقبولة في القلب لا يجهلها العامة ولا يتكبر عنها الخاصة وأكثرها مرسلة لا يعرف أصحابها لإتيان الزمان على ذلك ولأن كلام العامة لا تقيده الأفهام ولا يشغل بتخليده الأقلام»، وختم الخوارزمي هذه المقدمة قائلا : «وبعد فقد قال أقوام أمثالا سيرها أهل بلادهم، وأرسل مجاوروهم في ديارهم أمثالا إلاّ أنها لم تستعمل فيما يباين تلك الديار من الأقاليم والبلدان فأهملت ذكرها إذ كان شرطنا ما استفاض وسار واستوى فيه القريب والبعيد» هذا وقد ظهرت آثار هذه الأمثال المولدة في أشعار المحدثين كأبي نواس وأبي العتاهية وصالح بن عبد القدوس وغيرهم، كما أن بعض أبيات هؤلاء وأشطارهم سارت مسير الأمثال[1]، وهي بارزة بصورة أوضح في شعر ابن حجاج وابن سكرة.

ونهض بعض أعلام القرن الرابع وما بعده بتدوين أمثال العامة والمولدين وكناياتهم وإضافاتهم، فمنهم أبو بكر الخوارزمي المذكور آنفا وصاحب

1- التمثيل والمحاضرة : 73 وما بعدها.

«حكاية أبي القاسم» التي أشرنا إليها منذ قليل، وفيها أمثال عامية عديدة وردت مبثوتة في ثناياها، وكانت من مصادرنا في مقارنة أمثال الزجالي، ومنهم القاضي أبو الحسن علي بن الفضل المؤيدي الطالقاني مؤلف «رسالة الأمثال البغدادية التي تجري بين العامة» وهي مجموعة مرتبة على حروف المعجم، وفي مقدمتها أنه أملاها سنة 421هـ بمدينة بلخ أثناء توليته قضاءها، وهي تشتمل على أزيد من 200 مثل، وقد نشرها المستشرق لويس ماسنيون في القاهرة سنة 1911، وأبو سعد منصور بن الحسين الآبي (ت 422هـ) مؤلف «نثر الدرر» ونجد فيه فصلا في أمثال العامة، وهو يحتوي على ما يقرب من 300 مثل، كما ألف أبو الفرج علي بن الحسن بن هندو (ت 410هـ) كتاب «الأمثال المولدة»، ويبدو أنه مفقود، وفي كتب التمثيل والمحاضرة، وثمار القلوب، والكنايات لأبي منصور الثعالبي (ت 429هـ) كثير من أمثال العامة والمولدين وإضافاتهم وكناياتهم، كما أن كتاب الكنايات للقاضي أبي العباس أحمد بن محمد الجرجاني (ت 482هـ) يشتمل على بعض الكنايات العامية، ولم تخل جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري من ذكر لبعض الأمثال العامية والفارسية المترجمة[1]، ونظم أبو الفضل أحمد بن محمد السكري المروزي أرجوزة ترجم فيها أمثالا فارسية[2]، وقد وجدنا بعض هذه الأمثال الفارسية المترجمة تنتقل إلى الأندلس[3]، ثم بلغ تدوين أمثال المولدين غايته في مجمع الأمثال للميداني (ت 518هـ) ويبدو أنه اعتمد في جمعها على المصادر المذكورة وإن لم يسمها في مقدمة كتابه، والأمثال المولدة في مجمع الأمثال تقرب من الألفين.

1ـ انظر على سبيل المثال : جمهرة الأمثال 1، 65، 136، 151، 155.
2ـ توجد مقتطفات منها في الكشكول 1 : 342، ويتيمة الدهر.
3ـ انظر الأمثال رقم 208، ورقم 246 ورقم 1146 في النص.



ولكن الاتجاه إلى تدوين الأمثال العامية والإقليمية بالمعنى الدقيق لم يظهر إلا في القرن السابع وما بعده على ما يبدو، إذ أن أقدم ما وصل إلينا من مجموعات في الأمثال العامية الملحونة وهي مجموعة الزجالي ـ فيما نعرف ـ ترجع إلى القرن السابع. وامتازت الأندلس ومصر بتدوين أمثالهما العامية، وممن عنى بتدوين الأمثال العامية المصرية شرف بن أسد المصري (ت 738هـ) وقد ذكر الصفدي أنه «كان عاميا مطبوعا قليل اللحن» وأشار إلى تأليفه في الأمثال[1]، وهذا التأليف هو الذي عنى به المستشرق السويسري بوركهارت، وقد طبع مرارا، وتلاه يونس المالكي (ت 770هـ) والأبشيهي (ت 850هـ) وابن سودون، والعاملي والشربيني. وتعتبر مؤلفات الأندلسيين والمصريين في الأمثال صلة الوصل بين الأمثال العامية أو المولدة القديمة وبين الأمثال العامية الحديثة.

تلك لمحة موجزة في نشأة الأمثال العامية وتطورها في المشرق رأينا أنها ضرورية قبل الحديث عن الأمثال العامية في الأندلس.

1- فوات الوفيات 2 : 381.



3ـ أما في الأندلس ـ ومثلها بلاد المغرب ـ فيبدو أن نشأة الأمثال الإقليمية فيها كانت مصاحبة لنشأة المجتمع الأندلسي الجديد بعد الفتح الإسلامي، وربما ظهر منها شيء في عصر الولاة (92 ـ 138هـ) ونحن نفترض أن يكون الاحتكاك الأول بين الأجناس في جزيرة الأندلس، والصراع بين العرب وبين البربر ثم بين القيسية واليمنية من دواعي بعض الأمثال أو الأقوال التي تجري مجرى الأمثال، ولكن لم يصل إلينا شيء من هذا، وقد بدأنا نسمع ببعض الأمثال الأندلسية في أواخر عصر الولاة وأوائل العصر الأموي في الأندلس، ومن الأمثال التي ترجع إلى هذا التاريخ قولهم :

ـ شتَّان بين خلّة وسُعاد.

ـ سنة برباط.

ـ كمَا جا عُبَيْد منْ طرّوش.

وسوف نشير فيما بعد إلى الظروف التي قيلت فيها ويبدو أن الأمثال الأندلسية لم تظهر بوضوح إلا بعد تكون المجتمع الأندلسي واستقرار الحياة السياسية في العصر الأموي، شأنها في ذلك شأن الشعر وغيره من فنون القول.

ـ وقد بدأ تدوين الأمثال التي كانت سائرة على ألسنة العامة بالأندلس في أواخر القرن الثالث الهجري وأوائل الرابع، وكان ابن عبد ربه أول مؤلف أندلسي عنى بذكر بعض هذه الأمثال، وقد اشتمل كتاب الجوهرة من العقد الفريد الذي أشرنا إليه فيما سبق على عدد مما «جرى على ألسنة الناس من الأمثال المستعملة[1]» وابن عبد ربه يوردها إلى جانب أمثال

1ـ العقد 3 : 81.



العرب القديمة، وينبه على نسبتها إلى العامة، كما فعل أبو عبيد قبله، وقد بحثنا في معنى العامة عنده، وهل يقصد بهم عامة المشرق أم عامة المغرب فتبين لنا أن مفهوم العامة عنده لا يختلف عن مفهوم العامة عند أبي عبيد، وأن العامة الذين عناهم هم عامة الأندلس، وأنه اعتمد في نسبة تلك الأمثال إلى العامة على السماع المباشر ولم يتابع أبا عبيد، ودليلنا على ذلك هو المقارنة بين أمثال العقد وأمثال أبي عبيد، فقد ذكر هذا أمثالاً. منسوبة إلى العامة ووردت في العقد غير منسوبة إليهم ومنها :

- برح الخفاء[1].

- ترك الذنب أيسر من التماس العذر[2].

- الكذب داء والصدق شفاء[3].

- لو كرهتني يدي قطعتها[4].

- هما كحماري العبادي[5].

كما أن هناك أمثالا نسبها ابن عبد ربه إلى العامة وليست في أمثال أبي عبيد ولا في غيرها مما وقفنا عليه، ونذكر منها قولهم :

---

1. فصل المقال : 57 والعقد 3 : 84.
2. فصل المقال : 69 والعقد 3 : 86.
3. فصل المقال : 32 والعقد 3 : 82.
4. فصل المقال : 44 والعقد 3 : 95 ورواية البكري، لو كرهتني يميني ما صحبتني. وفي المخطوط : يدي
5. أمثال أبي عبيد (مخطوط) في باب : الرجلان يكونان متساويين في خير أو شر. والعقد 3 : 100.



ـ الحمار جلبه والحمار أكله[1].

وهو في رأينا مثل أندلسي صرف، وقد روى الزجالي صيغته في القرن السابع كما يلي :

ـ الحمار ساقُ، والحمار ذاقُ[1].

والصيغتان متفقتان لأن كلمة ساق في الاستعمال الأندلسي بمعنى جلب، وذاق بمعنى أكل[2]. ثم أصبحت صيغته في المغرب هكذا :

ـ دجاب الفل أكل[3].

أي الذي جلبه أو جاء به الفلو أكله.

ومما نحسبه من الأمثال العامية الأندلسية في العقد قولهم : هان على الصحيح أن يقول للمريض : لا بأس عليك [4].

ونرى أنه مروي بالمعنى، وعبارة، لا بأس عليك، ما تزال مستعملة في المغرب بهذا المعنى، وهي تقال في معرض الدعاء والاستفهام والسؤال عن الحال، وقد وضع ابن عبد ربه المثل تحت عنوان : قلة اهتمام الرجل بصاحبه.

ومن الأمثال العامية الأندلسية الواردة في العقد قولهم :

1ـ العقد 3 : 122

2ـ انظر المثلين رقم 598، ورقم 969 في النص.

3ـ مخطوط الزركلي (أمثال مغربية) رقم : 43.

4ـ العقد 3 : 116.

- لا تصب ماء، حتى تجد ماء[1].

ويشهد لذلك وروده بهذه الصيغة في مجموعة الزجالي واستعماله إلى اليوم في المغرب[2]، ومنها أيضا قولهم :

- لا تكن لسان قوم[3].

- لا تكن حلوا فتؤكل ولا مرا فتلفظ. (3 : 111)

- الشارف لا يصفر له[4].

- كلب طواف خير من أسد رابض. (3 : 108)

أما الأمثال التي وردت عند أبي عبيد وابن عبد ربه معا منسوبة إلى العامة فيبدو أنها كانت أمثالا سائرة في مختلف الأمصار العربية في القرن الثالث وما بعده. ومعنى ذلك أن وحدة الأمثال العامية في البلدان العربية قديمة، وهي حقيقة واضحة من استقراء مقارنتنا أمثال الزجالي بغيرها، وفي ذلك برهان ملموس على وحدة الوجدان العربي.

ويحسن بنا أن نسوق فيما يلي بعض الأمثال التي كانت مستعملة في المشرق والمغرب في عصر أبي عبيد، ثم في عصر ابن عبد ربه :

- جيء به من حيث أيس وليس[5].

- لو كان في جسدي برص ما كتمته[6].

---

1. المصدر نفسه 3 : 110.
2. انظر المثل رقم 2016 في النص.
3. العقد 3 : 111.
4. المصدر نفسه 3 : 95.
5. أمثال أبي عبيد (مخطوط) والعقد 3 : 114.
6. فصل المقال : 60 والعقد 3 : 85.



ـ قيل للشقي : هلم إلى السعادة ! قال حسبي ما أنا فيه[1].

ـ بلغ السِّكين العَظْم. (3 : 121)

ـ إذا لم يكن شحم فنفَس. (3 : 123)

ـ إن يُفْلت العَيْر فقد ذَرَق. (3 : 133)

ـ أفْلَتني وقَدْ بَلَّ النَّيْفَق. (3 : 133)

ـ الوعد من العهد[2].

ـ يضرب في حديد بارد[3].

وقد أشار ابن عبد ربه إلى أبيات يتمثل بها العامة كقول الشاعر :

وقد يُرْجى لجُرح السيف بُرْءٌ ولا بُرْءٌ لما جَرَح اللِّسانُ

قال : «اجتلبنا هذا البيت لأنه قد صار مثلا للعامة». (3 : 81).

وقول الآخر : إن الشقي بكلّ حَبْل يختنق. (3 : 98).

ومن هذا يتبين أن ابن عبد ربه كان أول من فتح باب تدوين الأمثال العامية في الأندلس.

ـ ونجد في ثنايا المؤلفات الأندلسية التي ألفت أمثالا أندلسية ترد عرضا بين الحين والحين. ومن ذلك المثلان اللذان ذكرهما أبو عبد الله محمد بن حارث الخشني (ت 361هـ) في كتابه : «قضاة قرطبة» وهما :

1ـ أمثال أبي عبيد (مخطوط) والعقد 3 : 98.
2ـ العقد 3 : 87 وأمثال أبي عبيد (مخطوط)
3ـ العقد 3 : 126 وأمثال أبي عبيد (مخطوط).



ـ شتان بين خلة وسعاد[1].

ـ سنة عفص وسنة بلوط[2].

فالمثل الأول من أقدم الأمثال التي أرسلها المجتمع القرطبي وهو يرجع إلى أواخر أيام يوسف الفهري آخر ولاة الأندلس، وخلة المذكورة في المثل جارية وهبها يوسف الفهري لمعاوية بن صالح قاضي قرطبة وكانت قبيحة الشكل، أما سعاد فهي خادم لها كانت فائقة الحسن، وقد ضرب أهل قرطبة بهما المثل في البون الشاسع بين الشخصين.

وأما المثل الثاني فكان يتمثل به العامة في الأندلس، وتمثل به يحيى بن معمر قاضي الجماعة في قرطبة أيام عبد الرحمن الأوسط (206 ـ 238هـ) في سياق كلام دار بينه وبين عبد الملك بن حبيب عالم الأندلس المعروف، ونجد المثل نفسه معروفا في المشرق بعد هذا التاريخ فقد ورد في شعر لابن حجاج البغدادي (ت 391هـ) يقول فيه :

---------------- فعام عفص وعام بلوط[3]

وكان من كنايات العامة في المشرق قولهم : «فلان يقول بالعفص والبلوط» إشارة إلى قول ابن حجاج المحذوف[4]. وهناك قرائن قد تدل على أن المثل أندلسي انتقل إلى المشرق، منها أن أقدم ذكر له فيما وقفنا عليه ورد على لسان يحيى بن معمر وهو كما رأينا متقدم في

1ـ قضاة قرطبة : 35.

2ـ المصدر نفسه : 77.

3ـ الكنايات للجرجاني : 27.

4ـ المصدر نفسه.



التاريخ على ابن حجاج، كما أن الأندلس عرفت بكثرة البلوط حتى سماها أبو محمد الأعرابي العذري الوافد على الأندلس في القرن الثالث ببلاد البلوط إذ يقول متحدثا عن ناقته :

تحن إلى البلوط حتى إذا أتت بلادا بها البلوط حنت إلى النخل[1]

وفحص البلوط بالأندلس مشهور[2]، وكان أهل قرطبة يعيرون من ينسب إليه بأنه بلوطي ويعرضون له بقشر البلوط في هذا المعنى[3]، وفي أمثال الأندلسيين ذكر للبلوط[4]. كما أن المثل نفسه ما يزال له ظل في استعمال المغاربة إلى اليوم فهم يقولون : «عام البلوط، مزلوط[5]، ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نجزم بأن المثل الأندلسي أصل للمثل المشرقي لجواز أن يكون مولدا قديما[6] واستشهد به ابن حجاج على طريقته في استعمال العبارات والأمثال البغدادية[7].

ومن ذلك أيضا المثل الذي ورد عند الخشني المذكور في كتابه أخبار الفقهاء والمحدثين، قال في ترجمة أيوب بن سليمان المعافري القرطبي المكنى بأبي صالح : «وكان ابتداء أبي صالح بطلب العلم سنة 248 وكان أبو عثمان الأعناقي يُسْمِع في بيته ولا يُسْمِع في المسجد، فلما توفى أبو صالح خرج الأعناقي وأسمع في المسجد فقال بعض الطلبة :

1ـ المقتبس لابن حيان ـ القسم الثالث : 13، 132.
2ـ انظر الروض المعطار : 140 ـ 143.
3ـ قضاة قرطبة : 94.
4ـ انظر الأمثال رقم 1394 ورقم 1583 ورقم 1741 في النص.
5ـ أمثال أهل فاس : 542 (مخطوط).
6ـ لم يرد في مجاميع الأمثال التي وقفت عليها، ولكن جاء في القاموس المحيط للفيروزبادي «العفص مولد أو عربي شجرة من البلوط تحمل سنة بلوطا وتحمل سنة عفصا».
7ـ ديوانه المخطوط وفي يتيمة الدهر طائفة من شعره.



«إذا كان البازي حيا لم تظهر الحجلة»، (ص : 32) وهذا مثل مولّد أشار إليه بعضهم بقوله :

إذا ما حامت العقبان ظهرا تستّرت الجوارح بالغياض

ووجدنا في «طبقات اللغويين والنحويين» لأبي بكر الزبيدي الإشبيلي من أهل القرن الرابع ثلاثة أمثال أندلسية، فقد ذكر في ترجمة أبي حرشن مايلي : وكان الناس إذا استفصحوا رجلا قالوا، ما هذا إلا أبو حرشن[1]» وقال في ترجمة بكر الكناني : «وكان الغاية في الفصاحة، حتى ضرب به المثل : أفصح من بكر الكناني[2]»، ويقول في ترجمة سعيد الرشاش : «وكان ضرب به أيضا المثل في الفصاحة فيقال : أفصح من الرشاش[3] والأعلام المذكورون في هذه الأمثال من أهل المئة الثالثة، وقد ذكرهم الزبيدي في الطبقة الثانية من النحويين واللغويين من أهل الأندلس، والشاهد في هذه الأمثال أنها تمثل اتجاها إقليميا بإنشاء أمثال مشتقة من البيئة المحلية ومتصلة بأحداثها وأشخاصها، ومع أن الزبيدي ألف كتاباً في لحن العامة بالأندلس فإنه لم يشر في هذا الكتاب إلى شيء من أمثالهم.

- ونصادف في كتب التاريخ الأندلسي ولا سيما فيما وصل إلينا من تاريخ ابن حيان أمثالا تتصل بأحداث اقتصادية أو سياسية كقولهم :

- سنى برباط[4]. أو سنة برباط[5].

1. طبقات الزبيدي : 281 وترجمة أبي حرشن أيضا في بغية الوعاة 1 : 493.
2. المصدر السابق : 283 وترجمة بكر الكناني في بغية الوعاة 1 : 466.
3. المصدر السابق : 283 وترجمة الرشاش ومصادرها في المغرب 1 : 114.
4. أخبار مجموعة : 62.
5. البيان المغرب 2 : 38.



لسنوات القحط والمجاعة، وكان ابتداء هذه السنوات عام 131هـ واستمرت حتى سنة 136هـ وفيها «اشتد الجوع فخرج أهل الأندلس إلى طنجة وأصيلا وريف البربر ممتارين ومرتحلين[1]» ومنها قولهم في المعنى نفسه :

- سنة ستين.

أي سنة 260هـ. وفيها كانت المجاعة التي عمت الأندلس، ومات فيها أكثر الخلق، قال ابن حيان : «وجرى المثل بها على ألسنة الناس دهرا : سنة ستين[2]» ومنها قولهم :

- سنة لم أظن

وهي أيضا سنة مجاعة شديدة تمثلوا بها، وقد كانت سنة 285هـ[3]، ومن هذا أيضا قولهم :

- سنةُ جوع جَيّان[4].

وقد كانت سنة 297هـ يقول ابن حيان : «وفيها كانت المجاعة الشديدة التي عمت الأندلس ومات بعاديتها أكثر الخلق، وعبر كثير منهم البحر إلى أرض العدوة»[5].

ومن الأمثال التاريخية التي وردت عند ابن حيان أيضا قولهم :

غررْتَني يا إسحاق[6].

1ـ أخبار مجموعة : 62.

2ـ المقتبس ـ السفر الثاني : 343.

3ـ البيان المغرب 2 : 139.

4ـ المقتبس ـ السفر الثالث : 146.

5ـ الموضع نفسه.

6ـ المصدر نفسه : 128 ـ والبيان المغرب 2 : 139.



يقول ابن حيان في أحداث سنة 287هـ «وفيها صلب بقرطبة المارد الملعون المعروف بإسحاق من أصحاب عدو الله عمر بن حفصون مع صاحب له هو الذي جرى بكلامه له يوم محنته المثل الجاري بين الناس إلى اليوم «غررتني يا إسحاق». كلمة قالها له صاحبه ذلك الذي صلب معه وهو يرفع في خشبته، ذهبت مثلا، وكان يومه مشهودا بقرطبة».

ويبدو أن أيام عمر بن حفصون - وهي تمثل أوج الصراع بين المولدين أو العجم وبين العرب - كانت مضربا لأمثال عديدة، وكما تمثلوا بإسحاق المذكور من أصحاب ابن حفصون فقد تمثلوا بيحيى بن بقي الملقب بمشطار من أتباعه أيضا، قال ابن حيان متحدثا عن وقائع سنة 292هـ : «وفيها كانت الوقيعة على الخبيث عمر بن حفصون بوادي بلون وقد توافت إليه أمداده من أهل النكث، وقاتل رجال السلطان، فدارت لرجال السلطان عليهم وهزموا وقتل منهم كثير، وفر خاسئا خاسرا لم يصحبه من إخوانه غير يحيى بن بقي الملقب بمشطار، وفي هذه الوقيعة جرى عليه هذا اللقب فلزمه وضرب المثل به وكانت لذلك قصة»[1] ولم يذكر ابن حيان المثل ولا قصته، ومن أقوالهم في هذه الحقبة أيضا ما ذكره عند الكلام على سعدون السرنباقي أحد زعماء المولدين، قال : «وكان المولدون يغلون فيه ويقولون : إنما هو السر الباقي[2]».

- وإذا كنا وجدنا أمثالا تتعلق بالأشخاص عند الزبيدي وأخرى تتصل بالأحداث عند ابن حيان، فإننا نجد عند البكري الجغرافي (ت 487هـ)

1- المقتبس - السفر الثالث : 132.

2- المقتبس - السفر الثاني : 344. ومما يتصل بهذا محاورة بين أحد أتباع ابن حفصون وأحد جنود عبد الرحمن الناصر أثناء حصار حصن شبيلش سنة 300هـ فقد قال الأول :

ردوا ردو لبن امه في فمّه

وأجابه الثاني :

والله لا نردو إلا براس ابن حفصون في حكمه

(المقتبس 5 : 64).

أمثالا تتعلق بالبلدان، ويبدو أنه في كتاب المسالك والممالك كان حريصا على تدوين الأمثال ذات الطابع الإقليمي، وذلك بخلاف ما عرفناه من إهماله لها في كتابه فصل المقال، وسوف نرى فيما بعد أن الأمثال المتعلقة بالبلدان كانت وما تزال لونا طريفا في أمثال الأندلس والمغرب بمعناه الكبير، ومن المؤسف أنه لم يصل إلينا كتاب المسالك والممالك كاملا كما أن الجزء الخاص بالأندلس نفسها يعتبر مفقودا ولم ينته إلينا منه إلا نبذ يسيرة[1] أما الأمثال التي عثرنا عليها عنده فهي مبثوثة في «المغرب، في ذكر بلاد إفريقية والمغرب» وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، ومع أن هذه الأمثال تتصل بأماكن في المغرب وإفريقية فيبدو أنه كان يتمثل بها في الأندلس أيضا بدليل رواية البكري لها كما أن بعضها وارد في مجموعة الزجالي، ونورد فيما يلي مجموعة من هذه الأمثال التي التقطناها من المغرب للبكري :

- إذا رَبَط الْخَارجي خيْلَهُ بترْ نُوط[2]. لَمْ يَبْقَ لأَهْل السَّواد مَحْلول ولا مَرْبُوط (ص : 31).

- وَيْـلُ لأَهْلِ السَّواد، من مَخْلَد ابْنِ كَيْدَاد[3] (ص : 40).

- دُور تُونس : أَبْوَابُهَا رخَام، وداخِلها سخام (ص : 40).

- لولا البقونس[4]، لَمْ يُخَالِفْ أَهْلُ تُونس (ص : 41).

---

1. نشرها في بيروت الدكتور عبد الرحمن الحجي
2. ترنوط : فحص على ستة أميال من المهدية.
3. أنظر أخباره في البيان المغرب 1 : 216 - 218 وفي غيره.
4. البقونس : جنس من السمك، وهذا الاسم لم يعد معروفا اليوم في تونس، دوزي 1 : 105.

- هُو أَثْقَلُ مِن جَبَل زَعْوَان[1] (ص 46).

- هُوَ أَثْقَل من جَبَل الرَّصاص[2] (ص 46).

- بَيْطام[3]، بيت الطعام (ص 51).

- إذا جِئْتَ اجْر[4]، فَعَجِّر، فإنَّ فيه أَسَداً يفْرى، وحَجَراً يَبْري وريحا تذْري (ص 54).

- طَعْنَة بمزْرَاق، خَيْر مِن شَرْبَة مِن بير أزْرَاق[5] (ص 55).

- طَرْفَله[6]، طرف من الجنَّة (ص 60).

- فاس، بلَد بِلاَ نَاس (ص 115).

وربما كنا نجد عنده مثل هذا أو أكثر منه لو وصل إلينا كاملا القسم الخاص بالأندلس من كتاب المسالك والممالك.

- ومن هذه المؤلفات التي نجد فيها أمثالا أندلسية أو أمثالا مشرقية تمثل بها الأندلسيون كتاب «التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيرى في غرناطة» الذي نشره المستشرق ليڤي بروفنسال بعنوان : «مذكرات الأمير عبد الله[7] ومؤلف الكتاب هو عبد الله بن بلقين الصنهاجي أمير غرناطة وآخر أمراء بني زيرى فيها، وقد تولى إمارتها بعد جده باديس بن حبوس الملقب بالمظفر بالله سنة 469هـ واستمر فيها إلى سنة 488هـ

1ـ جبل معروف.
2ـ ذكر البكري أنه جبل على تونس المدينة.
3ـ هو اسم نهر مدينة طبنة التاريخية بالجزائر.
4ـ اجر موضع يقع على الطريق من القيروان إلى بونه كثير الحجارة، ومأسدة، دائم الريح العاصفة.
5ـ بئر وبيئة الماء بإزاء مدينة مرسى الخزر، راجع المثل رقم 1066 في القسم الثاني من هذا الكتاب.
6ـ قرية أولية في المغرب الأوسط.
7ـ وقد أعاد نشره أخيرا الدكتور أمين توفيق الطيبي.



حيث خلع ونفي إلى مدينة أغمات بالمغرب وفيها ألف كتاب «التبيان»، وقد وصفه بروفنسال بأنه «وثيقة سيكولوجية من الطراز الأول[1]»، وأشار إلى تأثر أسلوبه بالعامية الأندلسية دون أن يمثل لمظاهر هذا التأثر، وجاء الدكتور طه الحاجري بعد مرور زمن على نشر الكتاب فكتب مقالة في نقد هذه النشرة وتصويب الأخطاء التي تستحق التصويب[2] ويقول الدكتور الحاجري : «وإنما الأمر الذي أود أن ألفت النظر إليه وأثير الرغبة في درسه، هو أن هذا الكتاب إلى جانب كونه وثيقة تاريخية، و«وثيقة سيكولوجية من الطراز الأولَ ـ كما يقول بروفنسال ـ يمكن اعتباره وثيقة لغوية من طراز خاص، إذ نستطيع أن نتبين منها طائفة من الاستعمالات اللغوية الخاصة التي تنفرد بها الأندلس والمغرب العربي[3] ثم ساق أمثلة من الاستعمالات العامية في الكتاب.

ونريد أن نضيف هنا أن الكتاب يشتمل أيضا على طائفة من الأمثال الأندلسية والبربرية، وأخرى من الأمثال العربية والمولدة التي كان يتمثل بها أهل الأندلس، وقد وجدنا بعضها في مجموعة الزجالي، والطريف في هذه الأمثال أن بعضها يرد في الكتاب على ألسنة بعض أمراء بني زيري، وقادة الجند منهم، والمعروف أن هؤلاء كانوا يتكلمون بالبربرية، ومن هنا نرجح أنهم تمثلوا باللسان البربري ثم ترجمها الأمير عبد الله إلى العربية، ونستطيع أن نلمح أثر الترجمة فيها من خلال تركيبها واحتفاظها ببعض الكلمات البربرية، فقد أورد على لسان الوزير الناية يخاطب باديس بن حبوس الملقب بالمظفر :

1ـ مقدمة التبيان : 8.
2ـ مجلة معهد المخطوطات العربية ـ المجلد 9 الجزء 2 (نوفمبر 1963) من ص 321 إلى 342.
3ـ المصدر نفسه : 322.



ـ مِنْ ثَـوْر حَي لا يُلْبَس هَراكيس (ص : 61).

وقد رواه الزجالي فيما بعد بالصيغة التالية :

ـ جلدان حي ما تُعْمَل مِنُّ هَراكِسْ.

وهذا مثل يحمل في طيه عنوان بربريته لأن كلمة هراكيس أي نعال كلمة بربرية وما تزال مسموعة في المغرب، ومن ذلك ما ذكره على لسان حبوس بن ماكسن إذ يقول :

ـ إن صَنْهَاجَة عِنْدِي : «مِثْل الأسْنَان فِي الفَم إنْ عَدِمت مِنهم واحدا لا تُخْلِفه أبَدا » (ص : 62).

وما رواه على لسان جده المظفر إذ يقول :

ـ مَثَلى ومَثَل ابن صُمَادِح :«كَمَثَل القبعة التي كانت بإزائها عش إوزَّة، فأعجبها بَيْضُها، فقالت : لأَحْضُنَنَّ هَذا البَيْض، يَكُون خَيْرا فَلَمَّا رَامَت ذلك عَجَزت وقَصُرت جَنَاحها عن التَّحْضين، فَلَما رَجَعَت إلى مَتَاعها وَجَدَتْها قَد فَسَدَت» (ص 55 ـ 56).

فهذان المثلان ونحوهما من أمثال القياس والتشبيه من المروي بالمعنى، ونحسب أن المذكورين تمثلا بهما بلغتهما وربما كانا مثلين بربريين وإن كان الثاني منهما يشبه إلى حد ما قول ابن هرمة الذي يتمثل به : (التمثيل والمحاضرة : 362).

كَتَاركة بَيْضَها بالعَـراء ومُلْبِسَة بَيض أخْرَى جَنَاحا

وتُرينا هذه الأمثال جانبا آخر وهو كيف كان هؤلاء القادة يصدرون في أحكامهم عن أمثال انحدرت إليهم من تراث الأسلاف وتجاربهم. وذلك



لأنهم وإن كانوا آية في الشجاعة والإقدام إلا أنهم كانوا أميين أو أشبه بالأميين منهم بأهل العلم، ومن هنا رأيناهم يضربون الأمثال الشعبية في المواقف التي كان بعض معاصريهم من ملوك الطوائف الأندلسيين كالمعتمد بن عباد يتمثلون فيها بأبيات الشعر الرفيع.

وعبد الله بن بلقين نفسه على حظه من الأدب مولع بضرب مثل هذه الأمثال في المواقف المختلفة، وبعضها كما قلنا عربي، وبعضها مولد، ومنها ماهو أندلسي صميم، ولكننا نعتبرها جميعا مما تمثل به العامة في الأندلس، وقد يكون من المفيد أن نثبت بعض ما استخرجناه من أمثال «التبيان» فيما يلي :

- الحَدِيث ذو شُجُون. (ص 3، 28)
- إذَا تمَّ العَقْل نَقص الكَلاَم. (ص 3)
- المَوْتَ يَغْدو ويَرُوح. (ص 28)
- لا تَتْرك حَاضِراً لِغَائب. (ص 24)
- ليْس الخبر كَالعِيَان. (ص 31)
- مَا صلُح للمَولَى علَى العَبْد حَرَام. (ص 39)
- قِيل : فُلاَن لاَ يَعْرف الشَّر، قَال ذَلك أجْدَر أنْ يَقَع فِيه. (ص 11)
- فإمَّا هُلْك وإمَّا ملْك. (ص 23)
- إذا تمَّ شيء دَنا نقْصُه. (ص 77)
- الحديث ذُو شُجُون. (ص 83)
- زَادَ فِي الطِّين بَـلَّة. (ص 119)



- كَرَاكِب الأسَـد. (ص 122)

- الأعْمَال بالنِّيَـات. (ص 129)

- عِنْد اللّـه تَجْتَمِع الخُصُوم. (ص 129)

- هُدْنَة على دَخَن. (ص 132)

- لاَ تَشْكُ هَـمَّك مَع مَن لَمْ يَعْنِه مَا عَناك. (ص 141)

- أوّل مَنْ يطُوع وآخر مَن يَعْصي. (ص 91)

- تُـريه الأمُور وُجُوهها. (ص 105 ـ 111)

- لاَ الحِمَار سَقَـط ولا الزّق انْخَرق. (ص 120)

- الحَاضِر أبْصَر من الغَائب. (ص 127)

- مِن أسَاسِه يَكُون بُنْيَانُه. (ص 130)

- الغِمْد لاَ يَحْتَمِل سَيْفَيْن. (ص 140)

- بِطَوقِي، عَلَى عُنقي. (ص 137)

- دُون جُهْدك لاَ تُلاَم. (ص 141)

- مِن العَنَاء رِيَاضَة الهَرم. (ص 142)

- لَعَلَّ لَه عُذْرا وأنت تَلُوم. (ص 142)

- لاَ خَيْر فِي عَقْل لاَ يَتصرَف تَارَات[1]. (ص 143)

- لا يُلقَى أحدٌ إلاَّ بحَجَره. (ص 173)

- اليَاسُ عمَّا فَات يُعْقِب رَاحة. (ص 175)

1ـ ما يزال هذا المثل مسموعا في المغرب، ومن صيغه : العقل اللي ما يدور كدية.



- ربَّ مطعمة تعودُ دُرَّاخا ؟ (ص : 175)

- القوس لا تـكبد إلاَّ طرفيهَا. (ص : 175)

- لكل امْرئ من دَهْرِه مَا تَعوَّد. (ص : 184)

- لامكن للْـخبـاء أن يـقف دون أوْتــاد. (ص : 148)

- الذي يَقْدر عليه فلْيَصْنعْ. (ص : 127)

- اتَّسع الخَرق عَلَى الرَّاقِـع. (ص : 148)

- لاَ وَلَد لنَـا ولا تَـلَـد. (ص : 151)

- اليَوْم بِـي وغَــداً بِكُم. (ص : 166)

- ما حكَّ جلْدَك مِثـل ظُـفْرك. (ص : 99)

- لا يُلْدَغ مُـومَن من جُحْر مَـرَّتَيْـن. (ص : 100)

- إذا لمَ تَـغْلب فاخْلب. (ص : 125)

- النّاس يعيشُوا لِياكُلُوا ونَحْن نَـاكل لِنَعِيش. (ص : 183)

- لا بُدَّ بَعْد الشَّهْد مِن إبَـر النَّحْل. (ص : 195)

وبعض هذه الأمثال أنصاف أبيات معروفة كالمثل الأخير إلا أنها أصابها - بسبب الاستعمال العامي - التغيير والحذف والكسر، وهذه الناحية هي التي سيُعالجها ابن هشام اللخمي الإشبيلي كما سنرى.

ومن المؤلفات الأندلسية التي تشتمل على عدد كبير من أمثال الخاصة والعامة كتاب بهجة المجالس وأنس المجالس لأبي عمر يوسف ابن عبد البر المتوفي سنة 463هـ، وابن عبد البر - كما هو معروف - محدّث كبير وفقيه مشهور ومؤرخ بارز وأديب بارع وشهرته تغني عن التعريف به،



وأما كتابه بهجة المجالس فإنه يدل على طول باعه في الأدب، وما أحسن قول الحجاري في تحليته «إمام الأندلس في علم الشريعة ورواية الحديث لا أستثني من أحد، وحافظها الذي حاز خصل السبق واستولى على غاية الأمد، وانظر إلى آثاره، تغنك عن أخباره، وشاهده ما أورده في تمهيده واستذكاره، وعلمه بالأنساب، يفصح عنه ما أورده في الاستيعاب، مع أنه في الأدب فارس، وكفاك دليلا على ذلك كتاب بهجة المجالس»[1] ولأبي محمد ابن حزم شهادة كهذه في صاحبه أبي عمر[2].

لقد طبع كتاب بهجة المجالس بتحقيق صديقنا محمد مرسي الخولي أكثر من مرة وهو يقع في مائة واثنين وثلاثين بابا، ويشبه في مادته ومنهجه كتاب العقد لابن عبد ربه وسنتحدث عنه ضمن كتب المحاضرات، أما الآن فالذي يعنينا منه هو مادة الأمثال التي جعلها ابن عبد البر من أهداف كتابه فقد تحدث في مقدمته عن ضرورة العناية «بتقييد الأمثال السائرة والأبيات النادرة»، وكرر هذا المعنى فقال: «وقد جمعت في كتابي هذا من الأمثال السائرة، والأبيات النادرة والحكم البالغة والحكايات الممتعة في فنون كثيرة وأنواع جمة من معاني الدين والدنيا ممّا انتهى إليه حفظي ورعايتي وضمّته روايتي وعنايتي»[3].

ومن هنا نجد الأمثال والأقوال المأثورة منثورة في ثنايا الكتاب وهو يوردها مسبوقة بعبارة «كان يقال» أو «كانوا يقولون» أو «قالوا» وأحيانا يجمعها تحت عنوان كقوله: «من الأمثال في السلطان وصحبته» وقوله:

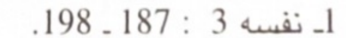
---

1. المغرب 2 : 407 ـ 408.
2. نفح الطيب 3 : 170 (ط. إ. عباس).
3. بهجة المجالس 1 : 36.



«باب من مزدوج الكلام» ويفهم من صنيعه أن هذه الأمثال والأقوال كانت سائرة على ألسنة الخاصة في عهده ولكننا لا نعرف هل كانت معروفة لدى العامة أم لا، وقد نسب إلى هؤلاء بعض الأمثال كقوله : «من أمثال العامة البركات مع الحركات» ويمكن القول بأن عددا من الأقوال والأمثال الواردة في بهجة المجالس نجدها منسوبة إلى المولدين في مجمع الأمثال للميداني ومنها تلك التي أفرد لها بابا سماه : «باب من منثور الحكم والأمثال، منتقى من نتائج عقول الرجال»[1] ويشتمل هذا الباب على مائة وخمسين مثلا ومنها على سبيل المثال :

- إذَا لمْ يُواتِك البازي في صَيْدِه فانتفْ ريشه.
- إذا جَهِل عَليك الأحْمَق، فالبِسْ لَه سِلاَح الرِّفق.
- إذَا احْتَرَق الفُؤاد، ذَهَب الرُّقَاد.
- مَن طَلَب إلَى لَئِيم حَاجة، فهُو كَمَن طَلَب صَيْد السَّمَك فِي المَفَازَة.
- مُؤمِّل النَّفع من اللِّئَام، كزارع السِّمسم في الحمَّام.
- صَدِيقِي دِرهَمي، إذا فرّج هَمِّي.
- مِن الفَسَاد، إضَاعةُ الزَّاد.
- فِي الوُجُوه تَظْهَر المَوَدَّات.
- مِن الآفَات، كَثْرَة الالْتِفَات.
- إذَا جَاء القَدَر، عَمِي البَصَر.
- لاَ يَضُرُّ السحَاب، نُباح الكِلاَب.



1ـ نفسه 3 : 187 ـ 198.



وهذه الأمثال وإن كانت فصيحة مُعْرَبة فإنها مما يسهل على العامة سماعها وحفظها والتمثل بها ثم التصرف فيها وتغييرها مع مرور الزمان وكثرة الاستعمال فتصبح صيغة المثل الأول هكذا :

إذا لم ينفعك الباز انتف ريش.

4ـ وفي القرن السادس جاء ابن هشام اللخمي الإشبيلي فأمدنا بمجموعة من الأمثال التي كانت تدور على ألسنة العامة في هذا القرن، وذلك في آخر فصل من كتابه : «تقويم اللسان»[1].

وقد اقتصر فيها على نوع محدود من الأمثال، وهو ما يتثمل به من الأبيات والاشطار والأمثال المقتبسة من الشعر، ويشير هو نفسه إلى هذا في تقديمه لهذا الفصل إذ يقول : «ومما تمثلت به العامة مما وقع في أشعار المتقدمين والمحدثين، تلقّنوها عن الفصحاء وهم لا يعرفون الأشعار التي أخذت منها وربما حرفوا بعض ألفاظها[2]». وهذا التقديم يذكرنا بتقديم المفضل بن سلمة لأمثاله إذ يقول : «هذا كتاب معاني ما يجري على ألسن العامة في أمثالهم ومحاوراتهم من كلام العرب وهم لا يدرون معنى ما يتكلمون به من ذلك[3]».

ويبدو أن ابن هشام لم يكن يقصد إلى تدوين هذه الأمثال الجارية على ألسنة العامة بقدر ما كان يقصد إلى تقويم لحنها وإقامة وزنها ووصلها

1ـ نشر هذا الفصل الدكتور عبد العزيز الأهواني في الكتاب التذكاري : إلى طه حسين ... وهو يقع في الكتاب من ص 173 إلى ص 294، ثم أعاد نشره أخيرا الأستاذ أ.غ، غومس مكتوبا بالحروف اللاتينية مع ترجمة وتعليقات تحت عنوان :

Los Refranes de Ibn Hisam Lajmi في مجلة الأندلس (Al Andalus, 1970 vol. XXXV. FASC.I)

2ـ المصدر نفسه : ص 273.

3ـ الفاخر : 1.



بأصولها ونسبتها إلى أصحابها، إذ لو كان تدوين الأمثال العامية غرضا بذاته لما اقتصر على ذلك القدر المحدود كما وكيفا.

تشتمل مجموعة ابن هشام على 112 مثلا، منها سبعة عشر بيتا لشعراء قدماء ومحدثين، وبينهم ثلاثة من الأندلسيين وهم: الزبيدي وابن شهيد والسميسر، وذلك يدل - كما لاحظ الدكتور عبد العزيز الأهواني[1] - على انتشار الشعر الأندلسي بين العامة الأندلسيين حتى صاروا يتمثلون ببعضه، ولا ينبغي أن نستغرب تمثل عامة الأندلس بأبيات الشعر، فقد كان بعضهم - كما هو الشأن في الأمصار العربية القديمة - على جانب من الثقافة الشفوية أو السماعية، بل إن الروايات تشير إلى أندلسيين أميين كانوا يقرضون الشعر الفصيح[2]، وفي عصرنا هذا نرى الأستاذ ابن سودة مدون أمثال فاس يذكر كثيرا من أبيات الشعر التي يتمثل بها عامة فاس[3].

وفي الأبيات وأنصاف الأبيات التي رواها ابن هشام كما سمعها من العامة ألوان من الكسر والتحريف، وهذا يوضح معنى العامة عنده،. وأنصاف الأبيات التي يتمثل بها هي أكثر ما في مجموعة ابن هشام ومعظمها وارد في الأبواب الخاصة بها من كتب الأدب والأمثال[4] وبعضها ذكره ابن عبد ربه في العقد مما تمثل به العامة في زمنه مثل:

- كَالمُستَغِيث مِن الرَّمْضَاء بالنَّار.

وذكر ابن هشام أنهم كانوا يتمثلون به مكسورا هكذا:

---

1. أمثال العامة في الأندلس: 246 (في كتاب إلى طه حسين ...).

2. معجم البلدان (مادة شلب).

3. يقول في مقدمة كتابه أمثال فاس: «فإنك تجد العامي الصرف الذي ربما لا يحسن الكتابة وهو ينطق ببيت شعر أو بيتين، إما بوجهه وإما به بعض التحريف، ولكنهم لا يغيرون المقصود منه كيفما كان الشعر جاهليا أو مولدا، وربما ينطقون حتى بالشعر الجديد الذي نظم أخيرا وكان مما يتمثل به».

4. انظر على سبيل المثال فهرس أنصاف الأبيات في التمثيل والمحاضرة: 549 - 566، وباب أعجاز الأبيات في كتاب الآداب لابن شمس الخلافة: 144 - 156 - ورسالة أعجاز الأبيات للمبرد.

- كَالمُستجِير مِن الرَّمْضَاء إلى النَّار[1].

ومثل :

- إنَّ الشَّقي بِكُل حَبْل يُخْنَق.

ورواه ابن هشام على لسان العامة كما يلي :

- المَنْحُوس بِكُل حَبْل يَخْتَنِق[2].

والمنحوس بمعنى الشقي والمشئوم استعمال عامي أندلسي ومغربي، وسوف يتطور هذا المثل الذي أصله شطر بيت إلى الصيغة التالية في عصر الزجالي :

- المَنْحُوس في بيضُ يَعْثَر[3].

ورواه ابن عاصم بعده كما يلي :

- المُطَيَّر في بيضُ يعثَر[4].

والأمثال التي نسبها ابن هشام إلى العامة وليست مأخوذة من الشعر قليلة، وبعضها سبق أن نسبه ابن عبد ربه إلى العامة أيضا ومنها قولهم:

- لاَتَكُن حلْوا فَتُؤْكَل ولاَ مُرّا فَتُبْصَق.

ورواه ابن عبد ربه منسوبا إلى العامة كما يلي :

- لاَ تَكُن حلْوا فَتُوكَل ولاَ مُرّا فتُلْفَظ[5].

1ـ العقد 3 : 128 وأمثال ابن هشام : 274 (في كتاب إلى طه حسين).
2ـ العقد 3 : 98 وأمثال ابن هشام : 274.
3ـ المثل رقم 323.
4ـ أمثال ابن عاصم رقم 186.
5 العقد 3 : 111 وأمثال ابن هشام : 281.



أما صيغته العربية القديمة فهي كما رواها أبو زيد الأنصاري :

- لاَ تَكُن حلُوا فَتُسْتَرط ولاَ مُراًّ فَتُعْقَى[1].

وقد رأينا أن العامة في الأندلس عدلوا فيما بعد عن التمثل بنص الأشطار كما رواها ابن هشام إلى استعمال أمثال في معناها ومن ذلك قولهم :

- إشْ يَمْشِي مَرْكَب في البر[2].

فهذا ليس سوى ترجمة عامية لهذا الشطر الذي ذكر ابن هشام أنهم كانوا يتمثلون به :

- إنَّ السفينة لا تَجْرِي على اليَبَسِ[3].

وروى أيضا أنهم كانوا يتمثلون بقول السميسر :

إذا المرءُ اشترى بصَلَة فلا تَسْأَلْه عن مَسَلَهْ

وقد صاروا يتمثلون به فيما بعد هكذا :

- مَنْ فَكَّر في شِرا بَصلَه، لِسْ يَحْفَظ مَسَلَه[4].

على أننا في مثل هذه الحال لا نستطيع أن نثبت أيهما أصل للآخر، وعند ابن هشام أنهم كانوا يتمثلون بقول سلم الخاسر :

---

1. فصل المقال : 253.
2. أمثال ابن عاصم رقم : 116.
3. أمثال ابن هشام : 290 وهو وارد مما يتمثل به في العقد 3 : 138 والتمثيل والمحاضرة : 261.
4. أمثال ابن هشام : 282 والمثل رقم 1376 في النص.

وفَـاز بالَّـلذَّة الجَسورُ.

أما الزجالي الذي جاء بعده فقد رواه كما يلي :

ـ فَـاز باللذاتْ من جَـسَرَ[1].

وقد رأينا أن نجرّد الأمثال التي نسبها ابن هشام إلى العامة ونوردها مرتبة ومرقمة فيما يلي :

1. الحُـرّ حُـرّ وإنْ مَسَّه الضرَّ[2].
2. مَن رَآنِي فَقَد رَآنِي ورَحْـلِـي[3].
3. أَحَبُّ شَيءٍ إِلَى الإِنْسَان مَا مُنِع[4].
4. خُذ السّارق مِن قَبْل أن يَـأْخُذَك[5].
5. المَنْحُوس بِكل حَبْل يَخْتَنِق[6].
6. كَالمُسْتَجِير مِن الرَمْضَاء إلى النَّار[7].

1ـ أمثال ابن هشام : 288 والمثل رقم 1736 في النص.
2ـ مأخوذ من قولِ الشاعرِ : (عيون الأخبار 1 : 297)
الحر حر وإن ألم به الضـ ر ففيه العفاف والأنَفُ
3ـ عجز بيت لأبي الشمقمق (عيون الأخبار 1 : 245) وهو من أمثال الميداني 2 : 328.
4ـ عجز بيت للأحوص (عيون الأخبار 2 : 3) وهو كالمثل : كل ممنوع مرغوب فيه.
5ـ من أمثال المولدين عند الميداني : 612 وهو عند ابن عاصم رقم 379 وابن شنب رقم 712.
6ـ تحريف لقول الشاعر : إن الشقِي بِكُل حَبْل يـخْنق، وفي أمثال الزجالي : المَنْحُوس فِي بَيْض يعْثُر 323.
7ـ كسر لقول الشاعر : كَالمُسْتَجِير من الرمضاء بالنَّار. وهو عند الميداني وغيره.



7. يَضْرِب أخْمَاساً فَأَسْداساً[1].

8. كُل امْرِئ فِي شَأْنِه يَسْعَى[2].

9. قَد قِيلَ مَا قِيل مِن حَق ومن كَذِب[3].

10. فَيَالَيْت لَم تَزْنِى وَلَن تَتَصدَّقِي[4].

11. لِكُلّ مَقَام مَقَال[5].

12. كَأَنَّه مُصْحَف فِي بَيْت زِنْدِيق[6].

13. أَضْعَف مِن حُجَّة نَحْوي[7].

14. شَبَه الشَّيء مُنْجذب إِلَيه[8].

15. مَن بالْعِرَاق لَقَد أبْعَدت مَرْمَاك[9].

16. لاَ نَاقَةُ لي فِي هَذا ولاَ جَمَل[10].

17. خَلّ الجَاهِل يَشْفك مِن نَفْسه[11].

18. مَن يَزْرَع الشَّوك لاَ يَحْصد بِه عنبا[12].

1ـ من قول الشاعر : إذَا أَرَادَ امرُؤ هَجْراً جَنَى عِلَلاً   وظَل يَضْرِب أخْمَاسا لأسْدَاس

2ـ من قول الشاعر : أَسْعَى على جل بني مَالِك   كُل امرئ في شَأنه سَاع

3ـ أصله صدر بيت للنعمان بن المنذر : قد قِيل ما قيل إن حقا وإن كذبا، وهو عند الميداني وغيره.

4ـ تحريف لقول اسماعِيل بن عمار :

كصاحبة الرمان لما تصدقت   جرت مثلا للخائن المتصَدّق

يقول لها أهل الصلاح نصيحة   لك الويل لا تزني ولا تتصدقي

5ـ من قول الحطيئة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه :

تَحَنّن على هداك المَليك   فإنّ لِكُل مَقَام مقالا

6ـ عجز بيت للقاضي عبد الوهاب، وأصله : كأنني

7ـ عجز بيت لابن فارس اللغوي

8ـ عجز بيت لابن الرومي : رآها ناظري فصبا إليها   وشِبْه الشَّيء مُنْجَذبٌ إليه

9ـ عجز بيت للشريف الرضي :

سَهْم أصاب ورامِيه بذي سلم   مَن بالعِرَاق لقد أبْعَدت مَرْمَاك

10ـ عجز بيت الشاعر وصدره : وما صرمتك حتى قلت معلنة.

11ـ من قول صالح بن عبد القدوس :

لا يَبلغ الأعداء من جاهل   ما يبلغ الجاهل من نفسه

12ـ عجر ببيت لصالح بن عبد القدوس أيضا وصدره : إذا وَتَرْتَ امرءاً فاحذر عداوته

19. بَعْد الصَّدَاقَة صِرْنَا مَعَارِف[1].

20. لَوْ بَغَضَتْنِي يدي قَطَعْتُها[2].

21. لِكُل جَدِيد لَذَّة[3].

22. أَرْسِل حَكِيما ولاَ تُوصِه[4].

23. ولِّ القَوْس بَارِيهَا[5].

24. شَتَّان بَيْن مُشَرّق ومُغَرِّب[6].

25. لَعَلَّ لَه عُذْراً وأَنْت تَلُوم[7].

26. شَتَّان مَا بَيْن اليَزِيدَيْن في النَّدَى[8].

27. إنْ عَادَت العَقْرَب عُدْنا لَهَا[9].

28. ومُبْلغ عُذْرٍ نَفْسَها مِثْلُ مُنْجِح[10].

29. لاَ يَنْقُص الكامِلَ مِن كَمَاله شَيْء[11].

1ـ من قول الشاعر : كنت صديقا فصرت معرفةً بدلّك الله شر ما بدلِ

2ـ من قول المِثقبِ العِبدي :

فإني لو تُعانِدني شِمالي عِنادَكِ ما وَصلتُ بها يَميني

إذاً لقطعتُها ولقلت بيني كذلك أجتوي من يجتويني

3ـ من قول ضابئ البرجمي : لكلّ جديد لذّة غير أنَّني وجدتُ جديد المَوت غَير لذيذ

وانظر أمثال الزجالي : لكل جديد لذة ولكل قديم حرمة رقم 1220.

4ـ من قول الزبير بن عبد المطلب : (الموشح للمرزباني 16) :

إذا كنت في حاجة مرسلا فأرسِل حكيماً ولا توصِه

5ـ من قول الحطيئة (الفاخر : 246) :

يا باري القوس برياً ليس يحسِنها خَلّ العَناء وولّ القوس باريها

6ـ عجز بيت وتمامه : راحت مشرِقة ورحتْ مغرِباً شتّان بين مشرِق ومغرب

7ـ عجز بيت لدعبل وتمامه : تأن ولا تعجل بلومك صاحِباً لعل له عذرا وأنت تلوم

8ـ من قول ربيعة الرقّي : لشتّان مابين اليزيدين في النّدى يزيد سُلَيْم والأغر ابن حاتم

9ـ البيت للفضل بن العباس اللهبي، انظر لسان العرب (مادة عقرب).

10ـ من قول عروة بن الورد (ديوانه : 23) :

ومن يك مثلي ذا عيالٍ ومقتراً من المال يطرَحْ نفسه كُلّ مَطرح

ليبلغ عذراً أو ينال غنيمة ومبلغ عذر نفسها مثل منجح

11ـ من قول ابن كناسة : لا ينقص الكامل من كماله ما جر من خير إلى عيالِه



30. لِكُل زَمَان دَوْلة ورِجَال[1].

31. كُسير وعُوير والثَّالِث ليْس فِيه خَيْر[2].

32. عُدِّي السِّنِين إذَا رحلْتُ لرِحْلَتِي[3].

33. لا يَأبَى الكَرَامَة إلاّ حِمار[4].

34. لا تُعلّم الدُّب رَمْي الحَجَر[5].

35. صاحِب الرَّبْع ساعٍ[6].

36. مَن سكَت لِنَحْس لَم يَسْمَع نَحْسا ابن نَحْس[7].

37. مَن عَضَّته الحَيَّة مِن الحَبْل يَنْفر[8].

38. لا تَكُن حُلواً فتُؤكَل ولاَ مراً فتُبْصَق[9].

39. إذا بَلَغ العَدو في الماء إلى ركْبَتَيه فاتْرُكْه فإنْ بلغ إلى صَدْرِه فاتْرُكه فإن بلغ إلى حلْقِه فغَرّقْه.

---

1. من قول الأسود بن عمارة :

أقيموا بني عمرو بن عوف وأربعوا — لكلّ أناس دولة وزمان

وهو عند الميداني وغيره.

2. مثل قديم ويوجد في جل كتب الأمثال بصيغ متعددّة.

3. البيت للحطيئة وهو وحكايته في عيون الأخبار 1 : 140.

4. من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو عند الميداني وغيره.

5. عند ابن عاصم : لا تلهم الدب لرمي الحجر 817 وعند الزجالي بصيغة أخرى.

6. أصله قول عبد الله بن الحسين : غلة الدور مسالة وغلة النخل كفاف وغلة الحب الغنى. عيون الأخبار 1 : 252.

7. عند الميداني 2 : 331 : من لم يصبر على كلمة سمع كلمات وفي أمثال الزجالي : من سكت لكلب ما يسمع كلب ابن كلب 1441.

8. يوجد بصيغ مختلفة في جل كتب الأمثال. انظر الزجالي رقم 1422.

9. يوجد بصيغ متعددة في جل كتب الأمثال.



40. يريد المرءُ أن يُؤتى مُناه ويأبى اللهُ إلاّ ما يريدُ[1]

41. وقايةُ اللّه خَيرٌ من تَوقِّينا[2].

42. يَا حَامِلُ اذكر حَلا[3].

43. إذا المرءُ اشترى بَصَله فلا تسأله عَنْ مَسلَه[4].

44. صَلاَبَة الوَجْه صَلاحُ بِالفَتَى[5].

45. العينُ تعلمُ في عَيْنَيْ مُحَدِّثِها من كانَ من حزبِها أو من أعاديها[6].

46. أرضٌ بأرضٍ وإخوانٌ بإخوان[7].

47. لا يُصلِح النَّفْس إذا كَانت مُصرفَّةً إلاَّ التَّنقُّلُ من حَالٍ إلى حَال[8].

48. البَس لكلِّ حالةٍ لبوسَها إمّا نعيمَها وإمّا بوسَها[9].

49. خَيْر الخَيْر عَاجِلُه[10].

50. وهَل يُصْلح العَطَّار مَا أَفْسَد الدَّهْر[11].

51. عَلى قَدْر كسَائِك مُد رِجْلَيْك[12].

---

1. هو لأبي الدرداء عويمر.
2. مأخوذ من قول بعضهم :
وقاية الله أولى من توقّينا وسنة الله في الماضين تكفينا.
3. يا حامل تصحيف والصواب : يا حابل أي ياعاقد ويارابط. والمثل عند الميداني وغيره.
4. البيت للشاعر الأندلسي السميسر، وأصله كلمة تنسب إلى الشافعي وهو عند الزجالي وابن عاصم.
5. تحريف لقول بعضهم : صلابة الوجه صلاح بالفتى ورقة الوجه من الحرفة.
6. من أبيات تنسب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
7. من قول ابن الجهم : تلَقى بكل بلاد إن حللت بها أرضاً بأرض وإخواناً بإخوان.
8. هو لأبي العتاهية وصواب إذا : إذ.
9. هو لبيه بن هلال الغزاري ويوجد في جل كتب الأمثال.
10. من قول أبي تمام : ولا شك أن الخير منك سجية ولكن خير الخير عندي المعجّل.
11. عجز بيت لأبي الزوائد الأعرابي.
12. انظر تخريجه في أمثال الزجالي رقم 1640.



52. ليس لكرامة الدَّجَاجة غُسِلتْ رِجْلاها[1].

53. مَا سلم حتّى ودّعا[2].

54. مَا الحُب إلاَّ للحَبِيب الأوَّل[3].

55. ذهب الذين يُعاشُ في أكْنَافهم   وبقيتُ في خَلْفٍ كَجلد الأجرب[4].

56. إذَا لم يكنْ عونٌ من اللّه للفتَى   فأكثَر مَا يَأتي عَليه اجْتِهَادُه[5].

57. غداً للنَّاظِرين قَريب[6].

58. مَن حَفر لأخيه حُفرة وقَع فيها[7].

59. مَن لَم يَنْجُ مَع مُوسَى غَرق مَع فِرْعَون[8].

60. مَن طَلَبه كُلّه فَاتَه جُلُّه[9].

61. القِرْد فِي عَيْن أمِّه غَزَال[10].

62. مَن غَاب غَاب سَهْمه[11].

63. لَوْلاَ الضَّرورة مَا جِئْت[12].

---

1. أنظر تخريجه في أمثال الزجالي رقم 1358.
2. أصله قول علي بن جبلة : كابد الأهوال في زَوْرَته   ثم ما سلّم حتى ودّعا
3. عجز بيت لأبي تمام وتمامه :
نقّل فؤادك حيث شئت من الهوَى   ما الحبّ إلاّ للحبيب الأوّل
4. هو للَبيد بن أبي ربيعة
5. ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.
6. مأخوذ من قول هدبه بن خشرم :
فإن يك صدر هذا اليوم ولّى   فإنّ غداً لناظره قريب
7. هو في مجمع الميداني والمستقصى وغيرهما.
8. عند الميداني 2 : 327 : من لم يرض بحكم موسى رضي بحكم فرعون.
9. أنظر تخريجه في أمثال الزجالي رقم 1448.
10. في المجمع والمستقصى : القرنبى في عين أمها حسنة.
11. أنظر تخريجه في أمثال ابن عاصم 690.
12. صدر بيت مكسور لابن بسام البغدادي وعجزه : وعند الضرورة يؤتى الكنيف.



64. ما بَرْطَالُ ومَا مَرَقُه[1].

65. مَنْ عاش أَبْصَرَ في الأعداء بُغْيَتَه[2].

66. هَـواي وهَـوَى نَـاقَتي مُخْتلف[3].

67. ومن مِثل حَارِسِها تُحْرس[4].

68. زَوْج مِن عُـود خَيْـر مِن قُعُود[5].

69. وفـي النَّفْس حَاجَات وفيك فَطَانَـة[6].

70. مَصَائِب قَوم عِند قَوم فَوائِد[7].

71. ويستَصْحب الإنسانُ من لا يُلائمه[8].

72. أكتُم السِّـرَّ فيه ضَرْبَـةُ العُنْق[9].

73. لَيْسَ في العِير ولاَ فِـي النَّفِير[10].

---

1. أنظر تخريجه في أمثال الزجالي رقم 101.
2. صدر بيت وعجزه : من عاش أبصر في الأعداء بغيته.
3. مأخوذ من قول الشاعر :

هوى نَاقَتي خَلْفي وقُدَّامي الهوى   وإني وإيّاها لمُختلفَان

ومنه المثل المولد : الجمل في شيء والجمال في شيء. الميداني 1 : 190، وانظر الزجالي 1753.

4. عجز بيت لبعضهم وصدره : وكنت اتخذت لها حارساً،
5. يوجد في جل كتب الأمثال.
6. صدر بيت للمتنبي وعجزه : سكوتي بيان عندها وخطاب.
7. عجز بيت للمتنبي وصدره : بذا قضتِ الأيام بيني وبينها.
8. عجز بيت للمتنبي وصدره : وقد يتزيا بالهوى غير أهله.
9. عجز بيت لأبي محجن الثقفي وصدره : وقد أجود وما مالي بذي فنع.
10. يوجد في جل كتب الأمثال، وانظر مادة نفر في لسان العرب.



74. عبَدُ لَيس لَك حرٌّ مثلك[1].

75. ويأتيكَ بالأخبارِ من لم تُزَوّدِ[2].

76. هذا حُكْم سَدوم[3].

77. لا تَصْحَبِ الأرْدَى فتَرْدَى مع الرّدى[4].

78. وفَازَ باللّذَة الجَسور[5].

79. جِسْم البِغَال وأحْلاَم العَصَافِير[6].

80. إن الحُرّ حُر[7].

81. إذَا عيّروا قالُوا مَقَادير قُدِّرَتْ[8].

82. والظُّلْم من شِيَم النُّفُوس فَإن تَجِدْ ذَا عِفّة فَلِعِلّةٍ لا يَظْلمُ[9]

83. ومَن لاَ يكرّم نَفْسه لا يكرَّم[10].

84. إذا كَان الطباع طباع سوءٍ فليس بنافعٍ أدب الأَديب[11]

85. مَن أشْبَه أبَاه فَمَا ظَلَمْ[12].

86. ولَو نُعْطَى الْخِيارَ لَمَا افْتَرَقْنا ولكنْ لا خِيَار مَع اللَّيالي[13]

---

1. وجد في العقد ومجمع الأمثال والمستقصى.
2. عجز بيت مشهور لطرفة وصدره : ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا.
3. الصيغة المعروفة هي : أجور من قاضي سدوم.
4. عجز بيت لعدي بن زيد العبادي وصدره : إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم.
5. عجز بيت لسلم الخاسر وصدره : من راقب الناس مات غما.
6. عجز بيت لحسان بن ثابت وصدره : لا باس بالقوم من طول ومن عظم.
7. ورد ذكره في الكامل 1 : 43.
8. صدر بيت وعجزه : وما العار إلاّ ما تجرُّ المقادر.
9. بيت مشهور للمتنبي.
10. عجز بيت لزهير وصدره : ومن يغترب يحسب عدوا صديقه.
11. هو هكذا في عيون الأخبار 2 : 5 وفيه روايات .
12. من قول كعب بن زهير :
    أقول كما قد قال قبلي عالمٌ بهنّ ومَنْ يُشْبِهْ أباهُ فما ظَلَمْ.
13. البيت لأبي بكر الزبيدي لمّا أمر بالانتقال من مدينة الزّهراء.



87. ولا يردُّ عليكَ الفائت الحزنُ[1].

88. تَجْرِي الرِّيَاح بِمَا لاَ تَشْتَهي السُّفُن[2].

89. إنَّ السفينَة لاَ تَجْري عَلى يَبس[3].

90. إذا لَم يكُنْ فيكنّ ظِلٌّ ولا جَنَى فأبعدكُنَّ اللهُ من شَجَرات[4]

91. منْ كفى النَّاسَ شرَّه كانَ في الجودِ حاتما[5]

92. بدل أعور[6].

93. إذا اللهُ سَنَّى عقد أمْرٍ تيسَّرا[7].

94. الغَلاَءُ جَلاَّب[8].

95. إن السَّلامة مِنْها تَرْكُ ما فيها[9].

96. يُسْجَد لِلْقِرد فِي دَوْلَتِه[10].

97. البَلاءُ موكّلٌ بالمنطق[11].

98. الله أخر مُدَّتي فتأخرت حتَّى رأيت من الزَّمان عجائبا[12]

99. تبدّلت بعد الخيزران جريدا[13].

---

1. عجز بيت للمتنبي وصدره : فما يدوم سرورٌ ما سررت به.
2. عجز بيت للمتنبي أيضا وصدره : ما كل ما يتمنى المرء يدركه.
3. عجز بيت لأبي العتاهية وصدره : ترجو النجاة ولم تسلك طريقتها.
4. البيت لشاعر يدعى جعثنة البكّاء.
5. البيت لابن لَنْكك، ورواية ابن هشام : كان في جود حاتم.
6. هو عند الميداني وغيره.
7. عجز بيت وصدره : فلا تيأسا واستغورا الله إنه.
8. انظر تخريجه في أمثال الزجالي رقم 286.
9. عجز بيت وصدره : والنفس تكلف بالدنيا وقد علمت
10. عند الميداني : اسجد لقرد السوء في زمانه. وانظر أمثال الزجالي رقم 423.
11. عجز بيت وصدره : احفظ لسانك لا يزلّ فتبتلى إن البلاء ...
12. هو لبكّارة الهلالية.
13. الرواية : جريدةً وعجزه : وبعد ثياب الخزّ أحلام نائم.

100. عُذْره أَشدُّ من ذنبه[1].

101. لا طَلع بَعْدي شمسٌ ولا قمر[2].

102. لم يخلِّ فُلان للصلْح مَوْضعا[3].

103. إنْ كنْتُ أخْطأْتُ فما أخْطَا القَدَرُ[4].

104. يَاوَيْح من يَبْكِي لَه الشَّامتُ[5].

105. ومَا ظَالم إلاَّ سَيُبْلَى بِظَالِمِ[6].

106. فَزدْني من حَديثِك يَا سَعْدُ[7].

107. قام لَهُ وقَعَد[8].

108. أنَا أعْلَم بِشَمْس بِلَادي[9].

109. حِيلةُ مَنْ لا حَيلَة لَه الصَّبْر[10].

110. تَزَبَّبَ وهو حصرِم[11].

111. أعلِّمُه الرِّمَاية كلَّ يومٍ فَلَمَّا اشْتَد ساعدُه رَمَاني[12]

---

1. في المستقصى 2 : 159 : عذره أشد من جرمه.
2. مأخوذ من قول بعضهم :
ليت أن الشمس بعدي غربت ثم لم تطلع على أهل بلد
3. انظر تخريجه في أمثال الزجالي رقم 900.
4. عجز بيت وصدره : هي المقادير فلُمْني أو فذَرْ.
5. عجز بيت وصدره : بكى له الشامتِ من رحمة.
6. عجز بيت وصدره : وما من يد إلا يد الله فوقها.
7. عجز بيت وصدره : وحدثتني يا سعد عنها فزدتني جنوناً...
8. وقع في شعر لبعضهم قال :
واعلم بأن الخال حين ذكرته قعد العدو به عليك وقاما
9. في أمثال تيمور رقم 549 : أنا أخْبر بشمس بلدي
10. ورد في الفاخر والعقد والمستقصى.
١١. انظر نظائره عند الزجالي رقم 131.
١٢. ينسب لمعن بن أوس ولغيره وهو في جل كتب الأمثال وفي رواية : فلما استد.

وفي هذا القرن السادس الهجري أيضا نجد أديبا مغربيا آخر يستعمل طائفة من الأمثال العامية وغيرها في كتاباته وهو أبو عبد الله محمد بن محرز الوهراني المتوفى سنة 575هـ قال ابن خلكان فيه :«أحد الفضلاء الظرفاء» وذكر أنه سلك في كتاباته «طريق الهزل وعمل المنامات والرسائل المشهورة به والمنسوبة إليه وهي كثيرة الوجود بأيدي الناس وفيها دلالة على خفة روحه ورقة حاشيته وكمال ظرفه ولو لم يكن فيها إلا المنام الكبير لكفاه فإنه أتى فيه بكل حلاوة»[1] وقد وصفه الصفدى كذلك بأنه «أحد ظرفاء العالم وأدبائهم» ونعت منهجه بالمنهج الحلو والنموذج الطريف وفضل منامه على رسالة الغفران فقال : «والمنام الذي عمله سلك فيه مسلك أبي العلاء المعري في رسالة الغفران لكنه ألطف مقصدا وأعذب عبارة»[2].

ويبدو أن الوهراني خرج من بلده عند حادثة وهران ودخول الموحدين إليها بعد أن حاصروها نحو شهرين وقطعوا عنها الماء وأضرموا فيها النار فمات أكثر أهلها حرقا وعطشا[3]. ولعل الوهراني يصف هذه الحادثة إذ يقول : «لقد صبّحت الخوارج وهران في سبعين ألف مقاتل سوى الأتباع في هدوء السحر على غفلة وصاحت صيحة رجل واحد فما شك أحد في أنه النفخ في الصور فزال كل فؤاد عن مستقره وأسقطت كل حامل من النساء والحيوان ولقد ركبت بعد ذلك مركبا إلى صقلية فأخذنا النوم وهاج علينا البحر فنمت آخر الليل من شدة الهموم والأحزان فما استيقظت إلا على ارتفاع الأصوات بتكبيرة الغرق»[4] ولما

1ـ وفيات الأعيان 4 : 385.
2ـ الوافي بالوفيات 4 : 386 387.
3ـ البيان المغرب ـ قسم الموحدين. : 22.
4ـ منامات الوهراني : 124 ـ 125.



وصل إلى المشرق سئل عن دولة الملثمين وأبناء أمير المسلمين فأجاب قائلا : «هيهات، يا بعد من مات، خمدت نارهم، وبادت آثارهم، واسود ناديهم، وملكتهم أعاديهم :

جمال ذي الأرض كانوا في الحياة وهم   بعد الممات جمال الكتب والسير

أفلت بدورها، فتعطّلت صدورها، وطلعت نحوسها، فغابت شموسها :

أمست خلاء وأمسى أهلها احتملوا   أخنى عليها الذي أخنى على لبد"[1]

وسئل عن رأيه في عبد المومن وأولاده وسيرته في بلاده فقال : «لو أن للقلم لسانا، وللورقة إنسانا، لتألمت، وتظلمت، وأنشدت في الملا، قول أبي العلا :

جلوا صارما وتلوا باطلا   وقالو صدقنا فقلنا نعم

ولكن السكوت عن هذا أنجح، ومسالمة الأفاعي أصلح»[2].

1ـ نفسه : 2 ـ 3.
2ـ نفسه : 3.



ويقول الصفدي إن الوهراني «قدم من المغرب إلى مصر وهو يدعي الإنشاء فرأى الفاضل والعماد وتلك الحلبة فعلم أنه ليس من طبقتهم فسلك ذلك المنهج الحلو والأنموذج الطريف وعمل المنام وله ديوان ترسل»[1]. وقد طبعت منامات الوهراني ومقاماته ورسائله بالقاهرة سنة 1968 ويقول الدكتور عبد العزيز الأهواني في تصديره لهذه الطبعة مايلي : «ولا نكاد نجد في النثر العربي القديم نصوصا فيها ما في كتابات الوهراني من حيوية وذكاء ولمحات تعبر عن شخصية الكاتب وتصور في دقة وبلاغة بعض جوانب الحياة الفكرية والاجتماعية في عصر من عصور التحول في المجتمع العربي»[2]. ويعنينا الآن من منامات الوهراني ما تشتمل عليه من أمثال وأبيات وأنصاف أبيات كان يتمثل بها بالمغرب في زمنه، ونورد فيما يلي مجموعة من الأمثال المستخرجة من كتابه مع الإشارة إلى الصفحات :

- عَين لا تَرَى قَلْب لَا يَحزَن. 32

- كَالشَّعْرة البَيْضَاء فِي الثور الأسْوَد. 37

- اذْكُر سَعِيدا تَرَه. 37

- اذْكُر الكَلْب واسْتَعِد لَه بِفهْر. 37

- إذَا كَانَت حَوْلا، رَبَّة البَيْت أوْلَى. 56

---

1. وفيات الأعيان 4 : 387 ـ 386.
2. منامات الوهراني : 9.

- مَن اسْتَرْعَى الذِّئْب فَقَد ظَلَم. 67

- مَا كُل بَيْضَاء شَحْمَه، ولاَ كُل سَوْدَاء فَحْمَه. 69

- قَال الحَائِط للوتد لَم تَشُقُّني قَال سَل مَن يَدُقُّني. 70

- الدِّين النَّصيحَة. 72

- المُسْتَشَار مُؤْتَمَن. 72

- لاَ عِطْر بَعْد عَرُوس. 82، 207

- مَاحُسْن يَد هِنْد فِي السِّوَار بَعْد السَّبْعِين. 82

- مَا تَصْنَع دَعْد بالشنُوف إذَا صرَّ النَّعْش. 82

- إنَّمَا تَخبَّأُ الدُّمُوع للشَّدَائِد. 83

- مِثْل مَا يُصِيب الحِمَار الصَّغِير إذَا وَاجَه الأسَد الكَبِير. 84

- الغَرِيب ابْن ثوْبَيْه والمقِيم ابْن جَدَّيه. 100

- رَجُل كَالسَّطْل لاَ يَصْلُح إلاَّ للإسْطَبْل. 102

- جَارِي السُّلْطَان، مِثْل الظَّل الزَّائِل.

- أذْكَى مِن عُطَارِد. 125

- سَلط الكَلْب عَلَى الخَنْزِير. 126

- صُحْبَة فِي غَير اللَّه آخِرَها إنَّا للَّه. 126

ـ العَيْر يضرط والمكْوَاة في النَّـار. 126

ـ أبْلَـق خير مِنْ أسْوَد. 126

ـ كَالخَصي المُفْتَخر بإحْلِيل موْلاه. 133

ـ كَجَالب التَّمر إلَى هَجَر. 135

ـ رُبَّ حَامل فِقْه إلَى مَن هُو أفْقَه منه. 135

ـ أكْل الحَلاَوة مَع النَّاس أطْيب من أكْل الخَرا وحْدَه. 135

ـ أعَزُّ مِن جَبْهَة الأسَد. 146

ـ وعِنْد التَّناهِي يَكُون الفَرَج. 146

ـ وعِنْد التَّناهي يَقْصرُ المتَطَاوَل. 146

ـ حَصَل بَينْ حَاذِف وقَاذِف. 157

ـ الِذي فِي القِدر تُخْرجُه المغْرَفَة. 160

ـ مثل رُقْعَة العَقَارب مُلْصَقة عَلى كُل بَاب. 166

ـ قالوا للجمل : ما لرقبتك معوجة قال : وأي شيء في مقوم حتى تكون رقبتي مقومة. 172

ـ أَجِع كَلْبَك يَتْبَعْك. 153

ـ حَمل الكَلْب عَلى عِيَاله. 1179



- لا يُوجَد خُبْز للشِّرَاء ولاَ بَيْت لِلكِرَاء. 183

- بَلَغ السَّيْل الزُّبَى. 186

- اسْتَوى المَاء والخَشَبَة. 186

- كَعْبها مُدوَّر. 196

- عِنْد الصَّبَاح يَحْمَد القَوْم السُّرَى. 197

- لاَمَاءَك أَبْقَيْت ولاحِرَك أَنْقَيت. 209

- كَان دَبِير الصَّيَاد يَخْرج إلَى الصَّيْد بِغَيْر مِخْلاة لِثِقَته بالحِرْمان. 210

- الجُعَل يَتَأذَّى بِرائِحَة النُّوَار. 214

- لأن تَسْمَع بالمُعَيْدي خَير مِن أنْ تَراه. 214، 220

- ابن لبون لا ظَهْر فيُرْكَب، ولا ضَرْع فيُحْلب. 220

- القَرْض من القَرْض. 221

- لو تُرِكَ القطا ليلا لنام. 180

ومن أنصاف الأبيات المتمثل بها عنده :

- إن المعارف في أهل النهي ذِممُ. 114

- والفضل ماشهدت به الأعداء. 133

- كما ارتاح ظمآن لعَذْب المشارب. 213



- كبياض العطايا في سواد المطالِب. 132

- كما سُرَّ مهجور بوصْل الحبايب. 213

- يا ويح من يرثي له الشامت. 62

- ومن ذا الذي ياعز لا يتغير. 12

- وإنما يقطع أعناق الرجال المطامع. 114

- كلما رأى غَيْر شيء ظنه رجلا. 136

- شكوى الجريح إلى الغربان والرخم. 67

- والمرء يسعى ورزق الله مقسومُ. 114

5ـ إن ما رأيناه عند ابن عبد ربه وابن بُلُقين وابن عبد البر وابن هشام والوهراني لم يكن سوى أوليات بسيطة في تدوين الأمثال العامية في الأندلس والمغرب، كما أن ما ورد عند بعضهم من هذه الأمثال إنما ورد عرضا وعلى سبيل الاستطراد، أما أول تدوين حقيقي لأمثال العامة ـ بمعناها الدقيق ـ في الأندلس والمغرب، فهو الذي قام به أبو يحيى الزجالي في القرن السابع الهجري، والمعروف إلى اليوم أنه غير مسبوق في هذا المضمار إلا ما كان من المحاولات الأولية التي أشرنا إليها، وهو في مقدمته لكتاب «ري الأوام» لا يشير إلى أن أحدا تقدمه في تدوين الأمثال العاميّة بالأندلس والمغرب على ذلك النحو من التوسع والترتيب، ولو كان لوجب ذكره، ومن هنا يكون صنيع الزجالي مبتكرا على غير مثال سابق في الأندلس، بل إن مجموعه يعتبر حتى الآن ـ فيما نعرف ـ أقدم مجموع في الأمثال العامية الملحونة، وكان أكبر مجموع قبل أن يظهر مجموع ألونسو القَسْتلي.

وقد وردت هذه الأمثال في أحد أبواب كتاب «ري الأوام» الذي سنتحدث عنه فيما بعد، وهي تشغل حيزا كبيرا من الكتاب يكاد يكون نصفه، وقد رتبها الزجالي على حروف المعجم حسب اصطلاح المغاربة وهو عندهم:
أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش هـ و لا ي. وهذا الترتيب هو المتبع عندهم في معاجم البلدان والأعلام وغيرها، وقد آثرت الإبقاء على ترتيب المؤلف وعدم العدول عنه إلى الترتيب المشرقي حفاظا على نسق الأمثال كما وردت في الأصل، وتسهيلا على من يريد الرجوع إليها في المخطوط، والنتيجة بعد ذلك واحدة، ويختلف نصيب الحروف من الأمثال كثرة وقلة، فمن أكثرها اشتمالا على الأمثال الألف والميم والباء، على أنه في حرف الألف عدَّ حرفي التعريف وألف الوصل والقطع والأمر والاستفهام وغير ذلك مما

ليس من أصل الكلمة، وهو يقسم الأمثال في كل حرف من الحروف إلى قسمين : قسم لأمثال الخاصة وقسم لأمثال العامة، وأمثال الخاصة كلها معربة وهي عبارة عن أمثال العرب وأمثال المولدين وما يتمثل به من الأحاديث وفقر الحكماء والبلغاء، وكلها أو جلها موجودة في كتب الأمثال المعروفة، وفي هذا القسم يقول المؤلف : «وهذا القسم الأول ألفاظه معربة، معسولة مستعذبة، استخرجتها من بطون الكتب، وفيها جملة وافرة من أمثال العرب، وكلمات صدرت عن الصدر الأول من الكلام المنتخب، اخترتها لجزالة أغراضها، وجلالة إيمائها إلى الحكمة وإيماضها»[1] ولم نشأ أن نقوم بتحقيق هذا القسم نشدانا منا لوحدة النص وانسجامه، ولأنه لا يمثّل شيئا من نتاج الأندلسيين والمغاربة، ولذلك اكتفينا بأمثال العوام وأرجأنا أمثال الخواص إلى أن يتيسر لنا تقديم الكتاب كله للطبع إن شاء الله.

أما بواعث جمعه لهذه الأمثال فيفهم من كلامه أنه وقع إليه كتاب التمثيل والمحاضرة للثعالبي فأعجب به وبطريقة مؤلفه في الجمع بين أمثال العرب وأمثال العامة والمولدين، فكان ذلك حافزا له على تأليف ما يضاهيه في الجمع بين أمثال الخاصة والعامة في الأندلس، وهو يشير إلى هذا بعبارة فيها تواضع كبير إذ يقول : «وأنا مقر بالقصور، لأبي منصور، وقد اعترفت، أنني من بحره اغترفت[1]» وقد عرف الأندلسيون بانبعاثهم إلى التأليف في موضوعات سبقهم إليها المشارقة على سبيل المعارضة والمضاهاة. على أنه ربما تعددت البواعث عند المؤلف، وربما كان خروج الأندلس من يد المسلمين أحد العوامل النفسية في تدوين هذه الأمثال، وقد رأينا بعض الأندلسيين في عصر الزجالي يواصلون

---

1. مقدمة «ري الأوام».



التأليف في أحوال الأندلس رغم ضياعها منهم، تأساءً وتسلية وذكرى وحنينا للربوع المفقودة، ومن هؤلاء ابن الأبار الذي يذكر في مقدمة «التكملة» أنه انبعث لتقييدها «امتعاضا للجزيرة، وارتِماضاً من كوائنها الكبيرة، ليعلم أنها ما أفلت أهلتها، وإن أعضلت علتها، وبطلت على البرء أدلتها، ولا هوت نجومها، وإن أقوت رسومها، وألوت بدولة عربها رومها»[2] وكأن الزجالي وهو ذلك القرطبي الصميم عز عليه أن تضيع قرطبة وغيرها من حواضر الأندلس ويضيع معها ما كان يجري على ألسنة أهلها في محاوراتهم اليومية، فنهض إلى تدوينه مخافة أن يطويه النسيان، وتأدية لحقوق تلك الربوع والأوطان.

ونحن مع هذا لا نستطيع أن نحدد متى وأين دون الزجالي هذه الأمثال، وهل كان هذا أثناء وجوده بالأندلس أم بعد خروجه منها وتوجهه إلى المغرب وله في هذا الموضوع كلام لا يخلو من غموض فهو يقول: «وعاقت الكبرة فكسلت، عن تكميل ما فيه استرسلت، فبقي عطلا من التبويب، صفرا من الترتيب، ولعل الله يتيح من السماء، من لا يقصر في وضعه عن الغاية في الإنشاء. فما شرعت فيه إلا وقد أوفى النذير، وذوي الغصن النضير[3]» وقد نستطيع أن نجمع بين أول هذا الكلام وبين آخره فنفهم من ذلك أنه عنى بجمع مادة كتابه وتدوين أمثاله منذ أيام الشباب في الأندلس، واسترسل في الجمع والتدوين حتى الكبر، ولكنه لم يشرع في إخراجه من أوراقه وترتيبه إلا في أواخر حياته بمدينة مراكش.

والبحث في هذه المسألة يتفرع إلى نقط منها:

---

1. المصدر السابق.
2. التكملة 1 : 3.
3. مقدمة «ري الأوام».



1ـ طبيعة هذه الأمثال العامية عند الزجالي، وهل هي أندلسية أم مغربية؟

2ـ هل اعتمد في تدوينها على السماع أم على النقل؟

3ـ إذا كانت هذه الأمثال مروية بالسماع فهل سمعها بالأندلس أم بالمغرب أم منهما معا؟

أما النقطة الأولى فإن الذي يستقري مجموعة أمثال الزجالي يرى أن الطابع الأندلسي غالب عليها وبارز فيها، سواء من حيث الشكل أم من حيث المضمون. فهي أندلسية من جهة الشكل لأن مفرداتها وتراكيبها مما عرفت به اللهجة الأندلسية كما وصلت إلينا في المعاجم وكما وردت في الأزجال وغيرها من النصوص العامية الأندلسية، وإن كنا لا نتصور أن البون كان بعيدا بين لهجة الأندلس وبين لهجة أهل العدوة، في هذا العصر، وهي أندلسية أيضا من حيث المضمون لأن معظمها يدور حول وقائع أندلسية ويتصل بأشخاص وأحداث وقعت في الأندلس، وهي حافلة بأسماء الأماكن الأندلسية، على أنها اشتملت أيضا على أسماء أماكن مغربية كسلا وطنجة وسبتة وأزغار وباب السلسلة بفاس وفندق بن راغو في مراكش وغيرها، ثم إن ورود هذه الأمثال في مجموع ابن عاصم الذي عاش ومات بغرناطة دليل آخر على"أندلسية" أمثال الزجالي، وهذا لا ينفي بالطبع انتشار بعض هذه الأمثال خارج الأندلس، وينبغي أن نتنبه هنا إلى أن الزجالي دوّن مجموعه في عصر السوحدين، وهو عصر نضجت فيه الوحدة ـ التي قامت أيام المرابطين قبلهم ـ بين الأندلس وبلدان المغرب كله، وإن كانت لها جذور تاريخية بعيدة، وكان من نتائج ذلك أن توحدت النظم والتقاليد، وكثر التنقل بين هذه البلدان، فلاعجب إذا رويت أمثال الأندلس في المغرب أو العكس.

وأما النقطة الثانية فإن كلام الزجالي صريح في أنه اعتمد في تدوين الأمثال على السماع وشاهد بأنه التقطها من أفواه الناس فهو يقول : «والقسم الثاني كلمات لقفتها من أفواه العوام، وثقفتها من مشاجرات الرعاع والطغام، وهي كلمات هزلية، حديثة أزلية، نطق بها الناس على تعاقب الملوان ـ كذا ـ ، ونسبوا بعضها إلى الحيوان[1]» ويقول قبل أحد الأمثال : وسمعت مَيَّاراً يشير إلى حميرهِ ويقول : يِرقَّدونا فالأزبال، ويِخَلَّطونا مع الأرذال[2]». ولسنا ندري هل وقف الزجالي على كتاب الأمثال المولّدة لأبي بكر الخوارزمي أم لا، وهو يُحاكيه في قوله : «هذا ـ أرشدك الله ـ كتاب التُقط من أفواه الشّطار والعيّارين، وجُمع في مجالس المغنين والمضحكين، ورُوي عن البَمِّ والزير، وحُصِّل في أثناء البرابط والمزامير، وسُمع أكثر ما فيه من السُّؤَّال والسابلة وتُلقّف من بين كلام الظرفاء والصوفية».

ويبقى بعد هذا أن نجيب على النقطة الأخيرة الخاصة بمكان سماع الأمثال، ومن المفروض بل من المنطقي أن يكون الزجالي سمع معظمها في الأندلس خلال حياته في قرطبة أو في شاطبة، ولدينا بعض القرائن التي قد تشهد لأنه دون عدداً منها أثناء مقامه في شاطبة فقد لاحظنا في أمثال الزجالي بعض كلمات وسمات خاصة بلهجة أهل شرق الأندلس، مثل كلمة حلال بمعنى سارق وغيرها من الكلمات التي لم نجدها إلا في القاموس المنسوب إلى الراهب القطلوني رمند مرتين (1230 ـ 1286) الذي جمع مادة قاموسه في عصر الزجالي

1ـ مقدمة «ري الأوام».
2ـ انظر ص 395 من النص.



من إقليم شرق الأندلس على الراجح[1]. ومن هذه القرائن أيضا قلب التاء طاء في كلمة است مثلا فهي ترد في أمثال الزجالي بالطاء في حين أن ابن عاصم يرسمها بالتاء، وتلك لهجة أهل شرق الأندلس الذين كانوا ينطقون التاء طاء في كلمة حوت مثلا فيقولون حوط، وقد روى ابن عبد الملك المراكشي أن الفقيه أبا محمد بن أبي الحسن بن قطرال - خال الزجالي وزميله في الدراسة - ذكر له أنه رأى مكتوبا بنقش في جص على باب حمام أو فندق مايلي : «رحم الله عبدا صنع شيئا فأطقنه - بالطاء - يريد فأتقنه». وعلق على ذلك بقوله : «ولا شك أن ذلك معروف من لغتهم، سمعته من غير واحد منهم[2]» وقلب التاء والدال أيضا طاء نجد له أمثلة عديدة في قاموس الراهب رمند مرتين الذي نرجح أن يكون دونه في إقليم شرق الأندلس فمن ذلك : نصطقي أي نستقي، ويغرط أي يغرد، وقنفوط أي قنفود، وقنافيط أي قنافيد[3]. ولا نريد هنا أن نتتبع الشواهد التي قد تدل على انتماء بعض الأمثال إلى أقاليم بعينها في الأندلس، وقد نعرض لذلك في الفصل الذي نخصصه للعامية الأندلسية من خلال الأمثال، ويبدو أن الزجالي استمر في سماع الأمثال وجمعها بعد هجرته إلى المغرب أيضا، إما من أفواه الأندلسيين المهاجرين - وقد كان عددهم كبيرا - أو من أفواه عامة المغرب، ونظن أن الأمثال التي فيها ذكر لأماكن مغربية هي مما جمعه في المغرب، وهناك نقطة تكون

1ـ وقفت بعد هذا على مايشعر باستعمال كلمة «حلال» في بلدان المغرب قديما، فقد جاء في أخبار المهدي بن تومرت للبيذق مايلي : فلما كان في بعض الأيام سمع صوت مناد وهو ينادي هذا جزاء الحلال، فقال المعصوم : ما هذا النداء ؟ فقالوا له هذا حلال يأخذ أموال الناس ويدخل عليهم لقتلهم» أخبار المهدي للبيذق ط. دار المنصور ص 12.

2ـ الذيل والتكملة 1 : 35 (مخطوط).

3ـ Voc : 412، 404، 369. وفي وثيقة بلنسية نشرت في مجلة الأندلس نجد : تحطي = تحتي، مفطح = مفتوح (AL ANDALUS 1971).



محل اعتراض وتساؤل، وهي أن الزجالي وصف في ترجمته ـ كما رأينا ـ بكثرة الانقباض والصبر على الوحدة، فكيف تسنى لرجل هذه صفته أن يجمع ما جمع من أمثال مع ما يقتضيه ذلك من ضرورة الاختلاط بالناس والاحتكاك بهم، وقد نجيب على ذلك بما قررناه فيما سبق من أن الزجالي آل إلى هذه الحال في أواخر حياته بما تركته في نفسه آثار الغربة والنكبة.

أما محافظته على تدوين الأمثال كما سمعها وعدم تصرفه فيها بنوع من أنواع التصرف كالإعراب ونحوه فيؤيده قوله : «ولو شئت أن أسوقها مُعْرَبَة، وعن معانيها مُعْرِبَة، لكان ذلك بأسهل مرام، وأيسر نقْضٍ وإبرام، وإنما كان يذهب رونقها، ولا يعجب مونقها، فتركتها على وضعها لإحراز نفعها، ولتكون أولج على الألسنة، وأجزل لدى المحاورات المستحسنة، ولصرف النفوس منها من أَزْل، لِهَزْل، ومن ضَغْط، لبَسْط ومن كثيف، لضعيف، فقد قيل في التنقيل :

لا يصلح النفس إن كانت مصرفة   إلا التنقل من حال إلى حال»[1]

والزجالي هنا يساير رأيا قديما نصح به الجاحظ وألح عليه وذلك قوله في البيان والتبين : «وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام، وملحة من ملح الحشوة والطغام، فإياك أن تستعمل فيها الإعراب أو تتخذ لها لفظا حسنا أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا، فإن ذلك يفسد الامتاع بها ويخرجها من صورتها، ويذهب استطابة الناس لها[2] ويقول في كتاب البخلاء : «وإن وجدتم في هذا الكتاب لحنا أو كلاما غير معرب أو لفظا

1ـ مقدمة «ري الأوام» والبيت لأبي العتاهية.
2ـ البيان والتبين 1 : 159. وانظر مثله في الحيوان 1 : 282.

معدولا عن جهته، فاعلموا أنَّا إنَّما تركنا ذلك. لأن الإعراب يبغض هذا الباب[1] » ولسنا ندري هل اطلع الزجالي على كلام الجاحظ أم لا، ولكن صنيعه على أي حال يدل على سعة أفق، ورحابة صدر، واستنارة ذهن قلما نجدها في العصور المتأخرة. ونحن نرى أن الزجالي كان صادقا فيما قال، وأنه حافظ على عامية الأمثال بقدر ما أسعفته اصطلاحات الرسم العربي، على أن الصبغة العامية لهذه الأمثال كما رسمها الزجالي يكمن قدر كبير منها في طبيعة أدائها، وطريقة إلقائها، وكيفية النطق بها، وذلك أن الرسم العادي لا يؤدي كل الأصوات والنبرات التي يفقد المثل العامي بدونها كثيرا من عاميته، وهناك فرق بين سماع الأمثال العامية وبين قراءتها ولا سيما بالنسبة لمن هو غريب عن لهجة تلك الأمثال أو ما يقاربها. ومما يدلنا على صدق الزجالي وأمانته في نقل الأمثال وعدم تصرفه فيها مايلي :

1ـ التوافق التام في الغالب بين روايته ورواية غيره من الأندلسيين كابن عاصم وابن قزمان وإن كان هذا الأخير يتصرف أحيانا في المثل خضوعا لما تقتضيه طبيعة النظم وضرورة الوزن، والأمثلة هنا كثيرة جدا، ولا نرى داعيا لذكرها مادام الرجوع إليها في النص أمرا سهلا[2].

1ـ البخلاء : 40.

2ـ نورد هنا مثالا واحدا لتبيين الفرق بين الزجالي وابن عاصم وابن قزمان الذين أوردوا الأمثال كما سمعوها من العامة وبين غيرهم ممن يذكرها معربة، وهذا المثال هو قولهم : بحل من مضى لو مشط ووجد حمام. كما رواه الزجالي، أو بحال من مضال ماشط واصاب حمام. في رواية ابن عاصم. فهذا المثل الأندلسي المغربي نجده معربا في نص لابن غازي المكناسي (ت 919هـ) يقول فيه : «وحدثني شيخنا الفقيه العلامة ابو عبد الله القوري أنه كان يقول : سبب ارتحالي لفاس في طلب الفقه مسألتان سئلنا عنهما فلم يحضرنا جواب مع شهرتهما : مسالة المكثر من النذور.. ومسألة : من اشترى جارية فشرط أنها ثيب فألفاها بكرا ـ فما حضر أصحابنا فيهما شيء غير أنهم قالوا : هذا تلف له قب فوجد حماما!».

2ـ إيراد المثل الواحد بصيغ متعددة ومختلفة[1]. وفي ذلك دليل على تعدد السماع.

3ـ كما أن طائفة كبيرة من هذه الأمثال ما تزال حية وسائرة بين الناس في بلدان المغرب بالصيغ التي رواها الزجالي في القرن السابع الهجري كما يبدو من استقراء تحقيقنا للنص.

وقد يلاحظ أن بعض هذه الأمثال في مجموعة الزجالي تسمو في ألفاظها وتراكيبها إلى مستوى يقترب من أسلوب الفصحى أو لا يختلف عنه كثيرا، وقد نجيب على ذلك بأنه ليس من اللازم في الأمثال العامية ـ كلون من الأدب ـ أن تكون دائما بأسلوب الكلام العادي في الحياة اليومية، فللآداب العامية تأنقها وتفصحها الخاص، كما تشهد بذلك الأزجال وغيرها من ألوان الأدب العامي أو الشعبي[2]، ثم إن بعض الأمثال العامية ترجع إلى أصول فصيحة وتمثل بها العوام على صورتها الأولى أو ما يقرب منها، ويضاف إلى ذلك أن مستوى العامية في القرن السابع وما قبله ليس هو مستوى العامية فيما بعد ذلك أو في عصرنا هذا، وقد أشرنا فيما سبق إلى أن العامة في الأمصار العربية عموما كان لديهم حظ طيب من الثقافة المروية التي كانوا يكتسبونها من حلقات المساجد ومجالس العلم ومخالطة أهله وغير ذلك، ولا سيما ما يتعلق بالأقوال المأثورة التي تتخلل الأحاديث ويحلى بها الكلام.

1ـ انظر سبيل المثال الأرقام التالية : 167، 218، 242، 264، 516، 506، 665، 293، 2052، 2146، 2154.

2ـ تنبه إلى هذا العلامة المرحوم ابن شنب في مقدمة كتابه اذ يقول :

La langue proverbiale se rapproche assez de la langue littérale et il arrive souvent d'entendre un illettré dire un proverbe dans le plus pur arabe Proverbes Arabes de l'Algérie et du Magheb T.I.P.H.



ويبدو أن الزجالي حين ترك الأمثال العامية على حالها كان يتوقع النقد من بعض معاصريه الذين لم يكونوا يستسيغون مثل هذا العمل، وهو يعرب عن ذلك بقوله : «وربما يتناولها البليد، ويتأولها بنقد كأنه الجليد، فيهرف، بما لا يعرف، ويعيب، ما عنه يغيب، فأما الألمعي فيغضى متأملا، ويركب متأولا، ولا ينقر عن هناة، ولا يحتقر غمز قناة، بل يقيل العثار، ويقول : دع امرءا وما اختار[1]» ونحن نعرف أن الإقدام على تدوين الأدب العامي كان بدعة في نظر كثير من الناس، وكان معظم المؤلفين في المشرق والمغرب يزورّون عنه ويأنفون من تسجيله، فهذا أبو هلال العسكري يعيب كتاب حمزة الأصفهاني لاشتماله على أمثال المولدين ويفخر بخلو كتابه مما عده عيبا، لاقتصاره على الأمثال العربية الصحيحة، وذلك إذ يقول : «وميزت ما أورد حمزة الأصبهاني من الأمثال المضروبة في التناهي والمبالغة، وهي الأمثال على أفعل من كذا، فأوردت منها ما كان عربيا صحيحا، ونفيت المولد السقيم ليبرأ كتابي من العيب الذي لزم كتاب حمزة في اشتماله على كل غث من أمثال المولدين وحشوة الحضريين، فصارت العلماء تلغيه، وتسقطه وتنفيه[2]».

وحين ألف الزبيدي كتابه في لحن العوام، واضطر إلى ذكر كلمات عامية من أجل تقويمها وإصلاحها، توقع هو أيضا طعن الطاعنين فقال : «ولعل طاعنا يطعن في كتابنا هذا بما ذكرناه من الكلام السوقي واللفظ المستعمل، جهلا منه أن الفساد إنما يقع في المستعمل على الألسنة، وأن الوحشي مصون عن التغير والإحالة، بقلة استعماله، وجهل عوام الناس به، وما ذكره أبو حاتم مما عسى أن يعاب علينا ذكر مثلنا له غير كاف[3]».

1ـ مقدمة «ري الأوام».
2ـ جمهرة الأمثال 1 : 2.
3ـ لحن العوام : 9.



وقد اضطر ابن بسام في ترجمة عبادة بن ماء السماء إلى الحديث عن صنعة التوشيح، ولكنه لم يأت بمثال واحد يبين ما أشار إليه من قواعد وأحكام، وتعلل بقوله : «وأوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض هذا الديوان إذ أكثرها على غير أعاريض أشعار العرب[1]» مع أنه وصف الموشحات بقوله : «تشق على سماعها مصونات الجيوب، بل القلوب» وفعل مثل هذا حين أشار إلى الصقالبة وقال : «وشعرهم خارج عن شرطنا، وليس من جمعنا[2]». كما أنه قصر في تسجيل كثير من شعر ابن مسعود القرطبي الذي كان تحت يده فحرمنا مصدرا له فائدته في تصوير المجتمع الأندلسي[3]. ويقول عبد الواحد المراكشي معتذرا عن عدم إيراد موشحات عبد الملك ابن زهر : «ولولا أن العادة لم تجر بإيراد الموشحات في الكتب المجلدة المخلدة، لأوردت له بعض ما بَقِي على خاطري من ذلك»[4] كما أن المقري لما استطرد إلى ذكر الموشحات في أزهار الرياض قال في آخر هذا الاستطراد معتذرا ومدافعا عن صنيعه : «قلت : كأني بمنتقد ليس له خبرة، يسدد سهام الاعتراض ويتولى كبره، ويقول : مالنا وإدخال الهزل في معرض الجد الصراح؟ وما الذي أحوجنا إلى ذكر هذا المنحى والأليق طرحه كل الاطراح؟ فنقول في جوابه على الإنصاف : لم تزل كتب الأعلام مشحونة بمثل هذه الأوصاف، وليس مرادهم إيثار الهزل على غيره، وإنما ذلك من باب ترويح القلب، بما هو أعون على خيره، وللسلف في مثل ذلك حكايات يطول جلبها، ولا يقدح ذلك في سكينتهم ولا يتوهم لسببه سلبها، ويرحم الله تعالى عياضا إذ قال :

قل للأحبة والحديث شجون ماضر أن شاب الوقار مجون

1ـ الذخيرة ق مج 2 : 2.
2ـ الذخيرة ق 4 مج 1 : 22.
3ـ الذخيرة ق 1 مج 2 :79.
4ـ المعجب : 92.

وليس قصدنا نحن بهذا، علم الله، غرضا فاسدا، ننفق من كانَ في سوق الهزل كاسدا، وإنما غرضنا صحيح، وزندنا غير شحيح»[1]. كما أن ابن خلدون أشار - بحسرة ملحوظة - في معرض حديثه - في المقدمة والتاريخ - عن أشعار الهلاليين، إلى إهمال تدوينها والتقصير في روايتها وذكر «أن الخاصة من أهل العلم بالمدن يزهدون في روايتها ويستنكفون عنها لما فيها من خلل الإعراب». ويقول في المقدمة: «والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد، وخصوصا علم اللسان، يستنكر هذه الفنون التي لهم إذا سمعها، ويمج نظمهم إذا أنشد، ويعتقد أن ذوقه إنما نباعنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها»[2].

وبالإجمال فقد كان القدماء يرون أن الآداب العامية ضرب من الهزل، ورأيناهم ينعتون الأزجال الأندلسية بأنها نظم هزلي[3]. كما وصف شعر ابن شخيص وابن مسعود بالهزل لترديده أصداء الحياة العامية وإن كان فصيحا[4]. وقد كان هذا الرأي سببا في ضياع كثير من الآداب العامية والآثار الشعبية.

وإذا كان ثمة من عيب أو نقص يلاحظ على الزجالي فهو أنه لم يعن بشرح الأمثال، وأوردها مرسلة بدون تفسير، ولا إشارة إلى مضرب، على أنه لم يكن الوحيد في هذا الباب، فكثير ممن جمعوا الأمثال العامية في القديم والحديث أهملوا هذا الجانب، ويبدو أنهم كانوا يعتمدون على أنها مفهومة عند أهل عصرهم ومعروفة لديهم، ويبدو أيضا أنهم تعمدوا عدم شرح بعضها لما تنطوي عليه من فحش أو مجون، وكأن الزجالي أحس

1ـ ازهار الرياض 2 : 227 ـ 228.
2ـ المقدمة : 578 والعبر 6 : 40.
3ـ الزجل في الأندلس :61 ـ 58، 77.
4ـ فهرسة ابن خير : 408 والذخيرة ق 1 مج 2 : 22.



بحاجة الأمثال إلى الشرح بل إنه يعترف بذلك إذ يقول في آخرها : «وكثير مما في هذا المصحف يحتاج إلى تفسير وإلى شرح وإلى تبيين :

ولا بد من شيخ سوء لطيف ... يـفـسر منـهـا الذي أشـكلا

فسـله إذا أنـت ألـفـيتـه ... يريك متى شئت فيها الجلا»[1]

ولم يكن الزجالي ـ رحمه الله ـ بعيد النظر حين أحال على شيوخ السوء ـ كما قال أو أنشد ـ لالتماس تفسير ما يشكل من أمثال عندهم، فهو لم يفكر إلا في أهل زمنه، وربما لم يخطر بباله أن بعض أمثاله سوف تصبح بعد قرون ألغازا أو شبه الغاز، وأن الناس ـ شبابا وشيوخا ـ سوف يتساوون في عدم فهمها والحاجة إلى شرحها.

ومهما يكن فقد عوض شيئا من النقص، وسد بعض العوز بالشواهد والأبيات التي يذكرها في أعقاب الأمثال، وهو يفخر بذلك فيقول : «وطرزتها بأبيات، وأتيت من حسنها بآيات، نطتها بها بأرق ملابسة، وأدق مجانسة، وأيسر مشابهة، وأنزر مشاكهة[2]». وقد سلك ابن عاصم الغرناطي بعده هذا المسلك، وكثيرا ما نجدهما يختلفان في ذكر الشواهد، والزجالي وإن كان موفقا في تصيد هذه الشواهد الملائمة للأمثال إلا أنه في بعض الأحيان يأتي بها لمجرد ورود كلمة مشتركة بين المثل والشاهد، فهو حين يذكر المثل : أول غزاتي، انكسرت قناتي... يستشهد بقول الشاعر :

كانت قناتي لا تلين لغـامـز ... فألانها الإصباح والإمساءُ

ودعوت ربي في السلامة جاهدا ... ليُصحَّني فإذا السلامة داءُ[3]

1ـ مقدمة «رى الأوام».
2ـ انظر ص 395 من النص.
3ـ انظر المثل رقم 314 في النص.



فنحن لا نرى هنا صلة أو مناسبة بين معنى المثل ومعنى الشاهد إلا من حيث اشتمالهما على كلمة "قناتي" وربما كان استشهاده به من قبيل تداعي المعاني فحسب. ومثال ذلك أيضا أنه ذكر المثل : انتظار المجبنة خير من أكلها، واستشهد له بقول الشاعر :

قَوْرَاءُ وارسةُ الجلباب هِمْتُ بها فقيل صفها ومثلها كما يجبُ

فقلت والشوق يطوي نحوها رجلاً كأنها الشمس فيها البدرُ محتجبُ[1]

فهذا شاهد لا يفسر المثل، ولا رابطة بينهما إلا في كلمة «مجبنة» وقد وقفنا على ما يفيد أن هذا المثل يشبه أن يكون صيغة أندلسية لمثلين فارسيين ذكرهما العسكري في كتاب المعاني وهما : «انتظار الحاجة خير لك من قضائها» و «المامول خير من الماكول[2]»، والأمثلة مما ذكرناه عديدة، وهذا معنى ما ذكره الزجالي من أنه يأتي بالأبيات «بارق ملابسة وأدق مجانسة، وأيسر مشابهة، وأنزر مشاكهة». وقد اعترضتنا مشكلة أخرى في هذه الشواهد وهي أننا رأيناها توضعُ أحيانا في غير موضعها المناسب، وقدرنا أن يكون سبب ذلك ما ذكره المؤلف في المقدمة إذ يقول «وعاقت الكبرة فكسلت، عن تكميل ما فيه استرسلت، فبقي عطلا من التبويب، صفرا من الترتيب، ولعل الله يتيح له من السماء، من لا يقصر في وضعه عن الغاية في الإنشاء» واعتبرنا هذا الكلام بمثابة إذن من المؤلف - وإن لم نكن له بأهل - فتصرفنا في بعض الشواهد بالتقديم والتأخير، واجتهدنا في وضعها مواضعها المناسبة أو التي رأينا أنها مناسبة، ونبهنا على هذا في كل مرة، وشواهد الزجالي متعددة

1ـ انظر المثل رقم (116) في النص.
2ـ كتاب المعاني 2 : 90.



المصدر مختلفة المنزع، فمنها الجاهلي والإسلامي، والمخضرم والمولد، وبينها شواهد عديدة من الشعر الأندلسي، وقد حرصنا على تخريجها ونسبتها إلى قائليها بقدر الطاقة.

ولم يتعرض الزجالي في مقدمته إلى مفهوم المثل عنده، ولكن يبدو من طريقته أنه توسع في هذا المفهوم بحيث يشمل كل قول قصير يجرى بين العامة، وتتداوله ألسنتهم، ولم يتقيد في ذلك باصطلاح المتأخرين الذين حددوا المثل ووضعوا له شروطا، ولهذا نجد في مجموعته طائفة من الجمل القصيرة لا ينطبق عليها تعريف التهانوي مثلا إذ يقول : «المثل في الأصل بمعنى النظير ثم نقل منه إلى القول السائر أي الفاشي الممثل بمضربه وبمورده، والمراد بالمورد الحالة الأصلية التي ورد فيها، وبالمضرب الحالة المشبهة بها التي ورد فيها الكلام وهو من المجاز المركب بكونه على سبيل الاستعارة سمي بالمثل[1]» ومما سلكه في عداد الأمثال عبارات كانت تجرى مجرى الأمثال، وبعضها ورد في معاجم اللهجة الأندلسية كقولهم :

أحيل الوجه على البطانة[2].

وقولهم :

نفاج ومحتاج[3].

1ـ كشاف اصطلاحات الفنون 2 : 1340.

2ـ المثل رقم 444 في النص. ويبدو أن هذه العبارة هي التي يشير اليها اليكي ـ أوالابيض ـ في قوله :
ولا تهب كل فاسي مررت به   وان تقل فيه خيرا «حول الدرقة»

3ـ المثل رقم 1577 في النص.

ومن هذا أيضا تلك الجمل التي تتألف من مضاف ومضاف إليه، وهذه أفردها المشارقة كالثعالبي والمحبي بمؤلفات خاصة، وذكر الزجالي مجموعة منها يبدو أنها عرفت في المغرب ولم تعرف في المشرق ومنها قولهم :

- حُروز خطَّابْ.
- حِرزُ أبي دُجانة.
- تفخيذ الطلبة.
- تسبيح أم زينب.
- تعليم القنديل.

ومن ذلك أيضا تلك الجمل التي تشبه جمل الاتباع والمزاوجة في الفصحى والعامية كقولهم :

- بالحَسِّ مَسٍّ.
- بالديد والقليد.
- بالشد والمد.
- بالبَط والقَط.
- بالشماع والجَماع.

وقد لاحظنا أن ابن عاصم الذي جاء بعد الزجالي لم يذكر هذه العبارات المثلية في مجموعته.

ويختم الزجالي مقدمته بدعاء لا يخلو من مغزى، وكأنه تأثَّم من بعض ما ورد في الكتاب والأمثال، فسأل من الله التجاوز والإغضاء بقوله : «وأنا أسال الله أن يتجاوز عني فيما اعتمدت، ويرزقني إغضاء منه وتغمدا برحمته فيما أوردت، وهو سبحانه يعصم من الزلل، وخطأ القول والعمل،



اللهم إن مؤلفه لا رجاء له إلا في سعة مَنّك، ودعة أمنك، فاعف عنه واغفر له هفوه وعمده، وهزله وجده، وكل ما تعلم من هنات عنده، برحمتك يا أرحم الراحمين، وموئل الآمنين».

ومن دأب بعض العلماء أن يشفعوا ما يروونه من حكايات ونوادر وأخبار هزلية بمثل هذا الدعاء، وقد اشتملت أمثال الزجالي كما نرى على كثير من الألفاظ الصريحة، وتلك كانت طريقة الناس في الكلام والحديث، ويستوي في ذلك خاصتهم وعامتهم، وكان الزجالي جريئا في تدوين تلك الأمثال وأمينا في روايتها، والعلماء مختلفون في هذا الموضوع، فمنهم المتزمت المتنسك الذي يتعفف عن رواية بعض ما رواه الزجالي مثلا بل يذهب إلى تحريمه، ومن هؤلاء البلوي الذي يقول في كتابه ألف باء: «والكلام القبيح حرام من أي نوع مثل مدح الخمر، والكلام بالخنا والهجر، ولقد أذكرني هذا خبرا كنت أنسيته: كلفني بعض الأصحاب نسخ جزء فانتسخته حتى انتهيت فيه إلى أبواب تتضمن مدح الخمر وأوصافها وشاربها فتركت مواضعها من الكتاب بياضا[1]» ومنهم الأريحي المتسامح الذي لا يرى ضررا ولا خطرا في مثل ذلك، ومعظم علمائنا الأقدمين كانوا من هذا الطراز، وهذه مسألة ليس هنا موضع شرحها وسنتحدث عنها عند الكلام على لغة الأمثال.

6ـ وقد وقفت في أثناء تنقيبي عن الأمثال في بطون المصنفات الأندلسية والمغربية على طائفة من أمثال عامة الأندلس والمغرب في الرسائل الكبرى لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بابن عباد النفزي

1ـ ألف باء 1 : 54ـ 55.



الرندي[1]. وهو من أقطاب التصوف الإسلامي في المغرب والأندلس، ولد برندة في سنة 733هـ من أسرة نعتت بالحسب والأصالة، وكان والده خطيبا وواعظا بقصبة رندة وقد تلقى ابن عباد تعليمه الأولي ببلده على والده وخاله الفقيه القاضي أبي عبد الله الفريسي والفقيه أبي الحسن الرندي، ثم انتقل إلى المغرب حيث أخذ عن شيوخ العلم في فاس وتلمسان وأقام زمنا بسلا في صحبة شيخ التصوف في زمنه أبي العباس أحمد ابن عاشر، ويذكر أنه صاحب صوفيا آخر في طنجة، وقد انتهى به المطاف في فاس حيث بقي بها خمس عشرة سنة خطيبا بجامع القرويين، وتوفي سنة 792هـ، وضريحه معروف في فاس، وهو عند أهل المغرب بمثابة ضريح الإمام الشافعي عند أهل مصر.

أما الرسائل الكبرى لابن عباد فهي عبارة عن مجموعة من الرسائل الإخوانية خاطب فيها تلميذه وشريكه في النسبة القبلية والبلدية الشيخ يحيي السراج النفزي الرندي الأصل الفاسي المولد والوفاة (ت805هـ)[2]، وقد وجهها إليه من سلا في أثناء مقامه بها.

وهي تَنْتظِم في موضوعها العام قضايا في التربية الروحية، ووصايا في آداب السلوك الصوفي، يقول الشيخ زروق: «وفيها من الفوائد ما لا يحصى، مع وفور أنوارها وعظيم أسرارها. ذكر لي بمصر أنها لما بلغت سيدي أبا عبد الله البلالي صاحب اختصار الإحياء وغيره جعلها على رأسه وصار يقول: «أنا عبد لابن عباد» ونعتها الأستاذ ماسينيون بقوة الأصالة.

1ـ ترجمة ابن عباد الرندي ومصادرها في سلوة الأنفاس 2 : 132ـ33 وأفرده الزبادي بترجمة سماها :إفادة المرتاد في التعريف بابن عباد، وانظر أيضا بحثا للأستاذ ابي الوفاء الغنيمي التفتزاني في صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد، المجلد السادس، العدد 2 ـ 1 من ص 221 إلى ص 245، ومؤلف الاب نويا في ابن عباد الرندي.
2ـ ترجمته في سلوة الأنفاس 2 : 143 مع الإشارة إلى مصادرها.

ونرى أن أصالة الرسائل لا تتمثل في مضامينها الصوفية فحسب وإنما تتمثل أيضا في مزاياها الأدبية والاجتماعية، وأسلوب ابن عباد في هذه الرسائل يجمع بين الجزالة والطلاوة وبين تقريب المعاني وتوضيحها أحيانا بألفاظ وأمثال أندلسية ومغربية، وقد جرت عادة معظم المترسلين في الأدب العربي على ترسم الفصح النهجية والرواسم التي تكاد تنعت بالابتذال، من تعاقب الاستعمال، أما ابن عباد الرندي فلم يكن في ترسله الإخواني يتبع الأساليب الجاهزة أو يحتذي القوالب الجامدة وإنما كان يستمد من طبع قوى وقريحة وقادة وسليقة سليمة يسندها إلمام دقيق بلغة العامة في عصره وتنبه زائد إلى أساليبهم واستحسان لمقاصدهم واستنبال لأغراضهم، ولهذا لا نجده يأنف - كما أنف غيره - من التوكؤ على معاني العامة والاعتماد على ألفاظهم وأمثالهم، وله في ذلك رأي يعبر عنه بقوله في أعقاب استشهاده ببعض الأمثال العامية مخاطبا يحيى السراج : «والألفاظ العامية كثيرا ما أسوقها في كتبي وأصل بها الكلام الفصيح العربي، لأن الأمثال العامية تشير إلى معان حقيقية، لا يمكن أن تُستفاد إلا من الكلمات الحكمية، ثم هي أعلق بالقلوب والنفوس، من كل منمق من الكلام أودع الدفاتر والطروس، فلذلك اعتمدتها، فاعلم هذا»[1].

ومن هذه الألفاظ المحلية الواردة في الرسائل :

- المسيد أي الكتّاب، وأصل الكلمة المسجد.
- البراءة أي الرسالة، ويقال في براءة أيضا : برا وجمعها براوات.
- الطيافير : جمع طيفور، وهو نوع من الصحون.
- الخصة : حوض من المرمر.
- يقاشح : يجادل.

---

1. الرسائل الكبرى : 114.



- خبع : أخفى.

- الكدان : نوع من حجارة البناء ولعله المسمى بالمنجور.

- أشاكيم : جمع إشكامة وهي قشور السمك.

- أشكرلاط : ضرب من الثياب.

- ايرني أو يرني : ضرب من الكمأة.

- الزبلحة : الحمق.

- الشكارة : الجراب.

- الدامون : الدماغ والرأس.

أما الأمثال التي يسوقها ابن عباد في رسائله فمنها ما ينسبه إلى عامة الأندلس كهذا المثل :

- صحت يشجَّعني، برَّق عينوا وفَزَّعني[1].

ومنها ما ينسبه إلى العامة من غير تقييد، ومعظم ما أورده من هذه الأمثال العامية موجود في أمثال الزجالي القرطبي وأمثال ابن عاصم الغرناطي، وبعضها ما يزال معروفا في بلدان المغرب العربي، وهذه طائفة من الأمثال التي نص ابن عباد على نسبتها إلى العامة بإطلاق :

1ـ الرسائل : 52 وانظر تخريجه في القسم الثاني رقم 1608 وصحت : هكذا وردت عند ابن عباد وفي نسخ «ري الأوام» للزجالي، وقد صوبتها في النص : صحبت، ولكن تبين لي بعد ذلك أن الأندلسيين يستعملون صحت، بمعنى ناديته، ففي زجل لابن قزمان وردت عبارة : قم تصاح أي تنادي.

- قيل للمجذوم : اغسلْ يدكَ ! قال : ما بعد الجُذام علة (ر. ك. 53 ز-79).

- أنفُ في السماء، واست في الماَء. (ر. ك. 68 ابن شنب رقم 844).

- خُذ الدنيا من يد مَنْ شبع ثم جاع، ولا تأخذها من يد من جاع ثم شبع[1].

- كل شيء يهونْ، إلا الغزل المعْفون[2].

- ساق جزارو على حمارو[3].

- حدث الناس ماحدَّقوك بأبصارهم[4].

- من أين أذنك يا جُحا[5].

- يفصد في النملة عرق الباسليق[6].

- قَرْبَة لا تَهْدى وزَبْد لا يَخْرُج[7].

- الجُلُوس بلاَ شُغْل يحَمِّق[8].

- الرُّجْلَة تَحْضَر وتَغِيب[9].

- لاَ زَوَال، من ذا نَوَال (؟)[10].

- جَالِس عَلى كديه تَرَاهم[11].

1ـ الرسائل : 68 وانظر تخريجه في القسم الثاني رقم 929.

2ـ الرسائل : 75 وانظر تخريجه في القسم الثاني رقم 1091.

3ـ الرسائل : 76 ومايزال يتمثل به في المغرب والجزائر بلفظ : جاب جزاره على حماره، ابن شنب رقم 545 وابن سودة : 223.

4ـ الرسائل 118 وأصله حديث برواية ابن مسعود حدث القوم ما حدجوك بأبصارهم. تثقيف اللسان : 280.

5ـ الرسائل : 135 وانظر تخريجه في القسم الثاني رقم 84.

6ـ الرسائل : 146 وانظر تخريجه في القسم الثاني رقم 2049.

7ـ الرسائل : 156 وانظر تخريجه في القسم الثاني رقم 1983.

8ـ الرسائل : 162 وهو في أمثال ابن عاصم رقم 172

9ـ الرسائل : 173 ومايزال يتمثل به في المغرب والجزائر، انظر ابن شنب رقم 2480 ورقم 1251 من أمثال الزجالي.

10ـ الرسائل : 174 ولم نقف عليه عند غيره.

11ـ الرسائل : 186 وانظر وقم 252 عند الزجالي.



- ضربتين في الرَّاسْ تهَوَّس[1].

- الشَّاهِد يَرَى مَالا يَرَى الغَائِب[2].

- البَيَان فِي الفدَّان ولاَ الشرَّ فِي الأنْدر[3].

- مِن أيْن مَاضرَبت لَه وتَد يعلق لَك مخلا[4].

ومن الأمثال العامية التي نسبها إلى النساء:

- كُل شَيْء عَمَلْتُه مَعَك إلاَّ السَّعْد[5].

- مِن أيْن ماَ قَلبتْ غزلي لَطَمْت صَدْرِي[6].

- يشرب الصَّبِر، لِمَا هُو أمر[7].

وثمة أمثال عديدة نجدها مبثوثة في تضاعيف كلامه وهو يسوقها دون نسبة أو توطئة وقد استخرجنا منها المجموعة التالية:

- بَيْن الصَّحْفَة والمَنْدِيل[8].

- ثَوْب العَارِية لا يسَخِّن[9].

- بِمَنْزِلة مَن يؤذن في أرْضٍ خَالِيَة[10].

1ـ الرسائل: 197 وانظر تخريجه في القسم الثاني رقم 1623.
2ـ الرسائل: 204 وانظر تخريجه في القسم الثاني رقم 265.
3ـ الرسائل: 204 وانظر تخريجه في القسم الثاني رقم 200.
4ـ الرسائل: 213 وانظر تخريجه في القسم الثاني رقم 111.
5ـ الرسائل: 54 ولم نقف عليه في غيرها.
6ـ الرسائل: 185 وانظر القسم الثاني رقم 1091.
7ـ الرسائل: 207 وذكره الزجالي بلفظ: يشرب المر لما هو أمر منه. (حرف الباء)
8ـ الرسائل: 14، 212.
9ـ الرسائل: 16 وانظر الزجالي رقم 743.
10ـ الرسائل: 23 وهو كقولهم: صيحة في واد.



- دَعُوا الشَّمْعَة تَحْتَرِق بِنَارِهَا[1].

- الغَلَط يَرجِع مِن التَّلِّيس[2].

- بِمَنْزِلَة مَن يَرُوم أنْ يُوقِف زِقًا فَارِغا[3].

- بِمَنْزِلَة مَن يغمس زِقًّا مَنْفُوخا فِي مَاء غمر[4].

- القِرْد الشَّارِف لاَ يتعَلَّم الرَّقْص[5].

- انْسِلاَل الشَّعْرَة مِن العَجِين[6].

- فُشْقَار فِي نُخَال[7].

- لَو انْقَلَبَت السَّمَاء عَلَى الأرْض والعَرْش عَلَى الفَرش[8].

- إيشْ المَقْصُود وَقْت يَمْضِي و لعُبَة تَنْقَضِي[9].

- المِلْح بالنُّخَال[10].

- يَقْذِف بالأحْجَار[11].

- ماذَا عَسَى أنْ يُجْرِى الفَارِس الفَرَس الجَوَاد[12].

---

1. الرسائل : 37 ولم أقف عليه في غيرها.
2. الرسائل : 43، 81 وانظر تخريجه عند ابن شنب رقم 1290.
3. الرسائل : 48 وانظره في القسم الثاني رقم 2042.
4. الرسائل : 48 ولم أقف عليه في غيرها.
5. الرسائل : 49 وانظر تخريجه في القسم الثاني رقم 1810.
6. الرسائل : 50، 105 وانظر تخريجه في القسم الثاني رقم 790.
7. الرسائل : 53 وانظر المثل رقم 1878.
8. الرسائل : 64 وما يزال مسموعا.
9. الرسائل : 71 ولم أقف عليه في غيرها.
10. الرسائل : 71 ولم أقف عليه في غيرها.
11. الرسائل : 71 وانظر المثل رقم 1212 في القسم الثاني.
12. الرسائل : 71 ولم أقف عليه في غيرها.



- عَصا الأعْمَى[1].

- لا تُحملوا القِط حَمْل الجَمَل[2].

- شَاشيتَان لا تَسعَان فِي رَأْس[3].

- مَن هُو قَلِيل السَّعْد مَاعنْدِه مَا يَعْمَل[4].

- خَلِّ الحُك عَلىَ غْطَاه[5].

- بِمَنْزِلة مَن هَدَم قَصْرا، وبَنَى مِصْرا أَوْ بَنَى قَصْرا وهَدَم مِصْرا[6].

- مَذْبُوح بِغَير سكِّين[7].

- أمَان اللَّه تَعَلَى عَلَى العُرْيَان[8].

- يَنهْرَق مَتَاعهم فِي الرَّمَاد[9].

- يَخَلِّى كسَاه في أَيْديهِم ويَقوم عَصَى (؟)[10].

- حُزْن الجَمَاعة فرَح[11].

- بِمَنْزِلَة الرَّجُل الذِّي كَان رَاكِبا حِمَارا وهُو يُنَادي ويَقُول : مَن أَصَاب لِي حِمَارا[12].

1- الرسائل : 73 وانظر المثل رقم 608 في القسم الثاني.
2- الرسائل : 74، 199 وانظر المثل رقم 1816.
3- الرسائل : 75 وهو مذكور في دوحة الناشر : 31 بلفظ : رأسان لا يجتمعان في شاشية واحدة وفي المستطرف 44 : راسين في عمامة مايكون، وعند شبير 8 : لا تسع عمامة رأسين والأصل المثل العربي : سيفان لا يجتمعان في غمد واحد.
4- الرسائل : 75.
5- الرسائل : 87.
6- الرسائل : 93 وهو عند ابن عاصم رقم 738 والميداني 2 : 428.
7- الرسائل : 104 و ما يزال مسموعا. ابن سودة : 295.
8- الرسائل : 108 وانظر تخريجه في القسم الثاني رقم 292.
9- الرسائل : 110 وانظر المثل رقم 1447 في القسم الثاني.
10- الرسائل : 110.
11- الرسائل : 112 وانظر تخريجه في القسم الثاني رقم 798.
12- الرسائل : 112 وهو مثل معروف، ويذكر في نوادر جحا.



ـ كُلَّ طَرِيق يَنْفذ إلى الجَامِعِ[1].

ـ لَمْ تَبْك حَزينَة مَع أخْرى[2].

ـ فَلاَن نِصف طَبْخَة[3].

ـ المُلْك أو الهُلَك[4].

ـ هَذا مِن البَاذِنْجَان[5].

ـ كَمَن يَحبِس شَيْئًا في يَدِه ويَقُول لجَمَاعة مِن النَّاس : أي شَيء في يَدِي[6].

ـ لَمَّا تَتْعَمَّر سُوق شَلَّة[7].

ـ جَاتْ يَدهم في الحَايْط[8].

ـ لَمْ يبْق لِلصُّلح بَقِيَّة[9].

ـ بعَتني بِبَصْلَة[10].

ـ فَلْيَدخُل المُعْتَرِض رَأسنا مَع الرُّؤُوس، ولِيَضْرِبْ عَلى الجَمِيع بالدَّبُّوس[11].

1ـ الرسائل : 112، 137، 709 وانظر تخريجه في القسم الثاني رقم 1088.
2ـ الرسائل : 112.
3ـ الرسائل : 112، 212.
4ـ الرسائل : 114 وانظر تخريجه في القسم الثاني رقم 320.
5ـ الرسائل : 114، 220 وانظر في القسم الثاني رقم 1952.
6ـ الرسائل : 116، وهو مثل معروف في المغرب.
7ـ الرسائل : 116 وذكر ان سوق شلة كانت تعمر مرتين في السنة وعرفت بكثرة الضجيج.
8ـ الرسائل : 124، 180 وما يزال معروفا، وعند الطالقاني رقم 251 : رأسه والحائط.
9ـ الرسائل : 126 وانظر تخريجه في القسم الثاني رقم 900.
10ـ الرسائل : 126 وهو معروف، ابن سودة : 200 (10).
11ـ الرسائل : 132، 150، وهو معروف.

ـ الْعَق العَسَل، ولاَ تَسَل[1].

ـ فَديْتك يَا مَن يَفْهَم[2].

ـ كَحيل بَنِي شَاكرِ[3].

ـ دَرْهَم معيق(؟)، لاَ يُشْتَرى بِهِ مَاء ولاَ دَقِيق[4].

ـ كُلَّ قِرْد فِي عين أمِّه غزَال[5].

ـ لَوْ فَتَّشْت علْيه بالفتِيلَة[6].

ـ لزمني طوق حَمَام[7].

ـ خُذْ مِن المَوْقِف، وَرُدَّ مُشَرَّف[8].

ـ كُلُّنا فِي الهَوَى، سَوى[9].

ـ مَا يَفْعَله القَلَبّق إذا رَأى النَّاس[10].

ـ افزرْهُ يرحمك اللَّه[11].

ـ يَفْزَع مِن ظِلِّه[12].

1ـ الرسائل : 135، 206 : وقد تمثل به اليوسي في مقدمة كتابه زهر الاكم.
2ـ الرسائل : 137، وذكره الزجالي بلفظه في أمثال الخاصة.
3ـ الرسائل : 155 وبنو شاكر : من أسماء الساسانيين المكدين. انظر اليتيمة 1 : 345
4ـ الرسائل : 160 ولم نقف عليه في غيرها.
5ـ الرسائل : 162، وهو معروف انظر تخريجه عند ابن شنب رقم 1485.
6ـ الرسائل : 166 ومايزال مسموعا.
7ـ الرسائل : 168، 214
8ـ الرسائل : 170 وانظر تخريجه في القسم الثاني رقم 869 .
9ـ الرسائل : 170، وهو معروف.
10ـ الرسائل : 172، 225 وانظر المثل رقم 404 في القسم الثاني.
11ـ الرسائل : 175 وانظر المثل رقم 401 في القسم الثاني.
12ـ الرسائل : 178 وانظر تخريجه في القسم الثاني رقم 2105.



- أرَاد أنْ يَلْصق طِينا بِحَائطٍ يَابِس[1].
- الغَلَط يَرْجَع مِن التِّـلِّيس[2].
- مَات ودُفِن وَخُرِىء عَلى قبْرِه[3].
- حَلْوَاء القُبَّيض : كُلَّما زِدْتَـها مَضْغا زَادَتْك حَلاَوَة[4].
- لَمْ يخرجوا خِـنْزيرا مِن فَدَّان[5].
- حَجَر بُوشَقْشَاق[6].
- إمَّا أنْ يَـمُوت الحِمَار أوْ يَـمُوت سَائِقُـه[7].
- كَمَا يَـنْظُر الكَبْش فِي النَّارنْج[8].
- القِط لاَ يَقْدَر عَلَى حَمْل الجَمَل[9].
- دَعك أنْ تكُون مِثْل الهِر أو كَجَالِب التَّمر إلَى خَيْبَر[10].
- بِمَنْزِلَة الخَرَّاز الذي يَـتْبَع فِي خَرْزه الثـقب[11].

---

1. الرسائل : 181 ومايزال هذا المثل مسموعا في المشرق العربي، ففي مجموعة شفيقة شبير «راح نخبط الطينه في الحيط ان مالزقت بتعلم" ص 14.
2. الرسائل : 181 وقد تكرر فيها.
3. الرسائل : 183، وانظر المثل رقم 1288 في القسم الثاني.
4. الرسائل : 185، ولم نقف عليه في غيرها.
والقبيض : كذا في المطبوع، وذكر الزبيدي في لحن العامة : وابن مكى الصقلي في تثقيف اللسان : 44 أن عامة الاندلسيين كانوا يقولون : قبيد، والصواب : قبيط وهو ضرب من الحلوى، يصنع من اللوز والجوز والفستق، وانظر أيضا دوزي 2 : 302.
5. الرسائل : 194، ولم نقف عليه في غيرها.
6. الرسائل : 196، وقال فيه أنه "إذا حصل بيد البربري الجاهل يرى أنه حاز بذلك ملك العراق وقد يفجأه الموت قبل أن ينكشف له سره وينزع عنه ستره وقشره فيحصل له في تلك المدة حالة جميلة ويربح فرحته وان كانت مدة قليلة".
7. الرسائل : 197 وانظر تخريجه في القسم الثاني رقم 2140.
8. الرسائل : 197 وانظر المثل رقم 2077 في القسم الثاني.
9. الرسائل : 199 وقد تكرر فيها.
10. الرسائل : 200 وهما مثلان والثاني معروف.
11. الرسائل : 204، وانظر تخريجه في القسم الثاني رقم 895.



- رَد غيْظ الحِمَار عَلى البَرْدَع[1].
- النَّاس عَلَى دِين المَلك[2].
- الْعَق العَسَل ولاَ تَسلْ[3].
- كُل أحد فِي رَأسه مَا يُلْهِيه[4].
- كُل طَريق يَنْفُذ إلىَ الجَامِع[5].
- ولَو ضربت بالقُطوُط المَيِّتَة[6].
- حَشْو البَرْدَع، لاَ يَدْفَع ولاَ يَنْفَع[7].
- كُلْ أَحَد يَعْرَف عَظْمُه عَلَى الصَّحْفَة[8].
- مِن سَاعَة إلى سَاعَة فَرَج[9].
- هَذا مِن البَاذنْجَان[10].
- الفَاس لاَ يَخْدم إلاَّ باللُّقْمَة[11].
- اضْرَب الزِّير بالقُلَّة[12].

1ـ الرسائل : 205 وانظر تخريجه في القسم الثاني رقم 920.
2ـ الرسائل : 205 وهو معروف.
3ـ الرسائل : 806 وقد تكرر.
4ـ الرسائل : 208 وفي الميداني 2 : 171 : كل رأس به صداع.
5ـ الرسائل : 209 وقد تمثل به أكثر من مرة.
6ـ الرسائل : 214.
7ـ الرسائل : 218، وانظر المثل رقم 842 في القسم الثاني.
8ـ الرسائل : 219، وانظر تخريجه في القسم الثاني رقم 2129.
9ـ الرسائل : 220، وهو في القسم الثاني رقم 1500.
10ـ الرسائل : 220، وقد تكرر فيها .
11ـ الرسائل : 223، وهو في أمثال ابن عاصم رقم 278.
12ـ الرسائل : 225، 226، وانظر تخريجه في القسم الثاني رقم 1627.

- لا يُسَاوي فُولَة مُسَوَّسَة[1].

- كَالفَلَك الأطْلَس[2].

- صَالح بِزَوْجي سَرَاوِيل(؟)[3].

- رَجَعَتْ أيْدِيهم أكْمَاما[4].

- مُهرج إذَا حَكَّ فِي المُنِيف[5].

- خَلوا الكَفَّة تَنْطَح العَمُود[6].

- ذِيَاب فِي ثِيَاب[7].

- يَدْخُل مِن أذن ويَخْرج مِن أذن آخَر[8].

- نَوَافِج المِسْك لا تُوجَد في بُيُوت الكَنَّافِين[9].

- الشَّاقِي بَاقِي[10].

- الصَّلاَة خيْر مِن النوَّم ! قَال : كَذَلِك هُو عِنْدَك[11].

- بِمَنْزِلَة الصَّبِر السقطري[12].

1ـ الرسائل : 208.
2ـ الرسائل : 228، 240، وانظر دوزي 2 : 53.
3ـ الرسائل : 229، ولم نقف عليه في غيرها.
4ـ الرسائل : 230، وانظر تخريجه في القسم الثاني رقم 976.
5ـ الرسائل : 730 ولم نقف عليه في غيرها.
6ـ الرسائل : 231، ولم نقف عليه.
7ـ الرسائل : 233، وهو معروف.
8ـ الرسائل : 240، وما يزال مسموعا.
9ـ الرسائل : 242.
10ـ الرسائل 246، وفي الأمثال المصرية: عمر الشاقي باقي، شقيقة شبير : 13.
11ـ الرسائل : 251، وأنظر المثل رقم 80 في القسم الثاني.
12ـ الرسائل : 252، والسقطري نسبة إلى جزيرة سقطري.



ويبدو من هذا الثبت ولع ابن عباد الرندي باستعمال الأمثال العامية التي كانت رائجة بين الناس في عصره. وورود هذه الأمثال في درج كلامه، يساعد كثيرا في فهمها وموقع مضربها، ولكننا ما كنا لنهتدي إلى أنها أمثال عامية لولا وقوفنا عليها في مجاميع الأمثال العامية الأندلسية.

وقد يسوق الرندي أحيانا أمثالا بحكاياتها كما في هذا المثل :

- الحَمْد لِلَّه عَلى قِلةّ الحَسَب.

قال مخاطبا صاحبه السراج : «وقد قلت لكم في بعض الكتب التي سلفت من الألفاظ العامية : الحمد لله على قلة الحسب. وذلك في نازلة وقعت في بعض الأزمنة كلف فيها السلطان أهل الجاه والحسب بعض التكاليف الشاقة فقال حينئذ بعض الأرذال والسوقة ذلك الكلام»[1].

ويقول في موضوع آخر : «وقد قال ذلك البدوي الذي أهدى التين إلى بعض الملوك حين أمر أعوانه أن يضربوه بها :

- سَلاَمَة ادّي مَا كَانَت سَفَرْجَل[2].

ويقول أيضا :

«وقل لهم ما قال ذلك الطائر لأليفته من الطيور حين عتبت عليه ماجناه عليها :

1ـ الرسائل : 114.
2ـ الرسائل : 152.



ـ أخْطَـأْتُ لاَ أعُـود[1].

وقد يتصرف في المثل فيبسط عبارته ويورده بمعناه لا بلفظه كما في قوله:

«ومَن بيَدِه جَوْهَرة نَفِيسَة أو دُرَّة خَطِيرَة لاَ يَنْبَغِي أن تَسْمَح نَفْسه بأن يُلْقِيها للبِغَال والحمير، أو أن يُعَلِّقها في أعنَاق الكِلاَب والخَنازير»[2].

وقوله في موضع آخر مشيرا إلى المثل نفسه: «كما أن الدر والجوهر ليس بلائق أن يعلق على أعناق الخنازير». فهو في هاتين العبارتين إنما يتوسع في مثل عامي معروف.

7ـ ثم ظهرت بعد هذا أمثال ابن عاصم، ومدوّن هذه الأمثال القاضي أبو بكر محمد بن عاصم القيسي الغرناطي (760هـ ـ 829هـ) من أعلام الأندلس المعروفين، وأمثاله ـ كأمثال الزجالي ـ باب من كتاب، فهي تقع في الحديقة الخامسة من كتابه حدائق الأزاهر، في مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والنوادر. وهو مطبوع على الحجر بفاس في القرن الماضي، ولما كانت حديقة الأمثال في هذه الطبعة تتسم بالنقص والتحريف وصعوبة الخط فقد أعاد الدكتور عبد العزيز الأهواني نشرها نشرا علميا، وحققها وعارضها بأصول مختلفة، مع دراسة قيمة وجامعة في أمثال العامة في الأندلس، وقد أفدنا من عمله هذا كثيرا في المنهج والمادة على السواء.

وسوف نتناول أمثال ابن عاصم هنا من حيث صلتها بأمثال الزجالي لنرى ما بين المجموعَيْن من تشابه أو اختلاف ونقارن بين بعض الأمثال فيهما.

1ـ الرسائل: 152.
2ـ الرسائل: 8.



وأول ما نلاحظه أن مجموع ابن عاصم لا يتجاوز ثلث مجموع الزجالي بكثير، مع أنه دوّن بعده بنحو قرن، ولكن يبدو أن ابن عاصم لم يقف على أمثال الزجالي أو كتابه «ري الأوام» وهو لم يشر إلى شيء من هذا في كتابه «الحدائقَ على أنه لم يعن بذكر مصادر كتابه، كما أن المقارنة بين المجموعين لا تفيد ما يدل على تقليد أو تأثر، بل إنهما يَختلفان من بعض الوجوه، فالزجالي كما قررنا يذكر في كل حرف أمثال الخواص ثم أمثال العوام، أما ابن عاصم فقد اقتصر على أمثال العوام[1]. ويَختلفان أحيانا في أوائل حروف الأمثال فمن ذلك المثل :

- خُذ دِرْهَم مِن مي، واطْلُب البَقِي.

هكذا رواه الزجالي، ونجده عند ابن عاصم في حرف الواو كما يلي :

- وَاحَد مِن مي، واتْبَع البَقِـي.

ونجد في حرف الطاء عند الزجالي هذا المثل :

- طَوْقَينْ في العُنْق، مِنْ عَلَامَـة الحُمْق

على حين ذكره ابن عاصم في حرف الثاء كما يلي :

- ثَوْبَي فالعُنْق، مـن أمارَة الحُمْق.

1- وقفت في أثناء مراجعة التجارب الأخيرة على زوائد ابن عاصم التي نشرها الأستاذ ا.غ غومس، في مجلة الاندلس. وهي زوائد من الأمثال تنفرد بها مخطوطة "الحدائق" في المتحف البريطاني، ومعظمها من أمثال الخاصة. انظر :

EL REFRANERO DE IBN ASIM EN ELMS. LONDINESE. (Al ANDALUS. VOL. XXXV. 1970 : FASC 2).

أما الاختلاف في صيغة المثل فهو كثير، وقد يتفقان في حرف المثل وصيغته كما في هذه الأمثال :

- رَكَضُ الحِمَار ومَات.

- زِدْ للطِّين بَلَّـة.

- صَفَا حُبِّي مِن عِتَاب.

- صَفَا مَا طبَـخْ.

ولكنا لا نستطيع أن نعزو مثل هذا إلى إطلاع ابن عاصم على أمثال الزجالي أو نقله عنها لأنه قليل، ولأن بعض الأمثال لا يعتريها التغيير رغم اختلاف الزمان أو المكان، والمجموعان يتفقان كثيرا في حرف المثل دون صيغته، ولكن نسق الأمثال المشتركة بينهما في الحرف الواحد مختلف، وقد وجدناهما يختلفان في شواهد الأمثال، ففي المثل :

- زَامِر القَرِي مَا يُلهِي.

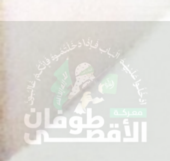
يستشهد الزجالي بقول الشاعر :

لاعَيْب لي غَير أنِّي من ديَارهِمُ   وزَامِرُ الحَيّ لا تُلْهي مَزَامِرُهُ

أما ابن عاصم فيستشهد بقول الآخر :

واطْوِ المرَاحِلَ عن أرض تُهَانُ بها   فالمندل الرَّطبُ في أوْطَانه حَطَبُ

وكثير من الأمثال المشتركة بينهما ذكرها الزجالي مقرونة بالشواهد، ووردت عند ابن عاصم بدونها، وفي بعض الأحيان نجد العكس، ولكن ذلك قليل، وقد نستفيد من هذه الفروق الشكلية أن ابن عاصم لم



يظلع على مجموع الزجالي وأنه ربما دون أمثاله كما سمعها من أهل غرناطة، ولسنا نعرف السبب في قلة عدد أمثاله بالنسبة إلى أمثال الزجالي، فهل هو راجع إلى الاختيار؟ أم إلى ضيق مجال السماع والاقتصار على الأمثال السائرة في غرناطة؟ وقد عرفنا فيما سبق أن مجال السماع كان فسيحا ومتنوعا عند الزجالي لأنه عاش في قرطبة وشرق الأندلس والمغرب، أما ابن عاصم فيبدو أنه لم يخرج من غرناطة، وفي مجموعه أصداء لغرناطة والمدن والقرى التابعة لها، وذلك كالأمثال التي يذكر فيها أسماء حدرو (وادي غرناطة) والسبيكة (من متنزهات غرناطة) واخشارش (مخشارش؟ من أرباض غرناطة، ومنها أبو حيان النحوي) وبسطة وبلش، ووادي آش التي ولي قضاءها، ولم ترد هذه الأمثال في مجموع الزجالي، إما لأنها خاصة بأهل غرناطة أو لأنها قيلت بعد عصره، أو لأنها لم تنته إليه. على أن هذه الأمثال الخاصة بغرناطة قليلة، ومعظم أمثال ابن عاصم كانت أمثالا مشتركة بين أهل الأندلس جميعا، إذ أن أكثر من نصفها موجود في مجموع الزجالي، وقد ذكرناها في مواضعها من النص.

ومهما يكن فإن المجموعين يكمل بعضهما بعضا ويصحح أحدُهما الآخر، وقد اعتبرنا مجموع ابن عاصم أصلا في تحقيق أمثال الزجالي التي تتفق في الصيغة مع أمثال ابن عاصم كما نبهنا على ذلك في الفروق. أما مظاهر الاختلاف بينهما فإنها تفيد في المقارنة ومتابعة تطور الأمثال وما طرأ عليها من تغيير خلال قرن تقريبا، وإن كنا نحسب أن اختلاف الصيغ بينهما أحيانا لا يرجع إلى اختلاف الزمان فقط، وإنما يرجع أيضا إلى اختلاف المكان، ذلك أننا ما نزال نرى اختلاف صيغة المثل بين مدن وأقاليم في بلد واحد، بل إن صيغة المثل قد تختلف بين أهل

المدينة الواحدة، وهذا مع وسائل العصر التي من شأنها أن تعمم وتوحد وتقضي على الفروق.

وإذا افترضنا أن مجموع الزجالي يمثل شيئا من لهجات قرطبة وشرق الأندلس فإن أمثال ابن عاصم قد تكون صورة للَّهجة الغرناطية، وذلك في حدود ما يمكن أن تصوره الأمثال من مظاهر اللهجات، وسوف نتعرض لهذا في الفصل الذي ندرس فيه العامية الأندلسية من خلال الأمثال.



8. ولم يكن ابن عاصم الوحيد الذي دون أمثال الأندلس في العصر الغرناطي، فقد وقفنا في ديوان الشاعر البسطي عبد الكريم القيسي على تقريظ له يقرظ فيه كتابا في الأمثال العامية لمؤلف يدعى أبا علي بن القفال من أهل القرن التاسع الهجري، وعبد الكريم القيسي يصفه بالذكاء والظرف، ويذكر أن الناس استقبلوا كتابه بالترحيب، وقضوا لصاحبه بالتقدير والإجلال، ونثبت فيما يلي نص هذا التقريظ الشعري :

لِللّـه دَرُّ أبِـي عَـلـيٍّ إنَّـهُ ... فـي أنْـسِهِ أذكـى بَـنِي القَـفَّال
ولَه انْتَهى الظَّرفُ الذي مَامِثْلهُ ... في ذا الزَّمان ولاَ الزَّمَان الخَالي
دلَّتْ علَيه دَلاَئِلٌ لا تَخْتَفِي ... مِنْـهَا المَجِيءُ بِـهَذه الأمْثَال
فَلَقَد أتَـى مِنهَا بمَـا رَاقَ النُّهَى ... وقَـضَـى لَـهُ فِـي النَّاس بالإجْلال
حَفِظ الإلَـهُ مِن المَـكَارِه ذَاتَـه ... وحَباه بالإنـعَامِ والإفْـضَـال[1]

وقد بحثنا عن أمثال ابن القفال هذه فلم نجد لها ذكرا ولا لصاحبها ترجمة، ولا نعرف عنهما غير ما ذكره عبد الكريم القيسي، أما هذا الشاعر فقد عاش في آخر العصر الغرناطي بمدينة بسطة[2]. ويعتبر ديوانه المخطوط وثيقة قيمة في هذه الفترة الغامضة، وفي ديوانه أمداح في الرئيس أبي يحيى ابن عاصم، وهو ولد أبي بكر بن عاصم، ومعنى هذا أن أمثال ابن القفال جاءت بعد أمثال ابن عاصم بنحو قرن، ويفهم من تقريظ عبد الكريم القيسي وتقديمه لهذا التقريظ أن الأمثال المذكورة تقع في كتاب مستقل، ويفهم منه أيضا أن مؤلفها

---

1. ديوان عبد الكريم القيسي : 259 مخطوط الخزانة العامة بالرباط.
2. انظر كتابنا : البسطي آخر شعراء الأندلس. وثمة إشكال في اسمه.

أبا الحسن علي بن القفال كان أحد أفراد أسرة أو إخوة عرفوا بالطلب والعلم، وربما كانوا من أهل بسطة بلد الشاعر عبد الكريم القيسي. ويدل ظهور هذا الكتاب قبيل سقوط غرناطة على أن تدوين الأمثال ظل مستمرا حتى نهاية الأندلس.

9. ثم ظهر في السنوات الأخيرة مجموع «من أمثال قطّان الأندلوس العامية» قام بجمعها أو نسخها موركسي غرناطي معروف وهو يكتب اسمه بالحروف العربية هكذا : الهُنْسُ قَسْتِلْيُ Alonso del Castillo وقد قام الصديقان فيديريكو كورينتي وحسين بوزينب بنشر هذا المجموع مع ترجمته إلى الإسبانية وسنتحدث عنه وعن جامعه أو ناسخه فيما بعد.

وربما كان من المفيد أن نضع في خاتمة هذا العرض التاريخي جدولين أولهما لبعض الأمثال المشتركة بين ابن هشام والزجالي وابن عاصم، والآخر يوضح الفروق بين أمثال الزجالي وأمثال ابن عاصم، وذلك كنموذج لتطور صيغ الأمثال العامية في الأندلس خلال ثلاثة قرون تقريبا.

ابن هشام	الزجالي	ابن عاصم
لكل جدديد لذة.	لكل جديد لذه، ولكل قديم حرمه.	كنا اصدقا صرنا معارف.
بعد الصداقة صرنا معارف.	كنا صدقا رجعن معارف.	من بغض يد قطاع.
لو بغضتني يدي قطعتها.	من بغض دراع، يقطع.	كل بلد وهلال. وكل زمان ورجال.
لكل زمان دولة ورجال.	كل شهر وهلال، وكل بلاد ورجال.	لا تهلم الدب لرمي الحجر.
لا تعلم الدب رمي الحجارة.	الهم الدب لرمي الحجر.	
منسكت انحس لم يسمع نحسا ابن نحس.	من سكت لكلب ما يسمع كلب ابن كلب	خير الخير عاجل.
من عضته الحية من الحبل ينفر.	من لدغه الحي من الحبل ينفر.	على ساحل كسيك تمد رجليك.
خير الخير عاجله.		
على قدر كسائك مد رجليك.	على قيس كسيك تمد رجليك.	من أراد كل فات جل.
ليس لكرامة الدجاجة غسلت رجلاها.	ما من كرامة الدجاجة تغسل رجليها.	من غاب خاب، وكل نصي الأصحاب.
من طلبه كله فاته جله.	من أراد بجل فات بكل.	آش برطل واش مراق وش لزم ساق.
من غاب سهمه.		
ما برطال وما مرقة.	أش برطال أو أش مراق أو أش عض من ساق، في رأس الجمل ما لس في راس الجمال.	
هواي وهوى ناقتي مختلف.		
الغلاء جلاب.	الغلا جلاب.	
لم يخل فلان للصلح موضعا.	خل للصلح مكان.	
تزبب وهو حصرم.	ازبب وهو حصرم.	

الزجالي	
إذا هبت الريح فالبنانيس تدخل (رقم 6).	إذا بار الريح فالبنيس يدخل (رقم 45)
إذا اجتماع الحلالين، اتناصف (رقم 43)	هذا اجتمع القمارا يتناصف (رقم 38)
الا تبقى الحام دون مبطول (رقم 45)	فش تبقى الحم دون بطول (رقم 117)
اللب أي ياوي ما يادي (345).	السبع أي ياوي إش يدي (رقم 171).
افتح كرنب سقتلك(393).	افتح كرنب سقتلكم، إن اللحم غالي (رقم 247).
ابطح سعيد يقع أبو بكر (417).	انطح موسى يقع عيسى (رقم 211)
الميلاد، لا يخذك بر دارك ولا ورا واد (477).	سفر فاشتا، نقيمة الأعدا (رقم 444).
ثمار وادي آش لا ظل ولا طعم (745).	تمار وديش ذل بلا طعم (351).
جواب أولاد الزنا السكوت (791).	جواب ابناء القحبات السكوت (رقم 360).
حرك المحس في دار الخيل، يقلق صاحب الدبر (808)	هز المحسا في دار الخيل، يقوم المدبر بالزوج (رقم 784).
حق لس نعطى. عيار القف كنطلب (711).	حقنا آش نصلولو، نطلبو عيار الوزانة (رقم 376).
حول بحول، صحبت الدار أولا (825)	جول بجول، لشرق أولا (رقم 358).
خذ درهم، من مي، واطلب البقي (878)	واحد من مي واتبع البقي (790).
خسارة ان لا يدري بها جارك، فضل هي كلها (894).	حاجة إن لا يدريها جارك فاضل هي صاف (رقم 368).
راس بلا كيد اقرع أخير من (983).	راس بلا خرب، قراع احسن من (رقم 410).
زيادة الأحمق خير من أعطاه (1013)	وفي الأحمق خير من عطاه (رقم 797).
كل أحد يمدح قط ولو كان منتوف الذنب (1087)	أش يقول أحد عن قط خرير (رقم 129)
كل حمامة أن تفر لبرج أبي دانس تقطع (1090).	برج أبو دلامة كل حمامة أن تفر إليه تطرق (325).

الزجالي	ابن عاصم
لس كن يكون ذا الغرس قبل مرس (112).	كيكون ذا الغري في مارس (606).
لس يسمع الله من ساكت (1189)	إش يسمع القاضي من ساكت (122)
لولا كلام الناس كن يمشي الذيب فالسوق (1214).	لولا أبناء القحبات كيمشي السبع فالسوق (619).
لو عطيتني بضيع كان نبكي معك دميع (1246)	اعطني قطير، نبكيما عك دميعه (230)
من بغض الكرنب في شارب ينبت (1381).	من بغض الكسبور، في شارب يكبر (628).
نحن نقراو ولس نفلاح كيف لو غنين (1551).	نحن نقرو ولش نفلح ادعى إذا نغنوا (464).
نحن فالغرق وذا يصيح المردوش للغرس (1006).	الناس فالغرق وهو يقول المردوش للغرس (149).
كما عجنتها لطمها (1129)	هم عجنوها وهو يلطموها (رقم 785).
نميز الكلب نميز وبز (1558).	ميزت الكلب وم تميز وبر (رقم 739).
صاحب كعب ان وحد لا تلاعب (1606).	من جاب بوحد لا تلعبوه (رقم 243).
قدر بين نفسين ما تغلي أبدا (1974).	إش تغلي قدر بي نفسي (رقم 123).
سود زنت قال انكسرت (1831)	سود زنت معز فست (رقم 435).
شغل الحك عن الفلي (1877)	الحك أوكد من الفلي (رقم 186).
شبهت الخز بوبر المعز (1883).	أش يقرن الخز لوبر المعز (رقم 354).
شويه انلس لك دعها تحترق (1900).	خبزان لس لك داع بحترق (رقم 388).
يطلب التين فالضرو (2038).	يطلب الاسفنج فاطراف الذرو (824).

مصادر الأمثال الأندلسية والمغربية وتطورها واستمرارها ومظاهر استعمالها وتأثيرها في غيرها



1ـ لقد عنينا ـ في تحقيق أمثال الزجالي ـ بمقارنتها بغيرها من الأمثال العربية القديمة والحديثة وحاولنا ـ بقدر الاستطاعة ـ ردها إلى أصولها أو ما افترضنا أنه أصول لها، ولكننا توخينا جانب التريث والتوقف في بعضها، وآثرنا التزام الحذر في هذه الناحية حتى لا ننساق وراء الظنون أو الفروض، ومن المعروف أن نسبة الأمثال العامية إلى قائليها أو مرسليها أمر لا سبيل إليه إذ أن هذه الأمثال وليد شعبي مجهول النسب، وقد عنى الذين دونوا الأمثال العربية القديمة بذكر أخبارها ووقائعها وأسباب قولها وإرسالها، ونسبتها إلى قائليها، وإن كان بعض هذا ليس بمنأى عن الشك. أما جامعوا الأمثال العامية فلم يحفلوا بشيء من ذلك، وما أندر الحالات التي نصوا فيها على مورد مثل من هذه الأمثال أو نشأته الأولى.

ولو حاولنا أن ننظر في مصادر أمثال العامة في الأندلس والمغرب من أين نبعت وكيف ظهرت، لوجدنا أنها عملية دقيقة، ومسألة متشعبة، وقد تقتضي ألوانا من المقارنة الواسعة التي تتطلب زمنا طويلا، ولذلك نكتفي هنا بنظرة عامة ولمحة دالة على أن نعالج الموضوع أو يعالجه غيرنا بتوسع فيما بعد إن شاء الله.

إن مصادر هذه الأمثال متعددة ومتنوعة، فمنها ـ وهو معظمها ـ ما صدر عن البيئة المحلية نفسها، ومنها ما ورد عليها من بيئات أخرى، وقد شرحنا فيما سبق كيف دخلت كتب الأمثال العربية إلى الأندلس وكيف اشتغل بها الأندلسيون، ونريد الآن أن نشير إلى بعض الأصول التي اشتركت في تكوين أمثال العامة بالأندلس.

فمنها الأمثال العربية القديمة وقد تمثل الأندلسيون ببعضها كما ورد في كتب الأمثال و ومن ذلك قولهم :



- سَهْم لَكَ وسَهْم عَلَيك[1].

- من غابَ خَابَ، وَأَكَل نصيبه الأصْحَاب[2].

وتصرفوا في بعضها الآخر كقولهم :

- شَبَّهْت المَلاَئكة بالحدَدَّادِين[3].

- لسْ يَمُوت البَغْل مِن ركَاض أمّ[4].

- لا فِي السَّما مَصْعَد، ولاَ فالأرْض مَقْعَد[5].

وهو المثل العربي : «لا ترك الله له في الأرض مقعدا ولا في السماء مصعدا» أورده الميداني وقال : قالته امرأة دعت على ولدها»[6].

---

1. المثل رقم 1856 في النص، وهو في جمهرة الأمثال 1 : 522
2. ابن عاصم رقم 690 وهو في فصل المقال : 357
3. المثل رقم 1882.
4. المثل رقم 1209.
5. المثل رقم 1994.
6. مجمع الأمثال 2 : 243.



وفي بعض الأحيان لا يبقى من المثل القديم إلا معناه أو ترجمته إذا جاز استعمال الكلمة، ومثال ذلك قولهم :

ـ فِي سَاقي ولا في السَّبَّاط[1].

ـ اتْبَع القَلَبَّق حَتَّى تَعْمِيه[2].

فالأول ليس إلا ترجمة للمثل العربي القديم : بَقِّ نَعْلَيك، وابْذُل قدميك[3]، وكلاهما في معنى الاقتصاد والمحافظة على المال، وأما الثاني فهو فيما نرى صيغة جديدة للمثل القديم : خَلِّه درج الضب[4]. أي خَلِّه ضالا كضلال الضب، كما أن الصيغة الأندلسية تقال في معنى تضليل الغير، ويخيل إلينا أنهم في الأندلس استبدلوا بالضب القلبق أي السلحفاة فقالوا :

بَحَل قَلَبَّقْ فِي سكَّة. للحائر الضال، كما كان العرب يقولون : أضلُّ من ضب[5].

وأثر أمثال المولدين في أمثال الأندلس أكثر تأثيراً وأبرز ظهوراً من أثر أمثال العرب فيها، ولعل ذلك راجع إلى ملاءمتها للمزاج الحضري في الأندلس وتشابه الأوضاع الحضرية بين المجتمع الأندلسي وبين المجتمعات العباسية حيث ظهرت الأمثال المولدة. ولسنا ندري متى انتقلت هذه الأمثال إلى الأندلس ولا كيف انتقلت، وهل كان انتقالها

1ـ ابن عاصم رقم 534 ومايزال مسموعا في المغرب والمشرق. انظر تخريجه عند ابن شنب رقم 1342 وعند التكريتي 1 : 352.

2ـ جمهرة الأمثال 1 : 217.

3ـ مذكور في مجاميع الأمثال القديمة. انظر التكريتي 1 : 352.

4ـ فصل المقال : 491 ـ 142.

5ـ انظر شرح المثل رقم 404 .



بطريق التدوين أم بطريق السماع؟ ويخيل إلينا أن وصول هذه الأمثال إلى الأندلس وانتشارها فيها كان نتيجة عوامل متعددة، كدخول المشارقة إلى الأندلس، ورحلة الأندلسيين إلى المشرق، وقد يكون بعضها انتقل بواسطة الاستعمال المباشر والرواية الشفوية، وبعضها الآخر دخل مدونا ثم سَرَى من الخاصة إلى العامة، ومن المتعلمين إلى الأميين، وإذا كان القدماء قد قاموا برصد بعض الكتب المنتقلة من المشرق إلى الأندلس، ونصوا على تاريخ دخولها، فإن مثل هذا بالنسبة للأمثال العامية وما في معناها من الكلام الجاري لم يكن إليه سبيل[1]، ومهما يكن فإن وصول هذه الأمثال إلى أقصى المغرب دليل على أنها كانت عملة متداولة في الأمصار العربية وبرهان على أن وحدة الأمثال الحالية في البلدان العربية كما أبرزتها المقارنات، لها أصول تاريخية قديمة، وجذور بعيدة، وقد رأينا بذور هذه الوحدة في الأمثال المشتركة التي نسبها إلى العامة كل من أبي عبيد القاسم بن سلام المشرقي وابن عبد ربه المغربي.

وقد عني الباحثون بدراسة بعض العناصر المشرقية في الأندلس من النواحي الحضارية والثقافية والأدبية، وإن فيما اشتملت عليه مجموعة الزجالي ومجموعة ابن عاصم من أمثال مولدة أو عامية مشرقية عنصرا جديدا له فائدته في هذا الباب.

وقد تصرف الأندلسيون في الأمثال المولدة على نحو ما صنعوا في الأمثال العربية وصاغوها أحيانا صوغا جديدا واستبدلوا بالاستعمال

1- نجد بعض الأندلسيين في القرن الخامس الهجري يتمثلون ببعض الأمثال المولّدة، فمن ذلك : أنفقت مالي وحج الجمل. الحلة السيراء 2 : 135 وهو في أمثال المولدين عند الميداني 2 : 358 ومن ذلك أيضا : ابا العينا، لا أنت ولا أنا، الحلة السيراء 2 : 119.



المشرقي الاستعمال الأندلسي، فإذا كان البغدادي في القرن الرابع يقول :

- لاَ بَيْتا بِكِرا ولاَ خُبْزا بِشَرا.

جاء الأندلسي بعده، وقال :

- لاَ دَار بِكِرا، ولاَ دَقِيق بِشَرا[1].

لأن البيت استعمال مشرقي، والدار - بمعنى البيت المشرقي - استعمال مغربي، وما يزال هذا الاستعمال قائما، فالبيت عندنا في المغرب هو الحجرة أو الغرفة. والمثل البغدادي :

- الشَّيطان يَعْدو بلاَ مَنْشُور فَكَيْف إذا سُجِّل لَه.

يصبح في الأندلس كما يلي :

- إبْلِيس بلاَ بطِاَق فَكَيف إذا بُطِّقَ لُو[2].

على رواية الزجالي، وعلى رواية ابن عاصم :

- إبْليس بلاَ بِطَاقَة أرى إذَا بُطِّقْ لُو.

والمثل المولد الذي أورده الثعالبي والميداني هكذا :

- مَن اعْطَى بَصَلَة أخَذ ثُومَة.

---

1. المثل رقم 2011 في النص.
2. المثل رقم 144 في النص.

يرويه الزجالي على النحو التالي :

ـ يَمْشو ثُوم ويجُو بَصَل[1].

وقد أشرنا في النص إلى الأمثال المولدة التي اعتبرناها أصولا لبعض الأمثال في الأندلس، ويغنينا الرجوع إليها هناك عن ذكرها هنا.

ويرجع أصل بعض الأمثال الأندلسية إلى أخبار ونوادر وأجوبة تروى في بعض كتب الأدب، ويبدو أن أصداءها وصلت إلى أسماع العامة فتمثلوا بها، ثم جاء جامعو الأمثال فلم يفرقوا بينها وبين المثل بالمعنى الاصطلاحي، مع أن بعض القدماء فرقوا بين هذه الألوان الخفيفة من القول، يقول الفارابي في تعريف النادرة : «النادرة حكمة صحيحة تؤدي ما يؤدي عنه المثل إلا أنها لم تشع في الجمهور، ولم تجر إلا بين الخواص، وليس بينها وبين المثل إلا الشيوع[2]».

وما دامت هذه الأخبار أو النوادر أو الطرف أو الأجوبة شاعت بين عامة الأندلس فقد أصبح لها حكم المثل، ورويت في كتب الأمثال، وبعض هذه النوادر مشرقي، وبعضها الآخر أندلسي.

فمن الأمثال المأخوذة من نوادر مشرقية قولهم :

ـ بَحَل عُرْس إبْلِيس، يُسْمَع بِه ولاَ يُرى.

1ـ المثل رقم 2144 في النص..
2ـ المزهر 1 : 486.



فإن أصله فيما نرى جواب من أجوبة الشعبي المروية[1]، ومن ذلك قولهم:

- بَحَل خرا، الجديد يخرّج البَالي[2].

فإنه - فيما يبدو - تشبيه منتزع من إحدى نوادر الأعراب، وهي أن أعرابيا وُجِدَ يأكل ويتغوط فقيل له في ذلك فقال:

أُخْرج عَتِيقا وأدْخل جَدِيدا[3]، ومنها قولهم:

- كم تَكُلْ ؟ قال : مِنْ متى مَنْ[4].

فأصل هذا ما رواه ابن قتيبة في عيون الأخبار : «قيل لميسرة الأكول وأنا أسمع : كم تأكل ؟ قال : من مالي أو مال غيري ؟ قالوا : من مالك قال : دونان، قالوا : فمن مال غيرك ؟ قال: اخبز واطرح[5]».

وانتقلت هذه النادرة إلى الأندلس فرواها ابن عبد ربه في العقد على الوجه التالي : «وقيل لبسرة الأحول - كذا - : كم تاكل كل يوم : قال : من مالي أو من مال غيري ؟ قيل : من مالك، قال : مكوكا. قيل : فمن مال غيرك، قال : اخبزوا واطرحوا[6]». وظلت هذه النادرة تروى في الأندلس وتدون في الكتب إلى أيام ابن عاصم الغرناطي حيث نجدها في كتابه حدائق الأزهار بالرواية الأخيرة[7].

---

1. انظر شرح المثل رقم 665.
2. المثل رقم 639.
3. المستطرف 2 : 292.
4. المثل رقم 1126.
5. عيون الأخبار 3 : 225.
6. العقد 6 : 300 (في البطنة وقولهم فيها).
7. - الحدائق : 3/12.



ومثل هذا قولهم :

ـ كَم هِي سِتّ وسِتّ؟ قال اتْنَعْشَر خُبْزة.

فأصله جواب لبعض الطفيليين تورده كتب الأدب في أخبارهم[1].

وفي بعض الأحيان لا يبقى في الأمثال من هذه الأصول إلا جزء بسيط يلمح إليها، ويتعذر فهمه إذا لم يتيسر الوقوف عليها، فمن ذلك قولهم :

ـ دُش عَمَلين[2].

وأصله ـ فيما يبدو ـ نادرة أندلسية حكاها ابن عاصم في باب المضحكات من كتابه الحدائق إذ يقول : «وجاء رجل للصلاة فوجد الناس يصلون فقال : ترى كم معهم من ركعة ؟ فقال له رجل وهو في الصلاة: دُشْ[3]». فهذه المضحكة لم يبق منها إلا آخرها وهو : دش أو دش عملين أي مَعَنا ركعتان، وترجمته الحرفية اثنان عملْنا، ودُشْ : اثنان بلغة عجم الأندلس، ولسنا نعرف هل أصبح للمثل مغزى يضرب من أجله أم أنه إشارة فقط إلى المضحكة. ومعنى السخرية فيها واضح من وجوه : أحدها الكلام في الصلاة وهو مبطل لها إذا كان لغير إصلاح أو تنبيه للإمام، وثانيها التكلم بالعجمية، وثالثها الجهل بقواعد الدين وأحكامه، ومن هذا القبيل قولهم :

1ـ انظر شرح المثل رقم 1127، وللجواب روايات أخرى في كتاب الأذكياء لابن الجوزي وجامع الجوهر للحصري، ونجد مايشبه هذا الجواب في FLORESTA ESPANOLA
انظر مقالة الأستاذ F.DELAGRANJA في مجلة الأندلس (1970) بعنوان :
CUENTOS ARABES EN LA FLORESTA

2ـ انظر رقم 953.

3ـ الحدائق : 6/10. ودش هي Dos.

- ولا مَنْ يَرْفعَ ثِيَابْنَ من قُدَّام[1]

فإن أصله ما أورده ابن عاصم أيضا في باب المضحكات إذ يقول : «وقال رجل : سبحان الله : مايجيء من يرفع ثيابنا من قدَّام إلا من وراء، فقال له ابنه : أنا رأيت من يرفع ثياب أمي من قدام، فقال له : عار بن عار، كأني ما ندري هذا»[2].

ومن ذلك أيضا قولهم :

- بَحَل بُنْيَان : مَا يُقَدَّرْ حَتَّى يَقُومْ.

وأصله كلمة أو تشبيه لبناء إشبيلي من حكاية ذكرها المقري في نفح الطيب[3]، وقد ذهبنا عند شرح المثل :

- لَوْ لاَ الفُول السَّخُون أمَا كَان مَا نَقُول[4].

إلى أن أصله نادرة لأحد أصحاب النوادر في الأندلس ثم صارت فيما بعد تضربُ مَثَلاً للعيّ والفهاهة، ومن ذلك أيضا المثل الغرناطي الذي ما يزال مسموعا في المغرب :

- البَغْلَة رَكَضَت المَنَارة[5].

1- المثل رقم 1951 من النص.
2- الحدائق : 7/12
3- المثل رقم 611 في النص.
4- المثل رقم 1228 في النص.
5- الحدائق وعند ابن سودة : 166 : البغل زدم في المرايا، وذكر الحكاية نفسها.

فإن أصله حكاية أوردها ابن عاصم في الحدائق كما يلي : «واختصم رجلان عند قاض في خصومة بينهما، فأهدى إليه أحدهما منارة وأهدى الآخر بغلة، فلما وقفا للخصومة رأى مهدي المنارة القاضي يميل عليه بالحكومة فقال : أعز الله القاضي. إن حقي أشهر من منارة وردد ذلك مرارا، فقال القاضي : «يا هذا، إن البغلة ركضت المنارة برجلها فكسرتها»[1].

وهناك أمثال متولدة من أساطير كان لها صداها في الأوساط العامية في المشرق والمغرب ومثال ذلك قولهم :

- إذا طَغَى الثَّعْبان يُرْفَع[2].

فالثعبان في استعمال الأندلسيين هو التنين، ونحن نجد في شأنه أسطورة ترد في كتب الحيوان العربية، وقد رواها القزويني والدميري والأبشيهي، وفيما يلي نصها نقلا عن المستطرف : «وأول أمره (أي التنين) يكون حية متمردة ثم تطغى وتتسلط على حيوان البر فيستغيث منها فيأمر الله تعالى ملكا فيحملها ويلقيها في البحر فتقيم فيه مدة ثم تتسلط على حيوانه أيضا فيستغيث منها إلى ربه فيأمر الله تعالى بإلقائها في النار فيعذب بها الكافرين[3]»، وقد انتزع الأندلسيون المثل من هذه الأسطورة وأصبحوا يقولونه في السلطان الجائر والحاكم الطاغي، وفي أن مصير الطغيان والجبروت إلى زوال وانقراض.

1ـ المصدر نفسه.
2ـ المثل رقم 39 من النص.
3ـ المستطرف 2 : 127 وحياة الحيوان (مادة : تنين).

وثمة أمثال أخرى ترتبط بقصص مثلية معروفة في تراث شعوب البحر المتوسط، نجدها في النوادر التي تنسب إلى جحا كما نجدها في الخرافات التي نظمها لافونتين La Fontaine وذلك كالأمثال التالية :

- بحل بلشون : صغير ذا كبير ذا![1] (رقم 619)

- لشْ تْبيع البِيض كمَا تشريه ؟ قال يعجبني جريه[2]! (رقم 1224)

- حَالة الشيخ وابنه والحمار[3].

- سلامة أدى ما كانت سفرجل[4].

وقد يكون أصل المثل من عبارة وردت في قصة من القصص الدينية الذي كان يقصد به إلى الترغيب والترهيب وذلك كالمثل :

- آخِر مَن يَمُوتْ، مَلَك المُوت[5].

إلا أنهم حين تمثلوا به حملوه معنى عاما لم يكن له في أصل القصة.

وارتبطت بعض أمثالهم بأحداث تاريخية كقولهم :

1- انظر قصة Le heron أي البلشون التي ساقها لافونتين في الكتاب السابع من قصصه وأمثاله.
2- انظر نوادر جحا الكبرى : 12.
3- انظر نفح الطيب 3 : 94 نقلا عن ابن سعيد، وأعمال الاعلام لابن الخطيب : 13 ونوادر جحا الكبرى 114.
4- رسائل ابن عباد الرندي : 152 ونوادر جحا : 34 - 36 وراجع ص 138 من هذا القسم.
5- المثل رقم 251 في النص.



- أيَّام أبُو الغَرانِقْ[1].

- كَمَا جَا عُبَيْد مِن طُرُّوش[2].

- إنْ كان مَضى غَالِب، بَقِي الغَالِبْ[3].

- رَعْي الجِمَالْ خير مِنْ رَعْي الخَنَازِير[4].

وأصل هذا المثل الذي ذكره المرحوم ابن سودة في أمثال فاس جواب للمعتمد ابن عباد قاله لما حذّره ملوك الطوائف من استقدام يوسف بن تاشفين والمرابطين وقالوا له : الملك عقيم، والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد، فأجابهم بكلمته السائرة مثلا : رعي الجمال خير من رعي الخنازير أي لأنْ أكون أسيرا عند ابن تاشفين أرعى جماله خير من أن أكون أسيرا لدى ملك قشتالة أرعى خنازيره[4].

- الخَبَر ما تَرى لا مَا تَسْمَعْ[5].

قاله أو تمثل به يوسف بن تاشفين واقتصر عليه في جوابه على رسالة مطولة لألفونسو يهدده فيها وقيل إنه كتب على ظهر الرسالة : «الذي يكون ستراه» ورد الرسالة إليه[5].

- يَاصبِى حَرّك الكِير[6].

وهذا مثل قديم قيل في وقت ثورة الربضيين بقرطبة وقيامهم على الحكم الأول عام 202هـ فقد كان من نوادر ذلك اليوم المأثورة مثلا في هيج

---

1. المثل رقم 326 في النص.
2. المثل رقم 1135 في النص.
3. المثل رقم 190 في النص.
4. القصة في نفح الطيب 6 : 91 وأمثال فاس : 320 - 319 والروض المعطار : 85 والذخيرة ووفيات الأعيان 7 : 115.
5. قصته في أمثال فاس : 272. وانظر وفيات الأعيان 5 : 29.
6. قصته في أعمال الاعلام : 15 - 16 وسراج الملوك : 211 وفيه : سُق الكير يا صبى.



الرعاع أن حدادا كان بين يديه صبي يسوق الكير (أي يحركه) وأبصر اجتماع الناس وحضورهم في الأسلحة فقال : «ومن رئيسهم؟» فقيل : «ليس لهم رئيس»، فقال للصبي : «حرّك الكير ياصبي واعمل عملك فإن هؤلاء لا يكون منهم شيئ»[1].

وقد ذكرنا فيما سبق أمثال الحوادث التي وردت عند ابن حيان وغيره من المؤرخين الأندلسيين، ومن ذلك أيضا ضربهم المثل بالإعذار الذنوني في البذخ والترف، جاء في نفح الطيب عقب الكلام على بني ذي النون ملوك طليطلة مايلي : «ولهم الإعذار المشهور الذي يقال له : (الإعذار الذنوني) وبه يضرب المثل عند أهل المغرب، وهو عندهم بمثابة (عرس بوران) عند أهل المشرق[2]» كما تمثلوا بوقعة الزلاقة المشهورة، وفي البيان المغرب» : «وكان الناس يضربون الأمثال بوقعة الزلاقة ويعظمونها ولا يذكرون غيرها[3]».

ونشأت مجموعة من الأمثال حول المدن والأماكن الأندلسية وأهلها فضرب المثل بعامة قرطبة في كثرة الفضول وشدة الشغب، والقيام على الملوك، والتشنيع على الولاة، وقلة الرضا بأمورهم، وقيل فيهم :

- مِثْل الجَمَل، إن خَفَّفْت عَنْه الحِمْل صَاح وإن أَثْقَلْتَه صَاح[4].

---

1. قصته في أعمال الاعلام : 15 - 16 وسراج الملوك : 211 وفيه : سُق الكير يا صبى.
2. نفح الطيب 1 : 415 .
3. البيان المغرب 3 : 196 (القسم الخاص بالموحدين).
4. نفح الطيب 1 : 147 وقارن بالمثل العربي : ان ضج البعير فزده وقرا. انظر المستقصى.

كما ضرب المثل بمسجدها العجيب، وضرب المثل بإشبيلية في تمكن التمصر والتمدن فقيل :

- لَو طُلِبَ لَبَن الطيّر في إشبيلية وُجِد[1].

وضرب المثل بأهلها في الخلاعة، وانتهاز فرصة الزمان الساعة بعد الساعة، فقيل :

- إشْبِيلية تَفْتِك وطَرْيَانَة تُؤَدي الجُعْلْ[2].

وتمثلوا بمجبنات شريش وقالوا :

- مَن دَخَل شَرِيش ولَم يَأكُل بِها المُجبَّنَات فَهُو مَحْرُوم[3].

وسار المثل بالشراب المالقي[4] والتين المالقي[5]، وكان المثل يضرب بتطيلة - ومايزال - في اشتهارها بالحرث وطيب الزرع[6] وبقلعة لورقة في المنعة[7]، وبشاطبة في الحسن[8]. وامتدحوا سكنى جيان فقالوا :

- امْدَح البُلْدَان، واسْكُن جَيَّان[9].

واستمر هذا في أمثال الإسبان بعدهم فهم يقولون :

A quién Dios quiso bien, casa le dio en Jaén. Kleiser. n 27185

---

1. نفح الطيب 4 : 199 انظر أيضا اضافة : لبن الطير في ثمار القلوب للثعالبي.
2. الروض المعطار : 127 والمثل رقم 1050 في النص، ونفح الطيب 1 : 151.
3. نفح الطيب 1 : 172.
4. نفح الطيب 4 : 206
5. نفح الطيب 1 : 144، 186.
6. المغرب 2 : 449.
7. المغرب 2 : 275.
8. نفح الطيب 1 : 156.
9. المثل رقم : 465.

أي من أحبه الله كثيرا اعطاه دارا في جيان. ويقولون في الدعاء :

Dios te dé el reino de jaén que es ancho y largo. Kleiser n 7171

أي ليعطك الله مملكة جيان التي هي عريضة وطويلة.

ومن أمثال الأماكن أو الأمثال الجغرافية[1] إذا شئنا طائفة تسجل المنافرة أو المساجلة بين المدن والقرى الأندلسية كقولهم :

- دلاَّل شوذَر : يِفَرِّق بين البَايع والمُشْتَري[2] (رقم 932).

- وسْق المَرِيَّ : حَدِيد ورخَامْ (1941).

- شُرْطِ بِيَّاسه : يَقْتَنع بالزِّرْ (رقم 1887).

- زِوَاج أهْل بَسْطَة : بَالحِبَال فَالأرقاب (ابن عاصم رقم 426).

- بَحَلْ سُوق بَلِّش فالهُبُطْ (ابن عاصم رقم 270).

ويحمل بعضها معنى الهجاء السياسي - فيما نفهم - كما في قولهم :

- بَارِدَ، بحَلْ خَبَرْ مَاردَ (رقم 576).

- ذُكِرَت المُدُنْ، قَامَتْ اسجَه تَمْجُنْ (رقم 963).

- شُيُوخ بجَّانَة : (لا) يحِنُّ ولا يَرْحَامُ (رقم 1880).

- مِن خُلاَّعْ بَجِّينَه : يدرس الزَّرْجُونَهْ ويَسْكَر (ابن عاصم رقم 1880).

- عَزْبَة فَارُ، حَكَّتْ بَيْضَ الحِمَار حَتَّى احْمَارُ (رقم 1706).

1ـ تكثر أمثال البلدان أو «الأمثال الجغرافية» الاسبانية أيضا كثرة ملحوظة، وقد خصها بعضهم بمجموع مستقل، وأورد KLEISER قسما كبيرا منها مرتبة على حروف الهجاء في معجمه الكبير (من ص 289 إلى ص 320).

2ـ مثله في الأمثال المصرية والسورية : زي السمسار النتن : لا يرضي البائع ولا الشاري. شبير : 41.



ـ عَزْبَتْ لُك، رَتْ بَيْض الرَّجُل وقَالَت أشْ ذَاك الحَبَّ المُلُوكْ (رقم 1711).

ويشير بعضها إلى حوادث تاريخية في قولهم :

عمارة قَادِسْ : نَفْسَيْن وأُ سَيْوَدْ (رقم 1673).

فإنهم تمثلوا به ـ فيما يبدو ـ بعد الهجوم المسيحي عليها سنة 631هـ، جاء في البيان المغرب بعد وصف هذا الهجوم : «وهذه الفتكة الشنعاء كانت سببا لخراب جزيرة قادس حتى لم يبق لها رسم، واستمر خلاؤها إلى حين تملك النصارى مدينة إشبيلية وسائر بلاد الأندلس[1]».

وقالوا في ذلك أيضا : «غرناطة اليهود[2]» و«يسانة اليهود[3]» و«روطة اليهود» لكثرة اليهود بها. وتمثلوا بالزيتون الشرفي[4]، والحرير الجياني، والتفاح الجلياني، والملح الأندراني فقالوا : حرير جيان[5]، تفاح ان جلياني[6]، ملح حيدراني[7].

وهنالك قسم من أمثالهم يدور حول أشخاص كانت لهم حكايات معينة، أو عرفوا بصفات خاصة، ومنهم : شنظير الصقلبي[8]، والبحبضة الذي

1ـ البيان المغرب 2 : 292 «القسم الخاص بالموحدين».
2ـ الروض المعطار : 23..
3ـ المغرب 1 : 105.
4ـ المثل رقم 1036 في النص.
5ـ نفح الطيب 4 : 204.
6ـ ص 527 والمغرب 2 : 148 ونفح الطيب 1 : .143
7ـ Voc. ولعلها : ملح ان اندراني، وانظر الروض المعطار : 97 ونفح الطيب 1 : 143.
8ـ المثل رقم 1920.

عرف بالتخنث[1]، وحبلص المذكور باللواط[2]، وزيد البارد[3]، وغفلون[4] وغيرهم.

وورد بعض هذه الأمثال في صورة ألغاز كقولهم :

- بالرُّب يُطْبَخْ (رقم 701).

- باللّث يُوكَلْ (رقم 702).

- بالنَّهار حِلْية، وباللَّيل خَشَبَة (رقم 703).

- يَكُل مِنْ جُرف ويَشْرَب مِن غَدِير (رقم 2044).

- يَمْتَدّ، ويبْزَق فَالْيَدْ (رقم 2117).

وقد أشار ابن حيان إلى ولع العامة في الأندلس بالفوازير قال :«وكان من أغارب ما دخلها (يعني الأندلس) من ذلك كله : الزرافة أهداها له (يعني للأمير محمد بن عبد الرحمن) ابن مدرار أمير سجلماسة قاصية أرض العدوة، وكان أوصل ملوكها بحبله وأدومهم على مهاداته بطرائف يفرضها الود على مفارقته في المذهب إذ كان ذلك خارجيا وذا جماعيا، فكانت زرافته التي وجهها إلى الأندلس ووصلت إليه حيّة أول زرافة دخلت الأندلس وعاينها أهلها فصار لهم بها حديث إلى اليوم يغربون بتمثالها في لعب فوازيرهم إلى اليوم»[5].

---

1. المغرب 1 : 171 ـ 172.
2. المثلان رقم 519 ورقم 1890 في النص.
3. المثل رقم 371 في النص .
4. المثل رقم 1751 في النص.
5. المقتبس 2 : 276. وظهر لي الآن أنهار بما تكون قوارير.



ومن أصول الأمثال الأندلسية أيضا أبيات من الشعر المشرقي أو المغربي كانت تنتشر بين العامة وما يزال بها الاستعمال والابتذال حتى يخرجها عن وزنها ومعناها، ومن ذلك هذا المثل الذي أورده ابن عاصم:

- مَن الِّي مشَت الحِمارَ بأُم عَمْرو لا الحِـمَارَ رَجَاعَت ولا أُم عَمْرو سُـمِعْ لَها خَبَرْ[1].

فهذا ليس إلا البيت المعروف:

إذَا ذَهَبَ الحِمَار بأُم عَمرو فَلا رَجَعَتْ ولا رَجَعَ الحِمَارُ

وله نظائر عديدة في أمثالنا العامية في المشرق والمغرب.

وقد اتخذوا من بعض الأمثال أوعية لمعارفهم المختلفة في الطب والفلاحة والأنواء وأحوال الجو وغير ذلك، ونذكر من هذه على سبيل المثال:

- لِيمَ في دَارْ، أَخْيَرَ مِن حَكِيمْ ولَوْ جَار (رقم 1231).

- كُل الزِّيت ولا تَمْشِي لِطَبِيبْ (رقم 1124).

- مَن أكَل سَبْع مِن البَلُّوطْ، أكَل شَر مِن عَمُودْ (رقم 1394).

- بحَل أرْنَب : عام أنْثَى وعَام ذَكَر (رقم 1601).

- لِس تَمُوتْ طَرِيدة حَتَّى تِحَرَّكْ ذَنَبْهَا (رقم 1167).

- لِس كُنْ يَكُونْ، ذَا الغَرْس قَبل مَرَسْ (رقم 1161).

- فابْرِيلْ يَعْتَدِلْ المُؤخّر والبَكّيرْ (رقم 1739).

- إذا جَارْ ابْرِيلْ، اعْمَلْ فَوْقْ البَحْر سَرِيرْ (رقم 60).

---

1. المثل رقم 745 في ابن عاصم.



- فكْتُوبَر تُكَل البَلُّوطَ ولو كَانَتْ خَضْرْ (رقم 1741).

- إذا رَيت الضَّبَابْ، ابْشَر بالطَّيَابْ (رقم 56).

- إذا رَيت بالغُدو، خَلِّ دَوَابَّك يَرْقُدُ، وإن رَيْت بالعَشِي يَسرَّ دوابَّك للمشي (رقم 61).

فالمثل الأخير - على سبيل المثال - هو من أمثالهم في التنبؤ بالأحوال الجوية التي تتضمن نتيجة تجاربهم، وحصيلة خبراتهم وثمرة معارفهم بأحوال البيئة المحلية، وظواهرها الطبيعية، وقد أصبح بمثابة القاعدة المطردة عندهم، ودونته تقاويمهم، فهذا صاحب تقويم قرطبة يقول: «وإذا رأوا الحمرة في الآفاق عند طلوع الشمس وغروبها مع سحاب كثير استبشروا بها للخصب[1]». ونجد هذا في الأمثال الإسبانية أيضا فهم يقولون:

Arreboles de la manana, a la noche son con agua ; arreboles de la noche, a la noche son con sole. Kleiser, 45922.

ونجد المثل أيضا في بلدان المغرب الكبير بصيغ متشابهة منها:

- إذا احْمَارَتْ مَع العَشِية، ارْبَطْ حْمَارَك للمشْيَة، وإذا حْمَارتْ مَع الصَّبَاحْ، اطْلَقْ حْمَارك يَسْتْرَاحْ[2].

وما ذلك إلا لتشابه الأحوال الجوية في هذه البلدان. وكذلك المثل الذي قبله، وقد وجدناه أيضا في الأمثال الإسبانية القديمة:

Niebla negra,buen dia espera (أمثال ESPINOSA ص 168).

1- تقويم قرطبة: 7.

2- انظر شرح المثل رقم: 61.



ولا ننسى في الأخير أن نشير إلى بعض الأمثال التي يبدو أنها عجمية الأصل ومنها :

- بَيْدَمْ تَمْتَد مَرِى يَرْقُد جُوانْ (رقم 316 عند ابن عاصم).

- مَن هُو بِرنَاط في جَنوا (رقم 669 عند ابن عاصم).

- الكَيِّس والبَطِي، في سَنْتبِطَر يَلْتَقِي (رقم 229).

فهذه الأمثال وأشباهها هي في غالب الظن من أمثال عجم الأندلس التي انتقلت من «الرومانثية" إلى العربية ولكننا لم نقف على أصولها، وإنما وقفنا على ما يشبه المثل الأخير في القشتالية التي هي اللغة الإسبانية الرسمية، ومن المفروض أن يكون قسم من الأمثال الأندلسية يرجع إلى أصول في اللغة "الرومانثية» أو لغة عجم الأندلس كما تسميها المصادر العربية، إلا أنه لم يدون شيء من أمثال هذه اللغة أو لم يصل إلينا منها شيء.

ونصادف عندهم أمثالا هي في أصلها قواعد أو كالقواعد الفقهية سواء في العبادات أو في الأحكام والمعاملات، فمن النوع الأول قولهم :

- إذا حضَر المَا بَطَل التَّيمُّم (رقم 66).

- لكُلِّ ضَرْطَ وُضُو (رقم 1223).

- مَن تَوضَّا قَبل الوَقْتْ صَلَّى فَالوَقْتْ (رقم 1250).

ومِثال النوع الثاني قولهم :

- مَنْ دَخَلْ عَلى شَرْط لَزمُ (رقم 1422).

- لسْ يبُاع حُر في دَيْن (رقم 1186).
- دَار لس تَبْقى خَالِيَ ومُكَاري لس يَبِيتْ بَرَّه (رقم 935).
- ضَرَّابَة الخَفِيفْ، المَقْرَعْ والتَّكْتِيفْ (رقم 1632).
- مَن بَدلُ، العُرْبَان يكَلّ (رقم 1444).

والعربان لغة في العربون وهو : "أن يشتري الرجل شيئا أو يستأجره ويعطى بعض الثمن أو الأجرة ثم يقول إن تم العقد احتسبناه وإلا فهو لك ولا آخذه منك.

وقد تمثلوا بأحاديث نبوية أشرنا إليها في مواضعها من النص. أما أمثال التجارب الإنسانية العامة، والأمثال الحكمية، وأمثال القيم الأخلاقية والاجتماعية، فإنها أكثر هذه الأمثال وأكبر أبوابها.



2. أنتقل بعد هذا إلى موضوع آخر هو الصلة بين الأمثال والشعر، فكثير من الأبيات شاعت وانتشرت وأصبحت بذلك أمثالا سائرة. وقد خصص الثعالبي قسما كبيرا من كتابه «التمثيل والمحاضرة» لما يتمثل به من الشعر القديم والمحدث[1]، وذكر ابن عبد ربه في العقد نبذا من الأمثال المستعملة في الشعر[2]، وعقد ابن شمس الخلافة في كتاب الآداب بابا لأبيات الأمثال المفردة[3]، وبابا آخر لأعجاز الأبيات المتمثل بها، وألف الصاحب بن عباد رسالة في أمثال المتنبي، ولا يكاد يخلو كتاب من كتب الأدب أو المحاضرات من مثل هذا، وقد رأينا من قبل عمل ابن هشام اللخمي في الأمثال المستمدة من الشعر. ويدخل في هذا الباب تلك المؤلفات الموضوعة في أبيات الاستشهاد كرسالة أحمد بن فارس وغيرها.

كما أن كثيرا من الشعراء استعملوا الأمثال في شعرهم، ووشوا بها كلامهم على سبيل الاقتباس أو التضمين، وإذا كنا نجد هذا بكثرة بالنسبة للأمثال العربية فإننا لا نجد منه إلا القليل بالنسبة للأمثال العامية أو المولدة، وقد عرف بعض الشعراء بتضمين أمثال العامة وكناياتهم وعباراتهم كابن حجاج وابن سكرة وغيرهما في العصر العباسي ويتميز هذا الشعر بالابتذال والبذاءة والفحش، وهي من سمات كلام العامة.

وممن نحا هذا المنحى في الأندلس يحيى الغزال في شعره الذي جرى فيه على أسلوب أبي حكيمة راشد بن إسحاق[4]، ونجد عنده بين الحين

---

1. التمثيل والمحاضرة : 45 ـ 129.
2. العقد 3 : 132.
3. كتاب الآداب : 148ـ 156. وقبله ألف حمزة الأصفهاني تأليفا في الموضوع.
4. نفح الطيب 3 : 22 والمطرب : 149 وثمار القلوب : 225. ولأبي حكيمه ديوان مطبوع.



والحين إشارات لأقوال عامية مستمدة من البيئة المحلية كقوله :

يقُولُ لي القَاضي معاذٌ مشاوراً ... وولّى امرأً فيما يَرى من ذَوي الفضل
فَدَيْتُكَ ماذا تَحْسَبُ المرءَ صَانِعاً ... فقُلْتُ وماذا يَصْنَعُ الدُّبُّ بالنَّحْل
يَدُقُّ خَلاَيَاها ويأكُلُ شُهْدها ... ويَتْرُكُ للذُّبّانِ مَا كَانَ من فَضْل

فهو هنا يشير إلى المثل العامي الأندلسي :

- اشْما عَمل الدُّبُّ يُعْجِبْ للجَبَّاحْ[1].

ومنهم أبو عبد الله بن شخيص الذي «قال على لسان رجل يعرف بأبي الغوث أشعارا مشهورة في أنواع من الهزل»[2]. وقد ذكر ابن خير في فهرسته «شعر محمد بن مطرف بن شخيص في جده وأهزاله»[3]، ويبدو أن «أهزاله» اشتملت على بعض أمثال العامة في قرطبة وكناياتهم ونكتهم، ولكن لم يصل إلينا منها شيء.

ومنهم أيضا ابن مسعود القرطبي الذي ذكر ابن بسام أنه كان كثير الهزل في نظمه ونثره وقال : «وأراه فيما انتحاه تَقَيَّلَ منهاج سميهِ وكنيه محمد بن حجاج بالعراق[4]». وأورد له رسالة فيها إشارات إلى بعض أوهام العامة وخرافاتهم.

---

1. المثل رقم 173 في النص.
2. جذوة المقتبس : 84.
3. فهرسة ابن خير : 408.
4. الذخيرة ق 1 مج 20 : 66.



وقد وجدنا في شعره أمثالا عامية أو إشارة إليها كقوله :

عَيْبَان في الدَّرْهَم نَقْصٌ ورَدي وَوَاحِدٌ قَد كَان يكْفي لَوْ قَد[1]

وقوله :

أَلَحَنُ في أشْعَاره من تَيْس أعْجَزُ في البَيْت من الضُّرَّيْس[2]

وقوله :

مَنْ لَمْ يَكن بالمصيفِ يَغْلي برأسِهِ الحَرُّ والحَرُورُ
لَمْ تَغْلِ حِينَ الشِّتَاءِ منهُ بالبُرِّ في بَيْتِهِ القُدُورُ[3]

وقوله :

حَيْرانُ مِنْ دَهْشَةٍ كَأَنِّي قَلَبَّقٌ خَانَهُ الغديرُ[4]

وقوله :

فَعَلْتُ في آخرِ عُمْري كَمَا تَفْعَلُ شَاةُ السُّوءِ بالحالبينْ
أصبْتُ في نُسْكي وزُهْدي الذي أصَابَه مُنْذِرٌ في البيرون[5]

وقوله :

قَيَّضَ اللهُ لي من ابْنَا أبي الرِّ يش غَلِيظَ الفُؤَادِ ذا كِبْرِيَاءِ[6]

1ـ انظر المثل رقم 1665 في النص .
2ـ انظر المثل رقم 501 في النص .
3ـ انظر المثل رقم 1748.
4ـ انظر المثل رقم 404 في النص.
5ـ انظر حكاية الأمير المنذر في نفح الطيب 3 : 574 ـ 575.
6ـ أبو الريش لص كان يضرب به المثل في السخف فيقال : أسخف من أبي الريش، انظر المثل رقم 447 .

وقوله :

نَقْرَاءُ شَقْرَاءُ عَلَى سُمْرَةٍ فَهَلْ تَرَى يا سَيِّدي من فُطُورْ[1]

وقوله :

لا سِيَما زِيَادةً في التُّحْفَهْ إنّي حبْلَى مُقْرَبٌ بِنُطْفَهْ

وربَّمَا جِئْتُ لَه باثْنَيْنِ لكي يحوزَ قُرَّةَ العَيْنَيْنِ[2]

وقوله :

أنَا أبُطٌّ بحذقٍ نَغَانِغ الصِّبْيَانْ

أنَا أشُقُّ بِلُطْفٍ مِنِّي عَلَى السَّرطَانْ[3]

وقوله :

وَلَوْ تراه سَائِراً لِلسُّوقْ إذا بَدَا في كسْوَةِ الغُرْنُوقْ[4]

وهذه الأبيات كلها تحتوي على أمثال أو إشارات إلى أمثال وإضافات عامية[5].

---

1. يقارن بمثل ابن عاصم رقم 165 : البيض الشقر، كيف السود النقر.

2. أنظر المثل رقم 1033 في النص.

3. أنظر المثل رقم 2127 في النص، وقد وردت الإشارة إليه أيضا في شعر لابن زيدون يقول فيه (ديوانه 70) :

وانذر خليلك من ماهر بطب الجنون إذا ما عرض

كفيل ببط خراج عصى جريء على شق عرق نبض

4. كسوة الغرنوق، من إضافاتهم التي لم ترد في كتب المضاف والمضاف إليه.

5. ذكرت في طبعة القسم الثاني من هذا الكتاب (1971) ماله صلة بالأمثال في كلام ابن مسعود، وبذلك لفتت النظر إلى قيمة شعره من الناحية الشعبية، وهكذا ظهرت عنه دراسة مشتركة للأستاذين : ا.غ. غومس و. ف دي لاكرانخا. انظر مجلة الأندلس (AL ANDALUS، 1972).

ومن هؤلاء الشعراء ذوي الاتجاه الشعبي في الأندلس أبو القاسم خلف بن فرج الألبيري المعروف بالسميسر، قال ابن بسام : «وله مذهب استفرغ فيه مجهود شعره، من القدح في أهل عصره، صنت الكتاب عن ذكره»[1] ويبدو مما بقي منه أنه كان يتوكأ على عبارات العامة في مشاجراتهم وسبابهم، فهو حين يقول في آخر أبيات له :

أبْصَرَ البَصَّالُ دُرّاً غَالِياً   قَال عِنْدِي مِنْه أغْلَى وَأَجَلّ

إنما يستعمل مثلا عاميا كان شائعا في الأندلس، وقد رواه الزجالي وابن عاصم[2].

وحين يهجو المرية بقوله :

قَالوا المَرِيةُ فِيهَا   نَظَافَة قُلْت إيهِ
كَأنَّهَا طَسْتُ تِبْرٍ   ويُبْصَقُ الدَّمُ فيهِ

يضمن مثلين : أحدهما قولهم : اصفي من طس[3]. والآخر رواه ابن عاصم هكذا : إش يراد طس يبزق فيه الدم؟[4]. وهو مثل عامي مشرقي قديم ذكره الثعالبي كما يلي : لا أحب دمي في طست من ذهب[5]. وورد في أمثال سنتيلانا :

Registro de bacin oro : que escupe sangre. Santillana, pag. 248. Kleiser, n 56.129

1ـ الذخيرة ق 1 مج 2 : 372.
2ـ انظر المثل رقم 1669 في النص.
3ـ المثل رقم : 518 في النص.
4ـ المثل رقم 82.
5ـ التمثيل : 340.

ولا تختلف ترجمته عن الصيغة المصرية : قطع الطشت الذهب اللي اطرش فيه الدم.

وما يزال يتمثل به في البلدان العربية[1]، ومن فوائد هذه الأمثال المستعملة في الشعر أنها ترد مسبوقة بما يشرحها ويوضح معناها كقول السميسر أيضا :

لا تَسْتَرِبْ مِن غَيْرِ مَا تَجْنِيهِ كَالجَانِي المُرِيبْ
كَذَا حكَوا بُلْ صَافِياً واضْرِبْ بِه وَجْهَ الطَّبِيبْ

وصيغة المثل كما كان يقال في الأندلس :

- بُلْ صَافِ وادْخل اصْبَاعَكْ في عَيْن الحَكِيمْ[2].

وهو من الأمثال المنتقلة إلى الإسبانية :

Mear clar, y niga al médico, refr. ESP. Aguilar (H.Numez) , page 330.

وما يزال يتمثل به في المغرب[3]. وأصله من أمثال العامة في المشرق قديما كما يدل على ذلك قول الصنوبري :

وللسُّقَّاط أمْثَالٌ فَمِنْهَا تَمَثُّلُهُمْ لَدَى الشَّيْءِ المُرِيبُ
إذَا مَا كُنْتَ ذَا بَولٍ صَحِيحٍ ألاَ فَاضْرِبْ بِه وَجْهَ الطَّبِيبِ[4]

---

1. تيمور رقم : 2253 وستر مارك رقم : 735 ورقم : 736 وابن سودة 40 وكولان : أمثال مراكشية (مخطوط).
2. ابن عاصم رقم 319.
3. وستر مارك رقم 1518 وابن سودة : 367، 369.
4. التمثيل والمحاضرة : 182.



ومن الأمثال العامية الواردة في شعر السميسر قوله في آخر أبيات له :

إذَا المَرْءُ اشْتَرَى بَصَلَة   فَلا تَسْأَلْهُ عَن مَسَلَهْ

وقد تقدمت الإشارة إليه، ومنها قوله :

إذَا رَأيْتَ المَرءَ فَاحْكُمْ عَلى   مَولاَهُ مِنْ ظَاهِرِ مَرآهُ
دَلِيلُ حَالِ المرءِ عُبْدَانُهُ   والعَبْدُ مِن طِينَةِ مَولاَهْ

ويبدو أنه مثل كان شائعا في الأندلس، فقد ورد عند شاعر أندلسي آخر إذ يقول :

قَدْ جَاءَكُمْ فَاضِحُ الهِلاَلِ   يَعْبَقُ بالمِسْكِ والغَوَالِي
لاَ تَنْكِرُوا نَشْرَهَا عَلَيْهِ   فَالعَبْدُ مِن طِينَةِ المَوَالِي[1]

ومن ذلك قوله :

أقَارِبُ السُّوءِ دَاءُ سُوءٍ   فَاحْمِلْ أذاهُم تَعِشْ حَمِيدَاً
فَمَن تَكُنْ قُرْحَةٌ بِفِيهِ   يَصْبِرْ عَلَى مَصِّهِ الصَّدِيدَاً[2]

فالبيت الثاني يشبه أن يكون مثلا توكأ عليه لتكبير الصورة، ومثله قوله :

خُذْ مِن الدَّهْرِ مَا أتَى   إنْ نَعِيماً وإن نَكَدْ

1ـ الذخيرة ق 1 مج 2 : 375 وله أصل في أمثال المولدين كما يدل على ذلك قول بعضهم (أبيات الاستشهاد لابن فارس) :

وإذا ماجهلت ود صديق   فاعتبر ماجهلت بالغلمان
ان وجه الغلام يخبر عما   في ضمير المولي من الكتمان

وما يزال المثل مسموعا في بلدان المغرب : من الخديم تعرف سيده، ابن شنب رقم 1812

2ـ المصدر نفسه : 374، ابن شنب رقم 1812.



كُن كَسِكِّيـن جَازِرٍ   قَـاطِعٍ كُلَّ مَا وَجِـد[1]

فالتشبيه هنا ـ فيما يبدو ـ من تشبيهات العوام الجارية مجرى الأمثال، ويقول أيضا من قطعة له مشهورة :

أرَادُونِي بجَمْعِهِمُ فَـرَدُّوا   عَلَى الأعْقَاب قد نَكَصُوا فُرادى

وعَادوا بَعْدَ ذا إخْوَانَ صِدْقٍ   كَبَعْض عَقَاربٍ عَادَت جرَادَا

ولعله يشير إلى مثل أصله خرافة رواه الزجالي وابن عاصم كما يلي :

ـ اشْيَعْمَلْ العَقْرَبْ بَيْن الجَـرَادْ[2].

ومن ذلك أيضا قوله :

لا تُـوقِدَنَّ عَـدُوًّا   وأطْفِهِ بالتَّـوَدُّدْ

فالنَّارُ بالفَمِ تُطْفَا   والنَّارُ بالفَمِ تُوقَدْ

والشاهد في البيت الأخير كما هو واضح، ومما ذكرناه نفهم السر في انتشار شعر السميسر بين العامة في الأندلس.

وقد عرف الشعر الأندلسي بكثرة التشبيهات وألف في هذا الباب أكثر من كتاب، ونجد الظاهرة نفسها في الأمثال الأندلسية أيضا، فقد أورد الزجالي ما يناهز المائة من أمثال التشبيهات واكتفى بها قائلا : «وهذا باب متسع جدا، وفيما ذكرته كفاية[3]». وتضاعف هذا العدد عند ألونسو

1ـ الذخيرة ق 1 مج 20 : 375.

2ـ المثل رقم 213 في النص، ومثله الغرناطي : أش يعمل أبيض في بلاد قناوة. وقد ضمنه ابن الخطيب فقال : (الإحاطة : 453 مخطوط)

دار الظلام علي دورة كافر   فقصدت قصد عبادة وتلاوة

ولو أنني كابدته لم أستطع   «ما حال أبيض في بلاد قناوة»

3ـ ص 135 من النص.



القستلي فبلغ أزيد من مائتين وخمسين، وقد وجدنا الشعراء يستعملون بعض هذه التشبيهات كقول محمد بن أبي الحسين :

لَمْ تَـرِمْ نُصْحاً ولَكِنْ　　رمتَ كَيْداً في دُعَابَةْ
أنْتَ كَالسِّنَّوْرِ لمَّا　　مَنَعُوه اللَّحْمَ عَابَه[1]

والمشارقة كانوا يقولون هذا في الثعلب والعنقود كما يقول بعضهم :

أيُّهَا العائِبُ سَلْمَـى　　أنْتَ عِنْدي كَثُعَالَهْ
رَامَ عَـنْقُوداً فَـلَمـَّا　　أبْصَرَ العُنْقُودَ طَالَهْ
قـال هَذَا حَـامِضٌ لَـمـ　　ـا رأى ألاَّ يَـنـالَـه[2]

ومن ذلك تشبيه ابن رشيق إذ يقول :

كالفَاسِ لا يَسْتَجِيدُ قَطْعاً　　إلاَّ وفي عَيْنِهِ هِرَاوَه

فهو من المثل العامي :

- جَزا الفَـاسْ : العُودُ فِي العَيْنْ[3]

وتشبيه أبي الحسن علي بن حصن الإشبيلي من قصيدة له (الذخيرة مخطوط) :

أنْشِدكُم شِعْرِي كَمَن قرَا　　سورة يَاسِين عَلَى مَن كَفَرْ
في نَفَرٍ أسْتَغْفِر اللَّه بَلْ　　فِي بَقَرٍ لَوْلا اخْتِلاَفُ الصُّوَرْ

1ـ التشبيهات لابن الكتاني : 282.
2ـ التمثيل والمحاضرة : 358.
3ـ المثل رقم 678 في النص.

فهو من المثل الوارد في مجموعة الزجالي بلفظ :

- اقْرَ سُورة يس عَلَى قلب انْ كافر[1].

وابن حصن هذا من الذين يملحون شعرهم بالأمثال العامية[2]، ومن ذلك أيضا تشبيه الفقيه أبي موسى عيسى بن عبد المنعم الصقلي، إذ يقول:

يجذبُ خصْراً مُخْطَفاً ... بِكَفَلِ مُرَجْرَجِ

كَمِثْلِ زَقٍّ ناقِصٍ ... عَلى حِمَارٍ آعْرَجِ[3]

فهو من المثل :

- بَحَلْ زَق أنْ نَاقِصْ عَلَى حِمَارة أنْ عَرْجْ[4].

وكذلك تشبيهات عبد الملك بن جهور وعتيق بن ميسره الفرغليطي وابن مسعود القرطبي التي ذكرناها في النص[5].

ومن الأمثال التي تقال في المغرب لتصوير شدة الحال وضنك العيش :

- عَلَى الماء زَحْمَة وعَلى الطَّعَام سَفْك الدِّمَاء[6].

ويبدو أنه مثل أندلسي قديم لأننا وقفناعليه عند الشاعر الجياني أبي عبد الله محمد بن يربوع إذ يقول في هجاء ابن أحلى أمير لورقة :

---

1. المثل رقم 426 في النص.
2. أنظرشرح المثل رقم 836 في النص.
3. الخريدة 114 ص 33 ط. مصر.
4. المثل رقم 637 في النص
5. انظر الأمثال رقم 635 ورقم 636 ورقم 404.
6. أمثال فاس لابن سودة : 557 (مخطوط).



قَصَدْتُ ابْنَ أحلَى فَألْفَيْتُه أشَدَّ مِرَاراً مِنَ العَلْقَمِ
عَلَى المَاءِ فِي دَارِه زَحْمَةٌ وفِيهَا عَلى الخُبْزِ سَفْكُ الدَّمِ[1]

وضمنه شاعر آخر فقال (محاضرات اليوسي : 210) :

عَلى المَاءِ في دَارِهِ زَحْمَةٌ وفِيهَا عَلى الخُبْزِ سَفْكُ الدمِّا
أضَافَ أُنَاساً إلَى دَارِه فَنَزَّهَهُمْ فِي نُجُومِ السَّمَا
وبِالجُوعِ قَطَّعَ أمْعَاءَهُمْ وإنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَا

وقد نمرُّ بقول أبي عثمان القرشي :

مَا نَحْنُ إلاَّ في فَلاَةٍ لِلْوَرَى فَلْتَحْذَرِ "الشَّهَوَاتُ في الفَلَوَاتِ[2]

أو بقول ابن زمرك :

فَقَدْ طِبْتَ مِن «طَيْرِ العَصِيرِ» بِنِسْبَةٍ فَخَرْتَ بهَا بيْنَ القُضَاةِ عَلَى الغيرِ[3]

أو بقول ابن لبال الشريشي :

جَعَلَتْ أمْشِي كَأنِّي نِصْفُ دَائِرةٍ تَمْشِي عَلَى الأرْضِ أو «قَوْسٌ بلاَ وَتَرِ»[4]

دون أن نشعر أو نعرف أن عبارات «الشهوات في الفلوات» و«طير العصير» و «قوس بلا وتر» في الأبيات المذكورة كانت مما يجري مجرى الأمثال»[5].

1ـ الذيل والتكملة 6 : 28 (مخطوط).
2ـ الحلة السيراء 2 : 320.
3ـ أعمال الأعلام ، 79.
4ـ تحفة القادم : 74.
5ـ انظر الأرقام : 227، 1055، 1814 النص.

وربما توقفنا عند بعض التوريات الغامضة في شعرهم لأنها مبنية على أمثال أو أقوال عامية معروفة لديهم ولدى معاصريهم كقول إبراهيم ابن الحاج النميري الوادي آشي يذكر خدمته بمدينة فاس :

أيَا عَجَبًا كَيْفَ تهوى المُلُوك مَحَلِّي ومَوطِنَ أهْلي ونَاسي

وتَحْسُدُني وهِـي مَخْدُومَـةٌ ومَا أنَـا إلاّ خَـدِيمٌ بِـفَـاس[1]

ولا نعرف التورية هنا على وجهها إلا إذا عرفنا أنها مركبة من المثل الذي كانوا يقولونه في الخدمة المحتقرة وهو :

- بَحَلْ فَـاسْ يَخْدُم باللُّقْمَـة[2]

وقد أشار إلى هذا أيضا ابن الخطيب السلماني إذ يقول (الإحاطة : 400) :

بنيتُ على زردٍ فلقّمني الفتى كذلك ماعونُ البِناء يُلَقَّمُ[3]

وحين يقول هذا الشاعر في وصف «محلّة» أبي سالم المريني ومضاربها :

ومَا إنْ رأى الراءون في الدَّهر قبلها قرارة عزٍّ في مدينة كتَّان

فإنما يلمح إلى المثل الأندلسي :

1- جنوة الاقتباس 92.

2- أمثال ابن عاصم رقم : 278..

3- يقرب من هذا قول ابن مهاجر الوادي آش (ق، 8) ملغزا في قالب طين (نفح الطيب 2 : 654) :

ما آكل في فمين يغوط من مخرجين

مغرى بقبض وبسط وما له من يدين

ويقطع الأرض سعيا من غير ما قدمين



- إذا عَـزّ، فهو بـزّ، و إذا هان، فهو كتّـان (رقم 59).

وحين يقول في قصيدة أخرى :

أو تقاعدتُ أصبح الأمرُ فَوْضَى تلعبُ الشاةُ فيه بالجزّار

فكأنما يعنى المثل الأندلسي :

البقر يتخمَّر بالجزارين (رقم 362).

ومثل هذا كثير في الشعر الأندلسي والنثر الأندلسي أيضا.

3. وإذا كان الشعر الأندلسي الفصيح قد اشتمل ـ كما رأينا ـ على بعض أمثال العامة في الأندلس، فإن من الطبيعي أن تكون الأزجال أكثر منه اشتمالا عليها، وأن يكون صدى الأمثال فيها أقوى رجعا، وأوضح ترديدا، وذلك لأن الزجالين يصدرون في أزجالهم عن اللغة العامية، ومنها يستخدمون ألفاظهم، ويستمدون معانيهم، ويستوحون أخيلتهم، وينتزعون تشبيهاتهم، كما أنهم كانوا أكثر احتكاكا بالعامة من شعراء الفصحى، وأقوى منهم انتباها إلى ما يدور على ألسنتهم، وقد وجدنا طائفة من الأمثال في أزجال ابن قزمان ومدغليس من زجالي القرن السادس وعند ابن تاجيت اللورقي وأبي زيد الحداد البكازور، والصوفي أبي الحسن الششتري من زجالي القرن السابع، ولولا مجموع أمثال الزجالي لما استبانت هذه الأمثال في أزجالهم.

وحين درس الدكتور عبد العزيز الأهواني الزجل في الأندلس ونشر في ذلك كتابه المعروف خصص فصلا طويلا لإبراز معالم التأثير الشعبي في الأزجال، وذكر أنها انطوت على «كثير جدا من صور وتشبيهات وأمثلة، ونظرات في الحياة، ومعان وأخيلة لم توحها الكتب ولم تفرضها القصائد، وإنما أوحتها اللغة العامية وحياة العامة[1]». واستدل على هذا بأمثلة عديدة من أزجال ابن قزمان وغيره، وقد وجدناه ـ قبل أن نكتشف مجموع أمثال الزجالي ـ يقف عند معظم العبارات التي تحمل صدى شعبيا، ويقدر أن تكون أمثالا عامية، ثم أثبت مجموع أمثال ابن عاصم ـ التي نشرها بعد ذلك ـ صدق حدسه في بعضها وإن كان قليلا، وجاء مجموع الزجالي فأيد بالنص صواب رأيه فيما بقي منها وهو الكثير.

1ـ الزجل في الأندلس 171.

وقد عني كثير من المستشرقين بابن قزمان وديوانه ولكن عنايتهم كانت منصبة على الخرجات أو الإفادة من الكلمات العجمية أو العامية الأندلسية الواردة في أزجاله، أما دراسة الأمثال عنده فكانت مما سبق إليه الدكتور الأهواني[1].

وتأتي مجموعة الزجالي لتقديم مادة جديدة وكبيرة في دراسة الأمثال في أزجال ابن قزمان وغيره، كما أنها تفيد في إنارة بعض الجوانب الخفية منها وتساعد على حل مشكلات فيها كانت غامضة ومستعصية على الحل، وتشتمل أزجال ابن قزمان على أكثر من ثلاثين مثلا من الأمثال التي وردت في مجموعة الزجالي، وقد ذكرناها في مواضعها من النص، وإذا كانت هذه المجموعة أعانت على تمييز الأمثال العامية في ديوان ابن قزمان فإن استعمال هذا الزجال الماهر لها، وإتيانه بها في درج الكلام وسياق المعنى العام أعان كثيرا على فهم تلك الأمثال نفسها في كثير من الأحيان، ومنها أمثال ما كنا لنفهمها لولا ورودها عنده، وهو يستعمل الأمثال من غير تنصيص أو تمهيد يشعر بالتضمين أو الاقتباس إلا في حالات معدودة كقوله : (زجل 9)

فَأنَا هُو كَمَا يُقَال فَالمَثَلْ : "«عَزَّ رُوحَك ولَو نَقَلْتَ الفَحْمْ»

وقوله : (زجل 148)

1ـ أمثال العامة في الأندلس : 276 (كتاب : إلى طه حسين ...) وفي أثناء طبع هذا القسم ظهر كتاب Todo Ben Quzman للأستاذ ا. غرسية غومس في ثلاثة أجزاء، وفي الجزء الثاني (من ص 911 إلى ص 924) ملحق في الأمثال وما يشبه الأمثال في ديوان ابن قزمان وقد وجدت ـ بعد قراءته ـ أننا التقينا في حدس الأمثال التي لا مرجع لها، ولكنه عد في هذه أمثالا موجودة عند الزجالي حين لم يقف عليها قبل ظهور كتابه.

ـ المَثَلْ قَدِيم فالنَّاس : ثم إلاَّ الثَّور الأبْلَقْ

وقوله : (زجل 11)

فَيَقُول عَنِّي من راَهْ ومَن راَنِي :

الوَلَدْ من قَرْض وِلْدُ والعَصَى مَن العُصَيّ

وقوله : (زجل 31)

كَذَاك المكَارِي فِيمَا يُذْكَرْ : وقت أن تطب له نَارْ حنْذاك يوقَّرْ[1]

وقوله : (زجل 105)

فَلِسْ للأسَدْ إلا ما يَفْتَرِس ولاَ لِلْمِلاَنْ إلاَّ مَا يَخْتَطفْ

ضَرَبْتُ المثلْ وَهُ شيّاً مَلِيحْ وقد سُقْتْ إلَيْك ذَا الكَلاَم الصَّحِيحْ

وقوله : (زجل 96)

ـ كَم سَمِعْنا : صُدافْ أخْيَرْ مِن وَعْد.

ومن الطريف أن هذه الأمثال التي نص عليها هي التي لا نجدها عند الزجالي أو ابن عاصم فيما عدا المثل الأخير، وقد دعته ضرورة النظم إلى التصرف في بعض الأمثال تصرفا يسيرا أو كبيرا ومن هذا الأخير قوله : (زجل 148)

القَطِيعْ فَزَّعْنِ يَامَّه، تَدْرِي اشْ عَمل بِقَبْق.

1- يوقر : ينزل، ويشبهه أمثال ابن شنب رقم 677 : الحمار...وما يعرف وين يبات.



يشير إلى المثل :

- تَـفْـزَعْ مِنْ بَـقْ بَـقْ، ولِسْ تَفْزَعْ مِن فَـك عُـنُـقْ[1].

وهو مثل أندلسي شائع، وقد ذكره الدون خوان مانويل Don Juan Manuel : في كتابه : الكوند لوكانور El conde lucanor بالصيغة التالية - بالحروف اللاتينية - : أهْي أخْتِي ! تَفْزَعْ مِن بَـقْ بَـقْ، ولِسْ تَـفْزَعْ من فَـتْح عُـنُـقْ[1].

ومن ذلك اضطراره إلى تجزئة المثل والفصل بين أجزائه ليستقيم له الوزن والقافية كقوله : (زجل 96)

وتَرَى غَيْر مَنْ شَرَب مِنْهَا دُوش ويعَرْبَض وَهُ بَحَلْ وَادْ شُوشْ

لَم يفرَّقْ بيـن العَقْـل والهُوشْ عَـلَى رُوح يحَوَّل الأجْرَافْ

فهو يذكر المثل :

- بَحَلْ وَادي شُوشْ يَـرْمي الأجْـرَافْ عَلى رُوحْ[2].

فقد شطر المثل وقدم فيه وأخر من أجل أن يصح له استعماله. ولكن عددا غير قليل من الأمثال ترد عنده متطابقة مع نظائرها عند الزجالي كقوله : (زجل 30)

ولاَ كَان مَذْهَبِي ولاَ اسْتِحْسَانِي : عِشْقاً حِمَارِي : شم اطْلَعْ

1- المثل رقم : 708 في النص.

2- المثل رقم : 640 في النص.

والمثل عند الزجالي : عِشق ان حِمارِي : شم واطلع[1].

ولا خلاف بينهما إلا في رسم التنوين وحرف العطف. وقد يكون التطابق تاما كما في قوله : (زجل 72)

جِلَّوز عين الثَّور شَيْئاً مَلْهَوي   ينقرّ لَكْ فالْباب نَقْراً مستوي

يصَدَّع رَاسَكْ فذاك الدَّوي :   وَرزق الجلَّوز في ذاك الصُّدَاعْ

وورد المثل بلفظه عند الزجالي : ورِزْق الجِلَّوز في ذاك الصُّداعْ[2].

ولهذا نظائر في أزجال ابن قزمان وغيره كقول ابن تاجيت اللورقي (المغرب لابن سعيد 2 : 284) :

قَالُوا عَنِّي والحقّ مَا قَالُوا   أنّ نَعْشَقْ فُلانْ

واتُّهمْنَا بِسَرِقة الكتَّانْ   وكَذَاك بِاللَّهْ كَانْ

وصيغته كما رواه الزجالي :

تهمن بسرقة الكتَّان   وكذاك باللَّه كان[3]

ومثل هذا التطابق، مع مجيء هذه الأمثال موزونة قد يثير بعض الشك ويحمل على التساؤل، فهل فكر ابن قزمان في المثل قبل نظم زجله؟ وهل اختار الوزن والقافية من أجله؟ أم جاء ذلك صدفة واتفاقا ؟ أم أن بعض المطالع والأقفال والخرجات كانت تشيع وتشتهر بين العامة حتى تصبح

---

1. رقم : 1680.
2. رقم : 1963.
3. رقم : 706.

من كثرة ترديدها أمثالا على نحو ما يقع في الشعر الفصيح؟ وقد لاحظنا أن ابن سعيد وصف زجل اللورقي بأنه مشهور كما أن ابن قزمان فخر بشهرة أزجاله وسيرورتها، والذي يحملنا على إثارة هذه الأسئلة هو تأخر زمن الزجالي مدون هذه الأمثال عن زمن ابن قزمان واللورقي، وإذا كان لا بد من ملحظ الاقتباس في مثل هذا فقد يكون من أغنية شعبية أو نحوها مما يقتضى وزنا ما.

وقد لاحظنا أن معظم الأمثال التي وردت عند ابن قزمان تقع في آخر الأبيات، وقد تقع في مطلع الزجل كالذي يفتتحه ابن قزمان بما يلي: (زجل 9)

السَّلَفْ مَرْدُودْ والعَارِي تَرْجعْ ولابْن حمدين لقُرْطُبة نَقْطَعْ

على أن بعض الأمثال التي يوردها بتصرف أحيانا قد تكون من صيغة غير الصيغة التي يرويها الزجالي أو ابن عاصم لا سيما ونحن نعرف أن بعض الأمثال العامية تروى بأكثر من صيغة ونمثل لذلك بقوله: (زجل 89)

يَا وُجُوهْ لِس فِيها حشْمة يا قُلُوبْ لِسْ فيها إخلاصْ
وعَلَيَّ أنا تعرض وأنا خبيت وغوَّاصْ
«قَدْ عُقِر بَعْد ذاك الكلب الذي كيَخرَ الانْجَاصْ»

فهذا مثل رواه ابن عاصم كما يلي:

- رحم الله ذيك الحمير إلي كيخرا الانجاص[1]. ويبدو أنه قريب من المثل الإسباني

Muerta es la abeja que daba la miel y la cera. Rerf, Esp. Aguilar (H. Nunez).

1- ابن عاصم رقم: 419 وقراءة الأستاذ ا.غ غومث: كيجر الانجاس.

وترجمته : ماتت النحلة التي تعطي العسل والشمع.

ونرى أنها تمثل صيغة أندلسية ثالثة، وتنظر هذه الصيغ - فيما نحسب - إلى المثل الذي رواه الثعالبي ونسبه إلى العامة :

- مَاتَتْ الدَّجَاجة التِّي كَانت تَبيض الذَّهَب[1].

وذكره الشهاب الخفاجي في ريحانة الألبا هكذا :

- الدَّجَاجة التِّي كَانت تَبيضُ الذَّهَب بِعْنَاهَا[2].

قلنا إننا وقفنا عند ابن قزمان على ما يزيد على ثلاثين مثلا أو ما يشير إليها وردت عند الزجالي، ولكن الديوان يشتمل على أمثال كثيرة لم ترد عنده وقد وجدنا بعضها في مصادر أخرى فمن ذلك قوله : (زجل 49)

فالسَّبع يمخرق وَحْدُ ويصَوُل   وتَراَه بخرس بِجَنْب الأسَدْ

فهذا إما صيغة أو اقتباس من مثل عامي، ولكن أصله المثل العربي القديم : الذئب خاليا أسد[3]. وتأويل ذلك أن السبع في استعمال الأندلسيين هو الذئب أو اللب[4]. ومن ذلك أيضا قوله : (زجل 59)

---

1. التمثيل والمحاضرة : 371.
2. ريحانة الألبا : 2 : 418 و أورد ابن نباته في سرح العيون : 65، رسالة منسوبة إلى الاسكندر المقدوني يجيب فيها دارا الاصغر جاء في آخرها: وأما الدجاجة التي كانت تبيض ذاك البيض فقد ذبحتها وأكلت لحمها. والتعبير بالدجاجة التي تبيض الذهب موجود في الفرنسية وغيرها.
3. انظر تخريجه في جمهرة الأمثال 1 : 459 وهو بهذه الرواية في العقد.
4. نفح الطيب 1 : 199 (ط. إحسان عباس).



أشْ عليه مِن جَورى أوْ نَصفى   مَنْ شَكَا ضِرساً رَدي قَلَعهُ

فهذا وإن لم يرد بنصه عند الزجالي وابن عاصم إلا أنه ما يزال مستعملا بهذه الصيغة في الأمثال الإسبانية والمغربية[1].

ويقول ابن قزمان : (زجل 28)

المُعَسَّلْ أعْلى الألْوان   ولكِن للسَّاقَ يُرفَعْ

ولا شك أن هذا مثل أندلسي وإن لم يرد في المجموعات الأندلسية، لأنه ما يزال مستعملا في المغرب بالصيغة التالية : المعسَّل تَالِي يا الْوالِي[2].

وابن قزمان في بعض المواقف من أزجاله يسرد الأمثال متتابعة متلاحقة يأخذ بعضها برقاب بعض ـ على نحو ما يصنع «ثرفا نتيس» على لسان «سنتشو» في «دون كيخوته» وذلك كقوله : (زجل 50)

لاَ حَلاَلْ لَحِقتَك ولاَ بِحَرَام
طَالْ عَلىَّ "نَطْلَب زيبر في رُخَامْ
أتَّ ه كما قيل : "أسْودْ في ظَلاَمْ
أوْ عِنَب في عُليق قَريب في بَعيدْ

وقوله : (زجل 13)

1ـ انظر المثل رقم 398 في النص.
2ـ أمثال فاس : 493.

لِسْ تُكْسب العلْيَا بـذا. السُّهُولَه
ولا يجي عُصْفُور. كـذا السُّبُولَه
مَن لـمْ يَسق قَمْحُ للشّيَـاع دولَـه
ومن مَشَى دون ضَو في ثَوبُ يَعْثر

وقد يطول هذا الفصل لو ذهبنا إلى تقصى الأمثال في ديوان ابن قزمان وتتبعها بالشرح والتحليل، ولذلك نكتفي هنا بوضع ثبت لها مع الإشارة إلى نظائرها كما وردت في مجاميع الأمثال :

1. واحِد يُثْنِي خَيْر وآخر يِزكّي[1] (رقم 1).
2. اعزِلْ ووَلّي[2] (رقم 2).
3. السَّلف مردود والعرية تَرجَع[3] (رقم 7).
4. ضايِع بَحَلْ مُشْط أقْرع[4] (رقم 7).
5. قد طغى الثُّعبَان ولا بد يُرفَع[5] (رقم 7).

1. عند ابن عاصم بلفظ : واحد يقول وآخر يزكي (رقم 794).
2. عند الزجالي بلفظ : يعزل ويولي. انظر رقم 2103 وقد تكرر عند ابن قزمان. أنظر الزجل رقم 28 والزجل رقم 41.
3. عند ابن عاصم رقم 168 : السلف مردود وصاحب مشكور.
4. صيغة أندلسية للمثل العربي: أغنى عن الشيء من الأقرع عن المشط، أورده كل من حمزة الأصفهاني، والعسكري، والميداني والزمخشري، وقد ورد في شعر لأبي الحسن علي المعافري بقوله في الوزير ابن جامع بعد أن مدحه فلم يثبه وكان أقرع :

أهديت مدحي للوزير الذي ... دعا به المجد فلمْ يَسْمَع
فحامل الشعر إليه كمن ... يهدي به مشطاً إلى أقرع

في الأمثال الإسبانية: ؟ «Para que quire peine quien Cabellos no tiene»
5. انظر رقم 39 في القسم الثاني.

6. قَبْل الرَّمى يُرَاش السَّهْم[1] (رقم 9).

7. الولَد منْ قَرْضِ ولْدُ[2] (رقم 11).

8. العَصَا مِن العُصَيّ[3] (رقم 11).

9. يَمِينْ لسْ يُقْبَل لعاشِق[4] (رقم 14).

10. لسْ باللَّه كان يَمْشِي سَارق إلا وتَحْت إِبْطُ مُصْحَف[5] (رقم 14).

11. قنْديل بفُمَّيْن : مَشْقى من إسْط منُّ يَخْرج الزَّيت[6] (رقم 18).

12. إنْ ريت الخوخْ والرمَّان، كُد وانظُر لنَفْسك أعُريان[7] (رقم 19).

13. بَيْت أسَدْ : فيه عُظَيْمَات وسَلسَلَ ووَتَد[8] (رقم 19).

14. لا عَثْر إلا في وَسادَة[9] (رقم 21).

15. يَرْجَع الحَصْرم بالعِشق مُزبَّب[10] (رقم 20).

16. حتَّى يَشِيب الغُراب[11] (رقم 21).

17. لا تقْفز خندقْ تقعْ في غَدير[12] (رقم 26).

---

1 ـ مثل عربي معروف، الميداني 2 : 151 ويقال أيضا : قبل الرماء تملأ الكنائن.
2 ـ أي الولد شبه أبيه وفي أمثال المغرب : الولد نسخة من أبيه. ابن شنب رقم 1981.
3 ـ مثل عربي قديم معروف، وهو أيضا في الأمثال الاسبانية De tai palo; tai astilla
4. مثله في الأمثال الاسبانية. Juras del que ama mujer, no se han de creer. H.Nunez, 286
5 ـ انظر رقم 1232 في القسم الثاني.
6 ـ انظر رقم 142 في القسم الثاني.
7 ـ انظر رقم 9 في القسم الثاني.
8. انظر رقم 1566 في القسم الثاني.
9. انظر رقم 1981 في القسم الثاني.
10. انظر رقم 131 في القسم الثاني.
11. مثل عربي معروف.
12. انظر رقم 2024 في القسم الثاني.

18. مِنْ مَخْضُوب اليَد لس يُقبَل يمين[1] (رقم 33).

19. دَواب الكِرا[2] (رقم 33).

20. لا بُد منْ لولا في الشَّيء الحَسَن[3] (رقم 33).

21. اكذَب مِنْ أسِير[4] (رقم 39).

22. الكواكبَ عَرض لَهمُ بالنَّهار (رقم 38).

23. اقْرَنْت الفضَّة لِلقَزْدير (رقم 38).

24. تَصير أيْديهِم أكْمَام[5] (رقم 39، 144).

25. السَّبع يمَخْرق وحدُ ويَصُول وتَراه يخرس بجَنْب الأسد[6] (رقم 49).

26. نَطلُب زيبر في رخَام[7] (رقم 50).

27. اسود في ظَلام[8] (رقم 50).

28. عِنَب في علَّيق : قَريب في بَعيد[9] (رقم 50).

---

1. مأخوذ من الشطر الذي يتمثل به : وليس لمخضوب البنان يمين.
2. تشبيه ساقه ابن قزمان في معرض انتقاد النساء وذكر أنه مسموع، وهو يذكر بقول يحيى الغزال :

إن النساء لكالسروج حقيقة فالسرج سرجك ريثما لاتنزل
فإذا نزلت فان غيرك نازل ذاك المكان وفاعل ما تفعل

3. مثل معروف، ولفظه في المغرب : حتى زين ماأخطاته لولا. ويتصل بهذا قول ابراهيم بن مزين القرطبي : (الحلة السيراء 1 : 88)

بابي أنت من غزال مليح ليس فيه لمن تامل «لولا»

4. مثل معروف، ذكره الميداني وغيره.
5. انظر رقم 676 في القسم الثاني.
6. من المثل العربي : الذئب خاليا أسد، وانظر ابن شنب رقم 1513.
7. انظر رقم 2037 في القسم الثاني.
8. انظر رقم 424 في القسم الثاني.
9. نظر رقم 1670 في القسم الثاني.



29. منجَل : قَوامو في العِوج[1] (رقم 51).

30. وغدا للنَّاظِرين قَريب (رقم 58).

31. في قوام الزَّرزُور الشَّرَفي للحُبُوب ينْزل عَلَى فَزَع[2] (رقم 59).

32. من شكا ضرْسا رَدِيّ قَلعُه[3] (رقم 59).

33. اطلُب تَجِد[4] (رقم 60).

34. نَحْرز كَما ـ يا صاحب ـ يُحْرَز اللَّبن على النَّار[5] (رقم 67).

35. وَرزق الجِلَّوْز في ذاك الصدَّاع[6] (رقم 72).

36. وَقْفَة غُرَاب[7] (رقم 75).

37. جَلْسَة خَطِيبْ[8] (رقم 75).

38. مَطْوي بَحَلْ مُوسْ[9] (رقم 82).

39. نَهارا جَديدا ورزقا جديدا[10] (رقم 87).

1ـ في أمثال ابن شنب : مسقم كالمنجل، رقم 1756.

2ـ وقع في كلام لابن ظافر صاحب البدائع قوله : «فلم يكن الاكنقرة العصفور، الخائف من الناطور»، نفح 5 : 48.

3ـ انظر رقم 398 في القسم الثاني.

4ـ عند الميداني : من طلب شيئا وجده.

5ـ انظر رقم 835 في القسم الثاني.

6ـ انظر رقم 1963 في القسم الثاني.

7ـ أي وقفة قصيرة، ويقال أيضا : زمان باز. انظر رقم 774 في القسم الثاني.

8ـ أنظر رقم 774 في القسم الثاني.

9ـ انظر رقم 2051 في القسم الثاني.

10ـ في الأمثال العربية : يوم جديد، ورزق جديد. الحنفى رقم 2826 وفي الأمثال المغربية : كل يوم ورزق. ابن شنب رقم 1529.



40. قَدْ عُـقِر بعد ذاك الكلب الذي يَخْرَ الأنجاس[1] (رقم 89).

41. طَـريق الجِـد غَـيْـر طَـرِيق المزاح[2] (رقم 94).

42. حَـتَّى تُـغْرَس تُـرنـج في تُـفَّـاح[3] (رقم 94).

43. بْحَلْ وَتَـد فِـي نُـخَـال[4] (رقم 94).

44. بْحَـلْ حَـجَـر في وضف[5] (رقم 95).

45. صُداف اخْـيَـر منْ وَعـد[6] (رقم 96).

46. اهْنَ جَا : قِـفْ ووَقَـف[7] (رقم 99).

47. من أَنْـذَر فقد أَعْـذر[8] (رقم 101).

48. عَيْنَيْن العَـمْشَـا تظْـهَـر تَحْت الكُحُـول الـمُطوّق[9] (رقم 103).

49. نعَـم ديكي ولَـوْ اذَّن كِنَّـذْبَـحُ[10] (11)

---

1. عند ابن عاصم رقم 419 : رحمه الله ذاك الحمير الي كيجرالنجاص.

2. هو من شطر يتمثل به: طرق الجد غير طرق المزاح.

3. يبدو أنه من أمثال الجنانين ولابن جزي الغرناطي في معناه :

لا تعد صنفك ان ذهبت لصاحب تعتده لكن تخير وانتق
أوما ترى الاشجار مهما ركبت ان خولفت أصنافها لم تعلق

الاحاطة 2 : 193.

4. انظر رقم 1948 في القسم الثاني.

5. انظر رقم 2075 في القسم الثاني.

6. انظر رقم 1607 في القسم الثاني.

7. انظر رقم 482 في القسم الثاني.

8. معروف ومسموع.

9. ورد في شعر لابن الخطيب اذ يقول– وقد خضب لحيته :

فاض البياض على رغم السواد بها ويرشح الدمع تحت الكحل في العمش

والكحول : الكحل، وفي الأصل : الفحول، وهو تحريف.

10. انظر رقم 41 في القسم الثاني.



50. لسْ للأسَد إلاَّ مَا يَفْرس[1] (رقم 105).

51. لسْ للمِلان إلا ما يَخْتَطَف[2] (رقم 105).

52. مَنْ شَابَه وِلْدُه فَمَا ظلم[3] (رقم 106).

53. لَمْ يَرثْ خَصْله منْ بَعْيد[4] (رقم 106).

54. أرسل حليم ولا توصِّه[5] (رقم 111).

55. الله لكل غريب[6] (رقم 113، 124).

56. لسْ تَراهْ أو ترى عَيْنيك قفَاكْ[7] (رقم 111).

57. ازْرَع ما تَحْصَد[8] (رقم 117).

58. تَعْمَل عَبَس والضيَافْ قَد حَلُّوا[9] رقم 126).

59. يَنْفَر من دلِّ [ظل][10] (رقم 126).

60. طريق الجامع لسْ شَيْئا يُخْفيه[11] (رقم 137).

1ـ في الأمثال العربية : الاسد مايأكل الا من الفريسة. فريتاخ 3 : رقم 58. وفي التمثيل : والليث ليس يسيغ إلا ما افترس.
2ـ انظر رقم 1343 في القسم الثاني.
3ـ مثل معروف.
4ـ تعبير مسموع في المغرب : (ماجابها من بعيد).
5ـ مثل معروف، الميداني : 303.
6ـ مسموع في المغرب : الغريب ليه الله.
7ـ يقال في المغرب : حتى شاف عينو في قفاتو ابن سودة : 243.
8ـ مثل معروف.
9ـ انظر رقم 113 في القسم الثاني.
10ـ انظر رقم 2105 في القسم الثاني.
11ـ انظر رقم 1088 في القسم الثاني.

61. يبيع المُرِي[1] (رقم 143).

62. خَيَّرنِي حَيَّرنِي[2] (رقم 144).

63. كَما اللَّوزه فِي الغِفَاره[3] (رقم 146).

64. أشْهَر من الأبْلق[4] (رقم 148).

65. بَحَلْ من يَجْلس على الجَمر (رقم 178).

ومما نحسب أنه من قبيل الأمثال أو ما يجري مجراها :

1. بَحَل من مضَى بُجْماط يتعَجَّب إذا رآهَا كعكي (رقم 1).

2. الذي لا تَطبُخ أشْويه (رقم 2).

3. كَيْف يَسْتَوي راكِبْ مَع مَنْ هُ راجل. (رقم 6).

4. لسنه الشطرنج كلعب الخُمَيْسه (رقم 7).

5. طَلع اليَربُوع لراس الغُرَيْسَه ومن أي عادَه من الفَرش يطْلع (رقم 7).

6. لِس يُغْرى الغُراب بطير في الحَرَم (رقم 9).

7. الكَرَمْ عَزًّا والكرامَه طَعامْ (رقم 9).

8. مَن كَابد التِّيار من جَوْفه يُحْشَر (رقم 13).

---

1. المري : ضرب من الادام يطبخ به. والعبارة تستعمل في الكناية عن الرياء. انظر: نفح الطيب 7 : 154.
2. انظر رقم 913 في القسم الثاني.
3. انظر رقم 1320 في القسم الثاني.
4. مثل مشهور.



9. من را هـِلال العـِيد لا بد يـِكَبـَّرْ (رقم 13).

10. حتَّى يكون لَـفْتـِي بَحَلْ مخضَّر (رقم 13).

11. أضْيع من قط ان لحق فار وقد فَلَت رجلُ مِنْ تحت رَف (رقم 14).

12. لسْ تـثْبت المبَانـِي إلا على الأسوسْ (رقم 17).

13. انظُراش بَقى ذا العصيـِْر واش دَام (رقم 20).

14. بَحل من يَتَبـوَّل من تحت الثِّـيَاب (رقم 21).

15. ما يُوجَد لُو قيمه لِسْهُ للشـِّرا غالي (رقم 25).

16. من لا يُصادِف الريح كيف يـِذري (رقم 31).

17. الـمُوس إذا يَحْفَى يُصْلَـح بالمِسَن (رقم 33).

18. العُود الـمَكْسُور يُجْبَر بالغرا (رقم 33).

19. صاروا بجْماط بعد ما كانوا خرُّوبْ.

20. دُودَة الحَرير تفْزع من رَعَد (رقم 49).

21. كالدُّر الأبيض كُلَّما تحك يصفْو (رقم 68).

22. يرى الكتَّـان ويدري اش يكُون قبل أن يُـردَّجْ (رقم 68).

23. إذا ريْت الشَّدايـِد الفَـرَج وراه مُـقْبِل (رقم 68).

24. تُـرَد الحُلَّه لِصَاحِب المَتَـاعْ (رقم 72).

25. بقياس ما يَجِد البنَّـا منْ تُراب تجد في حيطُ من الارتفاع (رقم 72).

26. ولا بد للخُبز من فرن إذا ما اختـمَر.

27. مَنْ مَشَى دون ضَو في ثوب يعْثرُ (رقم 13).

28. تضْربو البُوقْ (رقم 87).

29. اشْ دخل الدَّرْمَك فالنُّخَالَه (رقم 91).

30. الْقِ رجْلَك في الرِّكَاب (رقم 99).

31. كُل البَسْبَاس واقْطَع من الاياسْ (رقم 100).

32. مَن دَرى الدر هان عليه الصَّدَفْ (رقم 102).

33. حلْوة الرُّب مثْل الشَّهْد (رقم 104).

34. أرق مِنْ خَيط رِدا (رقم 112).

35. الدُّخان إذا التَزمْ حايطاً ابيض سَوَّدُه (رقم 117).

36. نَشْبة أهل جيَّان بالقَطَفْ (رقم 149).

37. من يَرى السُّكَّر يريد أن يذُوقوا.

أما الزجالون الآخرون فقد ذكرنا في النص ما استخرجناه من أمثال في أزجالهم، ومنها أربعة أمثال في أزجال مدغلِّيس التي اختارها من ديوانه صفي الدين الحلى وضمنها كتابه : «العاطل الحالي»، ومثل في زجل لابن تاجيت اللورقي، وآخر في زجل للبكازور الحدَّاد البلنسي ورد في المغرب لابن سعيد، وأربعة أمثال في ديوان الششتري.

ونجد أمثالا أخرى في الأزجال الأندلسية التي يتغنَّى بها في بلدان المغرب الكبير والتي يشتمل عليها المجموع المعروف عندنا بالحايك، فمن الأمثال التي تكرر ورودها في هذه الأزجال، وكثيرا ما تقع في الخرجة :



رَاعِي يا مَليح راعِي   راعِي صُحْبَتَك ماعي
«واعمل لا يجُوع الذِّيب   ولا يقبض الرَّاعي»[1]

* * *

قَال لي سبق ضمَاني   مِن قَبل ذا الزَّمَان
«ما تَنطق الأواني   إلاَّ بِما سكن»[2]

* * *

ما يلي في المحَبَّة اختيارْ   ولا من عدو لي أمَان
انظر كيف كسيت الاصفرارْ   «وليس الخبر كالعيان»[3]

* * *

بالَكْ يغُرَّك نوارْ من الدَّفْلى   «مَكْتوب في الأوراق : المر ما يحلْى»[4]

* * *

أنا سمعت الناس يقولوا في المثل :

ذاك الذي يلْعَق باصباعُ العَسَل   يمْشي ولا يزُولْ على ذاكْ العمل[5]

1 ـ الحايك : 43، 94.
2ـ المصدر نفسه : 97، 142، 175.
3ـ المصدر نفسه : 134، 148.
4ـ المصدر نفسه : 108، 124.
5 ـ المصدر نفسه : 119 وانظر المثل رقم 1378 من القسم الثاني.

ومن الأمثال السائرة التي وردت في هذه الأزجال أيضا : اللِّي ضربته يدُّو ما يَبْكي[1].

اللِّي لدغْتُه الحَيَّة من ظل الحَبل يفْزَع[2].

وفي زجل آخر :

صبري على من نعشق دون اختيارْ   وزادني يا عشق بعْد الدَّار
النَّاس يقُولوا في المثل صح الخبَر :   قَلْب ان انْكَوىْ مال دوَا[3]

ويمكن القول بإجمال إن الأمثال في الأزجال الأندلسية بمثابة الملح في الطعام.

ومن الغريب أننا نفتقد عنصر الأمثال في الزجل المغربي المعروف بالملحون، وخصوصا منه القصيدة، إلاّ ما ندر وهذا من الفوارق بين الزجل والملحون وليس من شرطي تحليلها هنا.

على أننا نجد ميلا واضحا إلى استخدام المثل والحكمة عند المجذوب في رباعيته، وقد أشرنا إلى بعضها في القسم الثاني من هذا الكتاب.

كما وجدنا صدى لأمثال أندلسية ومغربية في الضرب المعروف بالعروبي، ونسوق فيما يلي طائفة منها استخرجناها من المجموعة التي نشرها الأستاذ محمد الفاسي بعنوان «رباعيات نساء فاس».

---

1. الأغاني التونسية : 228.
2. المصدر نفسه : 238.
3. الحايك ص 149.



- «واش البَـلاَّر تاتعاندُه الحريشَـة».

- «واشْ القفْلْ الرُّومِـي تاتوالمْه الطريشَةَ» (ص 15).

- «من عشق الزين مايكون إلا صبار» (ص 18).

- «عاشق الزِّين ما يْكُون إلا صبَّـار» (ص 48).

- «الولف صعْيب والمحَبّة زُغْبِية» (ص 18).

- (خليتني بحال ذي تَايَطْبَـخْ في الحْجَرْ.

- «لا مَرْقَه يشربـها لا لَحْمْ يَشْـوِيه»[1] (ص 38).

- (خليتني بحال طبَّاخ الحجر).

- لا لحْم ياكْلُ لامرق يلحسُه (ص 110).

- ربيع الوقْت يرْتعى لو كَـان يبيس.

- لا بد الِّي جا فِـي وقْتُـه ما يُـلامْ (ص44).

- والِّي هو لبيبْ يجْـرَحْ ويداوِي (ص 45).

- خَاتم وحْده ما تْـرومْ لجُـوج اصْبَـاعْ (ص 45).

- (واشْ الخَاتم تاتْوا لْمهُ جُوجْ اصْبَـاعْ) (ص 120).

- وآخر المقصود : دِي حطَب شِـي يَسْخُـنْ به (ص 46).

- من قلَّـة الشِّي ياالاَّـه حتى احْبَـابْنَـا كرْهُونَـا(ص 49).

1ـ في أمثال الزجالي : رد الحصا للقدر (رقم 987).

- (حتى احْبَابْنا من قلَّة الشَّي كرْهُونَا) (ص 73).
- المَسْكَن ما يْبَات خالِي من سُكَّانْ.
- والمُكَارِي ما يْبَات برَّا بجمالُه[1] (ص 50).
- ماعالَم بالقلُوب إلاَّ مُلاَهَا (ص 56).
- الفَلْك يدور والسَّوايَعْ بدَّالَة (ص 65).
- أجِ نوصيك : «قُوَّة الخُلْطَة تَرذَّلْ»
- وانا مجَرَّبْها عْلَى طُول ايَّامِي (ص 78).
- «ازْطَم صَحْيحْ راكْ تَمْشِي عَانِي».
- نشوف البَرْقَة في الأرض ويْحسابْنِي ثمْنِي (ص57).
- عمْري ما يحسْبْنِي المَا يَطْلَع في العَقْبَة (ص 81).
- المحبة بالغَرَض ماشي بالتَّكْلِيف (ص 84).
- ما يَدْخل احد بين البايع والمشتري (ص 104).
- قالوا الأولين : لا خَيْر في المحبة المزْرُوبَة (ص 109).
- الكَيَّسْ في النَّاسْ : ميزانُه عَيْنَيْه (ص 126).
- الِّي يَفْهَمْنِي خير من الِّي يعْطِيني (127).

إن انتفاعنا بالأزجال لم يقتصر على ما تضمنته من أمثال، وإنما تجاوز ذلك إلى تتبع الألفاظ وملاحظة التراكيب للاستعانة بها على فهم المدلول العام للألفاظ والأمثال وتركيبها.

1. هذا مثل أندلسي قديم ورد في مجموع الزجالي. أنظر رقم 935 في القسم الثاني.

4. يبدو من المقارنات التي قمنا بها في النص مدى الصلة الموجودة بين الأمثال التي كان العامة في الأندلس يتمثلون بها وبين الأمثال العربية سواء منها القديمة والحديثة، وتلك صلة طبيعية لأنها جميعا تنتمي إلى لغة واحدة، وقد عنينا إلى جانب ذلك بالمقارنة بين الأمثال الأندلسية وبين الأمثال الإسبانية بقدر ما سمحت به وسائلنا، وكان من شرطنا في هذه المقارنات جميعها أن يتوفر فيها التطابق بين نصوص الأمثال وصيغها، وأن تكون الأمثال المقارن بينها متفقة أو متقاربة على الأقل في مبناها ومعناها، إذ أن المقارنة على أساس المعنى وحده قد تكون أمرا ممكنا بين أمثال كثير من الأمم والشعوب.

وإنما توجهنا إلى الأمثال الإسبانية بعد الأمثال العربية لأن كلا من الأمثال الأندلسية القديمة والأمثال الإسبانية التي جاءت في أعقابها نتاج أرض واحدة، وثمرة بيئة طبيعية مشتركة، وإن اختلفت بعد ذلك بعض مظاهر الحياة ومصادرها، ولأننا قدرنا أن ثمانية قرون من الاختلاط والاحتكاك بين المسلمين والمسيحيين في الأندلس لا بد أنها تركت آثارا وخلفت بقايا ورواسب في مجال التراث الشعبي الإسباني عموما والأمثال منه خصوصا.

وقد عني الباحثون المتخصصون منذ عهد بعيد بدراسة أثر الإسلام في إسبانيا في مختلف النواحي الثقافية والحضارية والاجتماعية وغيرها، وأثبتوا بالأدلة والشواهد والمقارنات وجود هذا الأثر في اللغة والشعر والقصص والفلسفة والعلوم. وتجاوزوا ذلك إلى الناحية الدينية فدرسوا تأثير الإسلام والتصوف الإسلامي فيها، وحددوا الأفكار والعناصر الإسلامية والصوفية في مؤلفات رجال الدين والتصوف من الإسبان[1].

1ـ تاريخ الفكر الأندلسي : 531 وما بعدها، والاسلام في إسبانيا : 80 وما بعدها للدكتور لطفي عبد البديع.

وأصبحنا أخيرا نقرأ دراسات في الأصول والمصادر الإسلامية والعربية لبعض الروائع الأدبية الإسبانية الكبرى التي ترجع إلى ما يسمى بالعصر الذهبي. وذلك مثل «دون كيخوته» لثرفانتيس و«الحياة حلم» لكالديرون وبعض مسرحيات لوبي دي فيجا، ومن الطريف أن عنوان إحداها مقتبس من مثل أندلسي ونعني بها :

El perro del hortelano فهو من المثل الإسباني :

El perro del hortelano, ni come las berzas ni las deja comer.

وأصله من المثل الأندلسي الذي رواه الزجالي وابن عاصم هكذا :

ـ كَلْبُ الوَرْدِ لا يِشَمّ ولا يِخَلِّى أحَد يشَمّ[1].

وقد ظهر في عصرنا بعض المؤرخين من الإسبان الذين يرجعون إلى الإسلام وأيام المسلمين كثيرا من النظم والتقاليد والعادات التي بقيت في الحياة الإسبانية بعد خروج المسلمين من الأندلس، ومن هؤلاء المؤرخين أميركو كاسترو الذي «يقرر في أكثر من موضع من كتابه «إسبانيا في تاريخها» أنه يجد في الإسلام وتراثه تفسيرا لكثير من الحقائق التي خفيت عليه حين كان ينظر إليها من جانب واحد هو الجانب المسيحي[2]» وبالإجمال فإن الدراسات التي تعالج جوانب عامة أو خاصة من هذا الموضوع الكبير هي من الكثرة بحيث إن مجرد الإشارة إليها أو محاولة تلخيصها في هذا التمهيد يكون عملا لا غناء فيه وصنيعا لا طائل تحته.

---

1. انظر المثل رقم 1125 في النص.
2. ـ الاسلام في اسبانيا : 86.



أما بالنسبة للتراث الشعبي والأمثال فقد رأينا خاصة المشتغلين بعلم الأمثال في إسبانيا يقتصرون - حين يبحثون في أصول أمثالهم - على أصولها الدينية كالعهد القديم والعهد الجديد وأقوال آباء الكنيسة، أو أصولها اليونانية كأجوبة الكهنة وأقوال الحكماء وعبارات المسرحيات أو أصولها اللاتينية، أو إلى منابع من البيئة الإسبانية المسيحية، ولم يدر بخلدهم أبدا - ولو على سبيل الفرض والتقدير - أن تكون الأمثال العربية في الأندلس من أصول أمثالهم، وهم معذورون في هذا لأنه لم تكن قد ظهرت بعد هذه المجموعات من الأمثال العامية في الأندلس[1].

وقد كان الدكتور عبد العزيز الأهواني هنا أيضا رائدا في هذا المجال وذلك حين فتح باب المقارنة بين الأمثال العربية والإسبانية بنموذج يشتمل على واحد وعشرين مثلا من الأمثال المتشابهة في مجموعتي ابن عاصم وسنتلانا[2]. وقد نحونا نحوه ووسعنا دائرة المقارنة بالتماس النظائر والأشباه في أكثر من مجموعة.

وبدأنا بأقدم مجموعة في الأمثال الإسبانية وهي مجموعة المركيزدي سنتلانا (1398ـ 1458). Inigo Lopez de Mendoza : Marqués de santillana

واسمها :"Réfranes que dicen las viehas tras el Fuego" «أي الأمثال التي تقولها العجائز حول النار» وهي مرتبة على الحروف وتشتمل على 725

1ـ للأستاذ Luis Combet رسالة ممتازة عنوانها :

RECHERCHES SUR LE "REFRANERO" CASTILLAN

وقد درس في الفصل السابع من القسم الأول فيها أصول الأمثال العامية القشتالية وتطورها، وأشار في آخر هذا الفصل إلى "فرضية" التأثير الشرقي في هذه الأمثال وذهب إلى أنه محل شك ونظر. اقرأ ص 90 وما بعدها في الرسالة المذكورة.

2ـ أمثال العامة في الأندلس : 253 وما بعدها. وفي اثناء مراجعة تجارب الطبعة الأولى من هذا القسم ظهرت فصول من مشروع كتاب بعنوان. HACIA UN "REFRANERO" ARABICO ANDALUZ للاستاذ الجليل، غرسية غومس، وذلك في الاعداد الاخيرة من مجلة الأندلس. ولاشك أن هذه الدراسة - التي نتمنى لها أن تتم - ستزيدنا اقتناعا بتأثير الأمثال العربية الأندلسية في الأمثال الإسبانية والأوروبية وهي تجيء بعد طبع أمثال ابن عاصم وأمثال الزجالي.

• مثلا، وتليها في الأقدمية مجموعة هرنان نونيث (1475 ـ 1553) Hernan Nunez وكان أستاذ البلاغة واليونانية بجامعة سلمنقة، وقد نشرت مجموعته لأول مرة سنة 1555 تحت عنوان : Refranes o proverbios en romance وهي أيضا مرتبة على الحروف، وتشتمل على 8331 مثلا، وقد تتابعت المجموعات وبلغت في عصرنا مبلغا كبيرا من الكثرة والاتساع كالمجموعة التي نشير إليها باسم مرتبها لويس مارتينيث كليسر Luis Martinez Kleizer واسمها Refranero General Ideologico فهي تحتوي على أزيد من ستين ألفا من الأمثال وقد رتبها بحسب الموضوعات وضمنها معظم المجموعات القديمة والحديثة.

وقد قرأنا أيضا الأمثال المستخرجة من بعض الأعمال الأدبية «الكلاسيكية» مثل ثلستينا La Celestina ودون كيخوته Don Quijote ورجعنا في أمثالهما وأمثال هرنان نونيث إلى الكتاب الصادر عن منشورات أجيلار Aguilar تحت عنوان» "Refranero Espagnol" كما انتفعنا أيضا بمجموعة برجوا Jos Bergua وعنوانها كالعنوان السابق : "Refranero Espagnol"[1].

وقد تجمع لدينا من الأمثال الإسبانية التي تتفق أو تتشابه في الصيغة والمعنى مع الأمثال العربية ما يزيد على مائتي مثل، ذكرنا نصفها تقريبا في مواضعه من النص، ولعلنا بمتابعة القراءة والمقارنة نخرج بأمثال أخرى. ونحن نرى أن مجموعتي الزجالي وابن عاصم سوف تتيحان للمشتغلين بالأمثال الإسبانية الرجوع إليهما ليجدوا فيهما كثيرا من جذور هذه الأمثال وأصولها. وقد قام بعض الباحثين في إسبانيا بعد

1ـ انظر في تطور التأليف في الأمثال القشتانية رسالة الأستاذ Luis Combat بعنوان : Recherches sur le "Refranero" Castillan.

ظهور الطبعة الأولى لأمثال الزجالي بترجمتها إلى اللغة الإسبانية مع كتابتها بالحروف اللاتينية وكذلك عملوا في أمثال ابن عاصم وأمثال ألونسو القستلي، ولعل هذا يفتح الباب للمقارنة الواسعة.

إن التطابق التام بين بعض الأمثال الإسبانية والأندلسية لا يمكن تفسيره إلا بالترجمة والنقل، وسوف نعرض فيما يلي بعض الأمثلة، ونحيل في معظمها على الرجوع إلى النص.

يقول الإسبان في الأمر يحدث بغير حسبان ويقع فجأة على غير انتظار :

Nace en la guerta lo que no Siembra el hortelano وترجمته : يولد (ينبت) في البستان ما لا يزرع البستاني.

وهذا المثل ليس إلا ترجمة دقيقة للمثل الأندلسي : ينبت فالجنان، ما لا يزرع الجنان[1].

وينبغي أن نذكر أن الأندلسيين يستعملون الجنان للبستان، والجنان (بالتشديد) للبستاني، وهو استعمال ما يزال موجودا في المغرب، وهذا الاستعمال موجود أيضا في نثرهم وشعرهم كقول بعضهم :

كأنَّه رُوَض ورْدٍ جَنَّانُه حَبَشيٌّ

وإذن فإن الصيغة الإسبانية ترجمة أمينة للصيغة الأندلسية، وتكاد الصيغتان تتفقان حتى في عدد الكلمات، وقد اختلفتا من ناحية السجع حيث تميّزت به الصيغة الأندلسية، ولكن هذا حسب أقدم رواية للصيغة الإسبانية وهي التي رواها هرنان نونث في القرن السادس عشر، لأننا

---

1. المثل رقم 2138 في النص.

نجدهم فيما بعد يكتبون كلمة La huerta حسب النطق الجديد ويقدمون الفاعل ليستقيم لهم ما يشبه السجع فيقولون :

Nace de la huerta le que el hortelano no Siembra.

كما ورد المثل في مجموعة برجوا J.Bergua الحديثة، وفي هذا أيضا دليل على الترجمة، إذ كلما كانت الصيغة الإسبانية قديمة كانت الترجمة فيها أكثر أمانة وأشد قربا من الصيغة الأندلسية.

ومن الأدلة القاطعة بأن مثل هذا المثل لا يمكن أن يكون إلا ترجمة للصيغة الأندلسية احتفاظ بعضها بكلمة عربية أو أكثر في أول المثل أو في وسطه أو في آخره فمن ذلك المثل الإسباني :

El palvo de la oveja, alcohol es para el lobo

فهو ترجمة دقيقة للصيغة الأندلسية :

- غُبار الغَنَم، كُحُولْ هو لِعَيْن السَّبع[1].

وآية ذلك احتفاظ الصيغة الإسبانية بالكلمة العربية : الكحول التي هي نطق أندلسي لكلمة الكحل الفصيحة، وقد ترجموا السبع باللب وهما بمعنى واحد عند الأندلسيين، وكانوا يستعملون الكلمتين معا لسبع الأندلس أو ذئبها، وآية ذلك ثانيا هذا التماثل في تركيب المثل في الصيغتين وتوالي الكلمات فيهما بترتيب واحد، ونلاحظ هنا أثر عجمية الأندلس في تراكيب اللهجة الأندلسية، وسوف نشير إلى ذلك في موضعه من هذه الدراسة، ونحن نجزم بالترجمة في هذا وشبهه لأن له أيضا أصلا عربيا قديما، وقد رواه الثعالبي في «التمثيل والمحاضرة» كما يلي : «غبار الغنم كحل عين الذئب».

1. المثل رقم 1722 في النص.



ومن هذه الأمثال الإسبانية التي نجد فيها بقايا من الصيغة الأندلسية قولهم :

El ajuar de la harnera, dos jarros y una hortera. refr. Esp. Aguilar (H. Nunez). pag. 229.

وترجمته الحرفية : شوار الخبازة جرتان وصحفة.

وهو ترجمة للمثل الأندلسي الذي رواه ابن عاصم هكذا :

ـ شوار دجيجة : شقف وخرابة[1].

ودجِّيجة = دجاجة أي بائعة الدجاج، واحتفاظ هذا المثل بكلمة الشوار El ajuar يدل على أصله الأندلسي وكلمة شوار بمعنى جهاز العروس استعمال أندلسي معروف، وقد نجد هذا الاستعمال في أشعارهم الفصيحة كقول الرمادي : (كتاب التشبيهات : 43)

كأن السحاب الجَود أعرس بالثَّرى فَلاح شوار الأرض في كُلِّ موضع

أما الفرق البسيط الذي نجده هنا وفي حالات أخرى فقد يكون مرده إلى تعدد الصيغ في المثل الواحد أو إلى تعديل الصيغة عند الترجمة بحيث يتوفر فيها الجرس أو السجع، فمن النوع الأول قولهم :

Cedacuelo nuevos, tres dias en estacia. Sentellana ; page 221

أي «الغريبل الجديد ثلاثة أيام على الوتد».

وصيغته الأندلسية كما رواها ابن عاصم : الغريبل الجديد أربعين يوم يُعلّق[2]. والمثلان يتفقان في تصغير الغربال، والتصغير سمة مشتركة بين

1ـ رقم 458 وقد أورده ابن شنب بلفظ : شورة الحمقا : كلها بنايق، رقم 2568، ويقال في المشرق : جهازك يا أم عامر : كله مجامر(مباخر)، أنظر مجموع شفيقة شبير ص 36.

2ـ رقم 148.



اللهجة الأندلسية واللغة الإسبانية، ويختلفان في عدد الأيام لأن المثل - فيما نقدر - كان يروى بأكثر من صيغة، وقد تكون الصيغة الإسبانية صورة طبق الأصل لإحدى تلك الصيغ ودليلنا على هذا أن أصل المثل الأندلسي عامي مشرقي قديم، وقد رواه الآبي هكذا : المنخل الجديد يُعلَق سبعة أيام[1]. وهو يروى في الأمثال المصرية هكذا : الغربال الجديد له علاقة[2].

ومن النوع الثاني أي اختلاف الصيغة لتعديل يقصد به السجع وشبهه قولهم :

Nota, que el jarro, no es bota وترجمته الحرفية : لاحظ أن الجرة ليست زقا. فهو مأخوذ من المثل الأندلسي : لس يغلط فالزق بقلة، ومثل هذا كثير. ونرجع الآن إلى الأمثال التي قلنا إنها تحتفظ ببعض الكلمات من الأصول المنقولة عنها فنذكر منها أيضا قولهم :

De que non pueden al asno, tornanse al albarda وترجمته : لما لم يقدروا على الحمار رجعوا إلى للبردعة.

فاحتفاظه بكلمة البردعة دليل كاف على أنه مترجم ومنقول، وقد ورد في الأمثال الأندلسية بصيغ متعددة هي :

1- خل البغل واتكا على البردع.

2- يخلي البغل ويتكي على البردع.

3- آش قدر للحمار رجع للبردع.

---

1. نشر الدرر 6 (الباب الثاني عشر) مخطوط.
2. تيمور رقم 2047.



والأوليان رواهما الزجالي، أما الأخيرة فرواها ابن عاصم[1]، وهي أقربها إلى الصيغة الإسبانية، ونحن نحكم هنا بأن المثل الأندلسي هو الأصل لا لأن كلمة منه بقيت في المثل فحسب، ولكن لأنه أيضا مثل قديم ذكره الطالقاني وغيره. ومن الأمثال الإسبانية التي نستطيع أن نجزم بأنها عربية الأصل تلك الأمثال التي تشتمل على أسماء عربية كعائشة وعلي وغيرهما[2].

ونريد بعد هذا أن نتساءل كيف ومتى ترجمت هذه الأمثال أو انتقلت إلى الإسبانية؟ نحسب أن الإجابة على هذا السؤال تتطلب دراسة دقيقة ولكننا نفترض أن تكون هذه الترجمة وقعت خلال العهود الإسلامية في الأندلس ونقدر أنها أثر من آثار الازدواجية اللغوية في الأندلس الإسلامية، حيث كان الأندلسيون عربا وعجما، مسلمين ونصارى، يتكلمون بالعربية والعجمية، وربما كان المثل الواحد يومئذ يقال بالعربية تارة وبالعجمية تارة أخرى، وقد يكون قسم من هذه الأمثال مما انتقل بواسطة المدجنين والمورسكيين حين أجبروا على الكلام بالإسبانية.

ونورد بعد هذا قائمة بأمثال يظهر فيها التطابق بين الأمثال العربية والأمثال الإسبانية والأمثال الأولى مقتبسة من مجموع الزجالي الذي حققته أما الثانية فهي مأخوذة من معجم الأمثال الإسبانية الذي وضعه MARTINEZ KLEISER.

---

1. المثل رقم 1191 في النص.
2. انظر المثل رقم 920 في النص.

1. إذا ريْت لحية جارَك تنتف اجعلْ متاعك فالبلل.

Cuando la barba de tu vecino vieres quemar, pon la tuya a[1].

2. إذا ازْوجْ شيخ لصبية، يفرحُ صبيان القرية.

Viejo que con moza se casa, de cornudo no escapa.

3. إذا ريت حَيْش يَلْمَع، ادر أنُّ لآخَر بلعْ.

Si la serpiente a otras no comiera, dragon no se hiciera.

4. إذا ريت حمارك يمشي لا تزيدُ منخسْ.

Caballo que vuela, no quiere espuela.

5. إذا شاخ الباز لعبت به العصافير.

Del lobo viejo se burla el perro.

6. إذا تاب الزَّفان تبقى مناكبُ تخجَلْ.

Quien esta hecho a danzar, no lo sabo dejar.

7. إذا جيت تقلي سوف تدري.

Alfreir de los huevos lo vera.

8. إذا أراد الله يعطيك دارك يدلُّ.

A quien Dios quiere dar bien, a casa se le vien.

9. إذا وقعت البقرة غزرت السكاكين.

Cuando cae la vaca, aguzan los cuchillos.

---

1. لا توجد بعض علامات الرسم الإسباني لدى من صفف هذه الأمثال.

10. إذا أبطا رسولك ارْجوه.

Pues tarda el mensajero; buenas noticias tenemos.

11. إذا ريت اليهودي يذم السلعة ادر أنه يشتريه.

Quien afecta despreciar, es porque quiere compara.

أو Quien dice mal de la yegua, ese la merca.

12. إذا أقلك حمار استخير الله وانهق.

Si uno te llamare asno, mirate al rabo; si dos remédiete Dios

أو Cuando todos te dijeren que eres asno, rebuzna.

13. إذا ريت الضباب ابشر بالطياب.

Manana de niebla, tarde de paseo.

14. أقِل للكلب قال الكلب لذنابُ.

Mandan al gato, e el gato manda al su rabo.

15. أنا نـِعَلَّمُ العوم وهو يـِغَطّسْني.

Yo te ensenné a mear, y tu me quieres ahogar

16. المولى يعطي والعبد يشد اسط.

Duenos dan y siervos lloran

17. اش تنفع العُبْسَ والضياف قد حلّوا.

Huesped que ha de ser por fuerza, mas vale con buena cara.

18. إن كان مضت الخواتم بقت الأصابع.

Si se perdieron los anillos, aqui quedaron los dedollos.



19. السلف، إما عدواه وإمًّا تلف.

.Al amigo presté ; y sin dinero y sin amigo me quedé

20. الثنا خير من الغني.

Mas vale adarme de fama que libra de oro.

21. الحق عليه نور.

La verdad ama la claridad.

22. العُشيِ الطيب من بكري تظهر.

La buena cena, temprano paresce.

23. الغدو لك والعشي لغيرك.

Ayer para mi, hoy para ti.

24. الأنقر في بلاد العُمي يسمى أبو العيون.

En tierra de ciegos ; el tuerto es el rey.

25. الكيّس والبطي في سَنْتَبْطرُ يلتقي.

Camino de Sanctiago ; tanto anda el coxo como el sano.

26. آخر باكورا بأول تين.

De higos Abrevas.

27. القطاع تطلع المْا للصُّمْعَ.

A dinero en mano. el monte se hace llano.

28. اللب أي ياوي ما يادي.

El lobo de amano, donde mora no hace dano.



29. الذي خرق الأشداق، ياتي بالأرزاق.

Quien dio que nacer,dara que comer.

30. الجوع مالو عنين.

Estomago con hambre, no escucha a nadie.

31. افتح كرنب سقتلك.

A poca carne, mucha berza.

32. اربط اصبعك صحيح، صحيح تجد.

Quien sano ata dedo, sano lo desata.

33. اشورني ولا تعمل برايي.

Toma mi consejo, y haz lo que quisieres

34. أفقر من فار المسجد.

Mas pobre que una rata.

35. بين أخد الديك وإطلاق ينتتف ذنب.

Daca el gallo toma el gallo, fincan las plumas en la mano

36. برطال في الفم، خير من وزّ فالكم.

Mas val paxaro en mano, que buytr volando.

37. جمل بدرهم وأين الدرهم.

A blanca vale la vaca. Quién tuviera la blanca

38. جاران مشوم، يرى في عيني التبن ولا يرى في عينُ التمون.

Veo una pajuela en el ojo del vecino, y no una tranca en el mio.

39. جوعَ انْ تهدّدُ بالشبع لس جوع.

No es hambre verdadera la que pronoto hartura espera.

40. جارك القريب أخير من أخوك البعيد.

No hay tal hermano como el vecino mas cercano.

41. حزْن الجماعة فرَح.

Mal de muchos, gozo es.

42. حُمْرة فالوجه أخير من غُصّة فالقلب.

Mas vale verguenza en cara que mancilla.

43. حرك المحسّة في دار الخيل يقلق صاحب الدَّبْرة.

Anda el almohaza y toca en la matadura.

44. حانوت بوجهين.

Casa con dos puertas.

45. خسارة لا يدري بها جارك فضل هي كلها.

Mal que non te save tu vecino, ganancia t'es.

46. إش قدر للحمار رجع للبَرْدَع.

Quein no puede dar en el asno, da en la albarada.

47. خلِّ جدّي وجدك وانظر جلدي وجلدك.

Vive de la fama de tus hechos, y no de la memoria de tus abuelos.

48. ذا اليد يغسل ذا اليد.

La una mano lava la otar e las dos al rostro.



49. كلاما مليحْ، ودّعْ يكون ريح.

Palabras sin pensamientos, puro viento.

50. كل شيء في وقت حتى البلوط فينّير.

Cada cosa en su tiempo, y nabos en adviento.

51. كل ديك على مزبلة صيّاح.

Cada gollo canta en su muladar.

52. كل بَرْطَل على سنبله.

Cada gorrion, con su espigon.

53. كلب الوَرْد لا يشم ولايخلي أحد يشم.

El perro del ortelano, nin come las vercas nin las dexa comer.

54. لس يقول الحق، إلا صبى أو أحمق.

Ninos y gente loca, la verdad en la boca.

55. مِنْ هنا يتعوّجْ الفقّوس.

Con estos derechos salen los cogombros tuertos.

56. لِسْ يسمع الله من ساكت.

Quien non fabla, non L'oye Dios.

أو A quien hablo, Dios la oyo

57. لِسْ يُغْلَط فالزق بقلة.

Nota, que el jarro no es bota.

58. لِسْ القرد شِي ولو لبس وشي.

La mona, aunque la vistan de seda, mona se queda.

59. لو كان الحمق وجع، في كل دار كان يسْمع.

Si la locura fuese dolores, en cada casa darian voces.

60. من كثرت صناعُ، قلت قطاع.

Muchos oficios, pcos beneficios.

61. مَنْ شكا ضرسا قلعو.

A quien duele la muela, que de la saque.

62. مَن جيه أجْلُ، يمد رجل .

A la muerte no hay remedio ; sino tender la pierna.

63. من أكْرا است ما يجلس عليه.

Quien su rabo alquila, non se sienta cuando quiere.

64. من غاب عن العين غاب عن القلب.

Lo que de los ojos no esta cerca, del orazon se aleja.

65. من بزق للسما لوجْهُ يَرْجَعْ.

Escupe al cielo, y te caera sobre el pelo.

Quien al cielo escupe, a su cara le cae. أو

66. من هو مسعود الريح يحطب لُو.

A quien dios quiere bien, el viento le junta la lena.



67. من هو في سعودُ، النميلة تقودُ.

Quien esta en ventura, hasta la hormigo le ayuda.

68. من لا يرى من ورا الغِربال أعمى هو.

Ya es harto ciego quien no ve por tela de harnero.

69. ما مع القِلة مرّوة.

No hay virtud que no eche a perder la pobreza.

70. ما معك في دار الملاَّحْ راحة.

No hay quien se pueda quardar del ladron del hogar.

71. ما انبنت الزَّهرا من يوم واحد.

La iglesia de Santa Maria no se hizo toda en un dia.

72. ما تقع اللماع إلا فالثياب الرفاعْ .

En la tela mas delicada, cae la mancha.

أو En la mas fina grana cae una mancha.

73. مَايضْرَا الريح إلا على رايس سو.

A nave rota, todo viento es en contra.

74. من تحب النشاطر تصبر على حرارة الجير.

Quien quiere cal, concerla ha.

75. من بغض الكرنب في شارب ينبت.

Aborreci el perejil y naciome en la frente.

76. من أكل بالسلف من متاع ياكل.

Quien come de emprestado, come de su saco.

77. من أي كفزت المعزة تكفز المعيزه.

Salto la cabra en la vina, tambien saltara la nina.

78. من لدغت الحية من الحبل ينفر.

El que de la culebra esta mordido, de la sombra se espanta.

79. من واظب الرحى يطحن.

Quien esta en el molino muele, que el otro va u viene.

80. من جلس بلا شغل يطلب في راس قولُ عظم.

Cuando el diablo no tiene que hacer, en algo se ha de entretener

Cuando el diablo non tiene que hacer, con el robo mata moscas.أو

81. من يهترق دقيقُ ما يجمع كلُّ.

Agua vertida, non toda cogida.

82. من أرادُ بجُلّ فات كُلُّ.

Quien mucho quere, pierde todo.

83. من لا يفزَع لا يفزّع.

A quiene no teme, nada le espanta.

84. لا تؤخر عمل اليوم لغد.

Nunca dejes para manana lo que puedas hacer hoy.



85. من خرج من ضيق وسع الله عليه.

Pasa la mala hor que Dios mejora.

86. مطر فَبْريل، خير من فيض النيل.

En abril, cada gota vale por mil.

87. من حلف على الله حنْتُـه الله.

Quien a menudo jura, alguna vez se perjura.

88. ما يدري ما في الموق إلا من ضرب به.

Solo aquel puede decirlo que sabe sentirlo.

89. صاحب صنعتك عدوك، ولو كان أخوك.

Quien es tu enemigo? Hombre de tu oficio.

90. إذا ظهر الباكور مايبقى أحد يعرف أخور.

Al tiempo de higo, no hay amigo

91. صحيح الحَوْصَلَة مكسور الجناح.

El mal del milani, las alas

92. ضَرْبَـه بقدره إن لم تخرج تسوّد.

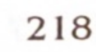
el golpe de la sartén, siempre tizna y no hae bien

93. عُمْ واحرز ثيابك.

No es habilidad pca saber nadar y guardar la ropa.

94. عطي للبربري شبر طلب ذراع.

Al jidio datle un palmoé, tomara quatro,



95. عينْ انْ لا ترى قلبَ انْ لا يوجع.

Ojos que non ven, coracon que non quiebra.

96. عشقاً احماري شم واطلع.

El requiebro del villano, buen pillizco y revolver con el palo.

97. عبوسه لا مطلقة ولا محبوسة.

Haja la enlodada, ni viuda ni casada.

98. عندك شي تسوى شي.

Si nada tienes, nada eres.

99. عيشه اِشْ معها ما تلْعق على الجيرين تتصدق.

Haja no tiene que comer convida huespedes.

100. غبار الغنم كُحولْ هو لعين السبع.

El polvo d la oveja, alcohol es para el lobo.

101. في راس الجمل ما لِسْ في راس الجمال.

Una cosa piensa el jumento y otra el harriero.

Uno piensa el vayo é otro el que lo ensilla

102. قسمة حَنَنّش : النص لي والنص بيني وبينك.

Partir como hermanos, lo mio, mio, lo tuyo de entrambos.

أو : Partamos comobuenos hermanos

la mejor parte para mi, y lo demas para ambos.

103. قردَانْ شارف لس يُعَلم الرقص.

Loro viejo no aprende a hablar.



104. شتمت مولايَ تحت كسايَ.

A so capa, riome yo del rey e del papa.

105. هو فالمذاكِر، وهو يسمُوّه عساكِر.

nombre le ponemos é Fijo non avemos,

أو .El hijo por nacer, y la pamilla ya a herver

106. هو لم يحصل فالقرعَة وهو قد صار خل.

A un non esta en la calabaca, é tornase vinagre.

107. لا تذم نهارك، حتى تسد باب دارك.

No alabes ninguma jornada hasta que la noche sea llegada

108. يطلب التين فالضرو.

Pedir peras al olmo.

109. ينور ولا يعقد.

Badajo de campana, si florece no grana.

110. يرمي الحجر ويجي بَراَّ.

Echa la piedra e absconde la mano.

111. يمني ولا يوقّي.

Promesa larga, vispera de nada.

112. ياخد النار بيد غيْرُ.

Con la mano ajena sacar la bras ; o la castana.

أو .Con Agena mano saca la culebra del forado

113. يدان لا تقدر تقطعها قبلها.

Manos beso cada dia que ver cortadas querria.

Mano beso hombre que la guerria ver cortada

114. يعطي الله الفول لمن لا عند اضراس.

Dio Dios favas a quien no tien quijadas.

أو Dios da hilo a tela urdida

115. يتعلموا الحِجامة فروس اليتامى.

En las barbas del hombre astroso, se ensena el barbero.

116. ينبت فالجنان، ما لا يزرع الجنان.

Nace en la huerta lo que el hortelano no siembra.

117. حلَزومْ لِسْ معها أيْ تدور، تربط في ذنبها ثور.

No cabia el mur en el horado, y atose una maza al rabo.

118. على قيس كسيك، تمد رجليك.

A chica cama, é chate en medio



5. وكما استمرت الأمثال الأندلسية في إسبانيا ولم تنقرض بخروج العرب منها فقد وجدنا لها أيضا استمرارا وانتشارا في بلدان المغرب بمدلوله الكبير ومفهومه الواسع، ورأينا هذا الاستمرار وذلك الانتشار يتفاوتان كثرة وقلة وأسلوبا وصيغة بحسب قرب هذه البلدان أو بعدها من الأندلس، ومقدار تأثر كل منها بها، فهما في المغرب الأقصى أقوى منهما في الجزائر وتونس وهما في شمال المغرب أوضح منهما في جنوبه.

ويبدو من مقارنات الأمثال في النص أن قسما كبيرا جدا من الأمثال الواردة في مجموعة الزجالي ما يزال مستعملا في حواضر المغرب وبواديه، وما نحسب أننا في حاجة إلى تفسير هذه الظاهرة، ذلك أن الصلات بين العدوتين : عدوة الأندلس وعدوة المغرب، شيء معروف. وهي من كثرة صورها وتعدد جوانبها بحيث يصعب تلخيصها في سطور، وقد استمرت هذه الصلات من الفتح الإسلامي إلى نهاية الأندلس وامتزج البلدان في فترات تاريخية عديدة، وأثر كل منهما في الآخر وتأثر به، وحين خرج المسلمون من الأندلس أوى معظمهم إلى المغرب، وما تزال البيئة المغربية بمختلف نظمها وعاداتها وتقاليدها مصدرا حيا لتصور البيئة الأندلسية ومعرفتها، ولذلك فلا غرابة إذا وجدنا أمثال العامة في الأندلس ما تزال حية في المغرب.

وقد وقفنا على ما يشهد بانتشار أمثال عامة الأندلس في المغرب خلال العصرين السعدي والعلوي. وذلك بعد خروج المسلمين من الجزيرة بزمن بعيد، فقد جاء في ترجمة أبي العباس أحمد بن علي المعروف بالمنجور (ت 990هـ) ما نصه :

«وكان مولعا بأمثال العامة، خصوصا عامة الأندلس، يستحسن لغتهم ولكنتهم، ويثني عليهم وعلى بلادهم الجزيرة ويستحسنها

ويتشوف إليها[1]»، وهو نص واضح الدلالة على انتشار الأمثال العامية الأندلسية في المغرب وتمثل العامة والخاصة من أهل المغرب بها في القرن العاشر الهجري ولا سيما في الجهات المغربية التي أوى إليها الأندلسيون كفاس وغيرها، ويفهم من النص أيضا أنَّ هؤلاء الأندلسيين ظلوا محافظين على لغتهم متميزين بلكنتهم وأن لهجتهم كانت تختلف على نحو مّا عن لهجة أهل المغرب[2]. ومع ولع العلامة المنجور بأمثال عامة الأندلس فلم نقف فيما بقي من مؤلفاته ـ وهي في علوم الفقه والكلام والأصول ـ على أي مظهر لهذا الولع، ولعلنا نربط ولع المنجور بالأمثال العامية بما عرف به من إتقان للعبة الشطرنج وتلاحين العود، وذلك أن هذه الأمثال تدور كثيرا على ألسنة اللاعبين أثناء لعبهم[3]، كما أن التلاحين تستدعي حفظ الموشحات والأزجال.

والمنجور ـ الذي كان شيخ الجماعة في عصره ـ كان في هذا نسيج وحده بين علماء وقته وقد نعزو عدم تدوينه للأمثال العامية ـ على ولعه بها ـ إلى ماعرف به أهل زمنه من احتقار للاشتغال بمثل هذه المسائل، ويقال إن القاضي ابن عاصم إنما ألف كتاب الحدائق الذي يشتمل على أمثال أهل غرناطة ليكون مدعاة إلى القدح فيه وذريعة إلى إعفائه من خطة القضاء التي كان يتهرب منها[4].

1ـ سلوة الانفاس 3 : 61.

2ـ محافظة الاندلسيين الوافدين على المغرب على لهجتهم ورد فيها أكثر من نص، يقول ابن غازي في الروض الهتون : "وهنالك قرية كان يقال لها قرية الاندلس كانت من عمل بني زياد، سكنها على قديم الزمان قوم أندلسيون وتناسلوا بها وأقاموا دهرا لم تتغير ألسنتهم ولا أشكالهم إلا من كان منهم كثير الامتزاج بأهل البلد فانه تغير لسانه .. وهذه القرية ـ والله تعالى أعلم ـ هي المسماة في هذه الأعصر تلاجدوت وبها جرى المثل السائر: دار الكرامة ياتلاجدوت" الروض الهتون : 10.

3ـ انظر حكاية أبي القاسم البغدادي، وكتاب الشطرنج ومنصوباته وملحه تحقيق الأب باريخا.

4ـ تعليل شائع عند فقهائنا المتأخرين ولا يوجد في ترجمته ما يشير إلى استعفائه من القضاء.



وأما شاهدنا على استمرار الأمثال العامية الأندلسية بالمغرب في العصر العلوي فنجده في الأمثال العامية التي دونها أبو مدين الفاسي في القرن الثاني عشر وذلك في كتابه «المحكم في الحكم» إذ أن كثيرا من الأمثال التي أوردها تتفق في نصها ولفظها مع أمثال الزجالي القرطبي وابن عاصم الغرناطي.

ومع أن هذه الأمثال ألفها أندلسيون أو جمعت في الأندلس فإننا لا نستطيع القول بأنها أمثال خاصة بأهل الأندلس وحدهم، إذ أن عددا كبيرا منها من الأمثال المشتركة بين الأندلس وبلدان المغرب، كما أن فيها أمثالا مغربية انتقلت إلى الأندلس، وقد حددنا بعضها في مجموعة الزجالي، وأشرنا فيما سبق إلى أن هذه المجموعة تحتوى على أمثال مغربية لأن مدونها مكث زمنا طويلا بالمغرب.

وإذا كان الأندلسيون قد اهتموا بتدوين أمثالهم فإن المغاربة - فيما يبدو - لم يعنوا بتدوين هذا الجانب من تراثهم أو لم يصل إلينا منه ما يرقى من حيث القدم إلى عصر الزجالي أو عصر ابن عاصم.

ومن أقدم ما وقفنا عليه في هذا الباب، كتاب «زهر الأكم، في الأمثال والحكم» لليوسي، و«المحكم في الحكم» لأبي مدين الفاسي.

أما كتاب «زهر الأكم في الأمثال والحكم» فهو معجم كبير في الأمثال والحكم لم يكمله مؤلفه فيما يبدو، وتتقف أتمُّ النسخ التي وقفنا عليها عند حرف الصاد حسب الترتيب المشرقي ومؤلف هذا الكتاب هو أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي (ت 1102هـ) الذي يمثل بحق ثقافة المغرب في عصره، وشهرته تغنينا عن التعريف به. أما الأمثال الواردة في كتابه فهي الأمثال العربية المدونة في دواوين الأمثال القديمة. وقد تكون قيمة

«زهر الأكم» - في نظرنا - فيما اشتمل عليه من شواهد شعرية مشرقية ومغربية. والمنهج الذي سلكه اليوسي في تأليفه هو إيراد أمثال العرب مع التوسع في الشرح والاستشهاد، ثم ذكر شيء من أمثال المولدين والعامة أو "الأمثال الوقتية" كما أسماها، وفي آخر كل حرف يختم بابه بالأمثال الشعرية.

وقد كنا ننتظر أن يكون «زهر الأكم» محتويا على مجموعة طيبة من الأمثال المغربية في عصر اليوسي حين وجدناه يقول في مقدمة الكتاب: «ثم ذكرت بعض ما يحضر فكري من الأمثال الوقتية من غير تكلف ولا تأمل ولا مراجعة». وإذ يقول بعد هذا: «وأعلم أني ربما أذكر شيئا من أمثال المولدين ومن بعدهم أو شيئا مما يتمثل به في وقتنا من ألفاظ الحديث وغيره، ولا أقتصر على أمثال العرب، ولا على ماعدَّ مثلا بالصراحة، وإذا عثرت على ما يحسن إيراده أوردته غير مبال بقائله ولا بتصحيح السند والدراية»[1].

وبعد أن قرأنا الكتاب تبيّن لنا أن الأمثال العامية فيه قليلة، وقد كان حريا باليوسي رحمه الله - الذي تنقل في المغرب وجاب ما بين درعة وتطوان واحتك ببيئات عديدة بدوية وحضرية - أن يورد أكثر مما أورد من أمثال عامية، وكان حريا به أيضا - وهو الذي يتقن البربرية[2] - أن ينقل شيئا من أمثالها إلى العربية على نحو ما فعل العسكري في جمهرة الأمثال وغيره في إيراد الأمثال الفارسية، وما ندري فلعلنا نشتط في مطالبة الرجل بتدوين ما كان يزدريه علماء عصره، ولعلنا نتعسف حين نقيس اليوسي بمقياس العسكري والطالقاني وغيرهما من أهل القرن

---

1. زهر الأكم: 48 مخطوط الخزانة العامة رقم 191 د. وبعد الطبعة الأولى لعملنا هذا سنة 1971 قام الدكتور محمد حجي والدكتور محمد الأخضر بإخراج الموجود من زهر الأكم سنة 1981.
2. انظر كلامه عن البربرية وبلاغتها في أول فهرسته.



الرابع، ولعلنا نظلمه حين نزنه بميزان عصرنا، وأغلب الظن أن اليوسي لم يعرف صنيع الزجالي وابن عاصم وغيرهما من الذين لم يستنكفوا من تدوين الأمثال الأندلسية العامية.

ومع ذلك فلم يخل كتاب «زهر الأكم» من بعض الأمثال العامية التي كان يتمثل بها الناس في عصر اليوسي وهو يوردها دائما معربة، ونسوق فيما يلي طائفة مما استخرجناه منها :

- إذا أراد الله إهلاك النملة جعل لها أجنحة تطير بها[1].
- إذا امتلأت القِربَة ترشَّحت[2].
- إن لم تجدوا ناراً فاقْلو قَـلْية[3].
- الآن يمُدُّ أبو حنيفة رجلَه[4].
- البركات في الحركات[5].
- ياكلك الأسد ولا ياكلك الكلب[6].
- تنْتقل الجبال ولا تَنْتَقل الطِّباع[7].
- من يستطيع أن يقول للأسَدِ أنت أبْخَر الْفَم[8].
- المهَل يبلغ[9].

1ـ زهر الأكم : 133 مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 191 د.
2ـ زهر الأكم : 133 من المخطوط نفسه، والمثل في مجموعة الزجالي بلفظ : إذا امتلأ الزق يرشح. انظر المثل رقم 50 في القسم الثاني من هذه الدراسة.
3ـ زهر الأكم : 133 من المخطوط نفسه، أو هو كمثل ابن قزمان : الذي لا تطبخ اشويه.
4ـ زهر الأكم : 133 من المخطوط نفسه، وساق قصته المعروفه، والمثل شائع في المغرب.
5ـ زهر الأكم : 211 من المخطوط نفسه.
6ـ زهر الأكم : 50 مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 1001 د. انظر تخريجه في القسم الثاني رقم 196.
7ـ زهر الأكم : 102 وهو مثل معروف وما يزال مسموعا.
8ـ زهر الأكم : 128 وهو مثل معروف.
9ـ زهر الأكم : 148 وما يزال مسموعا. ولفظه عند ابن شنب رقم 11850 المهل يوصل.



ـ الراحة تنزل شيئاً فشيئاً[1].

ـ لا يجيء دَفْعَة واحدة إلا الموت[2].

ـ قطرة إلى قطرة فيسيل النهر[3].

ـ امْشِ بالنعلين حتى تجد السَّبَّاطْ[4].

ـ يبرأ الجرح السُّوء ولا يبرأ الكلام السُّوء[5].

ـ من لم يكن ذئبا أكلته الذئاب[6].

ـ اترُكْ صاحب الغاسول يسْكُت[7].

ـ يسكت صاحب الغاسول[8].

ـ اترك الحب تَنْحَب[9].

ـ الجواب ما ترى لا ما تَسْمَع[10].

ـ جزَّارُه على حِماره[11].

1ـ زهر الأكم : 148 وما يزال مسموعا.
2ـ زهر الأكم : 148 وما يزال مسموعا وانظر المثل رقم 1187.
3ـ زهر الأكم : 138 وانظر تخريجه في القسم الثاني رقم 1459.
4ـ زهر الأكم : 148 وما يزال مسموعاً في بلدان المغرب. انظر ابن شنب رقم 779 ورقم 1914.
5ـ زهر الأكم : 156 وانظر عند ابن شنب رقم 220 ورقم 567 ورقم 568.
6ـ زهر الأكم : 163 وانظره عند ابن شنب رقم 1570.
7ـ زهر الأكم : 253 وذكر في أصله الحكاية التالية : «زعموا أن شخصين اصطحبا في طريق لاحدهما حمل من حديد أو شبيه وللآخر حمل من الغاسول ـ وهو طين تغسل به الرؤوس ـ فاصابهما مطر في منزل فجعل صاحب الحديد يتوجع ويتخوف على سلعته من البلل فقال له صاحب الغاسول ما ذكر، ومعلوم أن الحديد وشبهه لا يضره البلل شيئا، وأما الغاسول المذكور فأي شيء من البلل خلص اليه يحلله ويفسده فيضر به. يقال فيمن يتوجع ويتألم أو يتشكى ويتظلم أو يتأسف ويتندم وثم من هو أجدر منه» ومايزال هذا المثل مسموعا في المغرب، ذكره الصبيحي في أمثال العجائز رقم 254 بلفظ قالوا : الحديد فزق : قالوا : مولى الغاسول غير يسكت.
8ـ زهر الأكم : 253 وهو كسابقه.
9ـ زهر الأكم : 253 وهو معروف ولا يزال مسموعا.
10ـ زهر الأكم : 326 وأصله ليعقوب المنصور الموحدي. وذكر اليوسي قصته.
11ـ زهر الأكم : 327.



- جاء يُعاونه في قبر أمه فَهَرب له بالفاس[1].

- حُل عبْستك ما أردت خُبْزتك[2].

- الحمار حِمَاري وأنا أرْكَب من ورَاء[3].

- أحْقَر من بَقَّة في حُقه[4].

- دجاجة وتَرْكَل[5].

- من رأى الجمل الأبيض ظنَّه كُلَّه شحما[6].

- اثْبتْ تَنْبت[7].

- حُبّاً وكرامة[8].

- خَالِفْ تعرف[9].

- لأذهبن فإمَّا هُلْك وإما مُلْك[10].

- رُبَّ حيلة أنْفَع من قبيلة[11].

- كل خُنْفُس عند أُمِّه غزال[12].

- سلَّه مِنْ كذا سَل الشَّعرة من العَجِين[13].

---

1. زهر الأكم : 328 ومخطوط الزركلي رقم 39، وهو معروف.
2. زهر الأكم : 394 وانظر المثل رقم 113 في القسم الثاني، قال اليوسي في تفسيره : يضرب الرجل يعجز أن يعامل الناس، بحسن خلقه فضلا عن أن يسمح بنداه
3. يعجز أن يعامل الناس، بحسن خلقه فضلا عن أن يسمح بنداه
4. زهر الأكم : 394، وما يزال مسموعا.
5. زهر الأكم : 394، وانظر المثل رقم 509 في القسم الثاني.
6. ذكره في آخر حرف الدال وقال يضرب لاستبعاد الصولة من الضعيف.
7. ذكره في آخر حرف الذال.
8. ذكره في آخر حرف الثاء.
9. ذكره في آخر حرف الحاء.
10. ذكره في آخر حرف الخاء.
11. ذكره في حرف الذال.
12. ذكره في حرف الراء.
13. ذكره في حرف الزاي بعد المثل الفصيح : زين في عين والد ولده، وراجع ص من هذه الدراسة.

ـ اسأل السائل عَنْ طيِّب اللبنْ[1].

ـ سَخَّر البخِيل يدوَّر عـلَـيْك[2].

ـ شاوروهن وخالِفوهن[3].

هذا كل ما وقفنا عليه من الأمثال المنسوبة إلى العامة في «زهر الأكم»، وهو عدد فيما نرى قليل بالنسبة إلى ما كنا ننتظره من اليوسي رحمه الله لأنه من المعتنين بأوضاع عصره ـ على خلاف المعهود من علماء وقته ـ كما يدل على ذلك كتابه : «المحاضرات»، حيث نجده في هذا الكتاب يعنى بتدوين ما يسمع من ملحون في أثناء تجواله بنواحي المغرب[4] ويقف على حلقات «المداحين» في رحبة مراكش[5] ويتنبه لبعض الظواهر اللغوية في المغرب كملحوظته حول الإمالة عند أهل «جبالة» في شمال المغرب، وقد اضطر في آخر هذه الملحوظة إلى الدفاع عن نفسه فقال : «وللتنبيه على حكاية هذه القصة، فلا يقل جاهل مالنا ولهذه اللغة فلتعرف أو لا تعرف، هذا مع أن معرفة الشيء خير من جهله فالجاهل بالشيء أعمى فيه وفي ظلمة عنه والعالم به بصير وفي نور فيه وهل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور، والعلم ذخر يجده صاحبه عاجلا أو آجلا وحجة ينتصر بها في الخطوب»[6].

---

1. ذكره في حرف السين، وهو مثل معروف. انظر رقم 890 في القسم الثاني من هذه الدراسة.
2. ذكره في حرف السين، وقال : يضربونه في المخالط الشيء المعاني له وأنه أعرف به.
3. ذكره في حرف السين، وهو معروف. أنظر القسم الثاني من هذه الدراسة رقم 1855.
4. ذكره في حرف الشين، وقال : حديث يتمثل به، أنظر ابن شنب رقم 1005.
5. انظر المحاضرات : 47، 48، 49.
6. المصدر نفسه : 68.



فإذا تجاوزنا القرن الحادي عشر - وفيه عاش اليوسي - إلى القرن الثاني عشر فسنجد تأليفا أدبيّاً يشتمل على طائفة من أمثال العامة، وهو كتاب «المحكم في الحكم» لأبي مدين[1] الفاسي المولود بفاس سنة 1112هـ والمتوفي بها سنة 1181هـ وقد كان أبو مدين الفاسي شديد العناية بالعلوم الأدبية مع المشاركة في غيرها، ولي الخطابة بالقرويين والتدريس به سنين طويلة، وكان من وجهاء عصره، وقد عرف بالمفاكهة والدعابة واستحضار النوادر القديمة والحديثة، فلا عجب إذا وجدناه يخصص في كتابه «المحكم» فصلا لأمثال العامة عنوانه :

«فصل فيما من أمثال العامة تخيرته، وعلى حروف المعجم كما رتبوها رتبته[2]».

ولكنه فصل قليل القيمة، فهو لا يشتمل إلا على 153 مثلا، وقد تبين لنا - بالمقارنة - أنها عبارة عن مختارات من أمثال ابن عاصم وأمثال الأبشيهي في المستطرف، وأبو مدين الفاسي ينقل أمثال ابن عاصم بصيغها وشواهدها، ويتصرف فيها أحيانا بإعرابها أو تغيير كلماتها الأندلسية، فمن ذلك المثل.

- حاجة بالدّرهم يهُودي يقْضِيها[3].

وروايته عند الزجالي وابن عاصم كما يلي :

- حاج بقطَاعْ يَهُودي يَقْضِيها[4].

1. ترجمة أبي مدين في نشر المثاني وسلوة الأنفاس : 1 : 323

2. توجد نسخ عديدة من المحكم، وقد رجعت إلى مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 405 ج وفصل الامثال فيه من ص 333 إلى ص 338.

3. المحكم : 334.

4. المثل رقم 805 في النص.

وإذا لم يكن أبو مدين الفاسي نقل تلك الصيغة عن بعض نسخ ابن عاصم، فإن أغلب الظن أنه غير كلمة : بقطاع، إلى كلمة : بالدرهم، التي تؤدي معناها ليفهم المثل عند القارئ المغربي[1]، ولولا أننا تتبعنا أمثاله فوجدنا نحو نصفها منقولا بشواهده من أمثال ابن عاصم ونحو نصفها الآخر منقولا من المستطرف، لقلنا في هذا المثل وشبهه أنه صيغة مغربية، ومما يؤيد كون هذه الأمثال المختارة منقولة وليست بمسموعة أنها لا تمثل شيئا من اللهجة الفاسية أو المغربية، أما الأمثال المنقولة من المستطرف فمنها على سبيل المثال :

- زاوية بلا عيْش، لِيشْ بُنيت لِيش[2].

- وقْت الشّوا واليَخْني، ما قُلْت يأخي الْحَقْنِي[3].

ومع ذلك فلم تخل هذه المجموعة من بعض الأمثال التي لم نجدها في حدائق ابن عاصم ولا في مستطرف الأبشيهي ومنها ما كان يتمثل به في فاس في عصر المؤلف أو قبله ومنها ما يزال يتمثل به، فمن ذلك هذا المثل الذي صدر به أبو مدين :

- إذا كان صاحبك سوقي، بعه بكلب أو سلوقي[4].

وهناك مجموعة أمثال مغربية قديمة نسبيا، وهي التي نسميها في النص باسم «مخطوط الزركلي» لأنها مجهولة المصنف، وقد اشتراها الأستاذ

1. على أن كلمة "قطاع" كانت مستعملة عند الفقهاء والموثقين المغاربة، وقد استعملها ابن عاشر (ت 1040هـ) في متنه المعروف قال : ثم الصلاة والزكاة في القطاع.
2. المحكم 335 والمستطرف 1 : 44.
3. المحكم 337 والمستطرف 1 : 47.
4. تمثل به أحد المترجمين في سلوة الأنفاس 1 : 322.



خير الدين الزركلي من مدينة مراكش وجعلها تحت تصرف الدكتور عبد العزيز الأهواني الذي أذن لنا ـ مشكورا ـ بنسخها والإفادة منها، يوجد بظهر الورقة الأولى منها مايلي : «كتب فيما قالوا الأولين في المثال رحمهم الله. «أي كتاب فيما قال الأولون في المثل رحمهم الله».

وفي الورقة الأخيرة منها تاريخ كتابتها واسم مصنفها، ولكن الورقة متلاشية ولم يبق من هذه الكتابة إلا ما يلي : «الحمد لله وحده، اليوم الذي كتب فيه هذا الكتاب يوم... من شهر الله تعالى...، تصنيف ...» ويبدو من كتابة مصنفها أنه مقرئ لم يكن له حظ من الطلب، ويقدر الدكتور عبد العزيز الأهواني إن هذه المخطوطة كتبت منذ أكثر من قرن على الأقل حسبما يتضح من خطها وورقها»[1].

وتشتمل هذه المجموعة على ما يقرب من أربعمائة مثل مرتبة على الحروف، وتعتبر أصيلة، وصورة صادقة لأمثال العامة في المغرب منذ مئتي عام أو أكثر في تقديرنا وما يزال معظمها مسموعا بالمغرب، وبعضها يمثل لهجة تطوان وشمال المغرب، فمن ذلك كلمة : جدد أي دجاج، واستعمالها هكذا قديم يرجع إلى القرن السابع جاء في ترجمة الفقيه عبد المومن الجاناتي المتوفَّى سنة 746هـ أنه كان أعرف الناس بالمدونة والتهذيب ولكنه لا يحسن العربية، وقد جلس مجلس أبي الحسن الصغير بعد موته فقرئ بين يديه قول المدونة أو التهذيب : «والدجاج والإوز الخ فقسم تقسيما حسنا ثم لما فرغ من أقوال الفقهاء وكأنه أعجب بنفسه قال : «انظر هل يقال الدجاج أو الجدد لأن الجدد آفصح إذ هي لغة القرآن، قال الله تعالى : «جُدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب

1ـ امثال العامة في الاندلس : 295 ـ 296، 366.

سود فضحك أهل المجلس وكانوا أزيد من أربعمائة فقيه»[1] ومما نجده في هذه الأمثال أيضاً، قلب الضاد طاء في مثل قولهم رطى : «رضى، طحك : ضحك، طرب : ضرب، واستعمال : دِ، بمعنى الذي، إلى غير ذلك من العلامات التي تميز لهجة شمال المغرب، وفي بعضها ذكر لأسماء أماكن تقع في مدينة فاس كعين علو : وزقاق الحجر، وقد نجد فيها أيضا ألفاظا تمثل لهجة مراكش مثل كلمة : مبا أي مابغى، ومهما يكن فإن أثر الأمثال الأندلسية واستمرارها واضح في هذه المجموعة، كما يبدو من تعدد ذكرها في تحقيق النص، وفيها نرى ـ على سبيل المثال ـ كيف أن مثلا أندلسيا يرجع إلى العصر الأموي في الأندلس ظل يتمثل به في المغرب حتى عهد غير بعيد، وهو قولهم :

ـ عْرَيسْ الزَّهْرَ وَحْدَ تَنسِ اخْرى[2].

فقد ذهبت مدينة الزهراء وأهلها وبقي المثل يضرب بها.

وكثيرا ما نجد الأمثال الأندلسية تتطور إلى صيغ جديدة في هذه المجموعة، فمن ذلك هذا المثل الذي رواه ابن عاصم :

ـ خليقة مُوسَى العَطَّار : مَاعك حنَّه؟ ما ع عِلَّة[3].

فقد اختصر كما جاء في المجموعة هكذا :

ـ خلوق بَّا موسى العَطَّار[4] أي أخلاق أبي موسى العطار.

1ـ درة الحجال 2 : 400.

2ـ انظر المثل رقم 1651 في النص.

3ـ رقم 339.

4ـ رقم 62 ويبدو أنهما يقالان في المرء فيه حدة واستعداد للشر.

وعند ابن عاصم :

ـ من ماعُ خبيز يُعْط باشْ يَكل[1] .

وفي المجموعة :

ـ مَنْ عَنْدُ القمح يسلف الدَّقيق[2] .

وعند ابن عاصم أيضا :

ـ من الله جيت ذا السُّفَيْنَجيت[3] .

وفي المجموعة :

ـ بحَال مَنْ يَطْرب (يضرب) الكلب بالسفَنْج[4] .

وقد يظل المثل محافظا على الصيغة الأندلسية أو ما يقاربها كما في هذا المثل الذي رواه الزجالي :

ـ واحِدْ مع عَيال، وان نَقبض خَيَالُ[5] .

فهو في المجموعة بتغيير خفيف كما يلي :

1ـ رقم 665 قال : وهذا كقول الشاعر:

والناس من يلق خيرا قائلون له ما يشتهي ولأ المخطيء الهبل

2ـ رقم 209، وهو أيضا عند ابن شنب رقم 237 وإلى المثل بصيغته عند ابن عاصم يشير ابن الخطيب اذ يقول مخاطبا سلطانه أبا الحجاج في شأن جارية اسمها زيتونة:

يا درة للمجد مكنونة حاجة مثلي منك مضمونه

ومن يجد بالخبز من حقه أن يؤدم الخبز بزيتونه

نفاضة الجراب (مخطوط).

3ـ رقم 719.

4ـ رقم 6 والاسفنج نوع من العجين يقلى بالزيت وهو معروف بالمغرب، والمفهوم من صيغة المثل الأول أنه في الرزق يساق إلى المرء أشد ما يكون اليه احتياجا فيقع من نفسه موقعا محمودا، أما المثل الثاني فما يزال مسموعا (زمامة رقم 356 وابن سودة : 144) ولهما صلة بالمثل الفارسي الذي نقله إلى العربية أبو الفضل السكري (اليتيمة 4 : 89)

ماكنت لو أكرمت استعصي لايهرب الكلب من القرص. (أي قرص الخبز)

وفي أمثال الجزائر : الكلب ما يهرب من الكسرة. ابن شنب رقم 1553.

5ـ رقم 1947.

- سِدِي مع اعْيَلُ، ونَا نَرْعَ اخْيَال[1].

وفي أمثال ابن عاصم :

- هَشُوش ما يَقْضِي خَصْلَه[2].

وهو في المجموعة :

- مزهرِ ما يَقْطِي خَسْلَ[3].

وعند ابن عاصم أيضا :

- بَشْ لَكْ ؟ قَلْ بِكُل شِي[4].

وفي المجموعة :

- بَشْلَك ؟ قَلْ : بالكُل[5].

وعند الزجالي :

- بَحَلْ طُفَيْلي، ياكُلْ ويِعَبِّي[6].

وفي المجموعة :

- جُع قُبِّي، يَكُل ويِعَبِ.

وفيها أيضا :

لَمَنْ (لاَ من) شطاط عزيزَ ولا من قصر بِنْتها[7].

1ـ رقم 333.
2ـ رقم 774.
3ـ رقم 252.
4ـ رقم 331.
5ـ رقم 23. ومايزال مسموعا بلفظ : بشلتك؟ قالو بالكل كلتك. وأصله كلام يقال في نوع من اللعب.
6ـ رقم 657.
7ـ مخطوط الزكلي، المثل رقم 161.

وعند ابن عاصم :

ـ لا بِشَطَاط عَزيزا ولا بقِصَر ابنتها[1].

ونكتفي بهذا القدر لأننا ذكرنا كثيرا من أمثال هذه المجموعة في مواضعها من النص.

وفي القرن الماضي ألف الأديب الكاتب الغالي بن سليمان كتابا في أمثال العامة، ولكننا لم نقف عليه، وقد ورد ذكره في (فواصل الجمان، في أنباء وزراء وكتاب الزمان)[2]. ثم دونت في عصرنا مجموعات عديدة في الأمثال المغربية، طبع بعضها، وما يزال بعضها الآخر مخطوطا، وقد انتفعنا بمعظمها في المقارنة، وعثرنا فيها على كثير من أمثال الزجالي وابن عاصم التي ما تزال حيّة إلى اليوم.

وما قلناه عن أثر الأمثال الأندلسية في الأمثال المغربية يصدق على أمثال الحواضر الجزائرية التي كان بعضها من تأسيس الأندلسيين كمدينة وهران، فقد بناها الأندلسيون البحريون الذين كانوا ينتجعونها في أواخر القرن الثالث[3]، كما هاجر إلى الجزائر جم غفير من أهل شرق الأندلس بعد سقوط مدنهم في القرن السابع، فاستقروا ببجاية التي كانت تابعة يومئذ للحفصيين، وأوى آخرون منهم إلى تلمسان، وبعد سقوط غرناطة، ثم بعد إخراج الموركسيين من إسبانيا دخلتها أفواج أخرى، وقد وجدنا أثر الأمثال الأندلسية واضحا وقويا في الأمثال الجزائرية والمغربية التي جمعها ابن شنب في مطلع القرن، وهي مذكورة في مواضعها من النص.

1ـ المثل رقم 812.
2ـ فواصل الجمان : 207.
3ـ المغرب للبكري : 70.



وربما كانت تونس تأتي في المرتبة الثانية بعد المغرب من حيث تأثرها قديما بالأندلس ولا سيما في عهد الحفصيين الذين اعتمدوا في إدارة دولتهم على كثير من الأندلسيين، وقد أشار ابن خلدون ـ وهو أندلسي الأصل ـ في مواضع عديدة من مقدمته[1] إلى هجرة أهل شرق الأندلس إلى تونس، ورد معظم آثار الحضارة والعمران بها إليهم، وقبله تكلم في هذا الموضوع ابن غالب وابن سعيد[2]، ولسنا بصدد تحليل مظاهر التأثير الأندلسي في بلدان المغرب، وإنما نلتمس تعليلا لما نجده من بقايا الأمثال الأندلسية فيها، ومما يلفت النظر أننا نجد بعض هذه الأمثال في تونس ولا نجدها في المغرب والجزائر، وقد يكون هذا راجعا إلى اختلاف المهاجرين الأندلسيين، فمن ذلك :

ـ كُل فُول لاهي في نَـوَّارُه[3].

ـ كَلْب الوَرْد لا يشَم ولا يخَلِّي من يشم[4].

ـ ما ثَمَاشّ قَـطُّوسْ يَصْطَاد لِربِّي[5].

ـ عَزوزة ما يهمها قَرْصْ[6].

ـ لعب سيدي محَمَّد مع عياله[7].

ـ واحِد مصرانه في يده والآخر يقول له : هاتِ شوية للقطوسة[8].

---

1. المقدمة : 352، 536، 562 (المطبعة الأميرية).
2. نفح الطيب 4 : 147 ـ 149.
3. المثل رقم 272 في النص .
4. المثل رقم 1125 في النص.
5. المثل رقم 1168 في النص.
6. المثل رقم 1169 في النص.
7. المثل رقم 1237 في النص.
8. رقم 792 في أمثال ابن عاصم ورقم 2264 عند الحنفي.

أما الأمثال المشتركة منها بين بلدان المغرب فهي كثيرة، وقد ذكرنا معظمها في النص.

وهناك نظائر عديدة للأمثال الأندلسية في أمثال المشرق العربي سواء في المجموعات القديمة أو في المجموعات الحديثة وحين نقارن بين أمثال الزجالي وأمثال شرف بن أسد المصري المجموعة في القرن السابع نجد أن نسبة الأمثال المتشابهة أو المشتركة بينهما كبيرة، في حين أن هذه النسبة تقل في الأمثال التي دونها الأبشيهي بنحو قرن بعد ابن أسد.

وقد نجد بعض أمثال الزجالي بلفظها في الأمثال المشرقية الحديثة وذلك كالمثل :

ـ الصَّلاة خَيْر من النوم ! قال : جرَّبن ذَا وذَا[1]

وهو بلفظه في أمثال مصر والشام وكالأمثال :

ـ مَنْ شرب بالدِّين، سكر مَرَّتين[2].

حمَّاسْ (حمص) الطَّبَّايخ[3].

ـ الكبار ولو كانَت حصَارم[4].

فهي هكذا تقريبا في أمثال العراق إلا أن الغالب في النظائر المشرقية أن تكون بألفاظ وتراكيب مغايرة إلى حد ما، من ذلك على سبيل المثال :

1ـ المثل رقم 372 في النص.
2ـ المثل رقم 1473 في النص، وعند الحنفي رقم 2761 : اليشرب العرك بالدين، يسكر مرتين.
3ـ المثل رقم 827 في النص، وعند الحنفي رقم 699 : حمص الطبايخ.
4ـ المثل رقم 151 في النص، وعند الحنفي رقم 1025 : شهوة العجوز حموص.

- الحُبْلى مَا تَلْعَب الرَّكل[1].

وصيغته في الأمثال المصرية :

- البهيمة العِشْرَ ما تناطَحْش،

ومثال ذلك أيضا :

- من لاَ يمُور ماعَكْ مُرْ مَاعُ[2].

وهو في أمثال الشام :

- اللِّي ما بِيجِي معك تَعَا معُه

وهذه طائفة من الأمثال الأندلسية مع ما يقابلها في الأمثال العراقية الحديثة على سبيل المثال لا الحصر :

- حديث الحَيش مَالُ آخر (الزجالي رقم 804).

- سَالفةَ الحيَّة مَتَخْلَص[3] (الحنفي رقم 915).

- شمس الله اكثر من شقاق القصَّارين (ابن عاصم رقم 456).

- الشمس مَتْروحْ من ايد الصَّبَّاغ (الحنفي رقم 1007).

- نكونوا نَفسْين، نصيروا صَفَّين (الزجالي رقم 1564).

- السرَّ بين اثنين، يصير بين ألفين (الحنفي رقم 913).

- حَمَّاس (حمص) الطَّبايخ[4].

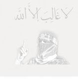
- الكبار ولو كانت حصارم.

1ـ المثل رقم 371 في النص.
2ـ المثل رقم 1256 في النص.
3ـ الحنفي رقم 915 والسالفة : القصة والحكاية والحديث من الفعل سولف أي تحدث بأخبار السلف. ويبدو أن للمثلين صلة بالمثل العربي : أكذب من حية الاوائل. العسكري : 52.
4ـ الحنفي رقم 915، والسالفة : القصة والحكاية الخ.



ونحن نفترض أن تكون هذه الأمثال المتشابهة منحدرة جميعا من أصول مشتركة كانت شائعة في الأمصار العربية منذ عهود الخلافة العباسية، ولكننا أيضا نعتبر أمثال مجموعة الزجالي من المجموعات القديمة أصولا حين لا نجد ما هو أقدم منها.





ملامح المجتمع من خلال الأمثال*

* اخترت المجتمع الأندلسي مثالا وأرى أنه لا توجد فوارق كبيرة بينه وبين المجتمع المغربي ولا سيما في عهود المرابطين والموحدين والمرينيين وهي عهود الوحدة بين الأندلس والمغرب وعلى سبيل المثال يقول بروفنسال :«إن احتفالات الزواج التي تسبق العرس أو تصاحبه أو تليه في المغرب هي نفسها التي كانت تجري بالأندلس في القرن الرابع الهجري» تاريخ إسبانيا المسلمة 3 : 403.



تمهيد :

سنحاول في هذا الفصل أن ندرس بعض الجوانب من الحياة الاجتماعية كما تتراءى من خلال الأمثال، وذلك بالقدر الذي تسمح به نصوص هذه الأمثال، ويتيحه فهمنا لها، ولعل من المسلم به أن الأمثال تكون مصدرا لا يستهان به في دراسة المجتمع، شأنها في هذا شأن فنون القول جميعها، بل قد تكون الأمثال ـ كوثيقة اجتماعية ـ أقرب إلى الصدق وأدنى إلى الأصالة من غيرها في تمثيل روح المجتمع وتصوير طبيعته العامة لأنها نابعة من الشعب ومعبرة عن آرائه وتجاربه واتجاهاته، بيد أن الإفادة من الأمثال في دراسة المجتمع قد تكون محدودة أو ضيقة لأنها بحكم تركيبها الموجز المركز تكتفي باللمحة السريعة والإشارة الخفيفة، مما يستدعي من الباحث دقة في التحليل وإعادة في النظر، إذا رام أن يستخرج منها شيئا، على أن المشكلة الكبرى بالنسبة للأمثال التي أصبحت في ذمة التاريخ هي التي عبر عنها الدكتور عبد العزيز الأهواني إذ يقول : «ولعل الصعوبة الحقة التي يلقاها الباحث الحديث في دراسته لأمثال قديمة هو أنه لا يستطيع أن يلم بالظروف التي تحيط بضرب المثل، ولا يستطيع أن يطمئن تماما إلى إدراكه لوقع المثل في نفوس المتمثلين من أهله[1]» ولهذا فلن تتيسّر الإفادة من هذه الأمثال على وجهها الصحيح إلا حينما تفهم حق الفهم، وتصنف على أساس ذلك تصنيفاً موضوعيا دقيقا، ومن هنا فإن عملنا في هذا الفصل ليس سوى محاولة تمهيدية في الموضوع، وربما كان فيها شيء من الاجتهاد الخاص في الفهم والاستنتاج، وقد اعتبرنا أمثال الزجالي ثم أمثال ابن عاصم صالحة لتصوير المجتمع الأندلسي في مختلف عصوره إذ كانت

1ـ أمثال العامة في الأندلس : 250 (في كتاب : إلى طه حسين).

لا تنتمي إلى عصر معين وعارضناها أحيانا بما يقابلها من نصوص تاريخية أو أدبية، ولم نشأ أن نتوسع في ذلك[1] لأن المقصود هنا هو محاولة رسم ملامح عامة للمجتمع الأندلسي من خلال الأمثال.

عناصر السكان :

العـرب :

كان العرب يمثلون في مجموعهم صفوة المجتمع الأندلسي وطبقته الحاكمة، وكان منهم قيسيون ويمنيون وشاميون وبلديون، وقد ذكرت كتب التاريخ ما كان ينشب أحيانا من خلاف بين هؤلاء وأولئك أو بينهم وبين العناصر الأخرى في الأندلس، أما الأمثال فلا نجد فيما وصل إلينا منها ذكرا للعرب إلا في مثل واحد، وهو :

عَرَب البِطَاحْ : يغْرَمُ الجَزْيَ لليهود (رقم 1692).

ويبدو أن فيه تلميحا إلى ما كان يحدث أحيانا بين القيسيين واليمنيين أو بين سكان الجبال والحصون وبين سكان البطاح والبسائط من مثل ما يذكره ابن حيان إذ يقول : «وكان ابتداء فتنة أهل الجزيرة وانبعاثها بالعصبية بين اليمانية والمضرية فأطلق بعضهم على بعض الغارات، واستحلوا الحرمات، وتخلقوا أخلاق الجاهلية، واتخذوا الحصون والمعاقل المنيعة فارتقوا إليها وأذلوا البسائط»[2].

---

1. توسعنا في هذا في كتاب نحضره بعنوان : «الأندلسيون من خلال أدبهم».
2. المقتبس 3 : 52 وراجع ما كتبناه في شرح المثل في القسم الثاني ص 387.



البربر وأهل العدوة :

لم تخل الأندلس من صراع بين العناصر المتساكنة فيها، ومنه ذلك الصراع التقليدي بين الأندلسيين والبربر، وكان يبدو في ظروف عديدة وصور مختلفة، ولعل أشهر مثال له فتنة قرطبة المعروفة التي وصفها بعضهم بأنها «الفتنة العظيمة الطويلة التي يسميها أهل الأندلس بالفتنة البربرية ولو سموها بفتنة ابن عبد الجبار لكان الأحق والأولى[1]» ؛ وقد كشفت هذه الفتنة عن أحقاد كريهة بين الفريقين، ولم يكن الصراع بين الأندلسيين وبين بربر الأندلس فحسب وإنما كان أيضا بينهم وبين أهل العدوة عموما واعتبره المؤرخون شيئا طبيعيا في الفريقين، فابن الخطيب يستعمل عبارة" النفرة الطبيعية بين الأندلسيين والمغاربة[2]» وما يشبهها، والحجاري يقول : «وأهل العدوة بالطبع يكرهون أهل الأندلس[3]» ويقول ابن رشد في تلخيص الخطابة (312) : «وأما البغضة والعداوة فإنها تكون للجنس فإنا نبغض البربر ويبغضوننا» ونقل المقري عن بعض المؤرخين الأندلسيين مايلي : «ولما كان البربر بالقرب منهم، وليس بينهم سوى تعدية البحر، ويرد عليهم منهم طوائف منحرفة الطباع، خارجة عن الأوضاع، ازدادوا منهم نفورا، وأكثر تحذرهم من نسب أو مجاورة، حتى ثبت ذلك في طبائعهم، وصار بعضه مركبا في غرائزهم، فلما علم البربر عداوة أهل الأندلس وبغضهم لهم أبغضوهم وحسدوهم، فلم تجد أندلسيا إلا مبغضا بربريا وبالعكس[4]».

1ـ البيان المغرب 3 : 76.
2ـ أعمال الاعلام 227.
3ـ نفح الطيب 6 : 12.
4ـ المصدر السابق : 1 : 228.



ولسنا بصدد نقد هذه الآراء، وإنما استشهدنا بها لما لها من دلالة في الموضوع، وكان من مظاهر الصراع بين الفريقين أيضا تلك المفاخرات التي كان من آثارها رسالة الشقندي، ورسالة ابي يحيى بن المعلم الطنجي، ورسالة المفاخرة بين مالقة وسلا لابن الخطيب، وكتاب مفاخر البربر، وطرفة الظريف، في أهل الجزيرة وطريف لعبد العزيز الملزوزي(؟) وغيرها.

وقد سلك الأندلسيون في هذه المفاخرات مسلكا فيه كثير من التحامل ومجانبة الإنصاف، وحملهم التعصب أن صوروا المغرب محروما من كل نعمة - مادية كانت أو معنوية - ومن أمثلة ذلك مارواه المقري عن بعضهم - وهو يتحدث عن فضائل الأندلس وأهلها - إذ يقول: «وتين بلش هو الذي قيل فيه لبربري: كيف رأيته؟ قال لا تسألني، وصبّه في حلقي بالقفة وهو لعمري معذور لأنه نعمة حرمت بلاده منها[1]» ويخاطب الشقندي - وهو يتحدث عن ابن دراج - مفاخره المغربي ابن المعلم فيقول: «وهب أنه كان يكون لكم مثله - فما تصنع الكيسة في البيت الفارغ -[2] هكذا ضرب الشقندي المثل ونسي ان ابن دراج من أرومة مغربية ولهذا افتخر به مؤلف «مفاخر البربر[3]».

وقد وردت أمثال فيها ذكر للبربر والبربرى، ويبدو أن استعمال الأندلسي للكلمتين لم يكن يخلو من معنى التحقير، ويشهد لذلك ما ذكره بعض المؤرخين من أن نكبة ابن رشد كانت بسبب قوله في بعض مؤلفاته:

1- نفح الطيب 4 : 205 - 206. وهذا غير صحيح فالتين بمختلف أنواعه يوجد بكثرة في المغرب.
2- المصدر نفسه I : 179 وانظر المثل : اشتعمل الكيسة فالبيت الفارغ، في القسم الثاني من هذا الكتاب ص : 53.
3- توسعنا في هذا الموضوع في كتاب نحضره بعنوان :«الأندلسيون من خلال أدبهم» وكذلك في مقدمة تحقيقنا لرسالة :«طرفة الطريف، في أهل الجزيرة وطريف» المنشور بالعدد الأول من مجلة كلية الآداب بالرباط.



«وقد رأيتها عند ملك البربر[1]» ولما داعب الأمير الأموي عبد الله بن محمد وزيره سليمان بن وانسوس وخاطبه بقوله على سبيل المداعبة : «اجلس يابربيبري» غضب وأجابه بكلمات تدل على إبائه وعزة نفسه، ونهض إلى منزله من غير أن يسلم، ولزم داره، فما زال به الأمير يترضاه ويرسل إليه حتى قبل ورجع إلى أفضل مما كان عليه[2]. ومن ذلك أيضا ما وقع بين الزجالي الأصمعي والوزير الأسكندراني فقد أنشد هذا في مناسبة قول امرئ القيس :

بَريدُ السُّرى بالليل من خيل بَرْبَرا

ففهم الزجالي أنه عرض بأنه من البربر، فقلق لذلك واعتبره قذفا وجازى الوزير تعريضا بتعريض، ورفعت القضية إلى الحاجب[3]، وحين تجادل الشقندي وابن المعلم الطنجي في التفضيل بين العدوتين في مجلس أمير من الموحدين قال الشقندي : «لولا الأندلس لم يذكر بر العدوة ولا سارت عنه فضيلة، ولولا التوقير للمجلس لقلت ما تعلم، فقال الأمير : أتريد أن تقول كون أهل برنا عربا وأهل بركم بربر، فقال : حاش الله فقال الأمير : والله ما أردت غير هذا، فظهر في وجهه أنه أراد ذلك[4]» أما كلمة بربر إذا استعملها مغربي وجاءت في معرض الفخر فلا اعتراض عليها فيما يبدو، وذلك كقول ابن حبوس الفاسي في ذم الوزير ابن عطية لما نكبه الموحدون :

أَنْدلسيٌّ ليس من بربر   يختلس المُلك من البربر
لا تُسلم البربر ما شَيَّدت   بالملك القيسي من مفْخَرِ[5]

---

1. المعجب : 384.
2. جذوة المقتبس : 210.
3. نفح الطيب : 5 : 82.
4. نفح الطيب : 4 : 177.
5. زاد المسافر : 3 ـ 4.



وأما أمثالهم في البربر فمنها قولهم :

- البربري والفار لا تعلمهم باب الدار (رقم 175).

ورواه ابن عاصم كما يلي :

- الغازي والفار، لا تعلمهم باب الدار (رقم 176).

والمعنى واحد لأن الغازي في اصطلاح أهل غرناطة هو الجندي البربري، وقالوا أيضا :

- عطي للبربري شبر، طلب ذراع (1644).

ثم زادوا فيه فقالوا :

- عطي للبربري شبر، طلب ذراع. عطيه ذراع، طلب مْرِيَ فاش يَتْمَتَّاعْ. (ابن عاصم رقم 524).

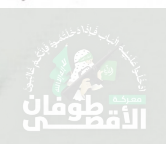
وهي تعبر عن ضيق الأندلسيين بالبربر ومطالبهم، وأغلب الظن أنها قيلت في أولئك الذين كانوا يفدون عليهم برسم الغزو والجهاد أو في سلك الجند. وقد وصلت إلينا بعض الرسائل التي كان يكتبها الأندلسيون في الشكوى من هؤلاء[1]. ومن أمثالهم في هذا المعنى قولهم :

بحَالْ غَازِي : لاَ يُنْكِرَكْ ولا يعْطِيك (ابن عاصم رقم 269).

ومعناه - فيما نفهم - أن الغازي (البربري) إذا استدان وطولب بأداء الدين فإنه لاينكر أن عليه دينا ولكنه في الوقت نفسه لا يؤديه[2]. ومما قالوه في

---

1. رسائل البلوي (مخطوط الخزانة الملكية بالرباط)..
2. مايزال المثل المذكور مسموعا في فاس يالصيغة التالية : مديان زواغة : ما ينكر ما يخلص، ابن سودة : 464 وزواغة : بسيط يقع بين فاس وبين صفرو وجبل كندر.



نقد هؤلاء وتهاونهم في الحراسة والدفاع :

بِيدْمَ اتَّمّق حُسَى الرَّامي أُخِذَ الحِصْن (ابن عاصم رقم 314).

وحسى : صيغة بربرية في حسين، وما تزال شائعة في المغرب، ومعناه أنه لم يكد حسين الرامي يلبس اتماقه (أخفافه) ويأخذ عدته، حتى كان الحصن قد أخذه العدو[1].

كما سخروا من جيش غمارة وقلة عدده فقالوا :

بَحَلْ مَيْز غُمار نَفْسَيْ في كُدْيَة (ابن عاصم رقم 282).

والميز : التمييز والعرض، والمعنى فيما نرى : مثل تمييز غمارة شخصان على ربوة ولعل فيه صدى لموقف غمارة في أواخر الخلافة المروانية وأيام الحجابة العامرية، وقالوا فيما كان يجلب إليهم من صادرات المغرب.

كل ما يجي من الغَرب مَلِيحْ، إلاَّ ابن آدَمْ والرِّيح (رقم 1082).

فقُّوس البربر : خَشِنْ حُلو (رقم 1864).

... ولا فَرْس إلاَّ مكْلاَتي (رقم 1985)،

وفي بعض الأمثال يوصف أهل دكالة بشهادة الزور وأهل سلا بالحمق :

شاهِدْ دُكَّالَة : من قاع المطمورة (رقم 1889).

1ـ في هذه الأمثال الغرناطية في الغزاة انتقاد مشوب بنكران الجميل ونجد شيئا منه في قصيدة أبي عمرو ابن المرابط التي رد عليها كل من عبد العزيز الملزوزي شاعر السلطان يعقوب بن عبد الحق، ومالك ابن المرحل. انظر : العبر 7 : 409.



إذا ريت هَـلاوي، ادْر أنه سَـلاَوي (رقم 120).

وبالنسبة للمثل الأخير فإن ثمة شواهد تدل على نفرة خاصة بين أهل سلا والأندلسيين كما يبدو من رسالة لأبي المطرف ابن عميرة المخزومي وبعض نثر ابن الخطيب وشعره ومنه قطعة يقول فيها :

مَن طَلَبَ الود من سلاوي　　آنشاه الله مـن مساوي

ويصفهم بما جاء في المثل فيقول :

حمقى فما شئت من دماغ　　قد عدم المخ فهو خاوي[1]

ويقول أيضا مخاطبا ابن رضوان صاحب الإنشاء وقد نزل عنده بفاس :

ومُقَامي نَزْرٌ وأصرِف وجْهي　　لسَلاَ حَيْثُ مَعْدَنُ الحُمَقَاءِ

وسخروا في بعض أمثالهم من الفحامين والبائتين الذين يعسون بالليل لحراسة الدروب وأشباههم فقالوا :

أتْيس من عَبُّو البَائت الذي بَاع الجَـلاَّبية واشْـتَرى المقْرَع (رقم 491).

اتيس من توقُوتِ البائت الذي اكسر ضَرسُ بَش يَـنْطَـبَعْ لوْ التَّصفير (رقم 492).

أتْـيَسْ من عَبُّو الفَحَّام الذي كان ينَجَّم الفَـحْم بالوَرْد[2] (493).

أدب حَمُّو يدِّن فَـالحَـبص ويصَـفَّرْ فالجامَعْ (رقم 234).

1ـ نفاضة الجراب : 362 وانظر رسالة ابن عميرة في كتابنا عنه.
2ـ يقارن بالمثل المصري : زبال : وفي ايده وردة تيمور رقم 1338.



ونعتبرها مما قيل في البربر لأن الأسماء بربرية ولأن خدمة الفحم وحراسة الدروب مما عرف به البربر في الأندلس[1] وقد عدد بعض المؤرخين الحرف التي كان يشتغل بها البربر في الأندلس، وكلها راجعة إلى الفلاحة وما يتصل بها[2]، وحين صدر أمان ابن عبد الجبار للبربر خلال فتنة قرطبة «ركب البكري وهو أحد الوزراء فدار قرطبة وأرباضها يقول للناس قد عفا أمير المؤمنين عن البربر على أن يرجعوا إلى بلادهم فيصيروا حراثين كما كانوا»[3] وإذا صح أن المثل الآتي :

لولا دكال ما خدمت البال (رقم 1245).

مثل أندلسي فقد يفيد أن بعض فعلة الفلاحة أو البناء في الأندلس كانوا من أهل المغرب .

وقد وصل إلينا بعض ما تمثل به الأندلسيون في أثناء حكم المرابطين كقولهم :

طَالِعْ هَابِط، بْحَل عِمَامَ في رَاسْ مُرَابِطْ (رقم 1062).

ومن الواضح أنهم كانوا يقولونه على سبيل السخرية من العمائم وأصحاب العمائم من البربر والمرابطين، وقد أشرنا في شرح المثل إلى تعريض المعتمد بن عباد بالمعتصم بن صمادح حين تزيى بحمل العمامة تزلفا للمرابطين، وذكر الحجاري أن المعتمد ابن عباد اغرق جارية مغنية أهداها إليه يوسف بن تاشفين لأنها غنت أبياتا منها :

1ـ كتاب ذكر بعض مشاهير أعيان فاس في القديم. نشره الأستاذ عبد القادر زمامة بمجلة البحث العلمي العدد 3 من السنة 1 ص : 55 ثم نشرته دار المنصور بالرباط وفي آخر هذا الجزء نبذة منه.
2ـ المصدر نفسه.
3ـ البيان المغرب 3 : 82.



حمَلوا قُلوب الآسد بين ضلوعهم   ولَوَوْا عَمائِمَهُمْ على الأقمار

إذ ظن أنها تعرض له بالمرابطين[1]، وقد كان لباس العمائم في الأندلس زيا خاصا بالبربر على العموم، وحين أوعز عبد الرحمان بن أبي عامر إلى رجال دولته بطرح «فلانسهم الطوال المرقشة الملونة والانتقال عنها إلى العمائم اضطر الأندلسيون إلى الاستعانة بجيرانهم من البربر» وعُدَّ الأمر فضيحة، وتأول الناس في ذلك أراجيف شتى صدقها ظهور أصحاب العمائم البرابرة بعد مدة قريبة[2]» وهم يكنون بالقلانس عن الأندلسيين وبالعمائم عن البربر كما في قول ابن شهيد :

ولا غرو من ترك القَلانس جانبا   إذا عَرفَت حقّي هُنَاك العمائم[3]

وقوله :

نرمي قلانسنا له   ونجر من عذب العمائم[4]

وقد وصف ابن سعيد زي أهل الأندلس في القرن السابع، فذكر أن الغالب عليهم ترك العمائم[5]، وبما ذكرناه يتبين معنى الذم في المثل، ولم يرد في مدح البربر إلا مثل واحد وهو قولهم :

لا حُرّ إلاَّ زَنَاتِي ولا فرَس إلاَّ مَكْلاَتي (رقم 1985).

1ـ نفح الطيب 6 : 12.
2ـ البيان المغرب 3 : 48.
3ـ ديوان ابن شهيد : 154.
4ـ ديوان ابن شهيد 156.
5ـ نفح الطيب : 207 ويفهم من بعض النصوص أن العمائم كانت لباس القضاة والفقهاء في الأندلس، وفي نصوص أخرى أن فئة من الفقهاء كانت تقلس أي تلبس القلانس، ونقرأ في آخر زجل لابن قزمان مايلي (زجل رقم 38) : ماقلسن فقيه وما عمم وزير. ويصف في زجل اخر (رقم 87) ضربا من العمائم عرف بها أفراد قبيلة بني زروال في الأندلس، ويفهم من بيتين لابن الخطيب في وصف عمامة أن العمامة الحضرية التي ظلت معروفة في بعض حواضر المغرب إلى عهد قريب كانت معروفة أيضا في غرناطة.

وقد اشتهر الزناتيون في الأندلس بالفروسية، وكانت لهم فيها طريقة خاصة أخذها عنهم الإسبان، وتستعمل كلمة Jinete أي زناتي بمعنى فارس في اللغة الإسبانية، كما أشار ابن دراج إلى شجاعة زناتة إذ يقول :

بِكُل زَنَاتي كَان حُسَامه ُ وهَامَة مَن لاقَاه نَار وقربْان[1]

المُولّدون والعَجَم :

شهدت الأندلس خلال القرن الثالث الهجري فتنا عديدة قام بها المولدون ومن شايعهم من المسالمة ونصاري الذمة[2]، وكان من أشهرهم عمر بن حفصون الذي دامت فتنته أزيد من سبعين سنة[3]، وكان محور الحركة التي يسميها ابن حيان «دعوة المولدين» تارة و«عصبية المولدين على العرب»[4] تارة أخرى، وقد أثارت هذه العصبية نقائض شعرية بين شعراء العرب وشعراء المولدين[5]، كما ضربت الأمثال ببعض أشخاصها وحوادثها، ومن هذه الأمثال ما أشار إليه المؤرخون كالمثلين اللذين قيلا في إسحاق ومشطار من أصحاب ابن حفصون[6]، ولدينا طائفة من الأمثال تحملنا بعض القرائن على الظن بأنها مما قيل في هذه الحقبة، فمن ذلك المثل :

حِصْنِـي، ولا من يَقِسْني (رقم 841).

1ـ ديوان ابن دراج : 57.
2ـ المقتبس 3 : 51.
3ـ أعمال الاعلام : 30.
4ـ المقتبس 3 : 15: 16: 24.
5ـ المقتبس : 3 : 63 : 85.
6ـ تقدمت الإشارة إليهما.



إذ يبدو أنه كان بمثابة شعار لعمر بن حفصون وأضرابه من الثائرين الممتنعين بحصونهم يومئذ، وكان عددها كبيرا، فقد تمكن عبد الرحمن الناصر في غزوة واحدة من فتح ما يقارب الثلاثمائة منها، ويشير ابن عبد ربه إلى بعض هذا حيث يقول :

فِي غَزْوَة مائَتا حصْن ظَفِرتَ بها   في كُلِّ حِصْن غَزَاةٌ للعنَاجِيج

مَا كَـان مُلْـكُ سُلَيْمَان ليُدْرِكَه   والمُبْتَني سَدَّ يَاجُوج وما جُوج[1]

ومن أمثالهم التي لها طابع الهجاء قولهم :

عَزْبت مَارُ، حكَّت بَيْض الحِمَار حَتَّى احْمَارُ (رقم 1706).

و«مَار» يبدو أن المقصود به حصن «المار»[2] الذي نجد له ذكرا في أخبار الخلاف بين العرب والمولدين في أيام الأمير عبد الله من الأمويين، يقول ابن حيان في خبر سوار بن حمدون المحاربي القيسي زعيم العرب في كورة إلبيرة : «ثم دار سوار فيمن معه على حصون المسالمة والنصارى يفتتحها حصنا حصنا ويقتل من يظفر به منهم فيها، ويغنم أموالهم حتى استباح حصن «المار» منها واستأصل جميع أهله فقطع التوارث بينهم لانقطاع نسلهم[3]» ونخال أن ثمة صلة بين الخبر والمثل وكما سخروا من نساء «مار» سخروا أيضا من نساء «لك» فقالوا :

عَزْبَت لك، رَتْ بَيْض الرَّجل وقَالت اشْ ذَاك الحَب المُلُوك (رقم 1711).

---

1. أخبار الناصر : 38.
2. قد تكون كلمة «مار» محرفة عن «فار» أي «جبل فارو» وهو حي كان ومايزال من الأحياء الشعبية في مالقة.
3. المقتبس 3 : 55.



وربما قيل في حصن «لك» من حصون سعيد بن وليد بن مستنة[1] الذي يقول فيه ابن حيان : «صاحب عمر بن حفصون وتاليه في التمرد واللعنة والمولدة[2]»، ومن ذلك أيضا فيما نفترض تلك الأمثال التي وردت في هجاء بعض المدن والأماكن كقولهم :

ذُكَرت الـمُدُن، قَامت اسجَـه تَمْجُن (رقم 963).

ذُكَرت الـمُدُون، قَـامَت اللُّـقُون، ابن عاصم (رقم 408).

بَـارِدَ، بْحَل خَـبَرْ مَـارِد، (576).

سَمِعْن بقاشتْـرُ وسَلَـخْـتَها للرَّقَبة وتخَلّيها (رقم 1848).

قِسْمَـة حَنَـشْ : النَّص لَكْ، والنَّص بيْنِي وبيْـنَك (رقم 1801).

وكل هذه الأماكن ذكرت في حوادث المولدين وكانت مما يدخل في حوزتهم[3]، وقد ورد مثلان في هجاء «شيوخ بجانة»[4] ولعل للمثلين صلة بأصحاب بجانة «البحريين» الذين كانوا يعتدون على جيرانهم من العرب الغسانيين[5]، وقد ذكرنا في شرح المثلين :

الكَرْكُرْ، والعَـيْـش الـمر (رقم 218).

ولا صَيْـح من لُـبِّ (رقم 1903)

أنه قد يكون لهما تعلق ما بوقعة كركر وبني قسي، وقد سخروا من كنائس العجم في القرى وصوروا نواقيسها فقالوا :

---

1. المصدر السابق : 3 : 143.
2. المصدر السابق : 3 :27.
3. المصدر نفسه : 15، 96، 116.
4. انظر رقم 1880 في النص.
5. المقتبس : 3 : 87.



أفقر من ناقوص طبلَشْ الذي كانْ من قـرع ولسانُ من كلخ (رقم 486).

ومن هذا القبيل قولهم :

عجينَـةْ (أو عجمية) مرتِـينْ : أخذ الجُوعْ أكله (ابن عاصم رقم 511).

بيدمْ تَمْتَدْ مَرِيَ يرقُـد جُوانْ (ابن عاصم رقم 316).

من هو برناط في جَنَـوا (ابن عاصم رقم 669).

وقد ترك الصراع بين الإسلام والمسيحية أثره في الأمثال، فمن ذلك قولهم :

أخّـاذ مَوخُـوذ، والهاربْ لا يَـفُـوتْ (رقم 335) و Voc ص 228.

وإلى هذا يشير ابن عميرة في قوله في أبيات :

أخذٌ وتركٌ لا تأمّل فيهما   للحال في المتروك والمأخوذ

ويتصل بهذا قولهم : كل محْصُور موخُـوذْ (رقم 1102).

فهذا المثل القاعدة، أشبه ما يكون بالحياة الأندلسية وماعرفته مدنها من ضروب الحصار والاستسلام وإن كنا نجده عند ابن نباتة المصري في معرض الغزل إذ يقول :

قالتْ إشَـارةَ فاتِـكٍ لمُـروَّعٍ   قُـلْ لـي لِمَـن يستنجِد المنبـوذُ[1]

ما أنت إلا في الحصار معي فلا   تـتـعـب "فكـل مُحاصَـرٍ مأخـوذُ"

1ـ ديوان ابن نباتة : 178.



ومن ذلك قولهم :

صفا الخَنْدَق، للهَرَّابْ (رقم 1612).

قومِسْ طبِيرَ : مش يَخْرا، اتّخذ فَالأسْرَ (رقم 1807).

أمر ما على الأسير : المُتَنَصِّر (رقم 174).

أسير الصُّلح : إش لو فدِْيَ (ابن عاصم رقم 228).

ويبدو أن المثل الأخير يشير إلى قاعدة كانت جارية في عقود السلم والصلح بين المسلمين والمسيحيين.

الصقالبة :

يعرفون كذلك بالفتيان والخلفاء والخرس والخصيان والمجابيب، وهي نعوت ترد كثيرا في المصادر التاريخية، وورد بعضها في الأمثال، وقد كان لهؤلاء الصقالبة دور كبير في الحياة الأندلسية منذ أوائل العصر الأموي بالأندلس، إذ كان منهم قادة الجيش وحرس القصر وخاصة الخلفاء ومع أنهم كانوا من حيث العدد قلة في المجتمع الأندلسي الكبير إلا أن نفوذهم فيه كان كبيرا جدا بسبب تقريب الخلفاء لهم وثقتهم بهم، وتشير كتب التاريخ إلى ما كان من غلبة بعضهم على هؤلاء الخلفاء وتصريفهم ملك الدولة كيف يشاءون كحال نصر الخصي[2] مع عبد الرحمن الأوسط على سبيل المثال، وحاول المنصور ابن عامر في أول

1ـ انظر المقتبس : تحقيق د. محمود علي مكي.



أمره أن يكسر شوكة الصقالبة ولكنه عاد فكون منهم طائفة جديدة عرفت بالفتيان العامريين، وكان لهؤلاء في عصر الطوائف إمارات معروفة في شرق الأندلس، وفيها ظهرت نزعة شعوبية عبرت عنها رسالة ابن غرسية التي أثارت ردودا عديدة، وكتاب الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة لحبيب الصقلبي، وقد عرف الصقالبة على العموم بالغلظة والفظاظة والجفاء والخشونة، مع أنه نبغ منهم بعض أهل العلم والأدب والشعر، يقول ابن حيان: «اجمع أهل الدولة أنه لم يقم على رأس أمير بالأندلس من هذا الجيل الغليظ الطباع من الصقلب كهذين الخادمين: فائق وجؤذر، سعة معرفة وحسن خدمة ولطف إشارة مع رحب صدر وشدة احتمال خلاف ما عليه العصابة[1]». ولهذا فلا عجب أن يكون الصقالبة محل كراهية من الناس وهدفا لنقدهم وسخريتهم، وقد وردت فيهم أمثال بعضها يذكرهم تصريحا وبعضها الآخر يشير إليهم تلميحا، وكلها تتندر بهم وتسخر منهم، ولما كان أكثرهم من الخصيان المجابيب فقد طعن فيهم العامة من هذه الناحية فقالوا:

القطَمَ فارُض الصقالبة (رقم 567).

وفي كتب التاريخ الأندلسي إشارات إلى فظاظة الخصيان[2] ومن الأمثال في ذلك: اجْفَى من خَصي.

وقيل في طريقتهم في الغناء والطرب:

غنا الفتيان، عشرة يقفز، وواحد يستمع (رقم 1718).

---

1. المقتبس 2: 253.
2. المصدر السابق: 2: 30.



ويبدو أنه كان لهم مذهب خاص في الغناء، فقد وقفنا في المقتبس لابن حيان على عبارة يقول فيها : «وكان يشدو شيئا من الغناء على مذهب الفتيان[1] والظاهر أن المثل :

لِسْ يُقال للفتى فتى، حتَّى يِقَيَّلْ فالشِّتَا (رقم 1166).

يشير إلى ترفهم وميلهم إلى الدعة والراحة، وقد نقل ابن الخطيب أن مؤنة الفتيان كانت كبيرة وأن المنصور بن أبي عامر هلك «هو ينوء بثقل كلفتهم الباهظة[2]» ومما نحسب أنه قيل في الصقالبة المثل التالي :

القَردْ بجُمَّه، يَحْكُمْ على الأمَّة (رقم 423).

ولعله قيل في بعض من تأمر منهم بشرق الأندلس، وقد أطال ابن حيان وابن بسام العجب من ولاية مبارك ومظفر العامريين، وعدها ابن حيان من غرائب الليالي والأيام، اللاعبة بالأنام، وقال إنها «من حجج الله تعالى في القِسَمِ البالغة الدلالة على هوان الدنيا عنده[3]» وربما كان المثل :

إذا رَيْت لحْيَانِي يَهْرُب، ادرِ أنَّ اشْكَز وراهْ (رقم 21).

مما قيل في خصيان الصقالبة، لأن الاشكز هو الذي لا لحية له وكذلك صفة الخصيان، ولعله يصور ظلمهم وجورهم، وذلك ما تؤكده كتب التاريخ.

1ـ المقتبس 2 : 30.
2ـ أعمال الاعلام : 103.
3ـ البيان المغرب : 3 : 158 : 162.



اليهود :

تشير الأمثال الواردة في اليهود إلى اشتغالهم بالتجارة واستعمال الحيل فيها فمن ذلك قولهم :

إذا رَيْت اليَهُودِ يَذم السَّلْع ادر اَنُّ يشتريهَ (رقم 31).

إذا أفْلَس اليَهُودِ يفتَّشْ دفَاتِر ولْدُ (رقم 57).

حَاجَ بقِطَاعْ يَهُودِ يقْضيهَا (رقم 805).

ويشير أحد الأمثال إلى أن جل الصاغة أو كلهم كانوا من اليهود.

مُسلِم صاغَ : يَهُودي اَحسن مَنُّ (ابن عاصم رقم 758).

وهكذا كانت الحال في المغرب قديما.

وفي بعض الأمثال ما قد يشير إلى استخدام اليهود في قبض الجبايات وغيرها من الشؤون المالية، وهو أمر معروف في التاريخ الإسلامي بالمشرق والمغرب ولكنه كان في الأندلس - فيما يبدو - على نطاق أوسع منه في المشرق، مما أثار لدى عامة أهل الأندلس وخاصتهم كثيرا من السخط والامتعاض والانتقاد، ونجد هذا في نصوص نثرية وشعرية لابن حزم وابن الجد الإشبيلي وأبي إسحاق الألبيري وأبي حفص الزكرمي وأبي موسى عيسى الشريشي وغيرهم.

وتنسب الأمثال إلى اليهود طائفة من المساوئ كالجبن واللؤم ورقة الدين :

لس يفزع فَرَسْ طَبَّال بِيَهُودِ وَراهْ (رقم 1170).

خَنَافُ يجْلسْ فوق ضيَافُ (رقم 899).



أرَق من دِين يهُودِي (ابن عاصم رقم 13).

ونرى المسلمين الأندلسيين يستعملون في أمثالهم في اليهود الألفاظ القرآنية الواردة في بني إسرائيل كاللعنة والشقاء وغضب الله فهم يقولون :

خَادِم شنُوغَ : شَاقِي مَلْعُونْ (ابن عاصم رقم 396).

بحَلْ يهودي في غَضَبِ اللّه (ابن عاصم رقم 296).

بَحَلْ صنْدُوقْ بَني إسْرايِلْ غُزْر الحكمة وقلّة التّوفيق (ألونسو القستلي).

بَحَلْ جنّة عَبْروقْ النّارْ من تَحْتُه والحَطَبْ من فوقْ. (ألونسو القستلي).

وقد سخروا في بعض أمثالهم من جنائز اليهود ومقابرهم ومعابدهم ورجال دينهم فقالوا :

جَنِيزَتْ يَهُودِ الجري والسُّكَاتْ (ابن عاصم رقم 396).

وفي هذا المثل الذي يصور عادة يهود غرناطة في الجنازة مفارقة ملحوظة من حيث إن الإسراع المنتقد على اليهود يقتضي أن العادة الإسلامية في الأندلس كانت بالعكس، وهذا يخالف ما ورد في السنة، ففي الحديث : «إذا مت فأخرجتموني فأسرعوا بي المشي، ولا تُهَوِّدوا كما تهود اليهود» وفي حديث آخر «ولا تدبوا بها كدبيب اليهود». ويدل انتقادهم سكوت اليهود في تشييع جنائزهم على ما جري به العمل في الأندلس والمغرب من تشييع الجنازة بالتهليل، وهو بدعة إذ السكوت هو السنة.

وقالوا في صفة قبر اليهود.

قبر يهودي : شَط ضَيْقِ (ابن عاصم رقم 571).



وشط = شاط أي طويل، وقد تكون تحريفا لكلمة : شق والانتقاد هنا واضح، فمن سنن القبر في الإسلام عدم الضيق وعدم الشق، وفي الحديث «اللحد لنا والشق لغيرنا».

ومن أمثالهم في «شنائغ» اليهود :

بَحَلْ رِبِّي في شنوغ : يتحرك ويبزق (رقم 642).

ولعله يصور عدم عناية اليهود بنظافة معابدهم، أما المساجد فإن البصاق فيها خطيئة كما ورد في الحديث.

ويدل ورود «الشنوغة» أي معبد اليهود في هذه الأمثال على الحرية الدينية التي كانت لليهود في ظل الحكم الإسلامي بالأندلس، وفي كتب «النوازل» إشارات إلى أنه كان لشنوغة اليهود وقفها الخاص مثلما كان للمسجد.

ولكن تسامح المسلمين في الأندلس مع اليهود كان يقابل بألوان من دس هؤلاء ومكرهم، والأدب الأندلسي - علاوة على التاريخ - حافل بما يدل على ذلك، وحسبنا أن نستشهد هنا بنموذجين لشاعرين غرناطيين هما ابن الخطيب الذي يقول :

وعصبة شرٍّ من يهودٍ لقيتها ... يُجانبها داعي الهدى ويخلِّيها

إذا آمنوا واستوثقوا الباب آعلنوا ... خبائث ما كان اللسان ليفشيها

وابن جزي الذي يقول :

ورب يهودي أَتى متطبباً ... ليأخذ ثارات اليهود من الناس

إذا جس نبض المرء آودى بنفسه ... سريعا ألم تسمع بفتكة جساس

ومن الإضافات التي تجري مجرى الأمثال :

غرناطة اليهود.

يسانة اليهود.

روطة اليهود.

وكان ذلك يقال لكثرة اليهود بالأماكن المذكورة، وثمة عبارة تشبه أن، تكون مثلا وهي قولهم :

عود صفر اليهودي(؟)

ولعل فيه إشارة إلى اللون الأصفر الذي كان يميز به اليهود في الأندلس، وقد غير إلى «الأزرق» في عهد الموحدين ثم عاد اليهود بعد ذلك إلى «الأصفر» في العصر الغرناطي، ولابن الخطيب تشبيه لطيف يصور فيه هيئة اليهود في لباسهم وصلاتهم :

كأن رئيس القوم عند صلاتهم وقد أومأت للأرض صفر شواشيها

أقاح أمالتها الرياح على الثرى وقد أسقطت عنها بياض حواشيها

العبيد :

كان الرقيق بنوعيه الأبيض والأسود منتشرا بالأندلس، وكان النوع الأول يجلب من البلدان المجاورة بطريق الغزو أو بواسطة النخاسين الذين كانوا من اليهود في الغالب، وكانت «الصوائف» مددا لا ينقطع لهذا النوع من الرقيق، وظلت الحال كذلك إلى أن مات المنصور ابن ابي عامر، وفي أيام ولده عبد الملك الملقب بالمظفر «تولع نخاس الرقيق



بكلمة تعريض وهي : «مات الجلاب مات الجلاب[1]» أما الرقيق الأسود فكان يجلب من بلاد السودان عبر المغرب، والأمثال تشير إلى كثرة العبيد السود في بعض البيوت فتقول :

أَسْوَدْ عَلَى أَسْوَدْ، هَمْ ان لا يُرْفَدْ (رقم 262).

وقد كان اتخاذ العبيد للخدمة من شارات الكبراء أو من يحاكيهم كما في المثل :

البَغَلْ المُسَمَّرْ، والعَبْدُ المُشَمَّرْ (رقم 478).

وكما في قول الشاعر الأندلسي :

أيا حاسدا عبد العزيز وحاكياً له منزعا قد سار فيه على أصْل
فهَبْكَ تُحاكيه بعبدٍ وبغلةٍ فمن لك أن تحكيه في القول والفعل[2]

ويفهم من بعض أمثالهم أنهم كانوا يفضلون الأسود على الأبيض إما لصبره وتحمله وطاعته وإخلاصه، وإما لأغراض مبتذلة، وفي ذلك يقولون.

طُلْ ما تجِد اسْوَدْ، لا تِسَخَّر ابْيَض (رقم 1063).

لا تَعْمل خَصْل إلاَّ مَع أسْوَد (رقم 2013).

وثمة مثل يبدو أنه يصور ترف السادة وتسخير الإماء في كل شيء، وذلك حين تنادي سيدة البيت أمتها قائلة :

---

1. البيان المغرب 3 : 13. والصوائف هي الجيوش التي كانت تخرج من قرطبة إلى الشمال في زمن الصيف.

2. المغرب : 191 وهما ينظران إلى قول أبي الحسن السلامي (اليتيمة 1 : 415).

قد قلت حين أفاض أحمد سيبه ياشقوة المتشبهين بأحمد
يشرون مثل جياده وعبيده أفيقدرون على ابتياع السودد

عَفْرا، خذ بيد سيدك يَخْرَا (رقم 1713).

وقد أشار ابن حزم في طوق الحمامة إلى فئتين من الجواري: فئة تتخذ للنسل واللذة والحال الحسنة[1] وأخرى تتخذ «للخدمة».

وجاءت عبارة «غلام الخدمة» في المثل التالي:

غلام الخدم لا يباع ولا يرهن (رقم 1734).

ولكن لا يعرف هل هذا مدح أو ذم وهل يفيد معنى الحرص عليه والضنانة به، أم أنه يدل على قلة ثمنه وزهد الناس فيه، وقد وردت أمثال في تقديم السوداء على البيضاء.

السود للسَّادة، والبيض للرمادة (رقم 289).

كما خدمتْ سَوْدَ، تَخدم بَيْضَ (رقم 1142).

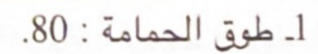
رجعت الرميد، أحسن من الوليد (رقم 977).

والظاهر أنها تقال عند انقلاب الأوضاع فقد جاء نقيض هذا في مثل آخر عند ابن عاصم ولعله بصيغة الاستفهام الانكارى:

البيض الشَّقَر، كيف السود النَّقَر؟ (رقم 165)

وليس على الأمة السوداء أن تقوم بقضاء حقوق اجتماعية، كعزاء أو نحوه، فإذا فعلت عُدَّ ذلك منها فضولا ولقيت سوء الجزاء كما في المثل:

فُضُول سَوْدَ في خبير مشت تعزي أبيعَت في الأكفان (رقم 1743).


1- طوق الحمامة: 80.



أما قولهم :

شـْوَى شـْوَى يطلع ميمون للسَّـرير (رقم 1906).

فهو في رأينا يشير إلى تشوف العبد إلى سيدته بسبب المخالطة ورفع الحجاب والكلفة، ذلك أن اسم ميمون من أسماء العبيد في الأندلس والمغرب، ودليل هذا قول الشاعر الأندلسي:

قالت له عِرسهُ إذ جاء ينكِحها   ماذا دُهِيت به من كُلِّ عِنّين

هلاَّ استعنت بميمون فقال لها   إني استعنت على نفسي بميمون[1]

ولهذا نراهم يوصون بعدم مداخلة العبيد والامتزاج بهم فيقولون :

من خالط الخدم ندم (رقم 4120).

الخديم لا يكون نَـدِيمْ (رقم 109).

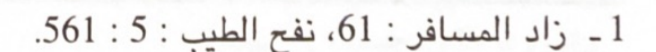
والعثور على الخادم الكيس الأمين أمنية منشودة :

يا على مميِّز وننفقْ عليه ! قال وإذا كان مميِّز ينفق على روحُ (رقم 2147).

اعطني مميز ننفق عليه قال المميز ينفق على روح (ابن عاصم رقم 266).

ولكن هذه الأمنية المنشودة لا تتحقق دائما ولهذا نجد الشكوى من بلادة العبيد أو غشهم في هذه الأمثال كقولهم :

لو كانْ معَ أسودْ عَقْل ما كيعيش في قراع (ابن عاصم رقم 613).



1 ـ زاد المسافر : 61، نفح الطيب : 5 : 561.



وفي الشعر الأندلسي فصيحه وعاميه، ومن شواهد ذلك قول حفصة الركونية :

يا رب إني من عبيدي على جمر الغضى، ما فيهمُ من نجيب

إما جهولٌ أبلهٌ متعِبٌ أو فطنٌ من كيده لا يُجيب

وقول ابن قزمان في توبيخ خادمه زاد المال حينما لم تحسن التصرف (زجل رقم 88) :

يا حسبنا الله ! قل لي : خادم سوْ أي هروبك اخرُجْ ... للضَّوْ

سخط الله على بني قَوْقو ولعنهم وابْلَ قَنَو بنَارْ

ويذكرنا اسم «زاد المال» ـ وهو من أسماء الاماء بهذا المثل الذي يشير ـ فيما نخمن إلى رغبة هذه الفئة في التخلص من الرق :

زاد المال ! قال : لو شاء الله خلصه (رقم 1011).

ويذكر ابن حزم أن خلفاء بني مروان في الأندلس كانوا مجبولين على تفضيل الشقرة، وكانوا هم أنفسهم شقرا[1] ويبدو أن الناس كانوا على مذهبهم، من هنا نجدهم يعتبرون السوداء غير جديرة باسم المرأة في المثل التالي :

لِسْ يَدْري أحد لامْرَ قيمة حتى يُتَّخَذ مع سَوده (رقم 1204).

وفي الأمثال أن انتعال الأمة السوداء واحتجابها خلاف الأصل والعادة :

سود باخفاف، من الخلاف (ابن عاصم رقم 434).

1ـ طوق الحمامة : 28 ـ 29.



قُفل على مقْبَض قُلَّة (رقم 1793).

وهم يعبرون عن الحادث التافه الذي لا يعبأ به ولا يلتفت إليه بقولهم :

سوْدَ زنت، قال قلة انكسرت (رقم 1831).

سود زنت مَعَزَ فَسَتْ (ابن عاصم رقم 435).

ومع أن الدين يوصى بحسن معاملة الرقيق فإن الواقع كان أحيانا بعكس ذلك كما في المثل :

اسْوَد بلا سِيَاط بحال جامعْ بلا حصور (ابن عاصم رقم 235).

والعبد حسب مثل آخر لا ينادي ولا يحمل أسماء الأحرار وإنما يؤمر ويختار له اسم من أسماء العبيد، ولعل ذلك معنى مايلي :

اشْ اسود إذا أُقِلَ سيدي احْمَد (ابن عاصم رقم 72).

وهو لا يعرف طعم الراحة، فإذا انتهى من عمل كلف بآخر وهذا ما يشير إليه المثل :

اطْلَقْ الفَاسْ خُذَ المصْحا (رقم 442).

وإذا اعتني بالعبد فان ذلك لغيره لا لنفسه كما في المثل :

اشتَرى اقرعْ وطَبُّ، واعملَّ جُمَيْم بَشْ تحبُّ (رقم 422).

ولهذا كان الإباق أكبر أمنية لدى العبد، وفي ذلك المثل :

أُقل للأسود اشكتعمل لو كنت سُلطان قال ناخذ ألف مثقال ونهرب (رقم 19).



ونقل ابن عذاري في البيان المغرب أنه لما قامت إمارة مبارك ومظفر العامريين في شرق الأندلس «انفتح على المسلمين ببلاد الأندلس أمر شديد في إباق العبيد إذ نزع إليهم كل شريد وكل عاق مشاق[1]» وثمة أمثال تصور شعور العبيد بالحرمان ورأيهم في سادتهم ومنها قولهم :

لَعِب ستّي مع سيدي (رقم 1237).

واحد مع عيال، وأنَ نقبض خَيالُ (رقم 1937).

لا سِتّي شي ولا سيدي شَيْ (رقم 1993).

شتَمْت مولاي تحت كِسَاي (رقم 1881)

وإذا كان تسرى البيض أو زواجهم بالسود شيئا طبيعيا فإن زواج الأسود أو المولى بالبيضاء كان يثير الانتقاد والسخرية كما في قول الشاعر الأندلسي :

عربي مزوج   عبدَه بِنْتَ أختـه

قبح الله مثْل ذا   ورماه بمقتـه[2]

ويقول القاضي ابن حمدين في عبد أسود يخاصم زوجة له بيضاء :

رأيتُ غرابا على سوسنَه   فكان بشيرا بسُوء السَّنَه

فيا مِرودَ السَّاج زد عزَّة   ويا مُكْحُلَ العاج زدْ مهونه[3]

1ـ البيان المغرب 3 : 160 والحلة السيراء.
2ـ جذوة المقتبس 372.
3ـ رايات المبرزين 39 وألف باء : 444.



الحكام :

السلطان :

وردت أمثال أندلسية كثيرة في السلطان وما يتصل به، وهي تتخذ منه موقفا مشوبا بالحذر، ويغلب عليها طابع النقد بصفة عامة، وقد صورت بعض الأمثال صلة الأمير بالرعية فذكرت أنها صلة تقوم على الجور وأن سعادة الأمير تكون على حساب شقاء الرعية.

إذا سمِعْت الأسير يغنِّي، ادر أن همُومي تبْكي (رقم 32).

وفي رواية أخرى : إذا سمعت الأمير يغني ادر أن هموم يبكي.

وفي مثل آخر أن طاعة الرعية للأمير تقوم على القهر والقسر لا على الرضى والقبول :

عَبِيدك أسدْنَا، قال : بالزَّزْ لا بالرضَى (رقم 1645).

وهذا كقول المعري :

تَلَوْا باطِلاً وجَلَوْا صارماً وقالُوا : صَدَقْنا فقُلْنا : نَعَمْ

كما تذكر بعض الأمثال أن سياسة الرعية لا تستقيم إلا بالشدة حسبما يفهم من هذين المثلين :

إذا ارتَفَعَت المقَارعْ، قطعت الكلاب الشوارِعْ (رقم 44).

السياط للسيف سلامة (ابن عاصم رقم 178).

وقد ورد ما يشير إلى المثل الأخير في رسالة لبعضهم يصف فيها ابن عباد القاضي المتأمر في أيام الطوائف إذ يقول : «ثم رفع السوط



للسيف فأوجع قلوب المسلمين باللسان واليد، يحكم كيف شاء في أبشارهم[1]».

وأشاروا إلى الهيبة التي يفرضها السلطان من حوله وما يأخذ به من أُبهة حتى إنه لا يجوز أن يخاطب بما يخاطب به الناس بأن يقال له مثلا: كيف حالك:

لِسْ يُقال للسُّلطان أشْحَالَكْ (رقم 1206).

ويبدو أن هذا تقليد أخذه العرب عن الفرس، جاء في العقد (2 : 124): وقال يحيى بن خالد بن برمك: مساءلة الملوك عن حالها من سجية النوكي، فإذا أردت أن تقول كيف أصبح الأمير؟ فقل: صبَّح الله الأمير بالنعمة والكرامة، وإذا كان عليلا فأردت أن تسأله عن حاله، فقل «أنزل الله على الأمير الشفاء والرحمة فإن الملوك لا تسأل ولا تشمَّت ولا تكيَّف، وأنشد:

إن الملوك لا يخاطبونا ولا إذا ملّوا يُعاتبونا

وفي المقال لا ينَازَعونا وفي العطاس لا يُشمتونا

وفي الخطاب لا يُكَيفونا يُثنى عليهم ويبجلونا

فافهم وصاتي لا تكن مجنونا



1- الذخيرة 1 / 2 : 161.



أما من الوجهة التاريخية فقد ذكر ابن سعيد ان إظهار الهيبة كان قاعدة من قواعد الحكم في عهد أمويي الأندلس[1] قال : «وكان خلفاء بني أمية يظهرون للناس في الأحيان على أبهة الخلافة، وقانون لهم في ذلك معروف، إلى أن كانت الفتنة فازدرت العيون ذلك الناموس واستخفت به[2]».

ووصف الحال في عهد ملوك الطوائف فقال : «ولما جاء ملوك الطوائف صاروا يتبسطون للخاصة وكثير من العامة ويظهرون مداراة الجند وعوام البلاد[3]»، وقال في ابن هود الذي ثار على الموحدين : «وكان مع العامة كأنه صاحب شعوذة يمشي في الأسواق ويضحك في وجوههم ويبادرهم بالسؤال وجاء للناس منه مالم يعتادوه من سلطان[4]». وكان بعض سلاطين بني الأحمر على هذه الصورة كما وصفهم ابن الخطيب.

وقد زهد بعض أمثالهم في معرفة السلطان وحذر من مخالطته :

السلطان، من لا يعرفه السلطان (رقم 375).

وجاء ما يناقض هذا في قولهم :

إذا كنت فضولي كن في جيهة المخزن[5] (ابن عاصم رقم 53).

ومثل هذا التناقض شائع في التراث في مثل هذا الموضوع، ونجده عند ناظمي الأمثال والوصايا والحكم كابن ليون وابن خاتمة من الأندلسيين على سبيل المثال، يقول الأخير محرضا على خدمة السلطان :

1ـ نفح الطيب I : 198 وانظر الملحق في آخر هذا الجزء.
2ـ نفح الطيب I : 199 وانظر الملحق.
3ـ المصدر السابق : I : 200.
4ـ الموضوع نفسه والنلحق نغسه.
5ـ يشبهه في أمثال فاس المخزن هرب ليلو لا تهرب منو، ابن سودة : 413.

إنْ شئت عزا فاغش آبو اب الملوك ولا تُبَل
فالذُّلُّ من قِبَل الملو ك أجل من عز الخَوَلْ

ويقول في التحذير منها :

خف السلاطن واحذر أن تلابسهم مادام أمرُهم في المُلك مضطربا
إن الملوك بحَارٌ في خلائقهم ومن سما البحر في أهواء عطِبا

ومال السلطان لا يجرؤ أحد على سرقته أو تبديده كما قد يفهم من هذا المثل :

تعْليقَه القصرْ، لا مسروق ولا محروق (رقم 712).

والسلطان إذا أعطى شيئا فإنه يسترده أضعافا مضاعفة :

من أكل بَيْضَ المُلُوكْ يَخْرَاه ديوكْ (رقم 1429).

وإذا استعمل أحد متاع السلطان فإن عاقبته تكون سيئة :

من أدهَن بزَيْت السُّلطان أقرعْ يَصْبَحْ (رقم 1402).

وحوادث القصور والأمراء يهتز لها الناس ويشغلون بها كما قد يدل على ذلك هذان المثلان :

حُمَّى القَصْر : تِرَعَّد الطَّواجن فالفُرْنْ، (رقم 802).

صَفَا زَيْتْ الفقراء، في ذِكْر الأُمراء (رقم 1596).

وما يستعمله السلطان متميز عمّا يستعمله غيره :

بحَال فَرس سُلطان مليحْ وعاقلْ (ابن عاصم رقم 292).



وبنت السلطان لا تعرف معنى الجوع :

سمعت بنت السلطان الساعي يسعى، قالت : كتعْمَل شبات بشَحْم؟ (رقم 1845).

وقد عرفت الأندلس في تاريخها ثورات وفتنا عديدة نغصت على بعض الملوك نعيمهم حتى قال أحدهم : «نغص علينا كل شئ حتى الموت». ونجد صدى هذا في أمثالهم إذ يقولون :

جَا التَّـاج، في وقت ان لا يُحتاجْ (رقم 728).

من مُـلّْـكْ، أُهْـلِـك (1460).

ولابن الخطيب نص طريف يعلل فيه بإجمال كثرة الثوار في تاريخ الأندلس، يقول فيه :

«والثوار في دول بني أمية متعددون، شقيت بهم الملوك، ونغصت بهم الخلفاء، واضطروا إلى مسالمتهم تارة ومحاربتهم أخرى وجعلوا رسم الوفاء، لمن عاهدوه منهم سياسة لولاها لجل الخطب ولم يخلص الملك. والسبب في كثرة الثوار بالأندلس يومئذ ثلاثة وجوه :

الأول : منعة البلاد وحصانة المعاقل وبأس أهلها بمقاربتهم عدو الدين فهم شوكة وحد بخلاف سواهم .

والثاني : علو الهمم وشموخ الأنوف وقلة الاحتمال لثقل الطاعة إذ كان من يحصل بالأندلس من العرب والبرابرة أشرافا يأنف بعضهم من الاذعان لبعض.

والثالث : الاستناد عند الضيقة والاضطرار إلى الجبل الأشم والمعقل الأعظم من ملك النصارى الحريص على ضرب المسلمين بعضهم



ببعض[1]». وهذا ما تشهد له الأمثال أيضا، فهم يقولون :

حصني، ولا من يقسني (رقم 841).

رجلْ فَـالجبل، ولا رجلْ فالكْبَـلْ (رقم 981).

كما عرفت العامة في الأندلس بروح الثورة والانتقاد وبخاصة أهل قرطبة، يقول ابن سعيد متحدثا عن أهل قرطبة : «إلا أن عامتها أكثر الناس فضولا وأشدهم تشغيبا، ويضرب بهم المثل ما بين أهل الأندلس في القيام على الملوك، والتشنيع على الولاة، وقلة الرضا بأمورهم، حتى إن السيد أبا يحيى أخا السلطان يعقوب المنصور قيل له لما انفصل عن ولايتها : كيف وجدت أهل قرطبة ؟ فقال :

مثل الجمل، إن خففت عنه الحمل صاح، وإن أثقلته صاح !

ما ندري أين رضاهم فنقصده، ولا أين سخطهم فنجتنبه، وما سلط الله عليهم حجاج الفتنة حتى كان عامتها شرا من عامة العراق، وإن العزل عنها لما قاسيته من أهلها عندي ولاية، وإني إن كلفت العود إليها لقائل :

لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين[2]».

ومن أبرز الأمثلة على ذلك ثورة الربض الشهيرة وفتنة قرطبة المعروفة، واذا كان السيد أبو يحيى ضرب مثل الجمل لتصوير موقف أهل قرطبة من رجل السلطة فإن ابن الخطيب يشبه حال صاحب الدولة في الأندلس بحالة الشيخ وابنه والحمار[3]، وهو مثل قصصي كان شائعا في الأندلس

---

1. أعمال الاعلام : 35.
2. نفح الطيب I : 147.
3. ذكر ابن الخطيب المثل وقصته في معرض التعقيب على قول أهل قرطبة لما بني هشام الأول القنطرة العظمى بقرطبة إنه إنما بناها لصيده ونزهته، أعمال الاعلام : 12-13.



فقد ضربه مثلا ـ قبل ابن الخطيب ـ موسى بن سعيد الغرناطي لولده أبي الحسن في اختلاف مذاهب النّاس وأنهم لا يسلمون لأحد في اختياره «حينما شكا إليه ما سمعه من انتقاد في كتاب : المغرب»[1].

ومن مظاهر ذلك أيضا أنهم كانوا ينبزون ملوكهم بالألقاب والكنى، فقد كنوا عبد الرحمن الأوسط بأبي الغرانيق مع أنهم ذكروا أيامه بالخير، فقالوا :

أيام أبو الغرانق (رقم 362).

وذكر ابن الخطيب أنه قيل في ابن الأغلب أمير إفريقية الذي كان يلقب كذلك بأبي الغرانيق

ولقبوا ابن عبد الجبار بالمنقش لطيشه وخفته[2]، وكانوا ينبزون المنصور بن أبي عامر بالأحدب[3]، وقد وصلت إلينا بعض أمثال يبدو أنها تشير إلى ذلك الصراع المعروف بين الأمويين والعامريين وأشياعهم، فمن ذلك قولهم عند موت غالب :

إنْ كَان مَضَى غالِبْ، بقى الغَالِبْ (رقم 190).

وأغلب الظن أن بعض الأمثال التي يذكر فيها الأحدب هي في الأصل مما قيل في المنصور بن أبي عامر، ومنها هذا المثل الذي أورده ابن عاصم :

ارْمِ احْدَبْ، تَجد أحْدَب (رقم 052).

1ـ نفح الطيب 3 : 93 ـ 94.
2ـ البيان المغرب 3 : 50.
3ـ البيان المغرب 2 : 281، والحلة السيراء I : 227.



قال ابن عاصم : وهذا كقول الشاعر :

وليس يَهْلِكُ منا سيدٌ آبدا إلا افْتَلَينا غُلاما سيِّدا فينا

ويبدو أنهم قالوه حين جعل المنصور الحجابة وراثية في بنيه[1].

ومن هذا القبيل فيما نرى قولهم :

إذا رأيت أحْدَب يُصلب زيد شَدًّا (ابن عاصم رقم 43).

وإذا صح أنه مما قيل أصلا في العامريين فإنه يعبر عن مبلغ الحقد الذي كان يكنه لهم المروانيون وأشياعهم، وقد تجلى في تمثيلهم بجثة عبد الرحمن ولد المنصور المعروف بشنجول[2]، وهدم مدينة الزاهرة[3] وفي البيان المغرب : «وكان أهل قرطبة على الجملة من قلة الرضى عن أملاكهم العامريين بحال من الجور عظيمة إلى أن وثبوا عليهم فأهلكوا الدولة وبها حان حينهم والله يحكم لا معقب لحكمه»[4]، ووصلت إلينا بعض الأمثال التي تشيد بآثار الأمويين مثل قصر الرصافة ومدينة الزهراء كقولهم :

بِذا الصَّفْصَافَةْ، انْكَملَتْ رُصافة (رقم 552).

ما انبتتْ الزهرا من يوم انْ واحِد[5] (رقم 1352).

---

1. البيان المغرب 2 : 193.
2. المصدر السابق 3 : 73 - 74. وانظر تحذير المنصور ولده من الأمويين في وصيته.
3. المصدر السابق 3 : 64.
4. المصدر السابق : 3 : 13.
5. أوردنا في شرح هذا ما يقابله من أمثال عربية، ومثله في الأمثال الإسبانية.
No se fundo Roma en una hora . Kleiser, N 12953
وفي الأمثال الفرنسية Paris n'a pas ete bati en un jour
وفي الأمثال الانجليزية .Rome was not built in a day
Proverbes et dictions francais, J.Pinceaux (Que suis-je) page 124.



عرايِس زَهْرا : وَاحدَ تنسيِكْ أُخْـرا (رقم 1651).

يمَـنِّى بالزَّهْرا، ويسكُن في عُـش نَـسْـرا (2132).

ولكن بني أمية أصبحوا في الأخير موضوعا للسخرية والاستهزاء كما في هذا المثل :

من بني أمية : يروا النعمة ويضْراطُ[1] (ابن عاصم رقم 708).

وقد قالوا فيمن يذهب عنهم الملك :

وَلَـد مُـلوكي ان ضَـايع، صَفَا المُـلك وبقَتْ الطبايْع (رقم 1945).

الكاتب :

وصف ابن سعيد نظرة أهل الأندلس إلى كاتب الرسائل في ديوان السلطان بقوله : «وأهل الأندلس كثير والانتقاد على صاحب هذه السمة لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة، فإن كان ناقصا عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلط الألسن في المحافل والطعن عليه وعلى صاحبه[2]».

وقد جاء في أمثالهم ما يؤيد كلام ابن سعيد، فهم يقولون :

بَـقَـية خليعْ : أخْـيَـر من بقية كاتب (رقم 575).

الكاتب المنحُـوس : يلقي الرَّق من عندُ (رقم 303).

1ـ يشهد أيضا ما ذكر ابن سعيد من أن بني أمية أخفوا نسبهم لما انحرف الناس عنهم. راجع نغح الطيب.
2ـ نفح الطيب I : 202 وانظر الملحق في آخر هذا الجزء.



القاضي :

الأمثال الواردة في القاضي هي :

افْتِنا يا قاضى يَرحمُك الله (رقم 401).

بحَل مظلُوم لبَابْ قاضي (رقم 609).

ما بين قاضي وزامر (رقم 1516).

اشْ يسمَع القاضي من ساكت (ابن عاصم رقم 122).

اشْ تجِي عزيزَ من القاضي (ابن عاصم رقم 6).

إذا كان القاضي خصيمْك لمَنْ تَشكِي (ابن عاصم رقم 31).

صاحب المدينة والشرطة :

ذكر ابن سعيد خطة الشرطة بالأندلس فقال : «ويعرف صاحبها في ألسن العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل[1] : «وقد ورد اسم صاحب المدينة في مثل ذكره ابن عاصم وهو :

صاحب مدينة فَتشني عِندَك أحَدْ؟

ووصفوا أخلاق رجال الشرطة وما كانوا عليه من قلة الأدب وسوء المعاملة فقالوا :

بحال شرطي : ياكُل معَكْ ويكسّر الصحْفا في رَاسكْ (ابن عاصم رقم 285).

وقالوا فيهم أيضا :

شرط بيَّاسَة يقْتَنَع بالزَّزْ» (رقم 1887).

1ـ نفح الطيب I : 203. ولنظر الملحق.



رضى الشرطي بالشَّرْطَنَة ومَ يرْضَى بالفرصنة (الفرسنه) (ابن عاصم رقم 16)،

كما سخروا من الحرس والعسس في بعض أمثالهم[1].

المحتسب :

عرف الأندلسيون باهتمامهم البالغ بخطة الحسبة وضبط أصولها وإحكام قوانينها كما تشهد بذلك مؤلفاتهم العديدة فيها، وكان الضرب والتجريس في الأسواق والنفي من البلد، مما يعاقب به أهل الغش، وقد اشتهر المحتسب بالشدة على أهل الأسواق، وذكر في ترجمة بعضهم أنه كان «يضرب الباعة ضربا شديدا مبرحا[2]» وهذا مما جاء في أمثالهم أيضا :

بحَلْ مُحْتَسِب : يَضْرب ويطَوَّفْ (رقم 668).

ويبدو أن أساليب الغش كانت بطريقة تبرر هذا العقاب كما في المثل :

راهِي زبد، أول مصْبُوغ وآخر ثَرْد (رقم 982).

الفقهاء :

كان للفقهاء مكانة خاصة في المجتمع الأندلسي اذ كانوا رجال دين وقضاء فمنهم الأئمة والخطباء والقضاة والمشاورون والعدول، وقد استمدوا مكانتهم ونفوذهم من المجتمع الذي كان يجلهم، والدولة التي كانت تظهر احترامهم والنزول عند رأيهم حفاظا على تقليد معين ظهر في عصر بني أمية واستمر حتى نهاية الأندلس، ولهذا كانت سوق الفقه بالأندلس نافقة وكان الإقبال عليها كثيرا، وربما كانت وحدة المذهب المالكي ونصرة الدولة له والصراع بين الإسلام والمسيحية من العوامل في المكانة الخاصة التي كانت للفقهاء، وكثيرا ما كانوا يتولون زمام

1ـ الأرقام : 232 . 305، 491، 492.

2ـ المقتبس 2 : 77، نفح الطيب 1 : 203.



الأمور في بلدانهم كما حدث في فترة الطوائف الثانية على سبيل المثال، وقد أثارت مكانة الفقهاء هذه هجاء بعض الشعراء ونقد بعض الزهاد كأبي اسحاق الإلبيري لهم وأما هجاء الشعراء للفقهاء فهو كثير ومنه قول الأبيض :

أهلَ الرياء لبستُم ناموسَكُم كالذئب يختل في الظلام العاتم
فملكتُم الدنيا بمذهب مالك وقسمتم الأموالَ بابْنِ القَاسم
وبَأَشْهَبٍ شُهبَ البغال ركبتُم وبأصبغ صُبِغَت لكم في العالم[1]

وقول ابن الطراوة :

إن جئتهُم فارغا لَزّوكَ في قَرنٍ وان رأوا رشْوة أفتوكَ بالرُّخَص[2]

وقول ابن خفاجة :

درسوا العلوم ليملكوا بجدالهم فيها صدور مراتبٍ ومجالس
وتزهَّدوا حتى أصابوا فرصة في أخْذ مال مساجدٍ وكنائس

قال المقري : «وهذا المعنى استعمله الشعراء كثيرا» ونجد نماذج عديدة من هذا الشعر في زاد المسافر» وغيره.

وقد وردت أمثال عديدة في نقد الفقهاء فمنها ما يصور تهافتهم على المال وتسارعهم إلى أخذ العطاء كقولهم :

أسْرَعْ من يَد فَقِي إذا أقل : خُذْ (رقم 506).

ومنها ما يصف قلة ورعهم وعدم عملهم بعلمهم كقولهم :

1ـ المقتضب من تحفة القادم : 11.
2ـ نفح الطيب 4 : 281.



خاف الله واتقيه، ولا تعامل الفقيه (رقم 924).

الفقيه الدكالي، اعمل بقولي ولا تعمل باعمالي (ابن عاصم رقم 160).

وبالغوا في بعضها فذهبوا مذهب الهجاء كقولهم :

فَقِي فجر (فاجر) : كَلْب أحْسَنْ من (ابن عاصم رقم 549).

وأشار مثل آخر إلى حذقهم بالشراء أو إلى محاباة الناس إياهم :

شرَ فقي جَيِّد ورَخِيص (رقم 1876).

وعند ابن عاصم :

شِري فَقِيهْ : طَيِّب ورَخِيص ومُوصَّل للدَّارِ (رقم 453).

ووصفوا أكله فقالوا :

أكَل فقي : دَن زريبْ (رقم 263).

فهذه الأمثال ـ فيما نرى ـ تمثل رد الفعل لدى العامة تجاه المكانة التي كانت للفقهاء، وفي الأمثال الإسبانية أيضا مجموعة مما قيل في الرهبان بالرغم من المكانة التي لهم في المجتمع الإسباني[1].

وهناك فئة أخرى كانت هدفا لنقد الأمثال أيضا وهي فئة الحجاج، ويشار إليهم في كتب التاريخ عند ذكر أهل العقد والحل[2]، كما نجد ابن قزمان

1ـ توسعنا كثيرا في موضوع الفقهاء كما يصورهم الأدب الأندلسي فصيحه وعاميه، وذلك في الكتاب الذي نحضره وعنوانه : الأندلسيون من خلال أدبهم. أما موقف الأمثال الاسبانية من الرهبان فيرجع فيه إلى ما يلي :

Robert JAMMES, l'anticlericalisme des proverbes espagnoles, in leslangues modernes, Paris, N5, nov 1958, pp 365 - 383.

2ـ البيان المغرب 3 : 62.



يذكرهم بعد الفقهاء والشيوخ كقوله :

عهدي بِالقريّ إذ كُنّا خِلافْ لا فَقي ولا حَاجْ لمن كان نخاف[1]

وقوله :

والرَّبضْ لا شُيوخ ولا حُجّـاجْ[2].

ولما كانوا مع الفقهاء يمثلون الرقابة الأخلاقية في المجتمع فإنهم يؤاخذون بأقل هفوة، ومع أن الأمثال تنظر إلى الحج نظرة إجلال وتعتبر من يقوم به مثالا للرجولة الكاملة[3] إلا أننا نجد أمثالا عديدة في التشهير بشخصية الحاج للمعنى الذي ذكرناه[4].

التعليم :

كان التعليم منتشرا في الأندلس ولم يكن خاصا بالأولاد وإنما كان يشمل البنات أيضا وورد مثل يسخر من امرأة تقرأ وتفسر[5]، ونجد في كتب التراجم أسماء بعض المعلمات الأندلسيات[6]، كما ذكر ابن حزم في طوق الحمامة أنه تعلم في صغره على النساء، قال :

«وهن علمنني القرآن وروينني كثيرا من الأشعار ودربنني في الخط[7]» ويستفاد من الأسماء في كتب التراجم والطبقات أن معظم أهل العلم في الأندلس كانوا من أبناء الطبقة الوسطى وأصحاب الحرف، وفي أمثالهم مايشير إلى نظرتهم إلى التعليم فهم يرون أنه وسيلة إلى السعادة والفلاح :

---

1. الزجل في الأندلس : 99.
2. الزجل في الأندلس : 71.
3. رقم (747).
4. انظر الأرقام : 817، 818، 1702.
5. المثل رقم (1812) في النص.
6. انظر على سبيل المثال : تاريخ ابن الفرضي (رقم 1042) والتكملة (رقم 312).
7. طوق الحمامة : 50.



مَن قرا لِسْ يشقى (ابن عاصم رقم 699).

نحن نقروا ولِسْ نفلاَحُ، كيف لو غَنِّينَ (رقم 1551).

وقد ورد اسم «الحضار» أي الكتاب في مثلين[1]، ونجده في الاستعمال الفصيح كما في قول الحصري يرثي ولده ويذكر نباهته وحفظه :

صبية «الحضار» بكتْ منكَ زينَ محضرها

كنت في النهار تعي ما وعت لأشْهُرها

واسم «الحضار» أو «المحضرة»[2] ما يزال معروفا في المغرب وكأنهم سموه بذلك لحضور التلاميذ واجتماعهم فيه أو لتنافس الأقران وتسابقهم في الحفظ فيه أو لأنه يحضر التلاميذ ويهيئهم للتعليم المتوسط أو العالي، وكان هذا الأخير يتلقى في المساجد والمدارس، وفي الأمثال ما يشير إلى أجرة المعلم[3]، وهي مسألة كان العمل بها جاريا في الأندلس والمغرب، إذ المعروف أن المعلم أو المؤدب كان ينتصب لِلتعلم في «الحضار» أو «المسيد» بعقد خاص ينص فيه على مرتبه وما يشترط عليه، وفي كتب الوثائق الأندلسية نماذج لعقود المعلمين أو المؤدبين، ويشير أحد أمثالهم إلى «الفتوح» التي كانت تقدم إلى المعلم في بعض المناسبات :

ما كان فاللُّوحْ، اطْرَ من فُتُوحْ (رقم 1307).

1ـ رقم 531 ورقم 2000.
2ـ أبو الحسن الحصري : 324.
3ـ في المعيار 7 : 105 : «محضرة يقرأ فيها الاولاد» والحضار مستعمل في المغرب والمحضرة في موريتانيا.



وهناك «الحدقة» وهي ما يدفع إلى المؤدب عند حذق القرآن وحفظه[1] وقد ظلت معروفة في المغرب إلى عهد قريب، وضربوا المثل في شدة الفقر بمؤدب البرج[2]، وهو الحصن الواقع على الحدود، وربما دل ذلك على فقر المؤدبين في القرى والبوادي، وذلك ما تشهد به قصيدة أبي محمد الإشبيلي في ذم أهل البادية، وهي نص طريف في تصوير حال المشارطين في بوادي الأندلس يومئذ[3]، على أن بضاعة هؤلاء من العلم كانت أيضا مزجاة في الغالب[4]، وقد كان كبار المدرسين والأساتذة على جانب من الغنى وذكروا أن مستفاد الشلوبيني النحوي المعروف من الطلبة كان يبلغ أربعة آلاف درهم في الشهر الواحد[5] وربما كان المثل :

يفَرِّقْ مالُ عَلَى مُتَـعَلِّمين (ابن عاصم رقم 828).

يشير إلى كرم بعض المحسنين والأساتذة، ويروي بعض الطلبة قصة في هذا الشأن تتعلق بأحد فقهاء طليطلة قال : «كنت آتي إليه من قلعة رباح وغيري من الشّرق، وكنا نيفا على أربعين تلميذا، فكنا ندخل داره في أشهر نونبر ودجنبر وينير في مجلس قد فرش ببسط الصوف مبطنات، والحيطان باللبود من كل حول، ووسائد الصوف، وفي وسطه كانون قامة الإنسان مملوء فحما يأخذ دفئه كل من في المجلس، فإذا فرغ الحديث أمسكهم جميعا وقدمت الموائد عليها ثرائد بلحوم الخرفان بالزيت العذب وأيام ثرائد بالسمن أو الزبد فناكل تلك الثرائد حتى نشبع منها،

1ـ طبقات الزبيدي 278.
2ـ رقم 511.
3ـ مخطوط خ.ع رقم 1725د.
4ـ التنبيه على المغالطة والتمويه : 73، 105 (مخطوط).
5ـ الذيل والتكملة 5 : 463.



ويقدم بعد ذلك لونا واحدا ونحن قد روينا من ذلك الطعام فكنا ننطلق قرب الظهر مع قصر النهار ولا نتعشى حتى نصبح إلى ذلك الطعام الثلاثة الأشهر[1]» كما ورد في ترجمة يحيى بن عبد الله ـ من ذرية الفقيه يحيى بن يحيى ـ أنه كان يطعم الطلبة إذا أتم مجلس مناظرته من ثمار بستانة، وينتظم للأكل، فإن فضل شيء دفعه إلى الغرباء، يحملونه إلى منازلهم، وقال لهم : تستعينون به في إدامكم»[2] وكان الأندلسيون يراقبون تعليم أبنائهم، ويختبرون حفظهم، ولا يقبلون عذر المؤدب إذا أهمل أو قصر، وهذا ما يفهم من المثل التالي :

لا صبي يحفظ ولا مُؤَدِّب يُعذرْ (ابن عاصم رقم 814).

وأشار بعض أمثالهم إلى استعمال الشدة مع المتعلمين، وضرورة تأديبهم إذا أخلوا بالأدب أو قصروا في الحفظ، وفي هذا يقولون :

ولَدْ بلا لقَمْ، بحَالْ خُبز بلا رَشَمْ (ابن عاصم رقم 803).

ضَربْ المُعلِّم للَّصبي كالماء للزرع (ري الأوام 2 : 154).

من ربَّا صغيرُ ما يَنْدَمْ (رقم 1381)

وقد ورد في الشعر الأندلسي ما يؤيد هذا الاتجاه كقول ابن خفاجة :

نبه وليدكَ عنْ صباه بزَجْرَة فلَرُبَّمَا أغفَى هناكَ ذكَاؤُه

وانهره حتى تستهلَّ دموعه في صفْحَتَيْه وتلْتظي آحشاؤه

فالسيف لا يذكُو بكفِّك حده حتى يسيل بصَفَحَتَيْه ماؤُه

وصوروا هيبة المعلم وخوف التلاميذ منه بقولهم :

1ـ الصلة : 41.

2ـ المدارك 3ـ 4 : 413.



كَثِيرْ ما يقول الصِّبيان إذا غاب المُعلم (رقم 1119).

وأشارت بعض أمثالِهم إلى ضرورة التفرغ للتعليم والانقطاع إليه :

«من فكَّر في شرِ بصلة، لسْ يحق يحفظ مَسْئَلَة (رقم 1372).

ولم تخل الأمثال من تندر بالمعلمين وانتقادهم فمنها ما يتهمهم بالمحاباة، ومنها ما يتهمهم ببعض مالا يليق[1]، وقد وردت في ذلك أيضا بعض الأخبار والقصص[2].

الأطعمة :

عني الأندلسيون بالطبيخ، وتفننوا فيه، واخترعوا ألوانا وأسماء غير معروفة في المشرق، ووصلت إلينا بعض مؤلفاتهم في هذا الباب[3]. وقد اشتملت الأمثال على أسماء بعضها، فمنها المجبنة وجمعها مجبنات، وهي عبارة عن طعام يعمل من عجين خاص يحشى بالجبن ويقلى في الزيت وقارنها المقري بالقطائف المشرقية. ولما كانت مدينة شريش مشهورة بتجويد المجبنات فقد قالوا في أمثالهم :

من دخل شريس ولم يأكل بها المجبنات فهو محروم.

وكانوا يشترطون فيها أن تكون ساخنة، كما جرت عادتهم أن تؤكل في الصباح ولهذا شبهوا في أمثالهم الشيء الذي يزهد فيه ويرغب عنه ويقل طلبه والإقبال عليه بمجبنة الظهر إذ يقولون :

مُجبَنَة الظُّهر : خَرَجْ نَارْهَـا وقل طُلاَّبْها (رقم 1491).

1ـ رقم 236 ورقم 2000.

2ـ الذيل والتكملة 5 : 463، نفح الطيب نفح 5 : 75 ـ 76.

3ـ منها كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس لمؤلف مجهول، وقد نشره A. HUICI MIRANDA وكتاب فضالة الخوان لابن رزين، وهو مخطوط بمكتبة. الاكاديمية الملكية للتاريخ في مدريد، وحوله دراسة جيدة للاستاذ F. DE LA GRANJA وقد طبع مرتين بعناية د. محمد بنشقرون ومعه د. إحسان عباس في الطبعة الثانية، وقد عرفنا بمؤلفه في مجلة كلية الآداب بالرباط.

وتداول هذا المعنى بعض الشعراء والكتاب أيضا، ومنهم أبو الحسن الدباج الإشبيلي الذي يقول :

أحْلَى مواقعها إذا قرَّبْتَهَا ... وبُخارُها فوق الموائِدِ سامي

إن أحرقَتْ لمساً فإنَّ أُوارها ... في داخِلِ الأحشاء بردُ سلام[1]

وجاء في أمثالهم أيضا :

انْتظَار المُجَبَّنة اخر من أكْلها (رقم 116).

وقالوا في معنى التعاون :

فَيْجطلِّي نجبَّلك (رقم 1800)

وتذكر المصادر أنهم كانوا يستعملون المجبنات في بعض المناسبات كحفلات الأعراس والختان[2] والنزه التي كان يخرج إليها الأساتذة مع طلبتهم[3] وكانوا يتهادون بها[4]، وقد أولع بعض الشعراء من الفقهاء والمؤدبين بالقول فيها فوصفوا استدراتها وشبهوها في ذلك بالقمر كقول ابن مطرف الغرناطي :

وكمْ مُجَبنة هامَ الفُؤاد بها ... قدما وصورتها من آحسن الصُّور

كأنها البدْرُ في تَدْويرها فإذا ... شُقَّت على النصِّف كانت شقة القمر[5]

1ـ المغرب : 256، اختصار القدرح : 156 نفح الطيب 5 : 12.
2ـ مذكرات ابن الحاج النميري : 12ـ11.
3ـ اختصار القدح : 156.
4ـ المصدر نفسه.
5ـ المقتضب من تحفه القادم : 98 وفيه : محببة، وهو تصحيف.

وشبهوها أيضا بالشمس في توهجها[1]، والحبلى في انتفاخها وولدوا من ذلك معاني غريبة كقول المرسي :

شُغِفت بحب آبكار حُبَالَى ووُدِّي لو بَنَيْتُ بها عَروسا[2]

وقال ابن الأبار :

حَوامل وهي أَبكارعَذارَى تزَفُّ على الأكُفِّ مع البُكُور[3]

وجاءت بعض تشبيهاتهم في هذا المعنى سخيفة يمجُّها الذوق وتثير التقزز والاشمئزاز كقول ابن قادم القرطبي :

وحُبْلى كم بقَرتُ البطْنَ منها وما إن لِي علَيْها من حنان
ظَلَمتُ فعبتُها من غير جُرم بكَثْرة جُبنها فكوت لساني[4]

ومن الأطعمة التي ورد ذكرها في أمثالهم : الإسفنج وما يزال معروفا إلى اليوم في المغرب، ويشبه الزلابية في المشرق، وسمي كذلك لشبهه باسفنج البحر وتشتمل الأمثال على كلمات : الإسفنج وسفاج وسفينجات، وهي تصغير سفنجات جمع سفنجة[5]، وقد وردت هذه الأسماء أيضا في شعرهم كقول أبي حفص عمر بن الشهيد :

أَخْذي كذا برِكَاب الضَّيف أُنْزِلُه ألذُّ عِنْدي من الإسْفَنْج بالعَسَل[6]

---

1. المصدر نفسه : 158 واختصار القدح : 156.
2. المقتضب من تحفة القادم : 158.
3. الموضع نفسه.
4. الذيل والتكملة 1 : 116 (مخطوط) وسمي كذلك لشبهه باسفنج البحر.
5. انظر وصفه في كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس : 22، 55.
6. الخريدة ق 4 ج 2 ص 247.



وقول ابن الأزرق من قصيدة قالها بمصر في الشوق إلى أطعمة الأندلس :

ولي إلى الإسفنج شو   قٌ دائـمْ يُطربُـنـي

ووصف الأصم المرواني سفاجا وشبه صنعته بالكيمياء فقال :

للّه سفاجٌ بدا لي مُسْحِرا   فأفادَ عِلمَ الكَيْميا بيمينهِ

وشبههم آخر في جلوسهم بالملوك على المنابر :

وسفاجين تحسبهم ملوكا   إذا صعدوا منابرهم جلوسا

وما تزال بعض الألوان التي وردت في الأمثال الأندلسية معروفة في المغرب مثل التفايا، والمعسل، والشواء، وسكسو، وبركوكش، وترخص، والسخينة، ومنها ما لم يعد معروفا مثل الأحرش الذي ورد فيه :

اللَّحم اش فالسُّوق فَذا الأحْرَشْ منِّي (ابن عاصم رقم 622).

وهو عبارة عن لحم يدق وتضاف إليه التوابل وتصنع منه أقراص تقلى بالزيت، وجاء في أمثالهم ذكر السردين والمل والشابل من أنواع السمك ولم تخل من إشارة إلى بعض العادات والتقاليد كاستعمال قدر جديدة لطبخ المعسل، والاكتفاء بلون الكامل عن غيره، وتأخير المعسل وجعله عقب الألوان، وعدم استعمال البركوكش في الضيافة.

وتُعبّر بعض أمثالهم عن آرائهم في بعض الأطعمة كقولهم :

فجالة السّلق ! بعد عَلَـيّ (رقم 1777).

قَنَّبِيط لس يغبيط (رقم 1784).

ونجد مصداق هذا في قصيدة لأبي عامر الأصيلي ينتقد فيها المامون ابن ذي النون لأنه يولي على الأقاليم قوادا لا عهد لهم بالنعمة فيقول :



يا مالكا يجعل قـواده   قَوما غُذوا بالسَّلق واللَّفت

ومنها ما يشير إلى عجز الفقراء عن شراء اللحم :

افْتَـحْ كُـرَنْب سُقْـتلكم ! إن اللَّحم غَـالي (رقم 393).

بالأسبـنّـاخ، تستغنوا عن الأفْرَاخْ (رقم 584).

بل إن منها ما يذكر عجز بعضهم عن شراء الخضر كما يفهم من هذا المثل :

الأجر درهَـمَـيْن، والبقل منْ أيْن (رقم 184).

الأعـياد :

تشير الأمثال إلى الأعياد وبعض ما يتصل بها، وقد كانت الأعياد وما تزال مناسبة لتبادل الزيارات والتحيات وسماع الأخبار والروايات، ولكننا نجد الأندلسيين في أحد أمثالهم يعبرون عن ضيقهم بهذه العادة وينتقدونها فيقولون :

جي العيد بخَبر البارد وسَلام المسوسْ (رقم 784).

وكان عيد الأضحى وما زال مقرونا بكبش العيد، وهو كلفة كان ينوء بحملها كثير من سواد الناس كما يبدو من أزجال ابن قزمان، ومن ذلك قوله (زجل 48).

كبش باسم الضحية يشتريه كـل مرماد   فه ظاهر لله والقصد فـرح الأولاد

واش يقاسي الإنسان من حرارة فالاعياد   بالخروج للمصلى تنطفي ذي الحرار

وقد جاء في أمثالهم ما يشعر بشيء من هذا كقولهم :

سِليخَـة ودَمْ، وزيل الهَـم (ابن عاصم رقم 439).



كِباش الضّحايا مالهم بَقَايا (رقم 1155).

ياترى ياكَبْشي، أي تَرْعَى وأي تَمْشي (رقم 1225).

أما عيد عاشوراء فهو عيد الفاكهة ـ كما هو الحال في المغرب ـ ولعل فيه ورد المثل :

أخبار التين باللوز والشريح بالجوز (رقم 364).

نقول ذلك لأننا وجدنا شبه تلميح إلى المثل عند ابن قزمان إذ يقول في فواكه عاشوراء[1] (زجل 89).

نَشْتَري بلُّوط وقسطَل واش تَقُل قَط فالجوز

واشْ خَبَر لوزانْ مِنَقي وكثير ما ناكل اللوز

ولا بد ثم من رمّان سَفَري وربما موز

وكان الأندلسيون يحتفلون بأعياد موسمية كالنيروز الذي يسمونه : ينير، وكان من عادتهم في هذا العيد شراء فواكه معينة كالأترنج والجلّوز وصنع تماثيل مختلفة من الحلوى، وإلى هذا تشير الأمثال التالية :

مَنْ مَاعُ ترْنجَ، لينيِّر يرْفَعْها (رقم 1412).

ورزق الجلّوز في ذلك الصدُّاعْ (رقم 1963).

سيف ينير : يبرَقْ وشْ يقْطعْ (ابن عاصم رقم 447).

وقد ذكر ابن مسعود القرطبي في قصيدة له ما طلبته زوجه من لوازم هذا العيد وتوعدته بالعقاب إن لم يجئ بما أملته عليه[2]، كما خصص ابن

1ـ يرى الأستاذ ا غ غومس أنه لا علاقة للعاشور الوارد في هذا الزجل بعاشوراء، وفي رأيه أن العاشور الأندلسي يشبه أن يكون العشرة الاولى من شهر ذي الحجة التي تسبق عيد الاضحى انظر : 429 TODO BEN GUZMAN, T.I.P.

2ـ الذخيرة 1 / 2 : 78 ـ 79.



قزمان أحد أزجاله لوصف رسوم عيد ينير وتقاليده، وذلك في زجله الذي مطلعه : (زجل 72)[1] :

الحَلُّون يُعْجن والعِدْلان تُبَاع   يفرح للينّير منْ ماعُ قِطاع

وذكر فيه من الفواكه : اللوز والقسطل والثمر العجيب والجوز والبلوط والتين والزبيب والجلوز والترنج والليم والدوم والقصب الحلو عدا أصناف الحلوى، أما تماثيل الحلوى التي كانوا يصنعونها في هذا العيد فقد وردت فيها نصوص عديدة ووصفها بعض الشعراء والكتاب[2]، وكانوا يسمونها «مدائن ينير» لأن معظمها كان يصنع على هيئة مدائن مصغرة ذات أسوار، مما يذكر بالعادة الأوروبية العصرية Galettes des Rois وقد وصف ابن عبد الملك المراكشي المدائن التي كان يصنعها أهل المغرب والأندلس في القرن السابع فذكر أنها كانت "تنقش وتصنع فيها أشكال من العجين مركبة على البيض المصبوغ بالحمرة أو الخضرة أو بغير ذلك من الألوان بحسب المتخير لها، ثم يفرم الجميع بالزعفران ويطبخ في الفرن ويجمع إليه أصناف الفواكه، ويحتفل كل إنسان في انتخابها وتجويد صنعتها، ويتباهى بالإنفاق فيها على قدر وسعه واعتنائه بذلك ثم يدفع ذلك كله إلى الأصاغر إدخالا للسرور عليهم وتوسيعا في الترفيه لأحوالهم وتبشيرا بخصب عامهم وتفاؤلا لبسط الرزق فيه لهم فيلهجون ويتمكن جدلهم، ويتفاخرون بمقاديرها بينهم، وتتمادى لديهم أياما بحسب كثرتها وقلتها ثم يأتون عليها أكلا وتفكها بما معها من أصناف الطرف والفواكه»[3] كما أشار إلى هذه المدائن أيضا منتقدا أبو القاسم العزفي

---

1. أي أعدل الفواكه وغرائز الثمار.
2. المغرب 1 : 294 واختصار القدح : 101 ـ 102 ونفح الطيب 5 : 204 ـ 206 ـ 267.
3. الذيل والتكملة 1 : 565 ـ 566.



في مقدمة «الدر المنظم» ووصف على الخصوص «النصبات» (موائد الفواكه والطرف والتحف) التي كانت تنضد وتجلى في الديار والحوانيت كالعروس في منصتها، وروى في احتفال أهل الأندلس بها ما يلي : «ولقد ذكر لنا غير واحد من المسافرين أن النصبة ببعض بلاد الأندلس ـ جبرها الله وأمنها ـ يبلغ ثمنها سبعين دينارا أو يزيد على السبعين لما فيها من قناطير السكر وأرباع الفانيد وأنواع الفواكه ومن غراير التمر وأعدال الزبيب والتين على اختلاف أنواعها وأصنافها وألوانها وضروب ذوات القشور من الجوز واللوز والجلوز والقسطل والصنوبر والبلوط إلى قصب السكر ورائع الأترج والنارنج والليم، وفي بعض البلاد طاجن من مالح الحيتان ينفقون فيه ثلاثين درهما إلى نحوها[1]». ومما يتصل بهذا «الحاجوز» أو ليلة العجوز وهي ليلة آخر السنة الفلاحية وكذلك الميلاد وقد ورد ذكرهما في مثلين، ويعتبر الفقهاء الاحتفال بهما من البدع المنتشرة في الأندلس.

والعيد الموسمي الثاني هو المهرجان أو العنصرة[2] كما يسمى بالعامية وقد اشتهر بشعلة النار التي كانوا يقيمونها ويقفزون فوقها كما يشير إلى ذلك المثلان التاليان.

الكَبش المصوَّف ما يكْفز العَنْصَرَه (رقم 373).

كفَزْها بَحَلْ عَنصَر (رقم 1148م).

1ـ مقدمة الدر المنظم (مخطوط) وقد نشر هذه المقدمة أخيرا صديقنا الأستاذ ف دي لاكرانخا في مجلة الأندلس (1969) وننشرها نحن في آخر هذا الجزء.

2ـ عيد المهرجان أو العنصرة لا يحتفل به في شهر سبتمبر كما هو الحال في المشرق ولكن في 24 يونيو ونقل ابن خلكان عن بعض الأندلسيين ما يلي : "يوم العنصرة يوم مشهور ببلاد الأندلس، وهو موسم للنصارى كالميلاد ونحوه، وهو اليوم الرابع والعشرون من حزيران فيه ولد يحيى بن زكريا عليهما السلام، وفيات 7 : 227 (تحقيق د. إحسان عباس) وإلى تاريخ العنصرة يرمز صاحب المقنع في ارجوزته : في كد ينيه تكون العنصرة.



وقد سجل الأدب الأندلسي الفصيح هذه العادة التي ما تزال موجودة إلى اليوم في المغرب وإسبانيا، فمن ذلك قول أبي بكر بن أبي العلاء الشاطبي يصف غلاما يقفز نارا من هذه النيران التي تكون في مناسبة العنصرة:

مرّ يلقي النار في ضَرَم كفؤاد الصبِّ محترق

ومضى يجتاب جاحمها كانصلات النجم في الأفق[1]

وقالوا في بعد ما بين الموسمين أو فيما لا يكون:

حتى تكون العنصر فينّير (رقم 859).

وجاء في أمثالهم وأزجالهم وأشعارهم مايشير إلى ابتهاجهم بموسم العنصره، فهم يقولون:

خُروجكْ من ينِّير أخيرْ من خُروجك من العَنْصَر (رقم 914).

ويقول الأعمى التطيلي في خرجة تمتزج فيها الكلمات العربية بالكلمات «الرومانثية»:

ألْبُ ديه اشْت ديه دِيَّ ذا العَنْصر حقًّا

بِشْتري مو المُدَبَّجَ ونَشُقّ الرُّمحَ شَقًّا

وهو يشير إلى ما جرت به العادة في يوم العنصرة من لبس الجديد وإجراء الخيل.

1. المغرب لابن سعيد 2 : 383.



ويقول ابن قزمان : (زجل 67).

هَذَاه عُنْصرَ قَدْ جَاتْ كما رِيت وهذا مَوسِمِ.

ولأبي عبدة حسان بن أبي عبدة في المهرجان (العنصرة).

أرى المهرجان قد استبشرا غداةَ بكَى المُزْنُ واسْتَعْبَرا

وسربْلَتِ الأرضُ أفْوافهـا وجلَّلت السُّنْدُس الأخْضرا

وهزّ الريـاحُ صنابيرها فَضوَّعت المِسْك والعنبرا

تهادي بـه الناس ألطافَه وسـامَ المُقِلُّ بِهِ المُكْثِرا

وفي الأمثال أيضا إشارات إلى مأدب شعبان أو شعبانية[1] والنفير (البوق) الذي كان يشترى للصبيان فيه[2] و«شعبانية» أو شعبانة كما تُسمى اليوم قد ورد وصفها في نصوص أدبية عديدة[3].

وثمة مثل يشير إلى «البروز» وهو خروج الناس رجالا ونساء للتفرج في أيام الأعياد.

وفي الأمثال أخيرا تصوير لحال الفقراء والمحرومين في الأعياد :

من يعطيك العيد تفرح به (رقم 1529).

أُقل للمَحْرُوم اتقصَّصْ قال : بعد العيد أرخص (ابن عاصم رقم 237).

وقد ذكر أبو بكر الطرطوشي الأعياد الموسمية في الأندلس واعتبرها من البدع وذلك إذ يقول : «ومن البدع اجتماع الناس بأرض الأندلس على ابتياع الحلوى ليلة 27 من رمضان، وكذلك على إقامة ينير بابتياع

1ـ مطمح الانفس : 27.
2ـ رقم (1917).
3ـ رقم (521).



الفواكه كالعجم، وإقامة العنصرة، وخميس أبريل بشراء المجبنات والإسفنج وهي من الأطعمة المبتدعة[1]»

كما انتقدها بشدة أبو القاسم العزفي وعلل انتشارها بين المسلمين في الأندلس بمجاورة النصارى ومخالطتهم، وفي المغرب بالاتباع لهم والقدوة وذكر أنه «ماعبر من ذاك البر (الأندلس) إلى هذا البر (المغرب) بدعة أشنع منها ولا أضر» وقد عمل العالم الأمير المذكور على تحويل أهل بلده عن هذه البدع وصرفهم عنها وذلك بالاحتفال بعيد المولد النبوي والاحتفاء به، وكذلك صنع الخليفة المرتضي الموحدي في مراكش، وذكر ابن عبّاد الرندي أن الأمير العزفي «لم يبلغ كلية غرضه في إبطال أمر النيروز والمهرجان[2]».

المرأة :

لا تختلف الأمثال الأندلسية في نظرتها إلى المرأة عن غيرها من الأمثال العربية بل والمأثورات الشعبية على الإجمال، فهي تسيء بها الظن وتوصي بعدم الثقة بها وتنسب إليها الكيد ونكران العشير وخيره مهما كثر والأمثال في هذا كثيرة ونذكر منها على سبيل المثال مايلي :

لسْ فالنِّسَا خَيْر ولا فَمّي (رقم 1210).

لا تثِقْ بقحبة ولو كَانَتْ أُمك (رقم 2027).

مَن عندُ ولِيَّ، عندُ بَلِيَّ (رقم 1254).

مَنْ معها تَابعهْ، ما تَبِيتْ شَابعهْ (رقم 1253).

1ـ انظر شرحنا للمثل رقم 1917 وديوان ابن خاتمة : 94 كتاب الحوادث والبدع : 141.

2ـ انظر في هذه البدع أيضا النصوص التي نشرها أخيرا زميلنا الأستاذ دي لاكرانخا في مجلة الأندلس (1970) وهي نصوص مقتبسة من (البدع) للطرطوشي و(المدارك) لعياض و(المعيار) للونشريسي.



تفْزَعْ من بَقْ بَقْ ، ولِسَ تفزع من فك عُنُقْ (رقم 708).

إذا رَيْت اعْجُوزْ، اذكُر اللّه وجُوزْ (رقم 37).

ولاَ يَوْم الطِّينْ (رقم 1950).

لا تَكْشَفْ سِرَّكْ لمَـرَا (القستلي).

أعوذ باللّه منْ كيد النسا (القستلي).

المَرَا مَوّاره للخير نَكّاره للدَّقيق دمَّارا (القستلي).

نِياحْ مَرَا تَبْكي وهي ظالِما وتمنَعْ وهي راغِبا (القستلي).

الزواج ومشكلاته :

يفهم من الأمثال الأندلسية أن تكاليف الزواج كانت ثقيلة، ومن الأقوال التي كانت تقال لترغيب الفقراء في الزواج وأنه باب الرزق أو مفتاحه : «تزوجوا فقراء يغنكم الله» وأطر هذا قوله تعالى «إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله».

ولكن المثل الأندلسي يقول :

ازْوج يفْتَح الله عليك ! قال يفتح وحِنْداك (رقم 82).

وهو يعبر عن فكر واقعي يرى أن الزواج لا يكون قبل الاستعداد له والقدرة عليه.

والعرس طيب ولكن نفقته كبيرة :

ما أطيب العرس لولا النفاقة (ابن عاصم رقم 723).

ولدينا نص حول نفقة عقد نكاح بنت عالم من أهل القرن السادس، حكى أبو الخطاب عمر ولد أبي عبد الله البيراقي القلعي نزيل فاس قال : «لما احتاج والدي إلى عقد نكاح أختي مع متزوجها قال لي :

يا عمر : كلم من الشهود والإخوان والجيران من يحضر عقد النكاح، قال : فكلمت جماعة من الناس، فلما كان من الغد واجتمعوا أمر باشتراء ثمن قنطار من حلواء وربع قنطار من الكعك فاشتري ذلك، فلما حضر قلت : هذا ما لا يقوم بمن دعوته، فقال لي : كم كلمت من الناس، قلت : نحو مائة وخمسين فقال : يكفيهم إن شاء الله، ثم إنه جاء إلى الموضع الذي الطعام فيه فجعل يرتبه ويقدم للناس، قال : فأكل جميع من حضر وفضلت منه بقية صالحة وما أرى ذلك إلا ببركة تناوله ودعائه»[1]. وفي هذا النص مثال لنفقة العرس لدى الأسرة المتوسطة.

ويبدو أن دار العرس كانت تزين بالريحان كما يقول هذا المثل :

أشهر من الريحان في دار العرس، (ابن عاصم رقم 1).

والزواج مدعاة إلى الفقر والاحتياج والمسكنة :

زَوِّجوه حَوِّجوه (رقم 1035).

من زُوِّج حُوِّج (رقم 1472).

لو زُوِّج الكَلْب ما نَبَحْ (رقم 1219).

وقد ضمنه أحد شيوخ الأدب في العصر الغرناطي وهو أبو عبد الله بن حربلة بيتين له يقول فيهما :

يا عازبا لا تذل نَفْساً عودْتَها العِزَّ والفَرَحْ
بزَوْجَةٍ فالزواج ذُلٌّ لو زُوّج الكلبُ ما نبَحْ

---

1. الذيل والتكملة 6 : 57.



وذكر ابن الخطيب في تقديمه لهذين البيتين أنه «خالف فيهما نهج الأمم، ونسى قوله عليه الصلاة والسلام : «تزوجوا فإني أباهي بكم الأمم».

وسبب ذلك أن مطالب الزواج عديدة والزوجات لا يرحمن :

حَلِّيني، وإلا خَلِّيـنِـي (رقم 816).

بعْ كُسَاكْ، وعْمَلْ كَذَاكْ (رقم 589)[1].

وقالوا في المرأة التي تحسن الطبخ والتي لا تحسنه :

المرا المراقه زيد في حقها والحراقه زيد في خبطها (القستلي).

وقد صور ابن قزمان في عدد من أزجاله بأسلوب ساخر متاعب الزواج ومطالب النساء في الأندلس[2]، ويخيل إلينا أنها مشكلة البيئات الحضرية بصفة عامة، ومع ذلك فإن الزواج لابد منه بل هو مرغوب فيه، ومن كان قادرا على الزواج ولم يتزوج نظر إليه المجتمع بعين الارتياب كما في المثل :

عازب ومُتَفَنَّقْ : ثُلُثَي قَطِيمْ يُفْتَى فيه (رقم 1664).

وكانت البنات مصدر هم للآباء في الحياة وبعد الممات، وخاصة إذا كثر عددهن، وفي ذلك تقول الأمثال :

هَـمُّ البنات للمَمَات (ابن عاصم رقم 779).

مَن كثُر ابْنَاتُ، كانوا الكَلابْ اختَانُ (رقم 1446).

ويَّ على مَنْ مَات، وخَلَّى سبع بَنات (رقم 1965).

1ـ انظر كذلك المثل رقم 1780.

2ـ انظر الزجل في الأندلس : 76 ـ 77.



مَوْت البَناتْ من الْمكْرُمات تَتْوفَّر الشورا وتنستر العورا ويندفع العدو من بب الدار (القستلي).

ولهذا نراهم يفكرون في تزويج البنات منذ صغرهن وينصحون بتزويجهن لأول خاطب فيقولون :

إذا قالت البنت دَدَّ، فكر لها في مخَدَّ، وإن رَفَعت القدحْ لفُمَّها، تحتاج ما تحتاج أمَّها (رقم 27).

مَنْ خطبك ازواجُ (ابن عاصم رقم 638).

زَوجْ سُو، خيَرْ من فقْدُ (رقم 1007).

على أنهم ينصحون بالاختيار والبحث والإطلاع على الأحوال كما تشير إلى ذلك - فيما نفهم - هذه الأمثال :

منْ لا يخْتَار، ما يفْقَد عَارْ (رقم 1425).

أيْ هُو النَّمشْ، ثُم افتَشْ (رقم 476).

لَوْ لَم تدخُل بيتي، ما كان تري حْوايجْ بنْتِي (رقم 1215).

العرق دسَّاسْ (رقم 384).

العَزْباتْ ولَو بارَتْ ... (القستلي).

ومع ذلك فان الزواج في جملته «قسمة ونُصيب» كما يشير إلى ذلك هذا المثل :

زوجْنِي واضْمن لِي البخْتْ (رقم 1040).

وفي الأمثال ما يشير إلى أن المرأة الأندلسية لم تكن تقبل أن تكون ضرة وتؤثر الموت على ذلك كما نفهم من المثل التالي :

مشْيَـه للْحُفْرَ، ولا مشيه لبَيتْ أخْرا (رقم 1541).



وقالوا في أولاد العلّات :

إخْو من شتّى، زيادة في الأعدا (رقم 330).

وكان للزوجة أو وليها أن يشترط عدم تزوج الزوج عليها بامرأة أخرى كما ورد ذلك في كتب الوثائق الأندلسية.

ولعل مثلهم القائل :

خروفْ بين شَاتَيْن (رقم 910).

يصور حال المتزوج امرأتين، وهو معنى ورد في شعر أعرابي تزوج اثنتين ثم ندم فقال :

تَزَوَجْت اثنتين لفرط جهلي   بما يشقى به زوجُ اثنتين

فقلت أصيرُ بينهما خروفا   أنعمُ بين أكرم نعجتين

فصرت كنعجة تمسي وتضحي   تردد بين أخبث ضَرَّتين

وانتقدوا في أمثالهم زواج الشيوخ بالصبايا فقالوا :

إذا ازوج الشيخ لصبي : يفرحُ صبيان القريَّ (رقم 3).

ووصفوا زوجة الشيخ فقالوا :

زوجة الشيخ مُدلَّل .. (رقم 1046).

وقد سخر يحيى الغزال مرارا في شعره من الشيوخ الذين يتزوجون الصغيرات[1]، وصور مشكلة الفتاة التي تخير بين الشيخ الغنى أو الشاب الفقير، فقال :

1- بهجة المجالس 2 : 42.



وخيّـرها أبـوها بـين شيـخ كثير المـال أو حدثٍ فقير

فقالت خُطَّتا خسفٍ وما إن أرى من خُطوة للمستخيـر

ولكنْ إن عزمْتَ فكل شيء أحبُّ إلي من وجه الكبيـر

لأن المرء بعد الفقر يُثْـري وهذا لا يعـود إلى صغيـر[1]

التجارة والمعاملات :

للناحية الاقتصادية حظ وافر في الأمثال الأندلسية، وفيها صدى واضح لاهتمام الأندلسيين بشؤون المعيشة وتفكيرهم في أمورها، وهي تتحدث عن التجارة والتجار والشركاء والأسواق والكساد والغش والسلف وما إلى ذلك.

يقولون في مدح التجارة وفضلها وأنها مصدر بركة وخير :

الحانُوتْ هي، إن لم تَـغدِّ تَـعشِّ (رقم 693).

صاحب دكّان، ما يحتاجْ بُسْتان (رقم 1602).

والتجارة مرغوب فيها حتى ولو لم يكن فيها ربح لأنها حركة على كل حال كما يفهم من هذا المثل :

لِسْ تَـبِيعْ البَيْض كما تَـشْريه ؟ قال يعْجَبني جريه (رقم 1224).

وكما هي طبيعة الأمثال في مدح الشيء وذمه فقد ورد ما يزهد في التجارة :

تَركُ التَّـجْرْ، تجْر (رقم 710).

---

1. جذوة المقتبس : 352.



تِدْ تَرْبَح ، لا تَفْتَحْ (ابن عاصم رقم 346).

ولعلهما كانا يقالان حين تسوء الأحوال التجارية، وثمة أمثال تشير إلى الكساد والأزمات الاقتصادية كقولهم :

جالس في الدكّان، يشَرَّد الذُّبّانْ (رقم 776).

لا سَلْعَ فالحانُوتْ، ولا قَطَاع فالتَّابُوتْ (رقم 1989).

لِسْ بِذا السُّوق ما تَسُوقْ (رقم 1196).

والتجارة خبرة تكتسب بالممارسة والتعلُّم من الأخطاء :

الشِّرا يعَلَم البَيْع (رقم 191).

أقل للنَّخَّاس : من أيْ تمَيَّز العيوب ؟ قال ما منه عيْب إلاَّ وخَسِرت فيه (رقم 73).

ما يَشعَر بالردى إلا المُدلِّس (رقم 1354).

من اشْتَرى محْسوسْ مكسُورْ يبيعُ (رقم 1451).

ولا بد للتاجر من ضبط حسابه والوقوف بنفسه على تجارته وعدم الاتكال فيها على غيره والابتعاد عما من شأنه أن يكون سببا في الخسران والإفلاس :

احرز الحُسَيَّبْ، لا يكون مُسَيَّبْ (رقم 283).

تَاجر ولَدْ اخْرَ، يتَقَدَّمْ وحمالُ لورا (رقم 733).

ثم اشْريَّ، لِسْ تحتمل تَولِيَّ (رقم 746).

من يشْرب ما يجَّر (رقم 1282).

التجارَ مضمونة، اكَّن اش تربح تخسر (ابن عاصم رقم 174).



والتجارة مبنية على المساومة والمماكسة والاختبار والتقليب ولكن إلى حد لايضر التاجر:

بين أخذ الديكْ واطلاقُ، ينْتَتَفْ ذَنَبُ (رقم 550).

الكيسَ فالسُوم وغَيْـر ذي سرقَ (رقم ابن عاصم 151).

لا باسْ بالذَّوَاق إذا كانْ مشتري (رقم 2001).

ولعلهم يشيرون إلى ما يسميه الفقهاء بيع الغرر حين يقولون :

بكم ذا الحُوت، وهو في قاع الغَديرْ (رقم 549).

بيع القط واليد فالذَّنَب (رقم 562).

والإنصاف في المعاملة وسيلة لكسب ثقة الناس وحبهم.

انصف النَّاس وشاركهم في أموالهم (رقم 452).

والشركة المثالية تقوم على أساس تقاسم الربح والخسارة :

بَـالبركَ أشَريكْ، قال لِيَ ولَكْ (رقم 573).

شْريكْ البَلاَ، فالفَضل وفي الخسارَ لاَ (رقم 1873).

وليس في التجارة والمعاملات تمييز بين الناس من حيث لونهم أو دينهم :

من فتحْ حانوتْ للتجارَ، يبيعْ من يهودْ ونصَارى (رقم 1264).

وثمة أمثال تشبه أن تكون قواعد في الاقتصاد، كقولهم :

الغلا جلاَّبْ (رقم 286).

إذا غلا القمح مالُو حصالَ (رقم 24).

إذا رخص الشَّعير، غَلت الحمير (رقم 67).



اشترى رخيص، ما تعدم حريص (رقم 402).

إذا اشتريت افْتكر يومْ تبيعْ (رقم ابن عاصم 62).

من بدلُ العربان[1] يُكَلُّ (رقم 1444).

والتاجر لا يمس رأسماله ولهذا سخروا ممن يفعل ذلك :

ظنِّي متَّجروَه فالرَّسْميل ينقَّرْ (رقم ابن عاصم 491).

وذلك لأن التجارة لا تكون بلا رأسمال :

تاجرْ بلا قِطاع قليل الخُروجْ (ابن عاصم رقم 339).

الدراهم، تجْلب الدرهم (ابن عاصم رقم 163).

وقد كانت «الدلالة» أي الوساطة بين البائع والمشترى من مظاهر التجارة قديما، إذ كان بيع المصنوعات يتم بواسطة الدلال في «مزاد علني» يقع بالأسواق، وقد وردت الإشارة إلى الدلال و«الدلالة» في بعض الأمثال ولهم في السلف والدين أمثال عديدة، وكلها في ذمهما والتحذير منهما[2].

الحرف :

تحفل الأمثال الأندلسية بأسماء أصحاب الحرف ففيها البيطار والعشاب والعطار والجيار والحجام والميار والغنام والخراط والبواب والحداد والحشاش والقصار والدلال والصياد والخراز والسقاء والفحام والجزار والنجار والمهندس والحكيم والقابلة، ولكن هذه الأمثال لا تقدم لنا من المادة ما يمكن الاعتماد عليه في تصور المهن وأصحابها من خلالها، وذلك لأنها تأتي غالبا في معرض تشبيهات ساخرة أو صور فكهة أو

1ـ العربان : لغة في العربون.

2ـ رقم 614.



مفارقات مضحكة فالبيطار يدمي الدابة ويتقاضى أجرا[1]، والجيار حماره مهزول ينقل مرة واحدة ثم يرقد[2]، وصياد يخرج للصيد بلا سلة[3]، ودلال يفرق بين البائع والمشترى[4] وفحام يزين الفحم بالورد[5]، وزبل الخراز لايصلح لا للبستان ولا للحقل وهكذا[6] وقد أشاروا إلى ما يكون من عدواة بين المشتركين في صنعة واحدة:

صاحب صنعتك : عدوك ولو كان أخوك (رقم 1580).

وحضوا على التمسك بصنعة الآباء ولو كانت حقيرة :

صنعة ولدك، ولو كان حشّاشْ (رقم 1582).

وقد يكون فيه ما يعبر عن نظرتهم إلى المهن وعدم احتقارها، وفي المثل أيضا تعبير عن مفهوم اجتماعي قديم وهو أن لا تخرج الفئة الاجتماعية عن دائرتها وما كتب عليها.

الفلاحة :

ذكر ابن غالب في فرحة الأنفس أن أهل الأندلس «أحكم الناس لأسباب الفلاحة[7]» وتدل مؤلفات ابن بصال وابن أبي الخير الإشبيلي وابن العوام وابن ليون وحمدون الإشبيلي والطغنري على مبلغ تقدمهم في هذا الميدان وقد وصلت إلينا طائفة من أمثالهم الفلاحية، ولكننا نرى أن نسبتها ضئيلة بالقياس إلى غيرها، ولعل ذلك لأن أمثال الزجالي وابن

1ـ رقم 615.
2ـ انظر الارقام 133، 799، 878، 1382،1391، 1297 إلى ص 171.
3ـ رقم 932.
4ـ رقم 941.
5ـ رقم 493.
6ـ رقم 1042.
7ـ نفح الطيب : 147.



عاصم جمعت في المدن، فهي تمثل حياة أهل الحضر أكثر مما تمثل حياة المجتمعات القروية، ومن هذه الأمثال مايقرر قاعدة في الأحوال الجوية كقولهم :

إذَا رَيْتَ الضَّبَابْ، ابشر بالطَّيَابْ (رقم 56).

إذا رَيْتَ بالغدُو، خَلِّ دَوَابَّك يرقُدُ، وإن ريْتَ بالعَشِي، يَسرِّ دَوَابك للمَشِي (رقم 62).

ومنها ما يشير إلى حقيقة منتزعة من أعمال الحقول وتجاربها كقولهم :

الفُولْ إذا نورّْ، شَهْرَيْن يدورّْ (رقم 349).

أشْ بين قرقجّ؟ وبَطيخ قال مبيت ليلَ (رقم 85).

ومنها ماله تعلق بالمواسم والتقاويم الفلاحية، كقولهم :

فابْريلْ، يعْتَدل المؤَخّر والبَكيرْ (رقم 1739).

إذا ريت الخوخ والرمان، فكر في ثيابك أيها العريان (رقم 9).

ونجد في أمثالهم مصطلحات فلاحية عديدة مثل الفدان للحقل والزريعة للبذور، والأزواج لبهائم الحرث، والخطارة لطريقة خاصة في السقي، والطياب للصحو، والسانية لدولاب الماء، والعصير لزمن القطف، وفلاحة الحبوب والقطاني في الأندلس كانت تعتمد على الأمطار ولذلك نراهم يقولون في الصحو :

لَوْ كَانْ الرِّزق بالطَّيابْ مَا مَلُّ أحَدْ (رقم 1240).

وقد صور ابن قزمان في أحد أزجاله حال الناس وما يعتريهم من هم حين تتوالى أيام الصحو وتصبح السماء مثل النحاس في أشد الأوقات



حاجة إلى المطر[1]، وكتب التاريخ تهتم بالإشارة إلى سنوات الجدب والجفاف وما ينشأ عنها من مجاعة، كما أن البروز لصلاة الاستسقاء كان من المشاهد المعروفة في تاريخ الأندلس، وجاءت أمثال الأندلسيين أيضا صورة صادقة لبيئتهم الطبيعية فهم لا يثقون بالمحصول الفلاحي إلا بعد جمعه :

كُل شَى حَشِيشْ، حتى يحصل فَالْبلَيش (رقم 1083).

لا تَمْدحْ العَصِير حَتَّى تُقْلع النَّوالَة (رقم 2018).

لا تَقُولْ واحِدَ حَتَّى تَحْصل في العِدل (ابن عاصم رقم 804).

كما أشاروا إلى بعض جوائح الفلاحة كالجراد ونحوه[2]، وصوروا مشكلتهم مع الطبيعة بقولهم :

إما نَمُوت بالعَطَشْ وإما نَمْشُو فالسَّيل (ابن عاصم رقم 227).

وقالوا في فائدة الماء والمطر في بعض المواسم :

من قاد الما قاد الغنَا (رقم 1442).

الرزق في البِيرْ (رقم 526).

مَطَر فَبْرَيْل، خَيرْ مِن فَيْض الّنيلْ (رقم 1032).

ومن أمثالهم فيما تتطلبه الفلاحة من عمل وجهد ووقت :

رَقَد مَارس وابريل، وجا في وقْت حصاد الشعير (رقم 996).

يا رايدين العصير أي كنتم وقت الزبير (ابن عاصم رقم 83).

---

1. ديوان ابن قزمان (زجل رقم 99).
2. رقم 114 ورقم 225.



هيد هي الصيف من حَبْ لقَطْ ومن حَبْ رَقَدْ (رقم 1943).

لِسْ كُنْ يكون ! ذا الغَرْسْ، قَبْل مَرْس (رقم 1161).

وتحدثوا عن الزريعة الجيدة والرديئة، وأشاروا إلى بعض ما يكون بين الشركاء فقالوا :

فَدِّين بِشْريك، مايوكَلْ مِنُّ فرِيكْ (ابن عاصم رقم 545).

وصوروا آخر العصير والصيف بقولهم :

آخر العَصير سَلّْ (ابن عاصم رقم 216).

آخر الصَّيف مُذ يْرى (ابن عاصم رقم 217).

الملاهي والألعاب :

الزامر :

تعدد ذكر الزامر في الأمثال الأندلسية، وفي بعضها ما يمثل رأيهم فيه، ولعل المثلين التاليين :

الزَّامِرْ من أهل النَّارْ (رقم 386).

ما بين قاضي وزَامِرْ (رقم 1516).

يعبران عن رأي أهل الورع والفقه في الزامر، وقد أريد زامر أندلسي على شهادة زور فأبى وقال :

لا جمعْتُ النار والعا ر فدعني يا عياض



وندد ابن حزم بأهل «صنعة الزمير المتكسبين بالسفاهة والنذالة والخساسة»[1] وهناك خبر رواه الخشني له دلالته هنا ولعل له صلة بالمثل الثاني، قال : «ومما يحكيه الناس ويدور على ألسنتهم من أخبار محمد ابن بشير أنه أتاه رجل لا يعرفه، فلما نظر إلى زي الحداثة من الجمة المفرقة والرداء المعصفر وظهور الكحل والسواك وأثر الحناء في يديه لم يتوسم عليه القضاء، فقال لبعض من يجلس إليه : دلوني على القاضي، فقيل له : ها هو ذا، وأشير إلى القاضي، فقال لهم : إني رجل غريب، وأراكم تستهزئون بي، أنا أسألكم عن القاضي وأنتم تدلوني على زامر، فزجر من كل ناحية» ويفيد هذا الخبر ـ فضلا عن استنكار الناس لنعت القاضي بالزامر أن هذا كان له زي خاص ومظهر بلغ الغاية في التأنق، وثمة، مثل يشير إلى تيه الزامر :

دلَّتْ زَامِر في كُبَّة عَروسْ (رقم 938).

وهو يدل على حاجة الناس إليه في الأعراس والحفلات، وإذا كان المشارقة يقولون : تيه مغن. فإن الأندلسيين نقلوا هذا المعنى إلى الزامر لأن مكانته عندهم كانت أكبر من مكانة المغني، يقول الحميدي : «فلعهدي بعرس في بعض الشوارع بقرطبة، والنكوري الزامر قاعد في وسط الحفل، وفي رأسه قلنسوة وشي وعليه ثوب خز عبيدي، وفرسه بالحلية المحلاة يمسكه غلامه ـ وكان فيما مضى يزمر لعبد الرحمن الناصر ـ وهو يزمر في البوق بقول أحمد بن كليب في أسلم :

أسْلَمَـنِـي في هَـوا ... ه أسـلم هذاَ الرشَّـا

ومغن محسن يسايره فيها[2]».

---

1. رسائل ابن حزم : 251.
2. جذوة المقتبس : 134.



وأشار مثل آخر إلى «غضبة الطاري» وأنها لا تستحق الاهتمام وقد وردت كلمة «طاري» وجمعها «طراة» بمعنى المغني في شعر الرمادي[1].

وكانوا يعبرون عن شدة الاحتياج إلى الشيء بقولهم :

مَنْ يُعِير بُوق في يوْم عُرْس (رقم 1275).

والبوق آلة الزمر، ويدل النص السابق على أنه كان لعبد الرحمن الناصر زامر خاص به ولعله كان له أكثر من زامر واحد، وربما كان الأمير الأموي محمد ابن عبد الرحمن أشهر من عرف من الأمويين بحب الزمر واتخاذ الزامرين بل إنه تعاطاه وكان له بوق خاص به، فقد نقل ابن حيان مايلي : غلب على نفس الأمير محمد بن عبد الرحمن حب الزمر من جميع الملاهي فلم يكن يعدل شيئا منها به، ولا يؤثر صنعا منها عليه، وينقر عن الحذاق بصناعته المبالغين في العلم به، فيتخذهم لنفسه، ويجمعهم عنده ويخصهم بإحسانه، حتى جمع منهم لديه عددا لم يأت الزمان بمثلهم حذقا بصناعتهم واستيفاء لرسومها واختراعا في طرقها[2] ثم يصف عود الأمير بأنه من ابنوس ملبس بالذهب قد رصع بفاخر الجوهر، وذكروا في أخبار محمد بن هشام بن عبد الجبار أنه استعمل له مائة بوق للزمر[3] وأن أهل قرطبة استقبلوا عهده بالمزامر[4]، وقد اشتهر من الزامرين شرحبيل الزامر[5] وابن مقيم الزامر[6]، وخلف الزامر[7]، ومما ذكرناه يتبين سبب تعدد الأمثال التي فيها ذكر الزامر[8] والزمر، وورد مثل في المغني[9]، وآخر في الزفّان أي الراقص[10].

1ـ انظر المثل رقم 755 في النص.

2ـ المقتبس 2 : 291.

3ـ البيان المغرب 3 : 80.

4ـ المصدر نفسه : 74.

5ـ المقتبس 2.

6ـ جذوة المقتبس : 374.

7ـ الذخيرة 2/1 : 69.

8ـ الأرقام : 1516، 1281، 1043، 1032، 1026، 938، 307.

9ـ رقم 515.

10ـ رقم 11.



العجايبي :

ذكرت الأمثال شخصية «العجايبي» وقد يكون في بعضها مايشير إلى «خيال الظل»، فأما العجايبي فلعل تسميته هكذا لأنه يأتي بالعجايب، وفسر «الكالا» العجايبي بأنه الشخص الذي يرقص على الحبل، وقد شاهد ابن الخطيب صاحب هذه اللعبة وهو «يتلاعب على شريط صاعدا ونازلا في الفضاء مما قضى منه العجب» ووصفه فقال :

وبحري تلاعب في شريط ... وجيء الفعل متصل الصموت

دلّى وارتقى، وسما، وأهوى ... فأعجب في التماسك والثبوت

فقلنا إن يكن بشرا سويا ... ففيه غريزة من عنكبوت[1]

والبحري هو الذي يعمل في السفن الشراعية وهو معروف بسرعة الصعود والنزول على الحبال.

ويبدو أن معنى كلمة «عجايبي» أوسع مما ذكره «الكالا» وأنه صاحب ألعاب متعددة بهلوانية وسحرية، وما تزال الكلمة تطلق على أصحاب هذه الألعاب في بعض بلدان المغرب، والمثل يشير إلى أحكاك (أحقاق) العجائبي التي تظهر للناس ممتلئة وهي في الحقيقة فارغة[2]. ويشير الششتري في زجل له إلى أن العجايبي كان يجعل من الإناء الواحد كثرة وهمية، وقد وصف ابن عميرة المخزومي أحد هؤلاء فقال : «هذا ولأحدهما وصف يزيد على الأوصاف، وعمل هو المشار إليه في الصحاف، تصف له في مداره، وتلقى بمجال إقباله وإدباره، فيأخذها بأصبعين، ويديرها لرأي العين، فترى عجبا من نصب وإمالة، وإثبات

1ـ ديوان ابن الخطيب.

2ـ انظر ما قاله صاحب الأقنوم في العجائبي.



وإزالة، واتساق بغير قد، والتصاق دون ود، وربما أكفأها في الهواء، وقد غمرها بالماء، فتحسبه جمد فما يقطر، أو عاد سرابا في عين من ينظر، ويمر بها فيجعلها تحت ذيله، ثم يقتلعها بحملة سيله، فيفقدها العيان، ويخلى منها المكان، ويخلع الثياب ولا أثير هناك، وينزع السراويل فلا زيادة على تلك وذاك، فإذا استوفى بعض جوانبه، وقضى وطرا من عجائبه، ارتجّ من الأمام والوراء، وقام عنها كتاركة بيضها بالعراء، ويوتى بالنار وحرها مرهوب، ولهيبها مشبوب، فيودعها ذاك المستودع، ويبدع في شأنها فوق ما أبدع، وربما وضعت له القلة بمائها، فلا ترى أعجب من إخفائها، يختطفها اختطافا، وقد هز منها أعطافا، وركب فوقها صحافا، فيحمل منها جنينا حش، ودفينا يأمن النبش، ثم يقوم عنها عجلان، ويترك شخصها كما كان، وهذا خلال نغمات حسان سماعية، وهيئات إيقاعية، يقف عليها الحسن والإحسان، وتهش لها العيون والأذان[1] ومع أن قيود السجع يمكن أن تكون قد ضيقت مجال الوصف فإنه كاف في تصوير الألعاب التي كان «العجايبي» يعرضها أمام النظارة، وهي ألعاب متعددة تستخدم فيها الصحاف والقلل والنار وغيرها، وتكون مصحوبة بالموسيقى والايقاع، ويشير الكاتب في مقدمة رسالته إلى ألعاب أخرى يشترك فيها شخصان ويستخدم فيها الإنشاد والكلام المعرب الموزون والمسجوع ويقول في بعض ألعابهما : «ولهما في مركز المدار، وموقف الاختبار، نشر وطي، ونثر للعمائم ولى، وربما أعاداها بعد إلقاء، وقلبا الثياب لغير استسقاء، فيرجع الطالع آفلا، ثم يعود العالي سافلا» ويفهم من تقديم الرسالة المذكورة أن خاصة الناس كانوا مقصدا لأصحاب هذه الألعاب، وأنها كانت تعرض في البيوت، ولكن ورودها في الأمثال يدل على أنها تعرض أيضا على أنظار العموم

---

1. أبو المطرف أحمد بن عميرة للمؤلف.

في الأسواق والساحات العمومية، ومايزال شيء منها يعرض في ساحة «جامع الفناء» بمدينة مراكش.

وفي رسائل لبعض كتاب القرن السادس[1] يسمى صاحب هذه الألعاب القولية والفعلية : «الزريزير» - تصغير زرزور - وهو طائر معروف بسرعة القفز وخفة الحركة، شبه به من يقوم بهذه الألعاب فيما ذكر وغيره، ولن نطيل هنا بإيراد وصفهم للزريزير وما يأتيه من حركات وألعاب فهو شبيه بما رأيناه في رسالة ابن عميرة.

وقريب من هذا "لعبتهم المسماة بعبد الخالق" التي وردت الإشارة إليها في المدارك والذخيرة ووصف صاحبها في المدارك بأنه شخص ماجن «قد اعتم على قلنسوته، وشبه بلحية زور بيضاء وافرة وارتدى وتوكأ على عصا، وهو يكلمهم بمضاحكه[2]» أما في رسالة ابن عباس في الذخيرة فهو خليع في يده عكاز وقصبة خضراء وفي رأسه قلنسوة بيضاء وعلى عاتقه خرج بنخالة[3] ويوخذ من رسالة لأبي المغيرة بن حزم أن هذه اللعبة تقليد ساخر للراهب[4].

ومما يلتحق بذلك أيضا «لعبة القلياني» التي ورد وصفها في زجل لابن قزمان وزي صاحبها شبيه بما ذكر[5].

1- خريدة القصر 2 :401 والذخيرة ق 1 مج 2 : 157.
2- المدارك 6 : 175.
3- الذخيرة ق 2 مج : 157.
4- المصدر السابق.
5- زجل رقم 153.



وأما خيال الظل فورد في بعض الأمثال ما قد يشير إليه وإلى بعض لعبه[1] كما وردت إشارات إليه عند بعض كتاب القرن الخامس الهجري[2]، وربما انتقل إلى الأندلس بواسطة بعض المصريين فإننا نجد ذكرا لأبي القاسم المصري الخيالي بقرطبة في نهاية القرن الرابع[3] ولكننا لم نقف على نص واضح فيه.

الشطرنج :

ثمة أمثال في الشطرنج وقطعه، ومنها مثل يصف أهله بالشؤم :

أقِل للنحْس، أيْن تَمْشي؟ قال لشطرنجي أن مورك ! (رقم 76).

ولعله يصور كراهيتهم للبطالة وتضييع الوقت، وفيه صدى لفكرة كانت شائعة في الأندلس كما يفهم من قول يحيى الغزال يخاطب ابن أخته :

عَمَلٌ في غَيْرِ برٍّ ... واخْتِلاَفٌ ولُزُومُ
إنَّمَا أسَّسَهَا ويْحـ ... ـكَ شَيْطَانٌ رَجِيمُ
هَبْكَ فِيها ألْعَبَ النا ... سِ فماذا يا حَكِيمُ
لُعْبَة الشَّطرنج شُؤْمٌ ... فَاجْتَنِبْها يَا شُؤُومُ

وهي قصيدة طويلة في ذم الشطرنج من حيث إنه لعب يصرف عن العمل وهو يرى أن الشطرنج لعبة الملوك والأغنياء :

إنَّمَا هِيَ لأُنَاسٍ ... شأنُهُم شأن عظيمُ
مَلِكٌ يُجْبَى إلَيهِ ... أو وزيرٌ أو نديمُ
أو رجالٌ ورثوا الأمـ ... ـوال للدَّهْر سَلُومُ[4]

1ـ رقم 242 ورقم 603.

2ـ الذخيرة 2/1 : 154 وما بعدها، وص 187. وثمة ذكر للعب الخيالية" في رسائل ابن عباد الرندي من أهل القرن الثامن. الرسائل الكبرى : 225.

3ـ البيان المغرب 3 : 80.

4ـ المقتبس 2 : 181.



وكانت هذه اللعبة قد انتشرت في عصر هذا الشاعر، ولعل ذلك بسبب إقبال بعض الأمراء الأمويين عليها، ومنهم الأمير محمد الذي كان مولعا بها وكثيرا ما كان يلعب بالشطرنج مع فتاهُ إيدون.

وقد ألف الفقيه الورع ابن الفخار المالقي كتابا أسماه : استواء النهج، في تحريم اللعب بالشطرنج[1]، ولكن بعض الفقهاء المشهورين كانوا يلعبون الشطرنج ويجيدون لعبه كالفقيه أبي بكر بن العربي[2]، ويبدو أن الشهرة به كانت مكروهة على العموم كما يستفاد من حكاية أبي بكر الزهري الإشبيلي، قال : «كنت كثير اللعب بالشطرنج ولم يوجد من يلعب مثلي به في إشبيلية إلا القليل، فكانوا يقولون أبو بكر الزهري الشطرنجي، فكان إذا بلغني ذلك اغتاظ منه ويصعب علي فقلت في نفسي لابد أن اشتغل عن هذا بشيء غيره من العلم لأنعت به ويزول عني وصف الشطرنجي» ووصف كيف اشتغل بصناعة الطب ثم قال : «واشتهرت بعد ذلك بالطب وزال عني ما كنت أكره الوصف به[3]» على أن الشطرنج كان لعب الطبقة المترفة وعلية القوم. وكانت تقوم بسببه صلات خاصة بين أصحابه[4]، وممن اشتهر باللعب به في الأندلس الشاعر الوزير ابن عمار[5]، والكاتب الوزير أبو جعفر أحمد بن عباس[6]، والكاتب أبو الحسن ابن عياش[7] والطبيب ابن زهر الحفيد[8]، وفي برنامج الرعيني أن أبا زكرياء

---

1. الديباج المذهب : 304.
2. نفح الطيب 2 : 238 وقد كانت معرفته بالشطرنج سببا في الإحسان إليه وإلى أبيه بعد نجاتهما من الغرق في البحر ورميه بهما إلى ساحل برقة حيث بيوت بني كعب بن سليم الذين كان أميرهم مولعا بلعب الشطرنج، وحديث ابن العربي عن هذه الحادثة طويل وممتع.
3. عيون الأنباء 2 : 80.
4. عيون الانباء 2 : 68.
5. المعجب للمراكشي : 178- 179.
6. الذخيرة 2/1 : 177.
7. الغصون اليانعة : 43-44.
8. عيون الأنباء 2 : 68.



يحيى بن ابراهيم الحكيم المعروف بالخدوج المرسي الف تأليفا في الشطرنج «يلقبه الناس : الشطرنج المصور، للحكيم المصغر[1]».

ومما هو لاحق بالشطرنج «لعب الخميسة الذي ورد في مثل استشهد به ابن قزمان لسنه الشطرنج كلعب الخميسة (زجل رقم 7).

وإذا كان الشطرنج لعب الخاصة فإن «الخميسة» كانت لعب العامة كما يفيده المثل. وبعض هذه الألعاب هي من ألعاب : القمار» ومنها مما لم يرد في الأمثال : النرد، والكرك وثمة لعب «الغبار» الذي نجده في الأمثال التالية :

صاحِب فَرْد عَيْن ما يَلْعَب الغُبَار (رقم 1591).

أعْمَش يلعب غُبارا (ابن عاصم رقم 229).

نص غُبار تكفي للأعمش (ابن عاصم رقم 771).

ولا نعرف الآن ما هو هذا اللعب.

أمراض اجتماعية :

القطم :

كلمة «قطيم» أي مخنث استعمال أندلسي[2] والإسم «القطم» والجمع قطماء وقطمة، وصيغة التناهي والمبالغة : أقطم من ... وقد وردت هذه

1- برنامج الرعيني : 164، ومن كتاب الخدوج نسخة في دار الكتاب المصرية تحت رقم 497.
2- يذكر في ترجمة أبي العباس السبتي أنه كان يقول : ياقطيم، انظر : اظهار الكمال : 125.



الصيغ كلها في الأمثال الأندلسية، واستعملها الكتاب والشعراء أيضا[1]، وثمة أزيد من عشرة أمثال تذكر «القطيم» بالسوء[2]، كما أن الكلمة ترد في الشعر في سياق الهجاء المقذع، والأمثال تنسب هذا الداء إلى الصقالبة والمشارفين[3]، ونحن نعرف أن الشعراء والكتاب والمؤلفين ينسبونه إلى المترفين، ويذهبون في تعليله إلى أنه من مفاسد الحضارة.

وقد نقل ابن سعيد عن الحضرمي أخباراً في قطماء الأندلس يقول الحضرمي : «وليس بالأندلس بلد قد اشتهر بكثرة القطماء مثل قرطبة، وخاصة منه درب ابن زيدون فيقولون في التعريض : هو من درب ابن زيدون[4]» ولعل درب ابن زيدون ينسب إلى الشاعر المعروف الذي رمته ولادة بهذا الشأن[5] وتشير الأمثال والأخبار إلى أنهم كانوا يتخذون العبيد السود لهذا الغرض[6]، وأغلب الظن أن الأمثال التي رواها الزجالي في القطماء من أمثال أهل قرطبة إذ لم يرد شيء منها في أمثال ابن عاصم الغرناطي، وفي هذا تأييد لكلام الحضرمي، ويشهد لذلك أيضا أن الشاعر اليكي يهجو فقيها قرطبيا بهذا المعنى فيقول :

قَالُوا هَجَاك ابنُ مَيْمُونٍ فقلت لهم   ياليت شعري من الهَاجي فَأدْرِيهِ

قالوا الفَقِيهُ الذي مِن أرْضِ قرطبةٍ   قلت : القطيمُ فقالوا كُلُّهم إيه

1ـ زاد المسافر : 7، 75، 76 والمغرب 1 : 225 والذخيرة 2/1 : 387 وفيها، في القطمة. بالفاء وصوابها في القطمة بالقاف.

2ـ انظر الأرقام : 165، 384، 488، 520، 527، 787، 961، 1435، 1664.

3ـ جمع مشارف وهو العامل في دار الإشراف ـ بكسر الهمزة ـ وهي في الأندلس مصطلح اداري يقابل مصطلح «الديوانة» أو الجمارك والمشرف ـ من أشرف ـ هو صاحب هذه الخطة. وكذلك المشارف وقد ورد اسم : دار الاشراف، في رقم 531 وفي نص عند المقرى في نفح الطيب 4 : 349 : «دخلت عليه يوما بدار الإشراف».

4ـ نفح الطيب 4 : 195.

5ـ انظر المثل رقم 2013.

6ـ زاد المسافر : 7.



وقد كانت كلمة قطيم مستعملة بالمغرب في القرن السادس الهجري، ففي أخبار أبي العباس السبتي لابن الزيات أنه كان يقول للمخاطب : يا قطيم فأنكر عليه فقال : القطيم عندي هو الذي يحرص على تحصيل الدنيا ويجمعها ولا يُخرج منها شيئا.

الشراب والغلمان :

وكان الشراب وهوى الغلمان فاشيين بين الأندلسيين، تدل على ذلك أخبارهم وأشعارهم، وتجاوزت شهرتهم بهاتين الخلتين حدود الأندلس، حتى إن ابن دقيق العيد قال لأبي حيان النحوي : «أنتم يأهل الأندلس فيكم خصلتان : محبتكم الشباب وشربكم الخمر»[1]. فأما الشراب فقد كان شائعا بين الخاصة والعامة، ومجالس الشراب ووصف الخمر من الموضوعات الكبرى في الشعر الأندلسي، وقد حاول الحكم المستنصر قطع الخمر من الأندلس وشاور في استئصال شجرة العنب، فقيل له إنهم يعملونها من التين وغير ذلك، فوقف عمَّا همَّ به[2]. وعاقب بعضُ الولاة بالقتل على شرب الخمر[3]، وشدد بعض الموحدين في منعها أحيانا[4]، وكان بعض الفقهاَء والعامة يقومون بإنكارها وكسر أوانيها، وأمر بعض الأمراء - في ظروف خاصة - بإراقتها وإباحة حماها كما نرى في عهد الحكم المستنصر وأبي الوليد بن جهور، وكان لذلك صداه عند الرأي العام نجده في قصيدة الرمادي التي تعبر عن رأي الشاربين[5] كما نجده في هذه الأبيات التي يتظاهر فيها ابن زيدون بتأييد رأي أميره ابن

---

1. الطالع السعيد 584.
2. المغرب 1 : 181.
3. اعمال الاعلام : 234، 276.
4. رسائل موحدية : 164 وعيون الانباء 2 : 80.
5. انظرها في جذوة المقتبس : 14 - 15.

جهور، ومن البيت الأخير فيها نفهم أن العامل الاقتصادي كان له دوره ـ أحيانا ـ في الإبقاء على الخمر وعدم التعرض لأصحابها :

لقد أوسع الإسلام بالأمس حِسبة | نحت غرض الأجر الجزيل فلم تعدُ
أباح حمى الخمر الخبيثة حائطا | حمى الدين من أن يستباح له حدُّ
فطوق باستئصالها المصر مِنّة | يكاد يؤدي شكرها الحجر الصلدُ
مظنَّةُ آثام وأم كبائرٍ | يقصِّر عن أدنى معايبها العدُّ
هي الرجس إن يذهبه عنه فمحسنٌ | شهير الأيادي ما للآلائه عدُّ
رأي نقصَ ما يجْبيه منها زيادة | إذ العوض المرضى إلاَّ يرح يغدُو[1]

إلا أن كُلَّ هذا قليل بالنسبة إلى مانراه في تاريخهم، إذ كان التسامح في الشراب، والإغضاء عن أهله غالبا عليهم، وكثيرا ما نقرأ في أخبار قضاتهم إعراضهم وتغافلهم عن السكارى، ويقول الشقندي في وصف ما كان يقع بوادي إشبيلية «وقد سعد هذا الوادي بكونه لايخلو من مسرة وأن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر لاناه عن ذلك ولا منتقد، مالم يؤد السكر إلى شر وعربدة، وقد رام من وليها من الولاة المظهرين للدين قطع ذلك، فلم يستطيعوا إزالته»[2].

وقد جاءت أمثالهم صورة من واقع حياتهم ففيها إغراء بالشراب ولكن في الستر[3]، وتفضيل للخمر على الرب[4]، ومن أمثالهم المعبرة :

1ـ ديوان ابن زيدون : 34 (شرح وتحقيق محمد سيد كيلاني).
2ـ نفح الطيب 4 : 199.
3ـ المثل رقم 78.
4ـ المثل رقم 219.



القِطَاعَ والقَراعَ، ويجى الشَّراب من سَاعَ (رقم 237).

شُرب الخَل خَيْر من العُطَالَة (رقم 1886).

شَيْنِ بِشَيْن الشّرابْ أرشَدْ (رقم 1912).

وثمة أمثال تشير إلى الإدمان والمدمنين والشراب بالدين وبعض العادات الخاصة بالنقل أو «التمالح» كما كانوا يسمونه[1].

كما وردت أمثال عديدة في اللواط والصبيان والمرد مع إشارات إلى بعض من عرفوا بذلك[2]. ويفهم منها أن اللواط كان منتشرا في أوساط الطلبة والكتاتيب[3] وذلك ما تشير إليه بعض الأخبار أيضا كما تشير إلى اتخاذ الغلمان وعشقهم، ويبدو أن حوادث القتل بسبب اللواط والقطم كانت واردة، وأن مصير اللائط أن يموت قتيلا كما جاء في المثل :

عنْ مُقَابِل : لَوَّاطْ مَقْتُولْ (رقم 1676).

وقتل بعض أدباء الأندلس المعروفين بذلك شر قتلة[4]، ونجد في بعض كتب النوازل تفصيلات غريبة عن الأماكن التي كان يتخذها اللاطة والمؤاجرون لهذا الغرض وما كانت تشتمل عليه من فنون الإغراء والإثارة كبعض الصور الخاصة وأدوات اللعب[5].

عدم الغيرة :

وفي أمثالهم سخرية شديدة من «القَرَّان» أي الديوث الذي لا يغار على أهله، ومن ألطف أمثالهم في ذلك قولهم :

1ـ الأرقام : 1457، 1788، 1473، 132، 1084.

2ـ الأرقام : 511، 521، 1600، 1613، 1615، 1616، 1786.

3ـ الأرقام : 532، 730.

4ـ الغصون اليانعة : 43 ومنهم الشاعر ابن هانئ والكاتب ابن خاقان.

5ـ الأحكام الكبرى لابن سهل (مخطوط).



أول مايعْطَى للقَـرَّان حسن الظَّـن (رقم 256).

وقد ذكر ابن حزم في طوق الحمامة بعض من عرف بهذا الوصف من معاصريه في المجتمع القرطبي[1]، وانكر فعلهم وهجاهم وقال في أحدهم قطعة منها:

أنت لا شَكَّ أحسنُ النَّاس ظنّاً ويـقـينـا ونـيـة وضَمِـيرا[2]

ونعت ابن محرز الوهراني بعضهم في رسالة له «بالتغافل وحسن الظن وقلة الفضول[3]».

وهو يشير إلى ماجاء في المثل، ولهذا نراهم ينصحون بالشك وعدم الثقة والاطمئنان فيقولون:

كَثْرة الاطْمِـنَـنْ تولَّد القُرون (ابن عاصم رقم 597).

وقالوا:

مِـنْ غَـمْـزْ يَـرْجَـع الرَّجل قَـرَّانْ (رقم 1539).

من ازْوَجْ قَـحْـبَـة قَرَّانِ بشَـهَـادَةْ (رقم 1249).

الـزنـا:

أما الزنا فقد ورد النهي عنه كما في المثل التالي:

لا تَسْرَقْ مَعَ مَـنْ اسْرَق ولا تَزْنِ مَع مَـنْ زَنَـا (رقم 2023).

1ـ طوق الحمامة 130 ـ 132.
2ـ المصدر نفسه 132.
3ـ منامات الوهراني 135 (تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نقش).



ولكن أمثالا أخرى تشير إلى ارتكابه واحترافه وإلى شهرة بعض الأماكن به[1]، ويفهم من بعض الأمثال أنه يشترط في البغي أن تكون عارفة بالغناء والرقص[2]، وكان يطلق على من يسكن في الفنادق من النساء لهذا الغرض: خرجيرات[3] أو خراجيات، وفيهم ورد المثلان:

أنجَبَرت الخَرْجير بصَاطِل (ابن عاصم رقم 244).

فنْدَق بن راغُو: نَصارا ويَهُودْ ومُسْلِمين ان لطافْ (رقم 1770).

وفي بعض الأمثال سخرية شديدة من أولئك الذين لا يشبعون من الخبز وليس لهم مال ولا منزل ومع ذلك يتتبعون النساء[4]، وكما رأوا أن القتل عاقبة اللَّواط رأوا أيضا أن الجذام (ولعلهم يعنون ما عرف بالأمراض التناسلية) عاقبة الزنا[5].

السرقة:

ويتردد في أمثالهم ذكر السارقين واللصوص والطرق المخوفة واعتراض القوافل، ومنها ما يشير إلى قطاع الطرق الذين كانوا يتربصون بالمسافرين في الدروب والمنعرجات[6]، وقد أشار ابن سعيد إلى حوادث السرقة والتلصص بالأندلس، ومما قاله: «ولا تكاد في الأندلس تخلو من سماع «دار فلان دخلت البارحة» و«فلان ذبحه اللصوص على فراشه»[7]

ويشير أحد أمثالهم إلى مزية الأسوار وأبوابها في الوقاية من اللصوص:

أشْ عُمِل الصور (السور) إلا لأبناء الحلاَّل (ابن عاصم رقم 99).

1ـ رقم 1824.
2ـ رقم 1796.
3ـ ألفاظ مغربية 155 والذخيرة 1/1 : 207.
4ـ رقم 1030 ورقم 1376.
5ـ رقم 1676.
6ـ الأمثال رقم 43، 1051، 1395، 1759، 1798، 1830، 1845.
7ـ نفح الطيب 1 : 204.

وللشاعر ابن مسعود القرطبي قصيدة يصف فيها لصا أخذه في طريق قرطبة[1]، وكانت جبال قرطبة وكرا لقطاع الطرق، واشتهر بعضهم وضرب بهم المثل كالبازي الأشهب وأبي الريش[2]، والبازي الأشهب نموذج لقطاع الطرق الذين عرفتهم جبال قرطبة Sierra Morena حتى في العهد المسيحي، وقد انتهى أمر البازي الأشهب بأن جعله المعتمد بن عباد في حرسه[3] وظل الناس يذكرونه إلى أيام ابن قزمان الذي يقول في مدح أحد الولاة (زجل 78).

لو ذَاق «الفَلاَّك» سَيْفَك لَم يقتل بَشَرْ

وَلَوْ راكَ البازْ الأشهب" يمَام كَان يَصِيرْ

وقد أصبح اسم «الفلاك» في بلدان المغرب فيما بعد علما على قاطع الطريق، والجمع : فلاكة، ولم يكن هؤلاء الخارجون على القانون من الأراذل أو ممن نبذهم المجتمع دائما بل كان بعضهم من أبناء السراة المثقفين أحيانا كما هي حالة أبي الحسن علي بن جودي الذي اتهم في دينه وطلب ففر وصار مع قطاع الطريق، وله قطعة شعرية يصور فيها شعوره ورأيه في إخوانه في لهجة قرمطية نلمح فيها أيضا نفس المتنبي في بعض شعره :

فأقسم لولا البعد منكم لسرَّني	ثوائي بالغابات وهي فلاة
فإن بها من رهط كعب وعامرٍ	سراة نمتهم للعلاء سراة
أبوا أن يحلوها بلاد حضارة	مخافة ضيم والكفاة أباةُ
فحطوا بأم القفر داراً عزيزة	تمار على حكم القنا وتقات

1ـ الذخيرة 2/1 : 77 ـ 75.

2ـ الذخيرة 2/1 : 76 والعاطل الحالي : 211 في زجل لمدغليس.

3ـ نفح الطيب 5 : 264ـ 265.



وهو نص حي فيه شيء من دلالة تومئ إلى الأسباب النفسية والاجتماعية والسياسية لظاهرة قطاع الطرق في الأندلس.

وكان الصلب في الغالب عقوبة قطاع الطريق، إذ نجد شاعرا يصف ثلاثين منهم صلبوا على نهر قرطبة، فيقول :

ثلاثُون قد صُفِّقُوا كُلُّهـم وقد فَتَحُـوا أذرعا للوداَع

ومـا ودَّعوا غيـر أرواحهم فكان وداعاً لغير اجتِماَع[1]

التسول :

ذكر ابن سعيد أن التسول كان مستقبحا في الأندلس إلى النهاية، وقال : «وإذا رأوا شخصا قادرا على الخدمة يطلب سبُّوه وأهانوه، فضلا عن أن لا يتصدقوا عليه، فلا تجد بالأندلس سائلا إلا أن يكون صاحب عذر[2]»، وقد نجد في أمثالهم ما يشهد لهذا الكلام، كقولهم :

لا صَدَقَ، ولا قول انْ مَعْروفْ (رقم 1977).

إلاَّ أننا نجد أيضا أمثالا عديدة يذكر فيها «الساعي» أي السائل، كقولهم :

بَحَال منْ سَعا واهتَرقْ لُ (ابن عاصم رقم 277).

بَني حاجْ[3] بَحَلْ ذبَّان الفَرَسْ (رقم 590).

سمِعَتْ بِنْت السُّلْطان السَّاعِي يَسْعى، قَالتْ : كتَعمَل. شبَاتِ بشحْم (رقم 1845).

1ـ اختصار القدح المعلي : 90 ونفح الطيب : 4 : 292.

2ـ نفح الطيب 1 : 205.

3ـ فاتني أن أذكر في شرح هذا أن إضافة بني حاج وردت في بيت لليوسي فيه (ديوانه 8/8) فإن بني الدنيا «بنو الحاج» ما اجتنوا : من العود إلا مثمرا غصنه غدا.

وذكر ابن خلدون في مقدمته أن السائلين يختلفون في مطالبهم باختلاف الأمصار في العمران، ووصف ما شاهده في زمنه إذ يقول : «فإن السائل بفاس أحسن حالا من السائل بتلمسان أو وهران، ولقد شاهدت بفاس السؤال يسألون أيام الأضاحي أثمان ضحاياهم، ورأيتهم يسألون كثيرا من أحوال الترف واقتراح المآكل مثل سؤال اللحم والسمن وعلاج الطبخ، والملابس والماعون كالغربال والآنية، ولو سأل سائل مثل هذا بتلمسان أو وهران لاستنكر وعنف وزجر»[1] ولعل قولهم :

«ساع بميلق» (الزجالي رقم 1844).

مَحْرومْ بمَرْقومْ ساعي بقَلَسْطونْ (القستلي).

يشير إلى شيء مما ذكره ابن خلدون.

الخرافة والشعوذة :

رددت الأمثال أصداء بعض الخرافات الشعبية عند الأندلسيين، فمن ذلك ماكانوا يقولونه : «من تخييل الجن في الأرحاء والحمامات وعدم إقدام الناس - إلا من شذ - على دخولها منفردين بالليل لا سيما في الظلام» ولعل هذا المثل الغرناطي يشير إلى ذلك :

جن رحا : أسود مغبر (ابن عاصم رقم 365).

---

1. مقدمة ابن خلدون : 343.



وذكر هذا أبو البركات البلفيقي في أبيات له منها :

زعَم الـذين عقُولُـهم إن عُرضت للبيع غير ثمين

أن الرحا معمورةٌ بالجنِّ والحمَّام عندهَم كذا بيقين

وكانوا يتطيرون من أشياء ورد ذكرها في بعض الأمثال :

طَيْـر العَشِي طَيْرانْ مُوذِي (رقم 1053).

خَيْر يا طَيْـر (ألف باء : 129).

وأشارت الأمثال إلى المشتغلين بالسحر والتنجيم :

ضَرَّابة الخفيف، المقرع والتَّكْتِيف (رقم 1632).

يمَنّي بالزهرا، ويسْكُنْ في عش نَسْرا (رقم 2136).

كما أشارت إلى المشتغلين بالحروز والتعاويذ :

حُروز خطَّاب (رقم 843).

حِرْز أبي دُجانه (رقم 844).

وتعتبر المنظومة التي عزاها ابن الخطيب للبناهي في هذا الباب جامعة للحروز والتمائم التي كانت تعلق حجابا لصاحبها مما يلي :

من الجن والعمـار أو آم ملدم وتلك هي الحمِّي ووسوسة النفس

ومن أم صبيان وسحر وبغضة ومن ربْط ذي عُرس تكَلف في عرس

ومن ساكن الحمام والفرن والردى ومن ساكني قبر القتيل من الإنس

ومن غولة في القفر أو صوت هاتف ومن وجع في الرأس يُخرج عن حس[1]

1ـ الكتيبة الكامنة : 149. 150.

ولمحت الأمثال إلى حيل المشعوذين بالطب والصيدلة في الأسواق والأماكن العمومية، وذلك ما نجده في قصيد ظريف للشاعر الهزلي ابن مسعود القرطبي[1].

قيم اجتماعية :

إن الأمثال التي تعني بالسلوك الإنساني كثيرة ولو أردنا أن نتتبعها بالتصنيف والتحليل لطال هذا الفصل، ولذلك فسنكتفي بتقديم نماذج من بعض القيم الاجتماعية التي تبدو بارزة في الأمثال الأندلسية.

الادخار والاحتياط :

ذكر ابن سعيد أن الأندلسيين "أهل احتياط وتدبير في المعاش وحفظ لما في أيديهم خوف ذل السؤال، فلذلك قد ينسبون للبخل[2]» ونحن نجد مصداقا لهذا الكلام في أمثالهم فهي توصي بالادخار :

ارفَعْ ماشيت يقُل لَّك الزمن هـيتْ (رقم 427).

مَنْ رَفَعَ من غَدَاه لعَشَاه لِسْ يَنْتَقَم عليه اعْداهْ (رقم 1377).

مَن بَات بِلاَ عَشَى عطاردي يصبح هو (رقم 1258).

مَنْ مَاعُ تَرنْح لينَّيْر يرفعْهَا (رقم 1412).

ارْجَعْ فَلْس بقَى لَكْ (رقم 451).

وهم يفضلون خزن الزرع على بيعه حتى ولو دخله السوس :

سُوس خَيْر من فُلُوس (رقم 1846).

ويخزنون الثوب حتى يبلى ولا ينتفع به :

حزني على القبطي، بلَتْ وهي مَطْوِيَ (رقم 839).

1ـ الذخيرة 2/1 : 370.

2ـ نفح الطيب 1 : 223.



وهم يقولون في المرء يدخر الشيء فيجده في وقت الحاجة والشدة :

من مَاع مُا يَبِيعْ، اِشْ يَضِيعْ (رقم 1414).

ويقولون في معنى الاحتياط أيضا :

لا تَهْرَقْ ما، حتى تَجِدْ ما (رقم 2015).

وينصحون بالاقتصاد في المعيشة فيقولون :

اخْلَطْ القمح تَصَلُحْ (رقم 418).

كُلْ خُبزَكْ باللَمكْ، يكُونْ أوْفَر لدرْهَمَكْ (رقم 1140).

اشْتَرى بقطَاعَك، ما يَدْخُل في اصبْاعَك (رقم 464).

وهم يرون أن شراء الأشياء الغالية سبب في الفقر :

الشيِّكلِ تفَقَّرْ (رقم 348).

ويقولون في معنى الإنفاق بدون حساب :

مِنْ أيْ تأخُذْ ولا تَجْعَلْ، للقَاعْ تَصِل (رقم 1455).

ومن أمثالهم في حسن التدبير أيضا قولهم :

من اهْتَرقْ زيتُ في دقيقْ يَعْمل الكَحْكْ (رقم 1393).

على قَيْسْ كسِيك، تمُد رجلِيكْ (رقم 1640).

الدقيقْ من السَّحَر والعَشَا من الظُّهر (رقم 282).

النظافة :

ووصف ابن سعيد أيضا أهل الأندلس بنظافة الملبس والفراش وغير ذلك ولسنا ندري هل كان مبالغا حين قال : «وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه فيطويه صائما ويبتاع صابونا به يغسل ثيابه، لا يظهر فيها

ساعة على حالة تنبو العين عنها[1]» ومهما يكن فإن أمثالهم تذم القذارة وأهلها وتصورها بكيفية منفرة، وبلغ من تقديرهم للنظافة أن دعوا إلى تطليق المرأة تمتخط في قناعها أو تدخل أصبعها في أنفها :

إذا رَيْت المرا تَمْخَطْ في قنَعها، وتخرَّج المفْتُول بأصبْعْها لا تَبْقَى مَعْها (رقم 38).

وصفة القذارة في المرأة رذيلة لا تحتمل :

كل شيء يَهُون إلا الغَزْل المعْفُون (رقم 1091).

سَمَج ومقْذُور، حرَّ غيَر مَشْكُور (رقم 1858).

ورسموا صورا للقذارة تبعث على التقزز حين قالوا :

اقْذَر منْ ولَد ناصر الطَّباخْ الذي كَانْ يقْتُل القَمْل على صلُب المغرفَة ويمسح المغْرفَة في صلُب الكَلْب (رقم 514).

ترد (ثريد) أم حكَم الِّي استَنْجَت بيد المهرازْ (رقم 340).

والمخاط والبصاق في الأرض من العادات المستهجنة :

بَحَل ربِّي في شْنُوعَ يَتَحرَّكْ ويَبْزَقْ (رقم 624).

ومن أمثالهم التي لها دلالة في هذا الباب أيضا قولهم :

كَنَسْ وجلَسْ (رقم 1156).

---

1. نفح الطيب 208/1.



ثُلُثْ الخَبْيَ دُرْدِي، شيء انْ رَدِي (رقم 744).

رَخِيصْ كَسْر الخَابْي بعَقْر الفَارْ (رقم 991).

مَا كَفَى العَيْشُ المُر إلاّ فِيه الذُّبَانْ (رقم 1514).

قَدْرة الزَّفت ما يُطْبَخْ فِيها مْعَسَّل (رقم 1822).

ويرد في أمثالهم ألفاظ التطرية والتبخير والرش بالماورد والحمام والحك والمنديل وما إلى ذلك مما يدل على بيئتهم الحضرية.

العمل:

أكثر أمثالهم تحثُّ على العمل والسعي وتذم الكسل والعجز، وفيما يلي طائفة منها:

غُبَار العَمَل اخْيَرْ من زعفران العُطْلَة (رقم 1719).

اخْدَم بَاطَل ولاَ تَجْلَسْ عَاطِلْ (ابن عاصم رقم 220).

من جَلَسْ بلاَ شُغْلْ يطْلُبْ في رَاسْ قُول عَظْمْ (رقم 1433).

الجُلُوسْ بلاَ شُغْل يِحَمَّقْ (ابن عاصم رقم 172).

مَنْ حَبْ لُلْ، يَرْقُصْ اللّيلْ كُلُّ (رقم 1375).

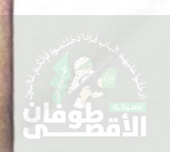
مَن لُو حَاجَ، يَرْكَب المَحَجَّ (رقم 1396).

وقالوا في معنى الراحة تجيء بعد التعب:

قَرَّ قَولُ من سَعَا (ابن عاصم رقم 563).

---

1. رقم 1276 رقم 1277.



ومن أمثالهم فيمن يطلب الشيء عفوا بلا تعب :

رَقَدْ مَرَسْ وابْرِيلْ، وجَا فِي وَقْت حَصَاد الشَّعِير (رقم 996).

يارَايْدِينْ العَصِيرْ، أيْ كُنْتُمْ وَقْت الزَّبِيرْ (ابن عاصم رقم 834).

وقد عبروا عمن يبقى كلا على غيره ولو كان أخا أو قريبا بما يدل على الاحتقار الشديد[1] وقالوا في عمل الشيء في وقته :

مَنْ تَوَضَى قَبْل الوَقْت، صَلَّى فَالوَقْتْ (رقم 1250).

مَنْ خَلاَّ شُغْل اليَوْم لِغدا، مَا يَفْلَحْ أبَدا (رقم 1456).

ولهم في مداومة العمل والمواظبة عليه :

مَنْ وَاظَب الرَّحَا يَطْحَن (رقم 1421).

على أنه قد ورد في أمثالهم أيضا ما يصرح بأثر القضاء والقدر والحظ في مسألة الرزق كما في هذه الأمثال.

ارزاقْ الثعابِين، لِلكَيفانْ تَقْطعْ (رقم 123).

الرزق والأجلْ، مافيهمْ عَمَلْ (رقم 257).

الذي خَرَقَ الأشْدَاقْ يَأْتِي بالأرزاقْ (رقم 353).

المـال :

لا تختلف الأمثال عن غيرها من مأثور القول في ذلك الموقف المتناقض تجاه المال، ولهذا جاءت بعض أمثال الأندلسيين معبرة عن فكر واقعي يحترم المال ويقدر دوره الكبير في الحياة، وجاء بعضها الآخر مستوحي من نزعات دينية أو صوفية تدعو إلى الزهد والقناعة والكفاف. فالأولى تقرر أن قيمة المرء ما يملك من مال :

1ـ نفح الطيب 1 : 220



الرجل بالقِطَاعْ (رقم 238).

عَنْدَك شِي، تَسْوى شِي (رقم 1699).

وصوروا سلطان المال وقدرة أصحابه على تحقيق المعجزات ـ بالنسبة إلى عصرهم ـ فقالوا :

القطاع، تِطَلَّع الما للصَّمْعَ (رقم 336).

والناس تبع لصاحب المال يتهافتون عليه ويميلون إلى جانبه :

مَنْ مَاعْ كرسَعَنَّ الحمامْ تَتْبَاعْ (رقم 1261).

والفقر ذلّة، وهو ينفي عن المرء صفة المروءة لأن المرء إذا افتقر يضطر إلى ارتكاب مايخالف أخلاق المروءة :

القِلَّة ذِلّة (رقم 480).

مَا مَع القِلَّة مُروَّة (رقم 1332).

الزَّلْط مَالُو مُرُوَة (ابن عاصم رقم 153).

أما أمثال الزهد والقناعة فهي عديدة كقولهم :

ايْأَسْ عَن الغنَى يَطِيبْ عيْشَكْ (رقم 408).

أقَلْ رزقْ يبلَّغْ الأجَلْ (رقم 221).

ولهذا فما أسوأ حظ الذي لم يُرزق شيئا :

سِويدْ (يَاسواد) من لا يُعْطِيهْ الله شيئا (رقم 866).

على أن ثمة مثلا يحمل ـ فيما نفهم ـ تهكما لاذعا بمثل هذه الأمثال، ويرى أنها ضرب من خداع النفس وتعليلها بالآمال وهو قولهم :

تَعْزِية الفَقِيرْ : لا مَالْ إلا الصِّحَة (رقم 762).



وقد نجد لهم في مشكلة الفقر والغنى أمثالا في غاية التعبير والدلالة كهذا المثل الذي يقول ـ بصيغة الاستفهام ـ إن الناس يخرجون من بطون أمهاتهم لا يملكون شيئا :

من خَرَجْ مِن بَطْن أمّْ بِخَريطَ في كُمُّ؟ (رقم 1286).

وهناك أمثال في ذم الطمع والجشع كقولهم :

من أَكَلْ وَحْدُ يَخْتَنِقْ (رقم 1437).

من مَاتْ مِنْ شَبْعَ لا أَقَامهُ الله (رقم 1445).

وقالوا :

من أَكَلْ سَهْم يُغْلَق فُمُّ (رقم 1291).

الجماعة والفرد :

نجد في أمثالهم ما يدعو إلى التمسك بالجماعة والحث على عدم الخروج من دائرتها حتى ولو كانت على خطأ :

اخْطَ من الجمَاع، ولا تُصِبْ وحْدَكْ (رقم 119).

مُتْ مع الناسْ ولا تَعِشْ وحْدَكْ (ابن عاصم رقم 750).

ومنها ما يصور قوة الجماعة وخضوع الفرد لأحكامها، ويدخل في ذلك أيضا تلك الأمثال التي تدعو إلى التعاون، إلا أننا نجد أيضا النزعة الفردية والسلوك الأناني في أمثال أخرى كقولهم :

لِسْ يَدْري أحَد، بحِس أحَدْ (رقم 1176).

ضَرب في جَنْبْ غيرَكْ أو فالحِيطْ سَوَا (رقم 1619).

شَويَّه انْ لِسْ لَكَ دَعْهَا تَحْتَرِقْ (رقم 1900).



ويبدو ذلك في أمثال أخرى تدعو إلى الاعتماد على النفس وعدم الاتكال على الغير حتى ولو كان من الأقرباء

من اتَّكَل على مُرَيْقَة جارت، أَصْبَحَت كُسَيْرتُ لِراسُ (رقم 1290).

خَلاَّ لَكْ وِلْدَكْ شيِ، ان عمَّكْ لِس يَعْطِيكْ شيِ (رقم 896).

ويبدو أيضا في تلك الأمثال التي نرى فيها الصلات بين الناس تقوم على سوء الظن والحيطة والحذر، ومنها :

إذا رَيْت الجالسْ يسَلَّم على الواقف ادر أن ريبه ثَمَّة (رقم 33).

اقرأ النَّقِيص مَعَ كُلْ أحَدْ تَفْلَحْ (ابن عاصم رقم 250).

الظن اللطيفْ لا تِفارَقُ (ابن عاصم رقم 177).

عُمْ واحرزْ ثيابَكْ (رقم 1633).

فِراخ الزُّمَّجْ : مَنْ غْفَلْ طَارَتْ عَيْنُ (رقم 1763).

والمنفعة هي الباعث المحرك في كثير من مظاهر السلوك وصلات الأفراد كما تعبر عن ذلك هذه الأمثال :

لَوْ عطِيتني بُضَيْع، كان نبكي مَعَك دُمَيْعه (رقم 1246).

تعطيني الجُمَيْل، قالَ حتَّى ترحَل الحُمَيْل (رقم 738).

ما تُقَال الفَوائِد، إلاَّ على الموائِدْ (رقم 1318).

لِسْ يَصْطَادْ قِط للَّه (رقم 1168).

ووصفوا في بعض أمثالهم ما ينتج عن الإحسان وعمل الخير من أذى أحيانا فقالوا :

ارمِين عليهِمْ جَرَّدُونَا (رقم 215).

ضَمَمْنَاه لِلَّه خَرَجَتْ لنا مِنٌّ علّه (رقم 1625).

عَدُو اليتيمِ من يربّيه، وعَدُو القِط مِن يَفْلِيهْ (رقم 1639).

سُقنَ للدَّارْ دِيك، خَرَجْ لنا مَنٌّ شَرَيكْ (رقم 1833).

واسِ الضعيفْ، يَرْجَع لك حَرَيفْ (رقم 1942).

والعلاقات بين الناس تبدو في الأمثال غالبا في صورة قاتمة، ففي الجار نحو عشرة أمثال ومعظمها تذكره بالسوء كقولهم :

جار جاران مشئوم يرى في عين التبن ولا يرى في عين الطمون (رقم 764).

خسارة ان لا يدري بها جارك فضل هي كلها (رقم 749).

ومثل هذا في الأقارب، وإذا وجدنا مثلا يصور البرور على النحو التالي :

تنزع من فمه، وتعطي له (رقم 740).

فإننا نجد نقيضا له كما يلي :

خَلِّ وِلْدَك، وكُلْ وَحْدَكْ (رقم 916).

وقالوا في بعض الأقارب :

خَلاَّ لِكْ وِلْدَكْ شِيْ، إنَّ عَمَّكْ لِسْ يَعْطِيكْ شَيْ (رقم 796).

وفي الأصهار :

إذا ريتْ سلَفك، سل سيفَك (رقم 55).

من يريد الحَسَنة يَدْبَح الخَتَنَة (رقم 1464).

وفي الأصحاب :

الصُّحبَ واحدِ والعَيْش خلاف (رقم 181).



ومن أبرز نواحي السلبية في الأمثال القديمة تلك التي تحذر من قول الحق أو المجاهرة بالرأي كقولهم :

العاقِلْ مَنْ يرى ويستحسنْ (رقم 253).

لس يَقُولْ الحَق، إلاَّ صَبي أو أَحْمَقْ (رقم 1177).

لا تَقُلْ طَابَتْ ولا احْتَـرَقَتْ (رقم 2025).

وبالجملة فإن النقد الساخر هو الغالب في أمثال السلوك، كما أن لهجتها أقرب إلى التشاؤم منها إلى التفاؤل وربما كان ذلك راجعا إلى أنها كثيرا ما ترسل في أعقاب تجارب مريرة.

ونشير في الأخير إلى أن هذه الأمثال العامية ـ برغم سيرورتها في بيئة إسلامية ـ قد تخالف أحيانا في منطوقها ومفهومها روح العقيدة الإسلامية السنية، وقد تنبه إلى هذا فقيه إشبيلي هو أبو علي السكوني الذي ألف رسالة أسماها «لحن العوام، في ما يتعلق بعلم الكلام»[1] وفي هذه الرسالة نجد السكوني يتتبع بعض أمثال العوام وأدعيتهم ومختلف عباراتهم ناقدا ومبينا ما فيها من زيغ عن العقيدة فهو يرى أن قولهم :

ما يسمع الله من ساكت[2].

يخالف قول الله تعالى : «أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون».

1ـ نشر هذه الرسالة الأستاذ عبد القادر زمامة في مجلة معهد المخطوطات العربية (المجلد 17 السنة 1971). ونشرها كذلك الأستاذ سعد غراب من تونس.

2ـ انظر المثل رقم 1189 في القسم الثاني.

ويرد على قولهم :

يجعل الله لكل شيء سبب[1]

بأنه «باطل» لأنه كلام يلزم منه التسلسل، لأن السبب شيء مجهول يستدعي سببا آخر، إلى غير نهاية فيلزم منه القول بقدم العالم، وهو كفر والعياذ بالله من سخطه».

ومما رأى أن فيه رائحة من الشرك قولهم :

سبحان الله وما يخلق.

ما يرحمك إلا الله ودراهمك.

أنا بالله وبك.

ومما رأى أن ظاهر لفظه يشعر بإنكار المعاد والحشر قولهم :

ما رأيت من رجع من المقابر.

كذا وجدناها وكذا نتركها[2].

وثمة أمثال رأى أنها تصرح بالاعتراض على الله تعالى في أحكامه وعدم الرضا بقضائه كقولهم :

يعطي الفول لمن ليس له أسنان[3].

أين كنا عن هذه القسمة[4].

قيل لبعضهم : كيف عشت؟ قال : كيف وجدت لا كيف أردت.

ونرى أن السكوني تمحّل أحيانا في تأويل كلام العامة وإن كنا نسلم أن أقوالهم وأمثالهم ليست موزونة دائما بميزان العقيدة الدقيق.

---

1. ابن عاصم رقم 847.
2. انظر المثل رقم 1137 في القسم الثاني.
3. انظر رقم 2143 في القسم الثاني.
4. انظر المثل رقم 302 في القسم الثاني.



الجانب اللغوي والأدبي في الأمثال الأندلسية والمغربية



رأينا من الفصول السابقة بعض ما تقدمه الأمثال العامية الأندلسية من فوائد تاريخية واجتماعية وأدبية، ولهذه الأمثال أيضا قيمة لغوية لا تقل أهمية عن قيمتها من النواحي التاريخية والاجتماعية والأدبية، وهي بلا شك تضيف مادة جديدة إلى ما هو معروف حتى الآن من نصوص ووثائق في العامية الأندلسية كأزجال **ابن قزمان** وغيرها من النصوص العامية، وكتلك السلسلة من المؤلفات الأندلسية في لحن العامة التي بدأها **أبو بكر الزبيدي** (ت 379هـ) وتبعه **ابن هشام اللخمي** (ت 577هـ) وابن هانيء **السبتي الإشبيلي** (ت 733هـ) **وابن جزي الغرناطي** (ت 741هـ) **وابن خاتمة** (ت 770هـ)، وتلك المعجمات الثلاث التي ألفت في إسبانيا خلال القرون الوسطى وحوت كثيرا من مفردات العامية الأندلسية، وهي المعجم اللاتيني العربي : Glossarium latino-arabicum الذي ألفه مجهول في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري)، والمعجم الذي ينسب إلى **الراهب القطلاني** رمند مرتين[1] من أهل القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) وعنوانه : Vocabulista in arabico والمعجم الذي ألفه **الراهب فراى بدور الكالا** نحو سنة 1505 بعنوان : Vocabulista arauigo.

وربما كانت الأمثال كالأزجال من أكثر هذه الوثائق قيمة في معرفة طبيعة العامية الأندلسية وخصوصا من حيث البناء والتركيب ومجال الاستعمال بوجه عام، ذلك أن كتب لحن العامة والمعاجم المذكورة لا تعنى إلا بالألفاظ والمفردات ودلالاتها وتطوراتها، وقد اهتم جماعة من الباحثين بدراسة الناحية الصوتية في العامية الأندلسية مثل **سيمونيت وشتايجر** وعكف

1ـ انظر فيما كتب في رمند مرتين والقاموس المنسوب إليه ومؤلفاته الاخرى كتاب تاريخ الفكر الأندلسي لبالنشيا (ترجمة د. حسين مؤنس) من ص 540 إلى ص 542 والمصادر التي أحال عليها، وكذلك مقدمة قاموس دوزي وفي مجلة الأندلس مقالات حوله أيضا.



الأستاذ كولان منذ زمن بعيد على استخراج قواعد عامة لها ولعل هذه الأمثال تقدم مادة جديدة للمشتغلين بدراسة العامية الأندلسية والمغربية.

وقد نشأت هذه العامية في ظروف تاريخية لا نكاد نعرف من أمرها شيئا ذا بال مثلها في ذلك مثل سائر اللهجات العربية، وهي على كل حال ثمرة انتشار العربية في بيئات جديدة متعددة العناصر واللغات، ونتيجة اختلاط العرب الفاتحين بغيرهم من العجم والبربر، ومظهر لما يطرأ على العربية عادة من التبديل والتغيير حين يتكلم بها غير أهلها وقد وصف **ابن حزم** بعض هذا الذي ظل يحدث في عامية **الأندلس** حتى عصره فقال: «ونحن نجد العامة (يقصد عامة الأندلس) قد بدلت الألفاظ في اللغة العربية تبديلا، وهو في البعد عن أصل تلك الكلمة كلغة أخرى ولا فرق فنجدهم يقولون في العنب: العينب، وفي السوط: اسطوط، وفي ثلاثة دنانير: ثلثدا، وإذا تعرب البربري فأراد أن يقول الشجرة قال السجرة، وإذا تعرب الجليقي أبدل من العين والحاء هاء فيقول: مهمدا إذا أراد أن يقول محمدا[1]» ويشير إلى اختلاف عامية **الأندلس** بين بلد وآخر فيقول: «ونحن نجد من سمع لغة أهل فحص البلوط وهي على ليلة واحدة من **قرطبة** كاد يقول إنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة، وهكذا في كثير من البلاد فإنه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى تتبدل لغتها تبديلا لا يخفي على من تأمله[2]» ونجد عند **ابن شهيد** ـ معاصر **ابن حزم** ـ إشارة عامة ولكنها لا تخلو من دلالة حيث يقول في رسالة التوابع والزوابع ـ متحدثا عن كلام معاصريه من الكتاب فيما بينهم ـ بأنه» ليس **لسيبويه** فيه عمل، ولا **للفراهيدي** إليه طريق ولا للبيان عليه سمة، إنما هي لكنه أعجمية يؤدون بها المعاني تأدية المجوس والنبط[3]». وقبل **ابن حزم** و**ابن شهيد**

1ـ الاحكام في أصول الاحكام: 1: 32.
2ـ المصدر نفسه: 1: 31.
3 التوابع والزوابع: 117.



ألف **الزبيدي** كتابه لحن العوام وأشار فيه إلى بعض مظاهر العامية في عصره وسنذكر شيئا منها فيما بعد، وأشار **المقدسي** في القرن الرابع إلى لغة أهل **الأندلس** فقال: «ولغتهم عربية غير أنها منغلقة مخالفة لما ذكرنا في الأقاليم، ولهم لسان آخر يقارب الرومي[1]» **فالمقدسي** يقرر هنا صعوبة العامية الأندلسية على فهم المشارقة ومخالفتها لعامية المشرق كما يقرر مسألة أخرى هي الازدواج اللغوي الذي سنشير إليه بعد قليل.

ويبدو أن ظهور الموشحات والأزجال كان مؤذنا بأن العامية الأندلسية بلغت ذروة التكوين والاستقرار، وأصبحت لهجة أدبية تنافس الفصحى فإذا وصلنا إلى القرن السابع الهجري وجدنا **ابن سعيد** يصف لغة أهل **الأندلس** في عصره فيذكر "أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية، حتى لو أن شخصا من العرب سمع كلام **الشلوبيني أبي علي** المشار إليه بعلم النحو في عصرنا الذي غربت تصانيفه وشرقت وهو يقرئ درسه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذي في لسانه، والخاص منهم إذا تكلم بالإعراب استثقلوه واستبردوه، ولكن ذلك مراعى عندهم في القراءات والرسائل[2]» وهذا يصور بعد ما بين لغة الكلام والتدريس ولغة الكتابة والإنشاء.

وأخيرا نجد **ابن خلدون** يقرر في مقدمته أن لغة أهل الأندلس لغة قائمة بنفسها، مباينة - بعض الشيء - للغة أهل **المشرق** وللغة أهل **المغرب** أيضا، وأنها متأثرة بعجمة الجلالقة[3].

وقد اشتركت في تكوين العامية الأندلسية عوامل عديدة نذكر منها مايلي:

---

1. احسن التقاسيم: 243 ط دي خويه.
2. نفح الطيب 1: 206.
3. المقدمة: 555 (المطبعة الأميرية).



1ـ لهجات القبائل العربية الداخلة إلى **الأندلس** من قيسية ويمنية، وقد عنى كل من **ابن حزم** في الجمهرة و**ابن غالب** في فرحة الأنفس بتبيين المواقع التي استقرت بها الجماعات العربية الداخلة إلى **الأندلس**[1]، وهي ممثلة لمعظم قبائل **جزيرة العرب**، ولا شك أن ذلك كان له أثر في تكوين العامية الأندلسية، ومن الواضح أن بعض الألفاظ والظواهر اللغوية في هذه العامية كالإمالة ترجع إلى لهجات عربية معينة، وثمة من المفردات التي شاع استعمالها في **الأندلس** ما نستطيع أن ننسبه إلى عرب **الشام** الداخلين إلى الأندلس مثل كلمتي أندر[2] واصطبل[3]، والإمالة التي كانت غالبة على لسان أهل الأندلس قد تكون من تأثير القبائل التي تميل كتميم وقيس وأسد[4]، وهي قبائل كانت تكون الجمهرة الغالبة في بعض جهات الأندلس[5]، ومن الكلمات الشائعة الاستعمال في الأندلس كلمة «القطاع» أي النقود إذ نجدها كثيرا في أمثال الأندلسيين وأزجالهم وعقودهم، بل إننا نجدها في شعرهم الفصيح كقول **ابن مسعود القرطبي** :

فقلت : وأين النَّقْدُ يا ابْنَةَ عَزَّةٍ ... لقد جئتِها بلقاء مُنْتَنَةً نَتْنَا

فقالت أديبٌ شاعرٌ متفنِّنٌ ... حوى من حظوظ الظرف في زعمه الأسنى

بلا قِطْعَة. هذي لعمرُكَ هُجْنَة ... فسِرْ رَاشداً عَنَّا فمالَك من معنى

وهذه الكلمة من لغة **هذيل** فيما يقول شارح القاموس[6]، ونعرف مما ذكره **ابن غالب** أن هذيل كانت بالأندلس، ومنازلهم بجهة **أريولة من كورة**

1ـ انظر نفح الطيب 1 : 272 ـ 274 والثبت الذي استخرجه الدكتور احسان عباس من الجمهرة في كتابه تاريخ الادب الأندلسي 1 : 12 ـ 13 وفي آخر هذا الجزء ملحق مأخوذ من نغح الطيب.

2ـ انظر المثل رقم 200 في النص.

3ـ لحن العوام للزبيدي : 133.

4ـ الفصل الخامس من كتاب في الدرسات القرانية واللغوية الإمالة في القراءات واللهجات العربية للدكتور عبد الفتاح اسماعيل شلبي.

5ـ الذخيرة 2/1 79 ـ 78.

6ـ انظر المثل رام 237 في النص.

تدمير[1]، فهل تكون الكلمة شاعت في الأندلس بواسطتهم، وقليلا ما نصادف هذه الكلمة في استعمال المشارقة كقول شاعر عباسي :

كل حسن مفرَّق هو فيه قد اجْتَمَعْ

قطع الوصل بيْنَنا أنَّه يبتغي القِطَعْ[2]

ومما نحسب أنه من تأثير اللهجات العربية القديمة واستمرارها في العامية الأندلسية : كسر أول حروف المضارعة، وهو مطرد في المضارع من صيغة «فَعَّل» مثل :

نِصَوَّب، تِصوَّب، يِصوَّب إلخ...

وكذلك في صيغة «فاعل» مثل :

نِعامل، تِعامل، يِعامل[3] إلخ ...

وقد يكون ثمة تأثير لعرب الجنوب وغيرهم في عامية **الأندلس** ولعل من مظاهره إلحاق التاء بآخر ضمائر الغيبة : هُوَت = هو، هِيَتْ = هي، هُمَتْ = هم، وقد جاء هذا في بعض الأمثال :

مناقر اللحم معوَّج هِيَتْ (**ابن عاصم** 761).

2ـ ومنها العجمية el romance أو الإسبانية القديمة، ذلك أن سكان **الأندلس** عموما كانوا يعرفونها، ولدينا هنا شواهد عديدة في هذا

1ـ نفح الطيب 1 : 272.
2ـ حكاية ابي القاسم : 133.
3ـ هكذا الضبط في النسخة م من «ري الاوام» والمعاجم الأندلسية، وكسر أول حروف المضارعة يسمى «التلتلة» وفيه كلام كثير يراجع في محله من كتب اللغة.



الموضوع ولعل أشهرها قول **ابن حزم** : «ودار بلي **بالأندلس** : الموضع المعروف باسمهم بشمالي قرطبة، وهم هناك إلى اليوم على أنسابهم، لا يحسنُون الكلام باللطينية، لكن بالعربية فقط، نساؤهم ورجالهم[1]» ومفهوم هذا أن القبائل العربية الأخرى كانت تحسن ـ إلى جانب العربية ـ الكلام بالعجمية، وفي كتاب قضاة **قرطبة للخشني** (ت 361هـ) نرى بعض القضاة والشهود والخصوم يتكلمون بها، فقد ذكر في ترجمة القاضي **سليمان بن أسود** «أنه كان في وقته رجل من العدول يعرف **بابن عمار** كان يختلف إلى مجلس القاضي ويلزمه، ولا يقوم إلا بقيامه، وكانت **لابن عمار** بغلة هزيلة تلوك لجامها طول النهار على باب المسجد، قد أضناها الجهد وغيرها الجوع فتقدمت امرأة إلى القاضي، فقالت له بالعجمية "يا قاضي انظر لشقيتك هذه، فقال لها بالعجمية : لست أنت شقيتي، إنما شقيتي بغلة ابن عمار التي تلوك لجامها على باب المسجد طول النهار[2]» كما ورد في وصف أحد الشهود ما يلي : وكان حينئذ بالمدينة شيخ أعجمي اللسان **يسمى ينير**، وكان مقدما عند القضاة مقبول الشهادة مشهورا في العامة بالخير وحسن المذهب، فأرسل فيه الوزراء، وسألوه عن القاضي، فقال بالعجمية : ما أعرفه إلا أني سمعت الناس يقولون : إنه إنسان سوء، وصغره باللفظ العجمي[3]» وفي ترجمة الفقيه **ابن العطار** في المدارك نراه يحاور زوجة وكيله، بضيعته بالعجمية، وكان مما «قالت بكلامها العجمي : سواد بيت تمضي إليه ! فقال لها بمثل كلامها : بل سواد بيت خرجت منه !»[4].

1ـ جمهرة الأنساب : 443.
2ـ قضاة قرطبة : 117 ـ 118.
3ـ المصدر نفسه : 84.
4ـ المدارك 3 ـ 4 : 439 (ط بيروت).



ويرى **الدكتور عبد العزيز الأهواني** أن «وجود الخرجات الأعجمية في مخطوطات الموشحات الأندلسية دون شرح لمعاني ألفاظها دليل على أن هذه اللغة الأعجمية كانت معروفة لدى قراء الموشحات[1]» وقد ظل الإلمام بعجمية الأندلس أمراً موجوداً إلى وقت متأخر لدى المؤلفين الأندلسيين إذ نرى ابن الأبار على سبيل المثال يشرح - في مناسبات عديدة - أسماء الأعلام والأماكن الأعجمية. وألفاظ عجمية الأندلس في كتب النبات أكثر منها في غيرها كما يبدو في كتاب المفردات لابن البيطار وكتاب شرح أسماء العقار وغيرهما، ويقول ابن البيطار في مقدمة المفردات : "وقد ذكرت كثيرا منها كما يعرف في الأماكن التي تنسب إليها الأدوية المسطورة كالألفاظ البربرية واللاطينية - وهي عجمية الأندلس - إذ كانت مشهورة عندنا وجارية في معظم كتبنا».

أثّرت عجمية الأندلس هذه في العامية العربية بالأندلس من وجوه مختلفة أحدها دخول كثير من مفرداتها في قاموس الاستعمال العامي، وقد أورد ابن هشام اللخمي طائفة من الألفاظ العجمية التي كانت جارية على لسان العامة. بالأندلس في عصره، ومنها : أسباطة للخيزرانة التي يمسكها الملاح، وبجول لطرف التين، وبلنتة لما بكر من الشعير فطحن، والجيقة للضباب، وحبور لشقائق النعمان، والذنتيلة للطعام الذي يصنع عند نبات الأسنان للأطفال، والمرندة لما يتعجله الإنسان من الطعام قبل الغدَاء[2].

1- الزجل في الأندلس : 47.

2- انظر هذه الكلمات وما يقابلها في الإسبانية في ألفاظ مغربية : 142، 146، 149، 153، 154، 286، 313، على الترتيب.



ومن هذه المفردات العجمية الواردة في الأمثال : البلين (ص 6) والرمشكل (ص 6) والمرجقال (ص 18) والمول (ص 58) والقلبق (ص91) والبرغات (ص 114) وبرد قون (ص 140) وشنوغ (ص 144) (ص 28) والباله (ص 287) والطمون (ص 173) (ص 214) وجره (ص 256) وقول (ص 324) والششون (ص 362) والليطرات (ص 364) والبلب (ص 32) وبشه (ص 153) وغيرها.

ومن وجوه هذا التأثير تلك المقاطع والنهايات التي تضاف إلى الكلمات العربية مثل :

مقطع ون : UN في آخر الاسم للدلالة على التكبير كخلدون وزيدون وهو شائع في أسمائهم.

ولعل المؤرخ الرازي أقدم من أشار إلى هذا في نص نقله عنه الونشريسي في المعيار إذ يقول، في أثناء حديث عن ابن حفصون : «فولد عمر بن جعفر حفصا المعروف بحفصون - أريد به التكبير[1]».

ومقطع ERO كقولهم : زلير (ص 318 في النص) فهي كلمة مركبة من الفعل العربي : زل والنهاية الاسبانية ERO.

ومقطع ERA كقولهم : خرجير (مثل ابن عاصم رقم 244) وهي مركبة من الفعل العربي : خرج والنهاية الإسبانية ERA.

ومقطع Ote مثل قولهم : منخروط (ص 284) فهي مركبة من الاسم العربي منخر، والنهاية الإسبانية : OTE.

1- المعيار : 81/5 ويبدو أن هذا النص غاب عن علم الأستاذ الجليل السيد عبد الله كنون الذي ذهب - في مقالة له بعنوان : "هل اسم خلدون ونحوه مكبر على الطريقة الإسبانية"- إلى أن دوزي هو من رأى هذا الرأي، (مجلة البحث العلمي ع، 3، س 1).



ومقطع EL في الاسم المذكر مثل ابن غفريل فغفريل مركبة من غفر العربية والنهاية الإسبانية : EL.

ومقطع ELA في الإسم المؤنث مثل : شربالة للقدح (ألفاظ مغربية. 294 VoL ص 638) فهي مركبة من المادة العربية شرب والنهاية الإسبانية : ELA ومثل حراله أي حارة (Voc ص 511) فهي مركبة من حارة والنهاية الإسبانية : ELA.

ومقطع ELLO للمذكر ومقطع ELLA للمؤنث في حالة التصغير ولدينا بخصوص هذين المقطعين الأخيرين نص نقله ابن عبد الملك المراكشي عن النحوي المالقي ابن المرحل وذلك في ترجمة ابن حوط الله قال :

«وذكر لي شيخنا أبو الحكم مالك بن عبد الرحمن المالقي أن أصله حوطله، قال لي : وهو تصغير حوت مؤنث على عرف أهل ثغور شرق الأندلس وما صاقبها من البلاد كبلنسية وأنظارها التي منها أندة موقع سلف بني حوط الله، وتدريج ذلك أنهم يقولون للحوت والعود ونحوهما : الحوت والعود بفتح الحاء والعين، وينطقون بالتاء المعلوة طاء فيقولون في الحوت الحوط. ويلحقون الأسماء المصغرة في آخرها لاماً مشددة مضمومة في المذكر، ومفتوحة في المؤنث وهاء ساكنة، فيقولون في حوت مذكرا : حوطله، وفي حوت مؤنثا : حوطله[1]» وهذا الشرح الذي نقله ابن عبد الملك عن ابن المرحل المالقي السبتي يدل على إلمام النحوي العربي المشهور بقواعد النحو الإسباني القديم.

1ـ الذيل والتكملة 1 : 35 (مخطوط الخزانة الملكية بالرباط)، وبغية الوعاة : 2 : 44 نقلا عنه.

كما أن الألفاظ العربية نفسها اكتسبت في الاستعمال العامي معاني جديدة لم تكن لها في أصل الوضع، وظهرت مصطلحات خاصة وكنايات جديدة، فهم على سبيل المثال يقولون :

فلانة في قميصها. للحائض.

نمشي لجولة. كناية عن قضاء الحاجة.

قصير الرَّقبة. للكافر بالنعمة.

جبَّاد رسن. كناية عن القواد.

من بَاب لْبَابْ. كناية عن السائل.

طالب عافية. كناية عن المسالم.

نعدّل اجْنَابُ.. كناية عن الضرب والتأديب.

مِنْ عَرَض الفَحْص أي بلا سبب[1].

ونحن نجد كثيرا من هذه الكنايات والاستعمالات الخاصة بهم في الأمثال وغيرها.

و نذكر من صور توسعهم في الاستعمال أنهم يستعملون فعل قام ـ على سبيل المثال ـ بمعني ثار كما في هذا المثل : قام قوم سو، ودبروا راي سو (رقم 1787).

وكما جاء في قول **السميسر** :

وجب القيام عليكم   إذْ بالنصارى قمتم.

وكما في هذه الحكاية التي رواها **المقرى** وهي أن **سليمان بن المرتضى** الاموي مر يوما بالمضحك المشهور بالزرافة «وقد أوقف ذَكَره وجعل

1ـ انظر Voc على الترتيب : 474، 477، 431، 454، 506، 517، 581.

يقول له : ماذا رأيت في القيام في هذا الزمان أما رأيت كل ملك قام كيف خلع وقتل؟ والله انك سئ الرأي : فقال له **سليمان** : وبم لقبت هذا الثائر؟ فقال يا مولاي، بصفته : القائم !» ومثل هذا الاستعمال عند الأندلسيين قد يخفي على بعض المشتغلين بتراثهم، فقد علق بعضهم على هذه العبارة **لابن الابار** في التكملة : «وانتقل عن **بلنسية** مصروفا بالقائم فيها على واليها» بما يلي : «أي بالوصى عليه القائم بأمره».

3ـ البربرية، ومن الطبيعي أن يكون لها تأثير ما في العامية الأندلسية لأن البربر كانوا يؤلفون قسما كبيرا من سكان الأندلس، وكان تأثيرهم فيها من حيث النطق كما أشار إلى ذلك ابن حزم في النص السابق، ويبدو أن بعض التراكيب الخاصة في أسلوب العامية الأندلسية هي من أثر استعمال البربر والعجم للعربية وتكلمهم بها، وقد دخلت طائفة من الكلمات البربرية إلى عامية الأندلس مثل أدغص أي للبأ وأكدل أي المخصرة وكرانة أي الضفدع[1] وأسمس للمأدبة، وتمغرة كذلك، وتفرمه للباز[2] ومن الكلمات البربرية التي استعملها ابن قزمان مرارا كلمة : قليد أو إقليد بمعنى أمير كقوله (زجل 74) محبوبي فالملاح قلِّيد والناس عبيد وكذلك كلمة «أشكد» وهي فعل أمر بمعنى تعال واقبل، و«أرول» بمعنى اذهب ونجدهما مستعملتين في أزجال ابن **قزمان** كقوله (زجل 41) :

يهرب النحس مني عام متى ماقِل : أرول

وترى السعد مقبل متى ماقل أشْكِد

وكلمة «أر» وهي فعل أمر معناه : هات، كقول **ابن قزمان** : (الزجل في الأندلس : 88).

1ـ ألفاظ مغربية : 140، 144، 308.
2ـ Voc 318، 204.



أرَّقط ومُد يَدَك اني قد مدَدْت أنَايَد

فاشد ما علَى مَنْ يمَاطِل أو يمحج

وهذا الفعل مستعمل بكثرة في العامية المغربية، لكن بتخفيف الراء لا بتشديدها كما يضبط في الأزجال الأندلسية.

كما نجد عنده افكيِّي أي اعطني، واسلو، وهو اسم لطعام مايزال معروفا ويبدو أن استعمال ابن قزمان لهذه الكلمات كان من قبيل التظرف أو التحبب إلى ممدوحيه من المرابطين. والرغبة في نيل جوائزهم كما يحكى عن الطبيب ابن زهر مع أحد خلفاء الموحدين، فقد «حكي أنه لما قدم من إشبيلية إلى مراكش سمع أهل الحضرة يتخاطبون بينهم باللسان المصمودي فتشوّف لتعلمه، وقال (للخليفة) : يا سيدنا أمير المؤمنين : غبطتُ إخواني الذين يشاركون في فهم هذه اللغة فلو أذنتم للمملوك في تعلمها ؟ فأجابه إلى ذلك، وأمر أن تكتب له تلك اللغة، فغاب زمانا وحضر يوما بين يدي الخليفة فقال له : ماذا صنعت في تعلم اللسان، فقال : يا سيدنا، صعب علي تعلمه ولي زمان طويل أحاول فهمه وتعلمه فلم أحفظ منه إلا لفظة واحدة في هذه المدة الطويلة فقال : وأي شيء هي هذه اللفظة، فقال له : يا مولاي : اوش فضحك الخليفة وقال له : السمع والطاعة (ومعنى هذه اللفظة : اعطني)، فأعجبه ذلك وأعطاه ما أرضاه، ثم قال : امض على تعلمك فغاب عليه قدر تلك المدة أو أكثر، ثم جاء فسأله : هل تعلمت شيئا، فقال : نعم يامولاي، لفظة أخرى، فقال : وما هي، قال : ارنو، فضحك وأعجبه، وقال له : السمع والطاعة، وأعطاه وضاعف له العطاء (ومعنى هذه اللفظة في ذلك اللسان : زدني)، ثم قال له الخليفة : إن وجدت لهما ثالثة فافعل»[1]. ومن الكلمات البربرية التي

1ـ المسند الصحيح الحسن : 344.



وجدنا في الأمثال قولهم : «هراكس» أي نعال (ص 156) و«ترخص» أي البيسارة (ص 238) و«أغلال» (ص 124)، ولكن تأثير العجمية والبربرية في العربية لا يقارن بتأثير العربية الكبير فيهما وهو ليس من موضوعنا هنا.

وبعد هذا التمهيد نقدم فيما يلي عرضا سريعا لبعض القواعد العامة في اللهجة الأندلسية من خلال الأمثال.

التنوين : «يجعلون كل منون منصوبا أبدا، ويكتبون اللفظة بمفردها مجردة من التنوين ويرسمون وبعدها ألفا ونونا مثل أن يكتبوا «رجلا» على هذه الصورة : «رجل ان[1]» هذه قاعدة استنبطها صفي الدين الحلي من قراءته للأزجال، وهي بارزة في الأمثال أيضا، ورسم التنوين بالألف والنون نراه في المعاجم الأندلسية مثل المعجم المنسوب إلى رمند مرتين القطلوني[2]، ومعجم بطرس القلعي[3]، وكذلك في بعض الوثائق المدونة بالعامية مثل الوثيقة الغرناطية التي نشرها الأستاذ كولان[4]، ويدل ذلك على أن هذا التنوين المفتوح كان مستعملا في كلام الأندلسيين العادي وليس في الأزجال والأمثال فحسب، وهذا النوع من التنوين الذي يرسم بالألف والنون يقع في الأمثال دائما بين نعت ومنعوت كل منهما نكرة سواء كان النعت مفردا وهو الغالب كما في هذه الأمثال.

كَلَام ان كثِير في حَاجَة ان يَسِير (رقم 1123).

---

1. العاطل الحالي : 18.
2. انظر على سبيل المثال Voc ص 249.
3. انظر على سبيل المثال الكالا 42/23، 45/2، 332/3.
4. نشرت في المجلد الثالث من مجلة Islamica
بعنوان sur une charte hispans - arabe de 1312



قرْدان مُهاوِدْ اخْير مِنْ غَزَال انْ شَرُودْ (رقم 1802).

بَحَل زقّ ان نَاقِصْ عَلى حِمَارة انْ عَرَجْ (رقم 637).

أو جملة كما في هذين المثلين :

الرَّقْص قُدَّام العُمِي مَجْهُودَان لاَ يرَى عَمَلُ (رقم 329).

جوع ان تُهَدَّدْ بالشَّبَعْ لِسْ جُوعْ (رقم 775).

وهو مفتوح دائما سواء كان الإعراب ـ على فرض وجوده يقتضي ذلك كما في هذا المثل :

مَنْ طَلَبْ دَيْن ان قَدِيمْ طَلَبْ شَرًّا انْ جَدِيدْ (رقم 1382).

أم لا، وهذا التنوين يلحق الأسماء المنكرة في حالة الإفراد كما تقدم وفي حالة الجمع ومثال ذلك : أشيات ان اخر أي أشياء أخرى (الكالا : 332 ـ 3) لأنهم يجمعون شيء على أشيات كما في قول **ابن قزمان** (الزجل في الأندلس، 71).

والرَّبض لاَ شُيُوخْ ولا حُجَّاجْ وأرامِلْ مِلاح بلاَ أزْواج

ويَجّون طَول النَّهَار عن حَاجْ وأشْيَاتْ لِسْ يَنْبَغي أنْ تُقَال

فهل هذا التنوين المفتوح دائما بقية من بقايا الإعراب في العامية أم هو من آثار إحدى اللهجات العربية الجنوبية القديمة ؟ أم أنه ليس سوى ضرب من التفصح العامي ؟ ومهما يكن فإننا نجد ظاهرة التنوين المفتوح هذه في أمثال **الشام** كقولهم فيما رواه **نعوم شقير** (ص 28).

شَرْطا في الحَقْلة ولاَ قِتالاً عالبَيْدَر.

وهو كثير في الأمثال العامية السودانية كقولهم :

فلان فارساً اعْمى يصدُ الخيل وحْدُه

كلباً ما تسعاه عِند القَنِيصْ ما بتلقاهْ

قلباً بالمَوَاصِي، نَاسِي[1]

وذكر الأستاذ **عبد المجيد عابدين** في كتابه عن اللهجات السودانية أن هذا التنوين «ظاهرة عامة في كلامهم في الشعر والنثر[2]» ويوجد التنوين في أمثال بعض البلدان العربية الأخرى **كمصر ونجد** ولكنه مكسور دائما، أما في العامية المغربية فلا يوجد التنوين في الكلام الجاري ولكنه يوجد في الشعر الملحون.

ـ الإمالة : جاء في الذيل والتكملة **لابن عبد الملك المراكشي** في ترجمة **ابن الرجاني** مايلي : «وبعضهم يكتبه الرجيني باعتبار إفراط الإمالة المستحكمة في لسان أهل **الأندلس**[3]» **ووصف ابن الخطيب** في الإحاطة ألسنة أهل **غرناطة** بالفصاحة العربية وقال : (وتغلب عليهم الإمالة)[4] ونجد في مقامة «طرفة الظريف، في أهل الجزيرة وطريف» لعبد العزيز **الملزوزي** وصفا حيا لغلبة الإمالة على ألسنة أهل **الجزيرة الخضراء** فهو يلاحظ ـ في جملة ما يلاحظ ـ أنه «قد رجع سلامهم سليما، وكلامهم كليما، فقس على ذلك تصب، فإنه على ذلك المنهاج نصب». وقد راعه أنهم يقرأون القرآن بإمالتهم الشديدة تلك، قال : «ومن غريب ما اتفق لي فيها (أي في **الجزيرة الخضراء**)، حين كنت أوافيها، أني مررت بإمام يصلي بالناس، وهو يقرأ «قل أعوذ برب الناس» :

---

1. نعوم شقير، أمثال العوام في مصر والسودان والشام : 129ـ128 وانظر أمثلة اخرى قي ص 130.
2. من أصول اللهجات العربية في السودان : 96.
3. الذيل والتكملة : 6 : 153 (مخطوط باريس).
4. الإحاطة : 1 : 140 (ط، دار المعارف).

قَد بَدل الوَسْوَاسَ بالوَسْوِيس وكـذلك الخنَّاس بالخَـنِيس

وكـذاك بـدَّل آيـة فـي آيـة حتَّى يوسوِس في صدور النيس

فأمهلته ريثما أتم صلاته وقراءته، ولبس عباءته وملاءته فابتدأته بأشد العتاب، وقلت له لم بدلت الكتاب، وإثمه على الذين يبدلونه، ووزره عليهم يحملونه، فأقسم أنه قرأه كذلك على قراء عصره، وأن تلك لغة أهل عدوته ومصره، فقلت :

يا أهلَ أندلس مالي رأيتكم أحدثتم في كتاب الله ألحانا

نبـذْ تُـموه وبـدلّـتم معَانـيه عَمَّا بمصْحَف عثُمان ابن عفَّانَا

صلُّوا الصَّلاة ولاَ تتلوا بها سوراً فَقَدْ رددتم على [الرحمن] فُرقانا

بدلَّتم القول حتى قول خالقنا لقـد اتـيتُم لعـمرُ الله بُهتـانا

وإنْ دَعوتم لحنتم في دعائكُمُ فكيف تَستَوْهِبُون الدَّهرَ غُفرانا

ربٍّ العباد غنيٌّ عن دعائكم ونحنُ أيضا عن التَّأمين أغنانا

ثم يسوق بعد هذا نوادر ركبها مما كان يسمع في كلام المتحاكمين في مجلس القاضي **ابن عذرة** قاضي الجزيرة الخضراء، ومدارها على الاختلاف بينه وبين القاضي المذكور في الحكم بين المتقاضين بسبب الإمالة الواقعة في كلامهم إذ كان **الملزوزي**(؟) يأخذ بظاهر اللفظ فيحكم بناء عليه، ويرده **ابن عذرة** العارف بكلام أهل بلده إلى الصواب، فهذا متداع يتوجه إلى القاضي قائلا :

لي عند هذا يابن عذرة ميل والميل ميلي ساقه الحَميل

أي مال وحمَّال.

وهذا آخر يقول :

اَلاَ قُـلْ لابن عُذرة يا فقيها   حَمَى احكامَهُ وحَوَى العُلوما
فُديتَ أصابَ لي هذا حميما   فخلّفه صريعا لـن يقُوما

أي حماما.

ومهما يكن ما في هذه النصوص الواردة في المقامة من عناصر الهزل فإنها ذات دلالات واضحة في طبيعة الإمالة في **الأندلس**.

وقد ظلت هذه الظاهرة من السمات المميزة للأندلسيين المهاجرين - بعد الجلاء - إلى **المغرب** جاء في ترجمة **سيدي فرج** الأندلسي المكناسي الدار (القرن العاشر) من كتاب دوحة الناشر (59 -60) أنه كانت «تغلب عليه الإمالة، شأن كلام الأندلس في ألسنتهم»، وما لاحظه **ابن عبد الملك** وابن **الخطيب وابن عسكر** تؤيده النصوص، ففي أمثال **الزجالي** وأمثال **ابن عاصم** وأمثال **المورسكي** القستلي نجد هذه الإمالة المفرطة التي تصبح فيها الألف ياء، وفيما يلي أمثلة منها في أمثال الزجالي مع الإشارة إلى أرقامها : رسميل = رسمال (48) تريه = تراه (84) جي = جا (781) حين = حان (937) سينية = سانية (1861). ومما ورد من ذلك في أمثال **ابن عاصم** مع الإشارة إلى أرقام الأمثال : بيب = باب (رقم 640) قزِّيز = قزَّاز (رقم 757) المكين = المكان (رقم 553) فدين = فدان (رقم 545) كينت = كانت (رقم 197) القيدوم = القادوم (رقم 762). وأما ما ورد منها عند **المورسكي الغرناطي** فهو كثير.

كما أن معاجم اللهجة الأندلسية والوثائق المدونة بها تبين بوضوح مدى انتشار الإمالة في العامية الأندلسية، ولا سيما معجم بطرس القلعي حيث الكلمات تكتب بحروف لاتينية[1]، ويكفي أن نشير هنا إلى أن عددا كبيرا

1- مثل nic, mil,bib أي باب، ناس، انظر ALC 266، 272، 359، وانظر أيضا مبحث الإمالة عند Steiger ص 62 وص 314 وما بعدها.

من أسماء الأماكن وغيرها تكتب في اللغة الإسبانية بصورة الإمالة فمن ذلك : باجة Beja جيان Jaen دانية Denia لاردة Lerid بجانة Pechina ومن الكلمات العربية المنتقلة إلى الإسبانية بصيغة الإمالة نذكر السانية acena والساقية acequia[1].

- يستعمل الأندلسيون والمغاربة في الفعل المضارع النون للمتكلم المفرد كما تستعمل للمتكلم ومعه غيره مع التفريق بزيادة الواو في الحالة الأخيرة، وقد ورد هذا الاستعمال كثيرا في الأمثال والأزجال وفيما يلي أمثلة منه في أمثال الزجالي مع الإشارة إلى أرقامها : نَخُذْ - نَاخُذْ - آخُذ (65) نصوب - أصوب (75) أنا نعلِّم - أنا أعلمه (95) أنا نبخَّرها - أنا أبَخَّرها (97) أنا نرُش - أنا أرُش (98) أنا نطَلَّقْها - أنا أطَلَّقْها (96) أنا نُسَمِّيه - أنا أسَمِّيه ونكون أنا - وأكُون أنا (1015).

أما في حالة المتكلم ومعه غيره فيلحق بآخره واو الجماعة للتمييز بينهما في المثل التالي : نَحْنُ نقرْوا ولِس نَفْلاَحُ كيف لَوْ غَنّينَ (رقم 1551).

ونجد هذا الاستعمال العامي يتسرب أحيانا إلى أقلام بعض المؤلفين الأندلسيين، كما نرى في كتاب التبيان للأمير عبد الله بن بلقين، ومن

1- انظر قائمة بالألفاظ الممالة المستخرجة من Voc وSteiger ALC. من ص 314 إلى ص 332 ويفهم مما ذكره صاحب طرفة الظريف ودوحة الناشر أن الإمالة لم تكن معروفة في لهجات أهل المغرب أو في معظمها، ولكن اليوسي لاحظ مظهرا من مظاهر الإمالة في شمال المغرب عند أهل جبال الزبيب وجيل العلم فذكر أن أهل هذه الجبال يكسرون الفتحة بعد ألف، قال : «من جملة ما اتفق لي في هذه السفرة إلى جبال الزبيب وسفرات أخرى بزيارة الشيخ عبد السلام ابن مشيش رضي الله عنه أني سمعت لغة لأهل تلك الجبال : يكسرون آخر الموقوف عليه فتتبعتُها استقراء فوجدتها لها ضابطا، وقد رأيت غيرهم من أهل الآفاق يسمعون عنهم ذلك فيحكونه على غير وجه وينسبون إليهم ما لا يقولون جهلا منهم بضوابطه، فإنهم لا يكسرون إلا الفتحة بعدها ألف أما الألف المقصورة كالدنيا أو الممدودة كالسماء والطلباء والشرفاء أو الأصلية كالماء أو المقلوبة عن هاء التأنيث في مجرى العرف كالبقرة والشجرة والصحفة فإن العوام من غيرهم في الوقف على هذه البقرا والشجرا بألف وهؤلاء يكسرون فيقولون : البقرى والشجرى وتنقلب الألف ياء».

أمثلة ذلك فيه «وكُنْت مَع هَذا نَأمُر أهْلَها بالرِّفْق» (ص 89) : «ولو أنِّي نَأمَن مَكرْه لأعلمته بالحَال» (ص 115) «فرَاجَعْته نُعْلِمه بحَاجَتي إلى ثَمَنِه» (ص 161).

وما يزال هذا الاستعمال موجودا في اللهجات المغربية عموما، وهو مما يميزها عن لهجات المشرق[1]، ويوجد هذا الاستعمال في لهجة السودان وهو من تأثير المغرب[2] وهو موجود أيضا في الإسكندرية. التي كان ينزل بها حجاج الأندلس والمغرب في الذهاب والإياب، ومنهم من استقر بها.

- حرف الجر في : يرد في الغالب متصلا بالمجرور بعد حذف حرف الياء منه وفتحه، ومثال ذلك المثال :

رِجْل فَالجَبَل أخْيَر مِنْ رِجْل فَالكَبَل (رقم 981).

أي رِجْل فِي الجَبَل أخْيَر مِنْ رِجْل فِي الكَبَل وهذا كثير في الأمثال والأزجال.

- تتميز العامية الأندلسية - ومثلها العامية المغربية - بزيادة كاف في أول الفعل المضارع، فيقال في : يكتب مثلا : كيكتب ومثال ذلك في الأمثال :

حَق لِس نعطَى. عيَّار القف كنطلب (رقم 811).

لَو أرْدَن مِن ذَا الحَشِيش، كِنَّمْلُوا قُفَّ وبلَيش (رقم 1235).

سَمعت بِنْت السُّلطان السَّاعي يَسْعَى، قالت : كتَّعمل شَبات بِشَحْم (رقم 1845م).

1- انظر الجمانة في إزالة الرطانة : 30، 31، 40.
2- عبد المجيد عابدين : من أصول اللهجات العربية في السودان : 74.



أرْنَبْ تَكُل لَحْم ؟ قال : يَاعَلى بجَلْدِي كِنَّخلصْ (ابن عاصم رقم 267).

وهذه الكاف (أو التاء أحيانا) مطردة في العامية المغربية مثل الباء والحاء اللتين تزادان في أول المضارع في العامية المصرية، أما في العامية الأندلسية فقد لاحظنا أنها غير مطردة ولكنها ترد أحيانا كما نرى في الأمثال والأزجال، وقد تنبه لهذه الكاف صفي الدين الحلي في الفصل الذي عقده لبعض قواعد الاستعمال في الأزجال الأندلسية من كتابه العاطل الحالي فقال : «ومنها إقامة الواحد مقام كلمة فيقيمون الكاف مقام كان التي ترفع الاسم وتنصب الخبر[1]» قال : «والأمثلة في ذلك كثيرة ثم ساق في ذلك أمثلة عديدة، ومما مثل به قول مدغليس :

وَكِنَّحْلف أنْ لاَ نَعْشَق أبدا

قال : يريد «وكنا نحلف» ولكن هذا التأويل الذي ذهب إليه الصفي الحلي بجعل وظيفة هذه الكاف هي الدلالة على عمل الفعل في الزمن الماضي، في حين أن وظيفتها في الاستعمال المغربي هي تخليص المضارع للدلالة على الحال فقط والذي نراه من الأمثلة السابقة أنها تدل على الحال لا على الماضي، وفي معجم الراهب رمند مرتين نراه يرسم هذه الكاف منفصلة في أثناء تصاريف الأفعال إشارة إلى أنها تدخل عليها ومهما يكن فإن هذه الكاف الشائعة في عامية المغرب لها أصل قديم في العامية الأندلسية.

- ذكر الزبيدي أن عامة الأندلس يقولون فيما كان من الأفعال الثلاثية المعتلة العين مما لم يسم فاعله بإلحاق الألف ويبنونه على أُفْعِل نحو :

1- العاطل الحالي : 47.

أُبِيعَ الثوب، وأُقِيمَ على الرجل، وأُخيف، وأُدير به، وأسير به، والصواب في هذا إسقاط الألف فنقول : بيع الثوب، وخيف الرجل ودير به، وقيم عليه، وسير به[1].

وقد وجدنا أمثلة من هذا الذي ذكره الزبيدي في أمثالهم، ومن ذلك قولهم :

فُضُولْ سَوْدَ في جَنيز، مَشَت تعَزِّي أُبيعَت في الأكْفَان (رقم 1743).

والشاهد فيه : أبيعَت في الأكْفَان أي بِيعَت، وقد كثر في الأمثال استعمال أقيل، في موضع قيل، ومنه المثل :

إذا أُقلِّك حِمَار، اسْتَخِير اللَّه وانْهَق (رقم 34).

وأصلها : إذا أقيل لك أي إذا قيل لك : وكذلك في المثل : أُقل لجحا لس تجلس قدام الفرن، (رقم 2) فهي في هذا المثل ونحوه : أقيل أي قيل بزيادة الألف التي ذكرها الزبيدي[2].

ويفهم من هذا أن المبني للمجهول من الثلاثي كان مستعملا في العامية الأندلسية، وذلك ما نجد له أمثلة أخرى في الأمثال كقولهم :

البَالي يُتْبَعْ والجديد يرْفع (رقم 154).

العَرُوس في الكُرْسِي، ولِس يُدْر لِمَن هي (رقم 210).

لِسْ يُعَلَّم اليَتِيم البُكَا (رقم 1173).

لِسْ يُعْمَل من فُولَة وَحْدَ تَرَخْص (رقم 1211).

قَدْرَة الزَّفْت ما يُطْبَخ فِيها مُعَسَّل (رقم 1822).

---

1. لحن العوام : 204 تحقيق د. رمضان عبد الثواب، وكتاب لحن العامة : 109 تأليف د. عبد العزيز مطر.
2. انظر الأمثال رقم 63 ورقم 73 ورقم 74 و75 ورقم 76.

أما في عامية المشرق فيبدو أن المبني للمجهول فقد منها منذ زمن قديم وحل محله صيغة «انفعل» جاء في «سهم الألحاظ في وهم الألفاظ» لابن الحَنبلي ومن ذلك قولهم : «انْحَفظ وانْـقَرا وانْكتَب، ففي ديباجة كتاب الانفعال للإمام الصغاني أن انحفظ وانقرأ وانكتب مستحدث استحدثه المولدون[1]».

- تساوي العامية الأندلسية في فعل الأمر بين المذكر والمؤنث ومن الأمثلة على ذلك في أمثال الأندلسيين :

- عزيزَ : قُمْ ارْحَلْ، قالت : اصْبَر نُخُذْ نَحْي من الحَيط (رقم 1638).

- من الظواهر الصوتية في العامية الأندلسية إطالة الحركات حتى تصير الفتحة ألفا والضمة واوا والكسرة ياء، وقد نص الزبيدي على هذا في كتابه لحن العوام وساق أمثلة عديدة منها : قادوم وقطاع في قدوم وقطع، وعوش في عش، وطيراز وتيلاد وثيمار في طراز وتلاد وثمار، ويقول الزبيدي : «وقد أولعت العامة بإقحام الياء[2]» كما أن ابن حزم أشار إلى هذا في فقرته المقتضبة في العامية الأندلسية التي ذكرناها فيما سبق، ونحن نجد هذه الظاهرة في لغة الأمثال، وفيما يلي أمثلة منها مع الإشارة إلى أرقامها بساط ـ بسطه (447) وساط ـ وسطه (447). في أصباعك ـ في أصبعك (464) يحضار ـ يحضر (574) نعاش ـ نعش (598) مغراف ـ مغرف (678). مَا يَلبْاس ـ مَايَلْبسن (756) نَعْمال ـ نَعْمل (771) رجَاع ـ رَجَعُوا (976، 978) لا يمور ـ لا يمر (1256) ماعَك ـ مَعَك (1256 ـ 1344) ماع ـ مَعَه (1298، 1387، 1415) قطاع ـ قَطَع (70 ـ 244 ـ 338).

1. نقلا عن كتاب : لحن العوام والتطور اللغوي للدكتور رمضان عبد الثواب، ص 299.
2. لحن العوام : 76، وانظر د عبد العزيز مطر، لحن العامة : 1107. 108.

وقد لاحظ صفي الدين الحلي أيضا في دراسته الأزجال إشباع الحركات الثلاث حتى ينشأ عنها حرف يناسبها «وأتى بأمثلة عديدة من الأزجال الأندلسية[1] وذكر السكوني أنهم كانوا يقولون في التكبير الله أكبار بزيادة ألف بعد الباء، قال وذلك لايجوز لأنه جمع كبر، وهو طبل صغير.

- حافظت العامية الأندلسية على الحروف اللثوية أو حروف ما بين الأسنان Interdentales وهي الثاء والذال والظاء وفي كل من أمثال الزجالي القرطبية وأمثال ابن عاصم الغرناطية أبواب للأمثال المبدوءة بهذه الحروف.

- حافظت العامية على فصاحة بعض الأبنية والصيغ، ومن أمثلة ذلك المحافظة على كسر عين اسم الفاعل في مثل : زَايِد، نَاقِص، جَالِس، وَاقِف إلخ... في حين أن الفتح هو الشائع منذ أيام الموحدين في العامية المغربية ماخلا لهجة جبالة[2].

حافظت على الهمزة من صيغة أفعل في مثل : أفقر من ...إلخ -[3]. وفي مثل : أبيض، أحمر، أزرق[4] ...إلخ في حين أن الهمزة في مثل ما ذكرنا لا وجود لها في النطق المغربي الحالي.

- يشيع في النطق الأندلسي تحريك العين الساكنة في صيغ فَعْل فِعْل فُعْل مثل[5] :

---

1. العاطل الحالي 39 وما بعدها. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه لا وجود لإطالة الحركات في العامية المغربية إلا في كلمة أو كلمتين هما : علام = علم. سلوم = سلم انظر مقالة للأستاذ كولان في مجلة «هسبريس» 1930 ص 106 - 107.

2. نجد هذا الفرق وغيره في ضبط أمثال الزجالي من نسخ «ري الاوام» فالضبط في النسخة القديمة التي نرمزلها بحرف م. حسب النطق الأندلسي، أما في النسختين المحدثتين : س،ع فهو جار على النطق المغربي، وكذلك الشأن فيما وقفنا عليه من نسخ «الحدائق» لابن عاصم الغرناطي.

3. انظر مايتمثل به العوام على أفعل من... في القسم الثاني من ص 108 إلى ص 118.

4. انظر القسم الثاني : 121 - 120 وكذلك جدول STEIGER 99 - 98.

5. على هذا ضبط النسخة التي نرمز لها بحرف م، وانظر أيضا جدول STERIGER 99 - 98.



ظَهَرْ، رِجَلْ، قُفَلْ.

ـ في العامية الأندلسية صور من الحذف والترخيم في أواخر الكلم، فكلمة أين تنطق وترسم أي بحذف النون ومثال ذلك :

أيْ هي رُكْبَتَها، ثم هي ثُقْبَتها (رقم 122).

أيْ هُو عَيْنَك، ثم هُو يَد غَيْرَك (رقم 270).

يا تُرى يَاكَبْشي، أي تَرْعِي أو أي تَمْشِي (رقم 2115).

ويكثر حذف النون هذه في المثنى خصوصا في صيغ الأمثال كما رواها ابن عاصم، ومن ذلك مايلي :

نَكُونُوا نَفسَيِ، نَسِير صَفَّيْ (رقم 667).

خُبْز الْمَقيت مَرَّتَيْ يُكَل (رقم 389).

نَفْسَي فَالقَارِبْ، قال مَنْ سَرَق القَيْدُومَ (رقم 762).

نَفْسَي عَلَى الحاجَ : صَاحِب المَتَاعْ (رقم 763).

مَن اشْتَغل بِوتَدي واحدِ يَسع في سُوَّةُ (رقم 698).

الفُولْ إذَا نَوَّر، شَهْرَيْ بِدَوَّرْ (رقم 204).

فقد حذفت نون المثنى في هذه الأمثال في كل من نَفْسَين، صَفَّين مَرَّتَيْن، نَفْسَين، نَفْسين، بِوَتَدَيْن، شَهْرَين[1] ويبدو أنهم كانوا يجرون هذا الحذف

1ـ نجد ظاهرة حذف نون المثني بدون اضافة نحو مائتي بدلا من مائتين وبيتي بدلا من بيتين في نصوص العامية المصرية القديمة كما تشهد بذلك وثائق البردي، ولعل الأصل في ذلك كله تلك اللهجة العربية القديمة التي يشار إليها في بعض كتب النحو، ومن أمثلتها المثل : بيضك ثنتا وبيضي مائتل وقول الشاعر :

هما خطتا : اما اسار ومنة.

في الأسماء المختومة بياء ونون حتى ولو لم تكن للتثنية، فقد ذكر مؤلف الجمانة في إزالة الرطانة أنهم يقولون : النَّسْرِي أي النَّسْرَين، والجَنِي أي الجَنِين[1]، ومن صور هذا الترخيم قولهم في متاع : مَتَا وفي قدر : قد وهذا كثير في الأمثال كقولهم :

كَم تَكُل ؟ قال : مِن مَتَى من (رقم 1126).

أي من متاع من، وقولهم :

شبَرْ وعَقَدْ مِنْ قد متى كُل أحَدْ

أي من قدر متاع كل احد.

ومن أمثلة ذلك أيضا في أمثال ابن عاصم قولهم :

اشْ يرى الأحْدَب حَدْبَةُ الى مَتَا غير (رقم 103).

ارْحَمْني وارْحَم جَارْتي مَتَا السَّاحِلْ (رقم 257).

كَلاَمَ الحَبِيبْ يَبَكِّي ومَتَى العَدُو يِضَحَّكْ (رقم 600).

ومن ذلك قولهم في الساعة : السَّا : كقول ابن قزمان :

تَعْرَفْ اسْماها السَّا يقُل لَكَ لاَ.

فقوله : السَّا، يريد الساعة قال الصفي الحلي : «وقد تداولوا هذه اللفظة كثيرا في أزجالهم[2]» ويبدو أن مثل هذا الترخيم كان شائعا عندهم فإننا نجد ابن قزمان أيضا يقول في عازب : عازي، وذلك قوله في مطلع أحد أزجاله (زجل 21) ويوجد شيء منه في كلام أهل جبالة وتطوان.

---

1. الجمانة : 32 ـ 34. والنسري ما تزال مسموعة في تطوان وفاس وغيرهما.
2. العاطل الحالي : 51 ـ 50 وتجدر الإشارة إلى ان اهل مالطة لا ينطقون بالعين اذا وقعت في اخر الكلمة، مثل ـ تلا ـ طلع قلا = قلع. انظر الورقات للأستاذ ح.ح عبد الوهاب ج 3 ص 127.



صِرْت عَازِي وكَان لَعُمْرِي صَوَاب   لِسْ نَزَوَّجْ حَتَّى يَشِيب الغُرَاب

ومن ذلك أيضا ما ذكره الزبيدي من أنهم يقولون للجلد الذي يبسط للطعام وغيره : «نطا» يريدون «نطع»[1] وقد يكون الحذف في وسط الكلمة كقولهم : تد أي تُريد[2]، و«تيدك» أي تُريدَك، كما في المثل :

العُوَيْنِيت الَّذي تِيدَك : من بعيد تضحَكْ لَكْ (ابن عاصم رقم 196).

أي العُيون التي تُريدك تضحك لك من بعيد. وأبرز صور هذا الحذف ما ذكره ابن حزم من أنهم كانوا يقولون في ثلاثة دنانير : ثلثذا[3]

وقد كثر هذا النوع من الترخيم في الأمثال التي دونها الموريسكي الغرناطي الهنس القستلي.

ومن هذا القبيل قولهم في الاستفهام أو النفي : أش. وأصلها : أي شيء كما في هذا المثل :

أشْ فالكُفر مِن لَذَّة.

أي مَاذا في الكُفْر... أوْ لَيْس في الكفْر ... وهي خالصة للنفي في كثير من الأمثال التي رواها ابن عاصم، وتتصل اش بغيرها كما في المثل :

اشْمَا لا يُدْرَا ؟ قال : مَا لا يضمر (رقم 71).

فأشما : أي شيء ما[4] وكقولهم في السؤال مطلقا أو في السؤال عن العدد أو المسافة : اشْحَل واشْحَال وأصلها أي شَيْء حَال، ومن أمثلة استعمالها في الأمثال قولهم :

---

1. لحن العوام : 24.
2. الأمثال أرقام 345، 346، 347 عند ابن عاصم.
3. الاحكام 1 : 32.
4. انظر استعمالها أيضا في المثلين رقم 155 رقم 173.

اشْحَل بَيْنِي وبَيْن السَّما؟ (رقم 93).

فهي هنا بمعنى كم، وفي العامية المغربية يقال في السؤال عن الثمن : بشْحَال أي بِكَم، وأصلها : باي شيء حال ...[1] ونجد أش هذه متصلة بأفعال وأسماء كقولهم :

إشْتَعْمَل الكِيسَ فَالبَيْت الفَارِغْ (رقم 212).

فاشتعمل : ما تعمل، وقد ورد هذا المثل معربا في رسالة الشقندي كما يلي : «وهب أنه كان يكون لكم مثله، فما تصنع الكيسة في البيت الفارغ[2]» ومن أمثلة ذلك أيضا : اشترقع ـ ماترَقع أو ماذا تُرَقع (رقم 266) وأشيقل ـ ماذا يقال له (1388) واشْجلاَس ـ ماجلُوسه (رقم 1488) واشْكُندخلن ـ من ادخلني، ومثل أشْ : عَاش أو عَلْش ـ على أي شيء (رقم 1655).

وهي تستعمل بمعنى لماذا وبَش = بأي شَيء (رقم 1659) وقد وردت في موضع بماذا ولكي. ولش = لأي شيء أي لماذا (رقم 1662) وهذه الأخيرة مستعملة في معظم اللهجات العامية العربية منذ زمن بعيد[3].

ـ ذكر الزبيدي أمثلة عديدة مما كان يقع على لسان العامة في الأندلس من قلب وإبدال بين الحروف، وبلغ ماعدده في مواضع متفرقة من حالات القلب والإبدال نحو خمس عشرة حالة، وقد وجدنا بعض هذه الحالات في الأمثال، فمن ذلك إبدالهم النون ميما في مثل قولهم : حلَزُوم أي

1ـ انظر استعمالها أيضا في المثلين رقم 157 رقم 235.
2ـ نفح الطيب 4 : 182.
3ـ انظر تصنيفا لها في كتاب لحن العامة د. عبد العزيز مطر ص 105 وما بعدها.



حَلَزُون[1]، وقد ورد هذا في المثل التالي :

حَلَـزُومْ لَس مَعَها أي تَدُورْ، تَـرْبَطْ في ذَنْبهَا تورْ (رقم 807).

وإبدال التاء طاء كما في كلمة است التي نراها ترسم اسط في أمثال عديدة وقد نقل ابن عبد الملك المراكشي أن أهل شرق الأندلسي كانوا ينطقون التاء طاء فيقولون في حوت : حوط[2] وكذلك نجدهم يقلبون الدال طاء في بعض الكلمات كما في المثل :

شكَارِة حبْلَس : يِطَلَّع فِيها المُرْط للصُّمع (رقم 1890).

فالمرط = المرد جمع أمرد، ومن ذلك أيضا إبدال الضاد دالا كما في يَمْدغ - يَمْضَغ ومن هذا المثل :

حَنِين أبي زُرَيْق : يَمدَغْ الحَلْوَ للصبِّيَان (رقم 806).

وهكذا تنطق الكلمة في المغرب أيضا، ومن إبدال القاف كافا والصاد سينا ما ورد في المثل التالي :

مَنْ مَاعُ كَرْسَعَنَّ : الحَمَامْ تَتْبَاعُ (رقم 1261).

فكَرْسَعَن - قَرْصَعَنة وهم يقولون : حُك أي حُق[3] وحُكَاك أي حُقَاق[4] وكَفز أي قَفز[5] والكَفْز أي القَفْز[6] ويبدو أن هذا من أثر القاف المعقودة التي عرف بها الأندلسيون، وقد وصف أبو حيان الغرناطي في نفح الطيب

---

1. لحن العوام للزبيدي : 192.
2. الذيل والتكملة 1.
3. لحن العوام للزبيدي : 68.
4. انظر المثل رقم 672.
5. المثل رقم 373 ورقم 1148، 1151.
6. المثل رقم 1806.



بمايلي : «عبارته فصيحة بلغة الأندلس يعقد حرف القاف قريبا من الكاف، على أنه لا ينطق بها في القرآن إلا فصيحة، وسمعته يقول : ما في هذه البلاد (يعنى مصر) من يعقد حرف القاف[1]» كما نجد هذا النص في سلوة الأنفاس : «فقال لهم هذا عربي قوي، بالقاف القريبة من الكاف. كما ينطق به أهل الأندلس[2]» وصاحب هذا النطق الموصوف هو العارف أبو الحسن علي بن صالح الأندلسي الغرناطي.

- والتصغير من سمات العامية الأندلسية الواضحة، ففي الأمثال والأزجال نلحظ شغف الأندلسيين وولعهم باستعمال التصغير في كلامهم، ونجد له مثالا قديما يرقى إلى أيام عبد الرحمن الأوسط، جاء في المغرب لابن سعيد 1 : 125 : «وذكر عبد الله بن الناصر في كتاب «العليل والقتيل» أن الأمير عبد الرحمن قال يوما لابن الشمر على الشراب :

ما فعلت غُفَيِّرتك التي كانت جرداء قد صارت أخياطها كالعروق؟ فقال عملت منها لفائف لبغيلك الأشهَب» وبلغ من استحكام التصغير في لسان أهل الأندلس أنهم يغفلون عن بعض ما يقتضيه الأدب الديني، فقد انتقد عليهم السكوني الإشبيلي استعمال صيغة التصغير في مواطن لا يجوز فيها شرعا. قال : «ويقول قائلهم : هذا مصيحف، ومُسَيْجد، ومكيتب، وجويمع وما أشبه ذلك بالتصغير، وكل ذلك لايجوز، لأنه تصغير لما أمر الشرع بتعظيمه وكذلك كل ما كان من شعائر الله سبحانه. قال الله سبحانه : «ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب».

---

1. نفح الطيب 3 : 295.
2. سلوة الأنفاس 2 : 209.



وما يزال الميل إلى تصغير الكلمات سمة بارزة في اللغة الإسبانية ولهجات المغرب العربي، وهم يصغرون حتى الأشياء الصغيرة بطبيعتها فيقولون في عجلة : عجيلة وفي كسرة : كسيرة، كما في هذه الأمثال :

بَحَلْ فُم اعْجِيَّلْ بالرَّغْو عَلِيهْ (رقم 622).

لِسْ فاللِّبَيْن مَا تَرْضَعُ العُجِيلَة (رقم 1178).

مَن اتَّكَلْ عَلى مُرَيْقَة جَارَتُ اصْبَحَتْ كُسَيْرَتُ لِرَاسُ (رقم 1290).

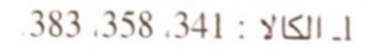
ونرى من هذه الأمثلة أن ثمة صيغتين في تصغير الثلاثي هما : فعيّل بتشديد الياء، وفعيل الفصيحة، ولكن هذه الصيغة الثانية تنطق بسكون الأول وكسر الثاني في العامية المغربية، ويبدو من معجم القالا ـ وهو يمثل لهجة أهل غرناطة ـ أنهم كانوا ينطقون فعيل في المذكر وفعيلة في المؤنث على وجهه الفصيح أي بضم الأول وفتح الثاني.

وقد جاء في العاطل الحالي 36 : «وكتشديد المصغرات مثل خديّد وفميّم في مثل قول مدغليس في خرجة بيت :

الكبيبـة والجبيبـة والفميّم والخديّدات

هذا هو الموت الأحمر الـذي سمعنـا عنّو

ومن الكلمات المصغرة التي أوردها مضبوطة : خُبَيْزة، قُدَيرة، كُعَيْكة[1] ونجدهم يصغرون بعض الكلمات على نحو خاص فيقولون في تصغير رَجُل رجيجل، بدل رُوَيْجل، كما في المثل التالي :



ثم رَجُل رُجَيْجَل ويحُج البيْتْ (رقم 747).

1ـ الكالا : 341، 358، 383.



ومن ذلك أيضا قولهم في تصغير سوق : سقيقة، بدل سويقة، وذهب دوزي إلى أن هذا النوع من التصغير ظهر عند عامة الأندلسيين بعد أن فقدوا السليقة العربية تماما، ووقعوا تحت تأثير اللغة الإسبانية[1]، وقد بنى حكمه هذا حين وجد كلمة سقيقة في وثيقة غرناطة متأخرة[2].

وكما تكثر صيغ التصغير في الأمثال فإنها تكثر في الأزجال أيضا كقول ابن قزمان : (زجل 10) :

فَمِن التُّفَّاح نُهَيْدَات ومن الدُّرْمك خُدَيْدَات

ومِن الجوهَر ضُرَيْسَات ومِن السُّكَر فُمَيْمَة

ونراه صغر الفم، وهو مذكر تصغير تأنيث وكذلك فعل مدغليس إذ يقول (العاطل الحالي : 46) :

وفُمَيمَة حلْوا حمْرا صغَيرة بضُرَيْسَات دَق بِيض مُسْتَويه

ولعلّ التصغير في بعض الأمثال للتعظيم كما في هذين المثلين :

سَلَّط اللَّه على الدَّابة دُوَيْبة (رقم 1849).

ثم رَجُل ورُجَيْجَلْ ويَحُج البَيت (رقم 747).

وهو معنى من معاني التصغير ذكره النحاة ومثلوا له بقول لبيد :

وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهية تصفر منها الأنامل

توجد التثنية في الأمثال العامية الأندلسية، ولكنها ترد دائما بالياء والنون ومثال ذلك :

---

1. دوزي تكملة المعاجم العربية 1 : 706

2. هي الوثيقة التي نشرها كولان في المجلد الثالث من مجلة Islamica بعنوان : Sur une charte hispano-arabe de grenade 1312.



ضَرْبَتَين فـالرَّاس (رقم 1623).

عَيْنَيْن فـالدَّرْهَم : نَاقِص ومَكْسُور (رقم 1665).

أما في الضمائر فيستعمل ضمير الجمع للمثنى كما في هذه الأمثال :

الأعْمَى والأعْرَج مَا عَلَيْهِم حَـرَج (رقم 153).

الغَـازِي والفَار لا تُـعَـلِّمْهم بَـاب الدَّار. ابن عاصم (رقم 176).

مَن بَاع لَحْيَ بِلَحْيَ خَسَرَهُم جَمِيعا (رقم 1397).

ويستعمل الأندلسيون جمع المذكر السالم حيث تستعمل الفصحى وبعض اللهجات العامية جمع التكسير، ومن ذلك قولهم : أضْرَسين أي أضْرَاس كما في هذا المثل :

يَعْطِي اللَّه الفُول لِمَن لا عِنْدُ أضْرَسين (رقم 2143).

وقولهم : سِنِّين أي أسْنَان كما في المثل :

سِنِّين ان خَش، وقُلُوب ان غِش (رقم 351).

ومن ذلك أيضا : أدْرعين واسْطين وأيْدين ورِجْلين اَي أذْرُع واسْتاه وأيْد وأرْجُل[1].

- ومن الأدوات المستعملة في الأمثال الأندلسية : بَحَل أو بْحَال، وهي أداة تشبيه ومعناها مثل أو شبيه، ومع أن أصلها من كلمة حال أي هيئة وشكل إلا أن هذا المعنى قد تنوسي فيما يبدو وأصبح ينظر إليها على أنها أداة تشبيه لاغير تقوم مقام الكاف وغيرها من أدوات التشبيه الفصيحة.

- وهم يستعملون في التمنى كلمة : ياعَلَى بمعنى ليت. كقولهم : ياعَلَى ممَيِزْ وينفَقْ عليه : قال وإذا كان مميز ينفق على روح (رقم 2147).

1- انظر الأمثال أرقام 496، 309، 976 وفي Voc ص 385 : أشْدَقين أي أشداق.



أرْنَب تَكُل لَحْم؟ قال : يَاعَلَى بِجِلْدِي كَنَّخْلَصْ (رقم 72).

يَا علَى بيَا ع الدَقِيق يَعْقَل (ابن عاصم رقم 826).

فكلمة «يَاعلَى» في هذه الأمثال جميعا بمعنى ليت، وهي واردة في الأزجال أيضا كما في قول ابن قزمان : (العاطل الحالي : 35 ـ 34)

إنّـمَـا مَذْهَـبِـي الطَّـلاَ   يَاعلَـى مَنّـو بير مِلاَ

كَـان يكُون ارْجُلى العقاب   ويكُـون فَـمِّـي الـدلُّـو

وقوله أيضا : (الزجل في الأندلس : 91)

يَاعَلَى مَزْودا ملا بذهب   وخَـوابِـي مَـلا بِـدَم العِنَب

كُل مَن جَا دَخَل اكْل وشْرَب   ويَكُون جَاري شَيْخاً اعْمَى أصم

وقد استعمل «ليت» و«على» في زجل آخر إذ يقول : (رجل 67).

يَا يَيَاض بيْت أم ابي لَيْتَنِي كُنْت انَا أم يَاعلَى فُم نُمَار كِنقَبل فِيه بِفُم

بل إننا نجد كلمة «ياعلى» هذه تتسلل إلى أساليبهم الفصيحة كما في هذه الحكاية التي رواها ابن سعيد في ترجمة الزاهد أبي وهب عبد الرحمن العباسي إذ يقول : «وذكر الحجاري أن أبا وهب لقيه مرة غلام وغد بخارج قرطبة، فآذاه بلسانه، ثم أراد أن يرميه بطوبة، فجعل يبحث عنها ويقول : ياعلى طوبة أضرب بها هذا الأحمق فوقعت عين أبي وهب على طوبة، فقال له هذه الطوبة خذها فابلغ بها غرضك، فارتا ع الغلام وأخذته كالرعدة»[1].

وكلمة يا «على» تشبه من حيث التركيب كلمة «ياريت» التي تستعمل في العامية المصرية للمعنى نفسه، وذكر المرحوم أحمد تيمور أنها محرفة عن «ياليت»[2] فهل تكون كلمة «ياعلى» الأندلسية محرفة عن «لعل» بأن

1ـ المغرب 1 : 59.

2ـ الأمثال العامية : (المثل رقم 3064) الطبعة الثانية.

أضيفت إليها «يا» ثم خففت اللام من لعل أو عل فصارت : «ياعلى»؟ قد يكون ذلك خصوصا إذا لاحظنا عدم التدقيق في مواضيع الترجي والتمني في الاستعمال العامي.

وقد وردت كلمة «ياعلى» في Voc ضمن أدوات التمني والترجي المستعملة بين الأندلسيين، وهي كما في المعجم المذكور (ص639) : «عسى، ليت، ياعلى، ياليت، ياعسى، ياليت شعري»، وأما «يا» وحدها فهي ظرف رومانثي يكثر وروده في أزجال ابن قزمان، لكننا لا نكاد نجده في الأمثال، ويمكن أن يكون منه هذا المثل :

يَاعَلى بيّاع الدَّقِيق يَعْقَل (ابن عاصم رقم 826).

وللأستاذ إ.غ. غومس دراسة ممتازة في «يا» الظرفية هذه عند ابن قزمان. انظر Todo Ben Quzman,III,p. 431.

- وأشهر ظروف الزمان في العامية الأندلسية : ذاب اي الآن، وهي مستعملة كثيرا في الأمثال والأزجال، وقد أشار إليها ابن هشام اللخمي في تقويم اللسان إذ يقول : «ويقولون : جئته ذاب والصواب : جئته الساعة أو الآن[1]» وقد وردت في أمثال الزجالي وأمثال ابن عاصم بالإمالة في هذا المثل :

ذِيب كِن انْتَبهت جدَّتي لَثَقْب أذْنَيْها (رقم 960).

وما تزال الكلمة مستعملة في المغرب بالدال المهملة هكذا : داب وهي موجودة في اللهجة السودانية بلفظ : «دابو» يقال : الزول دابوجه، أي

1. نقلا عن : ألفاظ مغربية : 286. ويجمع أهل جبالة بينهما فيقولون : داب سا أي داب الساعة.



الرجل جاء الآن [1]، وهي أيضا في اللهجة المصرية : «دوب» كما في هذه العبارة يادوب جه أي جاء منذ لحظة وجيزة [2]، ولعلها انتقلت إليها من اللهجة المغربية.

ومن ظروف الزمان المستعملة في الأمثال ظرف : بيدم أو بيدام، كما في المثلين التالين :

بِيدَم تَتْقَنَّع الحَول، يَتْفَرَّقْ سُوق الغَزْلْ (رقم 564).

بِيدَم يِجِي التَّرْيَاقْ مِن بِيت المَقْدِس يَذْهَب صَاحب الوَجَعْ (رقم 565)[3].

وما تزال مستعملة في العامية المغربية ولكن بسكون الدال وفتح الميم مع مدها هكذا : بيدْما ويبدو أن هذه الصيغ محرفة عن : بينما، وأنهم قلبوا نونها دالا، ويستعملون في هذا المعنى أيضا كلمة : منْدَام، وقد وردت الكلمتان في Voc ص 437 : مع بينما، ريثما، خلال ما[4].

كما يستعملون : «وقت ان» في موضع «حين» كما في هذين المثلين :

وَقْتَ انْ حَضَرَ الصَّيد غَاب السَّلُوقي (رقم 1949).

وَقْتَ انْ تَرْبَط القَرْع كَنْبُوشَه (رقم 1974).

وهي ليست إلا كلمة «وقتا» بالتنوين المفتوح الذي جرت عادتهم أن يرسموه «ان» كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وقد وردت الكلمة مع أخوات لها في Voc ص 548 هي : «متى، إذا، وقت ان، حين، عندما، ويستعملون : طل ما بمعنى ما دام كقولهم :

---

1. عبد المجيد عابدين : من أصول اللهجات العربية في السودان : 119.
2. عبد المجيد عابدين : من أصول اللهجات العربية في السودان 119.
3. انظر أمثلة أخرى في أمثال ابن عاصم رقم 313 وما بعده.
4. انظر أيضا دوزي 1 : 133.



طُلْ ما تَجَد أسْوَدْ، لا تِسَخِّرْ أبْيَضْ (رقم 1064).

وكما في قول **ابن قزمان** (العاطل الحالي : 60) :

اسْقِينِـي بالكَـاسَـاتْ يَـاخِـي دون عـلاَّلِـي
طُولْ مَا كَاسْ فِي الدُّنْيَا لاَ تَسَـلْ عَـنْ حَـالِـي

وفي Voc ص 548 : «طول ما، مادام» ومن الواضح أنها ليست سوى «طالما» الفصيحة أصابها التحريف.

ويستعملون في التعليل كلمة : «حرم ف» كما في قولهم :

أجُوع من زَامِل مَوْقِف الذِّي هَدَم الحِيط حُرْمَ في تِبْن (رقم 490).

أي هدم الحائط طمعا في تبنة موجودة في بنائه ومثال ذلك أيضا :

حُرْم فَسَاعَ تمشوا فأرْبَاع (رقم 800).

فهي في هذين المثلين بمعنى : من أجل أو في سبيل، وترد أيضا بمعنى : لماذا، كما في قول ابن قزمان يصف الرقيب (زجل رقم 9).

ويفرق ما بين حبيب وحبيب حرم بالله معيشقين ورقيب

أي لماذا بالله عاشقان ورقيب، ووردت الكلمة مع شبيهات لها تستعمل للاستفهام والعلية بحسب الجملة في Voc ص 549 وهي : «لش، عن أش، لماذا لأي شيء، حرمه، فش، عنبتش».

- أما أسماء الإشارة فيبدو من تتبع الأمثال أنهم كانوا يستعملون. ذا للقريب كثيرا[1] وهي أكثر من استعمالهم هذا، وقد وردت في بعض

1- ورد استعمالها في نحو عشرين مثلا عند الزجالي.



الأمثال بالإمالة هكذا : هيذ اي هذا[1]، وكما آثروا استعمال ذا في الإشارة للقريب للاختصار فيما يبدو آثروا أيضا استعمال ذاك بدل ذلك وكذا بدل هكذا[2].

وورد استعمال «هي» اسم إشارة بمعنى هذه في المثل التالي :

مَن وُلِيَّ عَلى مَـزْبلَة بدَجَاجَة يَتَعَشَّى هِي اللَّيْلَة (رقم 1303).

أي هذه الليلة، وقد ذكر كل **من الزبيدي** في لحن العوام و**ابن هشام** في تقويم اللسان أنهم كانوا يستعملون هو وهي في مواضع الإشارة، جاء في لحن العوام : ويقولون : «اتيت هي الأيام وقعدت في هو المكان، والصواب : اتيت تلك الأيام، وقعدت في ذلك المكان، وليست هذه المواضع من مواضع هو ولا هي[3]» وفي تقويم اللسانْ ويقولون : «قعدت في هو المكان، والصواب في ذلك المكان[4]» ويبدو أن هذا من بقايا العربية الجنوبية، ففي كتاب المختصر في علم العربية الجنوبية القديمة أن هذه اللغة تستعمل «هو» في الإشارة إلى المذكر و«هي» في الإشارة إلى المؤنث[5].

ويستعملون في الإشارة أيضا كلمة : «تراه» أو «تريه» بالإمالة كما جاءت في المثل التالي :

أيْن أذْنَك أبُو فُلاَن؟ قال : تريه هُنا في ذا المَكَان (رقم 84).

فكلمة : تريه أي تراه معناها في المثل : هاهي، وجاء في Voc ص 360

---

1. الأمثال المبدوءة بحرف الهاء عند الزجالي.
2. الرقم 968.
3. لحن العوام للزبيدي، 252 وألفاظ مغربية للدكتور عبد العزيز الاهواني : 320.
4. نقلا عن ألفاظ مغربية 319.
5. المختصر : 5.



مايلي : «**ها هو، تراه» أما في الإشارة للجمع فتستعمل : «هَوْلَ» أي** هؤلاء كما في Voc ص 444 ومثلها قول **مدغليس** :

لِسْ لنَا إلاَّ نِخَلِي الفُضُول أشْ نَرى مَنُّو لَهَوْل العَاشقِين

يريد بقوله **«لهول» «لهؤلاء»**[1].

- **وأما بالنسبة لاسم الموصول فيبدو من الأمثال أن العامية الأندلسية** احتفظت بالذي كما في أمثال **الزجالي** وقل استعمال الذي عند ابن **عاصم وكثر عنده استعمال اللي محلها وهذه هي التي توجد في أمثال الهنس القستلي** وهي التي صارت مستعملة في معظم اللهجات العربية، إلا أننا نراهم في أمثال **الزجالي** يستعملون «الذي» للمذكر والمؤنث والمفرد والجمع، فمن استعمال «الذي» للمفرد المؤنث بدل «التي» قولهم :

أعْجَز من كَلْبَت بَني سَعِيدة : الذي مَاتَت بالعَطَش وذَنَبَها فالمَاء (رقم 495) :

ومن استعمالها في حالة الجمع قولهم (**ابن عاصم** رقم 196) :

العَوينَتْ الذي تيدَك : مِن بَعِيدْ تَضْحَك لك[2].

وورد استعمال «اللي» في زجل **لابن قزمان** إذ يقول :

سُبْحَن اللِّي جَمَع عَلَى قَلْبِك كُـل شَـيء حَسَـن[3]

يريد سبحان الذي، وعليه فقد استعملت قديما.

- وصف **ابن سعيد** كلام أهل **الأندلس** بأنه منحرف عن أوضاع العربية الفصحى، وأنه مجانب للإعراب، بل ذكر أن الأندلسيين كانوا يستبردون من يعرب ويستثقلون من يتفصح ولا شك أن **ابن سعيد** وصف ماسمع

---

1. العاطل الحالي : 52.
2. انظر استعمال الذي في النص 98، 99، 100 وابن عاصم رقم : 2 ورقم 3 ورقم 16.
3. العاطل الحالي : 50.



من لغة أهل عصره في أمصار الأندلس التي عاش فيها ولا سيما **إشبيلية** وقد لا يختلف وصفه عن وصف من تقدمه.

أما ابن **الخطيب** فقد ذكر في وصفه لكلام أهل **غرناطة** أنه كان يتخلله إعراب كثير ولعل في هذا ماقد يخالف - من الوجهة النظرية - قانون التطور اللغوي إلا أن يكون الأمر يتعلق بوصف مستويات لغوية مختلفة.

ومهما يكن من أمر فلو بحثنا عن مظاهر الإعراب في نصوص الأمثال الأندلسية سواء منها التي دونها **الزجالي** أو التي جمعها **ابن عاصم** لوجدنا أنها تقع ولكن بقلة ويمكن الوقوف عليها في القسم الثاني من الكتاب.

- سبق أن أشرنا إلى شيء من أثر «عجمية الأندلس» في مفردات الأمثال، وثمة تأثير ملحوظ - ولكنه قليل - لهذه العجمية في تراكيب الأمثال، ونستطيع أن نلمح شيئا من ذلك في الأمثال التالية على سبيل المثال :

غُبَار الغَنَم كُحُول هُو لعَيْن السَّبَع (رقم 1722).

مَن لَدَغَتُ الحَيَّ، مِن الحَبْل يَنْفُر (رقم 1422).

مَن مَات وَلد، رَبِيب يجِيه لَلَّيل (رقم 1474).

في عَافية كَان الزُّجَاج قبل أن يَشْتَري القَط (رقم 1744).

ونتبين أثر التركيب العجمي في المثل الأول من خلال نظيره القشتالي القديم : El Polvo de la oveja, Alcohol es Para el lobo.

والشاهد عندنا في تركيب : كحول هو = Alcohol es.

وكوننا نعتبر الصيغة القشتالية ترجمة للصيغة العربية لا يمنعنا من اعتبار المطابقة التامة في الترجمة دليلا على ما نرى، وفي صبغة المثل العربي القديم :

غُبَار الغَنَم : كُحل عين الذِّئب.



دليل آخر، كما أن تقديم المتعلق في المثل الثاني وتقديم الفاعل في المثل الثالث وتقديم الخبر في المثل الرابع لا يخلو من رائحة الأثر العجمي فيما نفترض، وإن كنا نعرف وقوع مثل هذا أيضا في أساليب العربية الفصحى ولعل مقارنة التركيب في الأمثال المذكورة بالتركيب في نظائرها المغربية والمشرقية تصلح دليلا على هذا الافتراض.

ومع ذلك فالأثر العجمي أو «الرومانثي» في ألفاظ الأمثال وتراكيبها قليل بالنسبة إلى الأثر الرومانثي في الأزجال ولا سيما في خرجاتها.

تلك كلمة موجزة في الجانب اللغوي في الأمثال الأندلسية ونريد - بعد ذلك - أن نشير باختصار إلى بعض خصائصها من حيث الأسلوب والتركيب:

- المثل الأندلسي - كغيره من الأمثال عامة - بنية لغوية تقوم على السجع في الغالب. ويبدو أن للسجع في المثل وظيفتين:

أولاهما أنه حلْية بلاغية تميز المثل العامي - على غرار المثل الفصيح - عن غيره من الكلام الجاري.

وثانيهما أنه حيلة تعليمية لأن السجع أدعى إلى حفظ المثل وتقييده. والسجع البسيط هو الشائع في الأمثال الأندلسية، كهذا المثل:

إذا ريت حيش لمع، ادر أن لأخر بلع (رقم 4).

وقد يكون مركبا (أي مؤلفا من فقرتين فاكثر) كقولهم:

إذا حج جارك، بع دارك، وإن حج مرتين، بعها بالدين (رقم 1).

إذا قالت البنت دد، فكر لها فِي مخد، وإن رفعت القدح لفمها، تحتاج مَا تحتاج أمها (رقم 27).



إذا ريت بالغدو، خل دوابك يرقد، وإن ريت بالعشي، يسر دوابك للمشي (رقم 61).

والتساوي بين قسيمي السجعة هو الكثير في سجع الأمثال، وقد يكون القسم الأول أطول من الثاني كما في هذا المثل :

البَضْعَ المَعْشُوقَ، مَحْلُوقَ (رقم 172)

وقد يكون العكس كما في قولهم :

بَدَرْ، يَد فِالصَّحْفَ وعِينُ فِالقَدَرْ (رقم 561).

ولا نجد التزاما للحرف الواحد في السجعة، فقد ينعقد السجع بحروف متقاربة كما في قولهم :

النَّحْس النَّحِيس، الجُبَّة تَحْت القَمِيص (رقم 189).

جَرُّونِي عَلى الدِّيس، وأنَا حَرِيص (رقم 765).

بُسْ واقْرُصْ، وخَل مُوَيْضَع العَرُوس (رقم 582).

إذَا جَاز أبْرِيل، اعْمَل فَوْق البَحْر سَرِيرْ (رقم 60).

وبالنسبة للمثل الأخير فقد وقفنا في بعض النصوص الأندلسية على كتابة كلمة أبريل بالراء هكذا : ابْرِير.

ومن أمارات الحاجة إلى استعمال السجع في المثل وإيثار الصيغة المسجوعة على غيرها أن بعض الأمثال الأندلسية أرسلت في أول الأمر خالية من هذه الحلية الإيقاعية ثم ما زال بها الصقل والتهذيب حتى دخلت في قالب السجع ومثالنا على ذلك المثل الذي رواه **الزجالي** كما يلي :

بَيْن أخْذ الدِّيك وإطْلاَقُ، ينتتف ذَنَبُ (رقم 550).



وبعد نحو قرنين من الزمن يجيء ابن عاصم فيرويه مسجوعا على النحو الآتي :

بَيْن أخْذ الدِّيك وإطْلاقُ، ينتتف سَاقُ (رقم 324).

والملاحظ أن المثل العامي - على العموم - يتعرض للتساهل في الرواية ومع ذلك فإن الصيغة المحكمة هي التي تظل أكثر استعمالا من غيرها.

وتدعو ضرورة السجع في الأمثال أحيانا إلى استعمال كلمات لامعنى لها واختراع أسماء ربما لم يكن لها وجود في الواقع كقولهم :

جَاح ومَاح، وقَابِض الأرْوَاح (رقم 779).

حَمالِق، جبّاد التَّعَاليق (رقم 812).

- يكثر التشبيه في الأمثال الأندلسية كثرة جعلت **الزجالي** يقول - بعد أن أورد قدرا لابأس به من أمثال التشبيهات - : «وهذا باب متسع جدا»[1].

ولتشبيهات الأندلسيين في أمثالهم وفي أشعارهم[2] - خصوصيتها البلدية وطابعها المحلي، لأنها منتزعة من صميم بيئتهم ومنبثقة من طبيعة ذهنيتهم، فقد شبهوا حال المعربد الذي لم يعد يميز خطإ القول من صوابه والأهوج الذي يثور فلا يعقل مايأتي في حق نفسه من ضرر بحال وَادي شُوش المُضْطَرِب في فَيَضَانه.

بْحَال وَادي شُوش : يَرْمِي الأجْرَاف عَلَى رُوح (رقم 640).

وشبهوا موقف المتردد الذي يظل يقدم رجلا ويؤخر أخرى حتى تضيع منه الفرصة بموقف البلشون في حكايته التي نظمها لافونتين فقالوا :

بْحَل بَلْشُون عَلَى غَدِير : صَغِير ذَا ! كَبِير ذَا ! (رقم 619).

---

1. انظر القسم الثاني ص : 153. وقد أفرد له ألونسو القستلي بابا يشتمل على 150 مثلا.
2. افردت تشبيهات الأندلسيين في الشعر بمؤلفات عديدة منها كتاب التشبيهات لابن الكتاني، وهو مطبوع.

وشبهوا الحادث الذي لا يقع إلا نادرا، والمرور الذي لا يكون إلا عابرا بحال اللقالق مع مدينة **سبتة** :

بَحَل أبو شَقْشَاق عَلَى سَبْتَة[1] (رقم 683).

وفي أمثالهم تشبيهات بالسمك الذي كان في **الأندلس** و**المغرب** وما يزال من مظاهر الحياة فيهما كقولهم :

بَحَل شَابَلْ : دَمٌّ عَلى خَدٌّ (رقم 621).

بَحَل صِلْبَاحْ : ما يموت حتَّى يُذْبَحْ (رقم 669).

وهم ينزعون في بعض هذه التشبيهات منزع التصوير الهزلي Carecature كما في هذا المثل :

بَحَل رَايَس في نُو : يُشِير بِلحْيَتُه، ويَنْطَح بسُرَّةْ (رقم 652).

وبالإجمال فإن مظاهر الصنعة البلاغية الأخرى من تورية وجناس وطباق موجودة في تراكيب الأمثال الأندلسية، ومع ذلك فإننا نلاحظ أن أمثالنا العربية ظلت إلى الآن مستبعدة من ميدان التطبيق البلاغي والتحليل النقدي.

- ثمة طائفة من الأمثال الأندلسية يستعمل فيها أسلوب الحوار، وهو - بحكم بنية المثل القائمة على الإيجاز - حوار قصير يتركب من شقين : أولهما السؤال وثانيهما الجواب ومثال ذلك :

أقل (قيل) للأسْوَدْ : اشكتَعمل لو كُنت سلُطَان؟ قال نُخُذْ (آخذ) ألف مثقال ونهربْ ![2].

---

1. اسمه بالإسبانية Guadajoz وتفسير اسين له بأنه rio de la turbia أي النهر المضطرب يتفق مع المثل راجع TODO BEN QUZMAN ج 1 ص 503 حاشية رقم 7.

2. في نوازل محمد المسناوي الدلائي مايلي : «أن بعض الناس يرى المخطوط من غير أن يلازمه أو تطول إلمامته معه، بل يمر عليه مرور الغرانيق على سبتة» نوازل المسناوي : 259 ط حجر. فاس 1345هـ.



ويفتتح المثل الحواري أحيانا بصيغة النداء كما في هذا المثل :

أقْرَعْ ! (أي يا أقرع) كيف اَصْبحت؟ قال : مبتدي شر (رقم 81).

وقد يفتتح بصيغة الأمر كما في قولهم :

افلَحْ ! قال حتى لغَدِي (رقم 77).

ويقارن هذا المثل - من حيث الأسلوب - بقول أبي **البركات البلفيقي** من قصيدة له :

واهزأ بهم، فمتى يَقُلْ نصحاؤهم : افلَحْ ! فقُلْ : حتى ألاقِي مُفلحا[1]

وهذا الأسلوب الحواري في الأمثال العامية الأندلسية - وفي غيرها - نجده أيضا في كثير من الأمثال المولدة التي دونها الميداني وغيره، ويعلله أحد الباحثين باتجاه المثل المولد إلى البسط والتحليل بدلا من الإيجاز والتركيب وهما من سمات المثل العربي القديم[2].

وهناك فئة أخرى من الأمثال الأندلسية تقوم على أسلوب التفسير كهذه الأمثال :

بضاعة ابن جُرج : بضَاعَ بِكبَش (رقم 555).

ثِمَار وَادي اَشْ : لاَ ظلَّ ولاَ طُعْم (رقم 745).

مُجَبَّنَة الظُّهْر : خَرَجْ نَارَها، وقَل طُلاَّبْها (رقم 1491).

ففي مثل هذه الأمثال نحس أن طبيعة المثل فيها تكمن في الأجزاء الأولى أما ما بعدها فليس إلا تفسيرا لها، وكأن التمثل بمثل ما ذكر جرى في

1ـ الكتيبة الكاملة : 130

2ـ الأمثال في النثر العربي القديم للدكتور عبد المجيد عابدين ص : 182.

أول الأمر بالأجزاء الأولى على سبيل التشبيه، ويجوز أيضا أن تعد من باب المضاف والمضاف إليه، وهو ـ كما نعرف ـ باب لاحق بالأمثال ألف فيه كل من الثعالبي والمحبي.

ـ من السمات البارزة في أسلوب الأمثال الأندلسية بذاءة الألفاظ وفحشها وهذا يؤكد الشواهد المتعددة التي يوصف فيها كلام العامة في **الأندلس** بأنه محشو بسوء الأدب، وقد جاء في **المغرب** 1 : 212 أن عبد **الرحمن الناصر** استحضر **سعيد ابن عبد ربه** لينظر عليه في العلم القديم فقابله من الكلام الجلف بما كرهه من أجله وأبعده، وفيه أيضا (1 : 216) أن أبا زكرياء الحميري كان يخاطب السلطان أبا زكرياء الحفصي من الألفاظ العامية المحشوه بسوء الأدب بما يضحك[1]، وورد في نفح الطيب ما يلي : «ويحكي أن **المنصور بن عبد المومن** لما أراد بناء صومعة **إشبيلية العظيمة** القدر أحضر لها العرفاء والصناع من مظانهم، فعرّف بشيخ مغفل صحيح المذهب عارف بالبناء الذي يجهله كثير من الصناع فأحضر، فقال له المنصور : كم تقدر أن ينفق على هذه الصومعة؟ فضحك، وقال : يا سيدي البنيان إنما هو مثل ذَكَر ليس يقدّر حتى يقوم، فكاد المنصور يفتضح من الضحك وصرف وجهه عنه[2]». وقد اشتهر أهل **طريانة** الساكنون على ضفاف وادي إشبيلية بتبذلهم في الكلام وتماجنهم في الحديث، حتى إن الوزير **أحمد بن سعيد القلعي** لما أحرج مما سمع من قبيح القول في هذا الوادي قال له أصحابه : «أما سمعت أن من دخل هذا الوادي يعول على هذا وأمثاله[3]» ووصف **الشقندي** أهل هذا الوادي بأنهم «أخف الناس أرواحا، وأطبعهم نوادر، وأحملهم لمزاح بأقبح ما يكون من السب، قد مرنوا على ذلك،

1ـ المغرب : 121، 216.
2ـ نفح الطيب 4 : 129.
3ـ نفح الطيب 5 : 324.



فصار لهم دَيْدَنا حتى صار عندهم من لا يَتَبَذَّل فيه ولا يتلاعب ممقوتا ثقيلا»[1]

وإلى هذا أيضا يشير أحمد بن سعيد المذكور في وصف وادي **إشبيلية** :

خصه الله بمعنى فيه للألباب سرّ
يُلعن الإنسان فيه وهو يصغي ويُسَرّ[2]

وقد أشار حازم **القرطاجني** في «منهاج البلغاء» إلى «شيوع العبارات الساقطة والألفاظ الخسيسة ككثير من ألفاظ الشطار المُتَماجِنين واهل المهن والعوام والنساء والصبيان[3]».

ومن المظاهر الخفيفة لهذه السمة عند الأندلسيين ولعهم بالتنابز بالألقاب وهو ولع نلحظه في الأمثال ونجده في ثنايا كتب التراجم والتاريخ، ولم يستثنوا من النبز بالألقاب أمراءهم وأئمتهم، فمن ألقاب الخلفاء والأمراء : المنقوش[4]، والأحدب[5] والبطرة سكه[6] أي الحجر اليابس، والمذاكرة[7] والمطبوع[8] والعجيل[9]، والفروطة[10]، والقط[11] والغزال[12] وهكذا، ومما نبز به بعض القضاة : القبعة[13]، والمغربلة[14] أي الدجاجة المهزولة وجعسوس[15] وغيرها كثير.

1ـ المصدر نفسه 4 : 149.
2ـ المصدر نفسه.
3ـ منهاج البلغاء : 331.
4ـ لقب محمد بن عبد الجبار، انظر البيان 3 : 50.
5ـ لقب المنصور بن أبي عامر، انظر البيان المغرب 2 : 281.
6ـ لقب عبد الله بن عبد العزيز الأموي : انظر الجمهرة : 98.
7ـ لقب المنذر بن عبد الرحمن الأموي، انظر الجمهرة : 95.
8ـ لقب محمد بن ابراهيم بن معاوية الأموي، انظر الجمهرة 95.
9ـ لقب عبد الله بن اسحاق الأموي، انظر الجمهرة 95.
10ـ لقب أحد الأمويين، انظر الجمهرة : 99.
11ـ لقب محمد بن هشام الأموي، انظر الجمهرة : 99.
12ـ لقب سليمان بن المرتضي، نفح الطيب 3 : 590.
13ـ14ـ قضاة قرطبة : 35.
15- لقب القاضي البناهي.



ونحسب أن تركيب الألقاب كان شائعا ومقبولا بين العامة، أما الخاصة فكانوا على العموم يأنفون منه وينتقدونه، وممن انتقد عادة التنابز بالألقاب عند الأندلسيين المقري الجد[1] ولقد **خاطب الطبني القرطبي** ولده من مصر بهذين البيتين :

يَا أهْـل أنْـدلُـس مَاعِـنْـدكُـم أدب   بالمَشْرِق الأدَب النَّفَاح بالطِّيب

يُدْعَى الشَّباب شيُوخا في مَجَالِسهم   والشَّيْخ عِنْدكُم يُدْعَى بِتلْقِيب[2]

وهذا المعنى الذي عبر عنه هذا **الفقيه القرطبي** نجد ظلا له في مثل أندلسي ولا يخلو من مفارقة :

- مشينا لمصر ان نعز، صبنا الفقهاء ثم يزز[3] (**ابن عاصم** رقم 760).

كان المزاج الأندلسي مزاجا حضريا أقرب إلى الخفة والمرح منه إلى الجد والتزمت، وفي وسع قارئ الأمثال الأندلسية أن يحس بهذا وأن يستدل عليه، والأمثال هنا تتضافر من فنون القول- المعربة وغير المعربة - في تصوير طبيعة المزاج الأندلسي هذه، ألم يقرر **المقري** الذي عرف الأندلس من خلال أدبها فحسب مايلي :

«ولأهل **الأندلس** دعابة وحلاوة في محاوراتهم وأجوبة بديهية مسكتة، والظرف فيهم والادب كالغريزة، حتى في صبيانهم ويهودهم فضلا عن علمائهم وأكابرهم[4]»

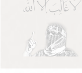
1ـ نفح الطيب 5 : 276.
2ـ صلة ابن بشكوال 1 : 177.
3ـ معناه : ذهبنا إلى مصر (أو المصر) حيث نعز ونكرم فوجدنا الفقهاء هنالك يصفعون.
4ـ نفح الطيب 4 : 352.



ولو وصل إلينا **«المسهب» للحجاري** لكان مادة غزيرة في تصوير الوجه الضاحك للأندلس الإسلامية لأنه تدارك فيه ما أمسى شَعاعا «من النوادر والتنكيتات والتركيبات وأنواع المضحكات»[1] ومثل «المسهب» في هذا الموضوع كتاب التحف والطرف **لابن عفيون**[2]، وما ألف في دعابات **ابن ابي حلي**[3]، وقد عرف بعض أدباء **الأندلس** بحفظ نكت الأندلسيين ورواياتها، ومنهم **البياسي**[4] مؤلف الحماسة المغربية. كما أشارت الأمثال إلى مزاح **أبي اسحاق اللاذع**[5] ونوادر ابن طاهر القيسي[6]، وبالجملة فقد كان الظرف والتظرف من شيم **الأندلسيين**، ولكم نفقت عندهم سوق الظرفاء القادمين من المشرق، ونجدهم في نصوص عديدة يعبرون عن إعجابهم بالظرف العراقي الذي عرفته المجتمعات العباسية. ويحاكونهم في هزلهم وسخفهم ومجونهم الذي نجده في المقامة **الدينارية** ـ على سبيل المثال ـ **للبديع وفي حكاية أبي القاسم البغدادي** وفي القصيدة الساسانية لأبي دلف وفي شعر ابن **حجاج** و**ابن سكرة**. وقد خصص **المقري** بابا كبيرا في نفح الطيب ساق فيه أمثلة كثيرة جداً من ظرف الأندلسيين ومجونهم وبراعتهم في الأجوبة وقال في آخر الباب إن الأمثلة في ذلك بحر لا ساحل له[7].

---

1. المصدر نفسه 4 : 151.
2. المصدر نفسه 5 : 160.
3. المصدر نفسه 5 : 98.
4. المصدر نفسه 4 : 293.
5. المثل رقم 1508 في القسم الثاني.
6. المثل رقم 1228 في القسم الثاني.
7. يوجد الباب المذكور في الجزء الثالث من ص 150 إلى آخره، وتوجد بقية الباب في الجزء الرابع من أوله إلى ص 349.



العامية الأندلسية والمغربية بين أمثال الزجالي وملعبة الكفيف الزرهوني (*)

---

* سبق نشر هذا الفصل في :
Actas del congreso internacional sobre interferencias linguisticas arabo-romances, Zaragoza 1994.



من المواضيع التي برز فيها الباحثون المستعربون وقصر فيها العرب الدارسون موضوع الخرجات العجمية وموضوع اللهجات العامية العربية، ويرجع تقصير الباحثين العرب في هذين الموضوعين إلى أسباب متعددة ومختلفة، منها عدم الخروج عما درج عليه الأسلاف من إهمال لأمثال هذه الموضوعات وأنها لا تستحق أن تدون في المجلدات المخلدات ومنها الخوف على اللغة العربية الفصحى ولا سيما بعد أن دعا بعضهم إلى استعمال العامية بدلا من لغة القرآن، ومنها في الأخير أن موضوع الخرجات يتطلب معرفة باللهجات الرومانسية وتوسعا في أعاريض الأزجال والموشحات وتضلعا في الشعر الإسباني الذي تعرف مجاميعه بـ «الرومانسيرو»، وللأسباب التي ذكرناها وغيرها لم يبدأ إسهام الباحثين العرب في الموضوعين المذكورين إلا في العقود الأخيرة، وقد نشرت كلية الآداب في الرباط كتابا يشتمل على ما كتب بمختلف اللغات مما له تعلق بهذين الموضوعين خلال مائة وثلاثين سنة، ويبدو من حصيلة هذا الكتاب مصداق ما قلناه[1].

إن العود إلى هذين الموضوعين هو مما يدعى بالعود الأحمد، وذلك لكي نعرف ما ظهر من نصوص، وما جد من بحوث، ولكي يقع التلاقي ويحصل التعارف بين الجامعيين العاملين في هذا الميدان، وكما تعلمون فقد خلف الأعلام الرواد جيل من الباحثين الكهول والشباب، وهم يواصلون الجهود ويتابعون البحوث ويصلون إلى نتائج جيدة وأمثّل لهم بالأستاذ فدريكو كورينت، وأنا وإن لم يكن لي تخصص في الدرس اللغوي أو اللساني الحديث فقد كان من قدري أني اشتغلت بتحقيق بعض

1. Langue et société au Maghreb, Bilan et Perspectives

النصوص العامية القديمة في الأمثال والأزجال، وقد طبع منها : «أمثال العوام للزجالي» و«ملعبة الكفيف الزرهوني»، ومما هو معد للطبع : «أمثال ابن عاصم» و«أمثال أبي مدين الفاسي» و«أمثال مغربية قديمة» لمؤلف مجهول. ومن المعروف أن النصوص ولا سيما العامية منها هي المادة الأولى التي يقوم عليها عمل اللغويين واللسانيين.

وإذا كنت سأعود إلى الكلام عن أمثال الزجالي وملعبة الزرهوني فلأن بعض المشتغلين في هذا الميدان لم يقفوا عليهما أو لم يلتفتوا إليهما، ومن هؤلاء واضع ببليوغرافية لهجات الغرب الإسلامي في الكتاب الذي سبقت الإشارة إليه، فقد احتطب ما شاء أن يحتطب ولكنه أغفل أمثال العوام في الأندلس التي طبعت في مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية بفاس عام 1971 وملعبة الكفيف الزرهوني التي طبعت في المطبعة الملكية بالرباط عام 1987، كما أن من جملة ما أغفلته هذه الببليوغرافية الناقصة ديوان الششتري بتحقيق النشار وديوان ابن قزمان بتحقيق كورينت، ولست أدري كيف لا يشتمل مسرد ببليوغرافي حول اللهجة الأندلسية على النصوص الأربعة المذكورة مع أنها أطول النصوص وأهمها في هذه اللهجة.

وسأقتصر هنا على التعريف بقيمة أمثال الزجالي وملعبة الكفيف وفائدتهما في تعميق معرفتنا باللهجة الأندلسية وهي التي تتميز من اللهجات العربية القديمة بتوفرها على معاجم ووثائق جعلت الدارسين يعرفونها أحسن من غيرها، فأما المعاجم فمنها كتب لحن العامة التي ألفها الزبيدي وابن هشام وابن هانىء وابن خاتمة وغيرهم ومنها معاجم المسيحيين مثل المعجم المنسوب لريمند مرتين ومعجم بطرس القلعة. وأما الوثائق فنجدها في مجاميع الأمثال ودواوين الأزجال وغيرهما، ومن النوع الأول مجموع الزجالي الذي نبدأ به فنقول :

تعتبر الأمثال شريحة من شرائح التعبير اللغوي ولونا من ألوان القول أو فنا من فنونه، وقد ظلت في تقاليد الدراسة الأدبية أدون فنون القول مقاما وأهونها شأنا وأقلها عناية واهتماما ويستوى في هذا الأمثال الفصيحة والمولدة والعامية، ولم يقع الاتجاه إلى الاهتمام بهذه الأخيرة إلا في السنوات الأخيرة، ومما يلاحظ أن ثمة فراغا بين ما يعرف باسم أمثال المولدين التي توجد عند الميداني (؟ - 518هـ) وبين الأمثال العامية المستعملة في عصرنا، ولعل الأندلس تشكل استثناء فقد دونت أمثالها العامية منذ أن برزت خطوط الشخصية الأندلسية ووضحت معالم المجتمع الأندلسي بدءا بابن عبد ربه في العقد ومرورا بابن هشام اللخمي الإشبيلي ويحيى الزجالي وأبي بكر ابن عاصم وختما بابن القفال والهنس القستلي.

تعتبر مجموعة الأمثال التي استخرجناها من كتاب «ري الأوام» للزجالي أقدم المجموعات الأندلسية وأهمها على الإطلاق، وقد بينا في دراستنا قيمتها التاريخية والاجتماعية والأدبية واللغوية، وسنقف هنا عند بعض الملامح العامة في اللهجة الأندلسية كما تبدو في الأمثال المذكورة ولنرى كذلك مدى دلالتها ومطابقتها لما توصل إليه الباحثون في قواعد هذه اللهجة وخصائصها الصوتية والصرفية والدلالية والمعجمية، ومن قدماء هؤلاء الباحثين كولان وشتايجر وأسين على سبيل المثال، ومن المحدثين كورينت على سبيل المثال أيضا؛ وتجدر الإشارة إلى أن بعض علمائنا الأقدمين نبهوا على بعض الظواهر اللغوية في لسان أهل الأندلس مثل الإمالة والتصغير والتنوين المنصوب وإطالة الحركات ووقوع القلب والإبدال في كلامهم كإبدال النون ميما وإبدال التاء طاء وإبدال القاف كافا أو نطقها معقودة كما نبهوا على تغاير اللغات واللهجات في الأندلس فلغة أهل فحص البلوط غير لغة أهل قرطبة، ولغة

أهل شرق الأندلس تتميز من غيرها، ولأهل الثغر لغتهم التي ظلوا معروفين بها حتى بعد لجوئهم إلى مملكة غرناطة، أما كلام أهل غرناطة فلعله الأكثر تدوينا والأوضح سمة من سواه.

إن أمثال الزجالي - كما هي مرسومة ومشكولة في النسخة المروية عن مؤلفها - جاءت مؤكدة لكثير من المعطيات المبسوطة في دراسات العامية الأندلسية، وهي حافلة بما يغني هذه الدراسات وعندما نشرتها في قسمين : دراسة ونصوص ، كنت أطمع في أن تكون باعثة على الاهتمام بدراسة الأدبيات الشعبية واللهجات الأندلسية والمغربية في كلية الآداب ولكني كنت في هذا كأشعب وأضرابه، فبعد مرور عشرين سنة على صدور تلكم الأمثال ظهر في الكلية المذكورة كتاب حول البحث اللغوي في المغرب خلال مائة وثلاثين سنة ولم يرد فيه ذكر لأطروحتي وأنا لا أريد هنا توجيه اللوم إلى المشرفين على إصدار هذا الكتاب وإنما أريد تسجيل أمر بدا لي على جانب كبير من الغرابة، وقد يكون السبب في سوء التوزيع أو سوء النية، أما سوء التوزيع فإني معترف بوقوعه وعارف بسببه، فقد طبع القسم الثاني قبل القسم الأول، وطبع من القسم الثاني 2000 نسخة ولم يطبع من القسم الأول إلا 1000 نسخة، وأما سوء النية فهو شيء مفترض فالكتاب كان معروفا في الكلية بدليل أن العدد الأول من مجلة كلية الآداب - وهي الكلية التي نشرت الكتاب المذكور - يحتوى على مقال طويل (من ص 251 إلى ص 271) كتبه الأستاذ محمد زنيبر[1] في التعريف بكتابي «أمثال العوام في الأندلس»، وقد جاء في آخر هذا

1ـ توفي رحمه الله في 20 نونبر 1993 في الأندلس التي كان من عشاقها، وذلك خلال ندوة بمدينة مالقة.

المقال مايلي : «ومجمل القول أن محمد بنشريفة فتح في هذا الفصل (يعنى الفصل الخاص بلغة الأمثال) بابا من البحث الشيق والمفيد في تطور اللغة العربية من الفصحى إلى العامية وفي المقارنة بين مختلف اللهجات الدارجة في العالم العربي المعاصر، ونغتنم الفرصة لنعبر عن تمن نقدمه للسلطات الجامعية ولكل المثقفين وهو أن تحظى اللهجات العامية باهتمام خاص في برامج الدراسة والبحث ولا تبقى من المواضيع التي لا يلتفت إليها إلا المستشرقون» ولم يتحقق تمنى زنيبر مثلما لم يتحقق طمعي[1].

وإذا كانت «أمثال الزجالي» وملعبة الكفيف الزرهوني لم تستدعيا إلى تلك «المأدبة» اللغوية التي كانت جَفَلَى لا نقرى فإنهما قد لقيتا ترحيبا خاصا لدى العارفين في المشرق والمغرب، وقد سمعت من الثناء عليهما ما أخجل تواضعي[2]، وليس هنا مقام الكلام في هذا فلنرجع إلى موضوعنا الآن وهو آثار التداخل بين العربية والعجمية في أمثال الزجالي وآثار التداخل بين العربية والبربرية في ملعبة الكفيف الزرهوني وسأبدأ بالأول فأقول :

لقد وردت نصوص متعددة إلى أن أهل الأندلس عامة والعجم منهم خاصة كانوا يعرفون العجمية (الرومانسية) وقد بنى الدارسون المحدثون من المؤرخين واللغويين على هذا وجود الازدواجية أو التعددية اللغوية في المجتمع الأندلسي، وإذا كانت «خرجات» الأزجال وغيرها تشهد لهذا فإننا نلاحظ أن الأمثال، ومنها أمثال الزجالي وأمثال ابن

1ـ انظِر الفصل الذي خصصناه لتاريخ الأمثال في الأندلس وذلك في القسم الأول من كتابنا.

2ـ أودّ هنا أن أشكر الأخوات والإخوة الزملاء الذين كتبوا أو نوهوا بأمثال العوام في الأندلس وملعبة الكفيف الزرهوني وأتذكر منهم : الآن نجاة المريني وإبراهيم الخطيب وسعيد يقطين وجعفر الكنسوسي وأحمد الطاهري ومحمد القبلي والحسين بن عبد الله وعبد الرحمن الملحوني وقبلهم المرحوم زنيبر. كما أن بعض الطلبة اشتغلوا بكتاب أمثال العوام في بحوث السنة الرابعة.



عاصم، يندر فيها وجود الكلمات الأعجمية، وكان المنتظر حسب ما يذكر من انتشار العجمية في البيئات الشعبية أن يكون عدد الكلمات العجمية كثيرا في الأمثال المذكورة، وأما أثر العجمية في الشعر الفصيح فإنه أندر من الكبريت الأحمر، وإذا كنا نجد ظرفاء عباسيين يملحون أشعارهم بكلمات فارسية وظرفاء مصريين يملحون أبياتهم بكلمات تركية فإننا لا نجد مثل هذا لدى الشعراء الأندلسيين إلا نادرا، ومن ذلك تلك المداعبة المشهورة التي جرت بمجلس عبد الرحمن الناصر بين عبد الملك بن جَهور وأبي القاسم بن لُب وفيها يقول هذا الأخير :

لَولا حَيَائي مِن إمَامِ الهُدى نخست بالمنخس «شُوقُولُ»

و«شُو قُول» هي Su culo[1].

ومن ذلك أيضا ماجاء في اقتباس الأنوار للرشاطي : «وقّش : قرية بثغر الأندلس»، قال بعض المجّان :

جَارِيَة آبْصَرْتُهَا نَاهِدا في قَرْيَة تُعزى إلى وقَّشْ

قُلْتُ لمَن نَهْدَاك. يَا هذه قَالَتْ بِرُومِيَّتِهَا : «تُوَشْ»[2]

«معنى : توش متاعك»[3]. وهذا رسمها بالحروف اللاتينية tuas، وايراد الرشاطي المحدث للبيتين وشرحه للعبارة الأعجمية يدل على ظرفه ومعرفته بعجمية الأندلس وهو أمر مقرر ومؤكد، يدل عليه قوله متحدثا عن نسبته : «هذه نسبتنا التي اشتهرنا بها، وقد كنت أظن أنها نسبة إلى

---

1. راجع الخبر في البيان لابن عذاري ج 2 ص 227.
2. اقتباس الأنوار (مخطوط) ولم يرد البيتان فيما طبع منه.
3. في Vocص 618 : متاعك : tuas وهو تفسير مطابق لتفسير الرشاطي.



موضع أو بلد فسألت عن ذلك أبي رحمه الله فقال : هذه نسبة قد شهرنا بها نحن وآباؤنا ولا أعلم لها أصلاً فسألت عن ذلك أسماء عمة أبي رحمهما الله فقالت : «إنّ أحد أجدادنا كانت به في جسمه شامة كبيرة هي التي تعرف بالوردة ويسميها العجم رشطا وكانت له في صغره خادم عجمية تحضنه وتكفله فكانت عندما تخدّعه وتلاعبه تقول له : رشطالُه وكثر ذلك منها حتى غلب عليه وقيل رشاطي»[1] وإذا كان مثل ما ذُكِر نادرا جدا في الشعر الفصيح فإنه شائع في الأزجال والموشحات، ولا سيما في الخرجات، ومع هذا فإن أثر العجمية في اللغة العربية الأندلسية هو في نظرنا دون ما يظن، وهذا مع احترامنا لجهود سيمونيت وغيره في هذا الميدان، ولعله من الطبيعي أن يكون أثر اللغة العربية في القشتالية وغيرها من لغات شبه الجزيرة هو الأقوى والأوضح، ويدل على ذلك قاموس الأكاديمية وغيره.

إن التأثير والتأثر بين العربية والعجمية في الأندلس يظهر في مستويات متعددة نذكر منها مايلي :

1 ـ المستوى المعجمي أو مستوى الألفاظ، وهذا هو أبرز مستويات التداخل اللغوي في جزيرة الأندلس، والجانب الذي يعنيني هنا هو الألفاظ الرومانسية الداخلة أو الدخيلة في عربية أهل الأندلس، وهذه الألفاظ نجدها على الخصوص في كتب النبات مثل كتاب المفردات لابن البيطار[2] وكتاب عمدة الطبيب لأبي الخير الإشبيلي[3]، ومنه استخرج

1ـ الذيل والتكملة 8 : 479 وكلمه رشبتا (أو رشتان) وردت في ص 570 مرادفة لِحِكَّة وحزازة... ونقلها عنه دوزي 1 : 529.

2ـ راجع عمل الأستاذ إبراهيم بن مراد في هذا الكتاب المطبوع قديما.

3ـ نشرته أكاديمية المملكة المغربية في مجلدين بإعداد الأستاذ محمد العربي الخطابي.

اسين بلاثيوس «معجم الألفاظ الرومانسية» المنشور عام 1943 كما نجد هذه الألفاظ في المعاجم الأندلسية التي وضعها مسيحيون مثل Voc. وALC الذين أشرت إليهما سابقا ونجد أيضا شيئا من هذه الألفاظ في كتب لحن العامة الأندلسية ولكنها قليلة، والذي نجده من هذا المستوى في أمثال الزجالي حوالي 25 كلمة.

2ـ ومن مستويات تأثير العجمية في العربية العامية بالأندلس تلكم المقاطع التي توجد في آخر بعض الكلمات العربية، وأشهرها وأكثرها مقطع «on» ـ : الذي جرى الأندلسيون على جعله في آخر الأسماء العربية، ومنها : زيد ـ زيدون، عمرو ـ عمرون، ويراد بهذا التكبير كما نص عليه المؤرخ الرازي[1] وقد ذكرت من هذه المقاطع سبع حالات وردت في أمثال الزجالي وغيره، ولم يكن بعض علمائنا الأقدمين يجهلون معنى هذه المقاطع كما يدل على ذلك نص ورد في الذيل والتكملة[2].

3ـ ومن مستويات التأثيرالناشئ عن الاحتكاك باللغات الرومانسية في الأندلس واستعمال عجمها للغة العربية بروز بعض الحالات في الاستعمال اللغوي مثل تأنيث المذكر وتذكير المؤنث واستعمال الجمع محل المفرد والمفرد محل الجمع وما أشبه ذلك، وقد فسر الأستاذ خ.ب لاثرو أمثلة عديدة وردت في مدخل ابن هشام من هذا القبيل، ومن المعروف أن مثل هذا قد حصل أيضا بسبب التداخل اللغوي والثقافي بين العربية والفارسية والعربية والبربرية ومن أشهر الأمثلة التي نضيفها إلى ماعدده زميلنا المذكور كلمة باب التي يؤنثها عامة أهل فاس وغيرهم

1ـ يبدو أن الأستاذ كورينت لم يهتم بهذا النص الذي ورد في المعيار للونشريسي ج 10 ص 110 قال الرازي : "فولد عمر بن جعفر حفصا المعروف بحفصون أريد به التكبير".
2ـ الذيل والتكملة.



ويسري غلطهم فيها إلى الخاصة، كما أن البربرية تؤنث كلمة المسجد قياسا على كلمة الكنيسة، وانسحب ذلك على كلمة جامع التي وردت مؤنثة في بعض النصوص التاريخية، وما تزال بهذا الاستعمال في شمال المغرب.

4. وثمة مظهر آخر للتداخل بين العجمية والعربية في الأندلس نلحظ شيئا منه على مستوى التركيب، ومن أمثلته في أمثال الزجالي قولهم :

غُبَارُ الغَنَم كُحُول هُو لِعَيْن السَّبَع[1].

فالمطابقة تامة بين التركيب العربي هنا والتركيب القشتالي وهو كما رواه سنتيلانا : El polvo de la overja, alcohol es para el lobo.

وثمة أمثلة متعددة من هذا المستوى في أمثال الزجالي وابن عاصم وكتب لحن العامة.

وبعد، فهذه مجرد إشارات عامة إلى بعض مايتعلق بالتداخل بين العربية والرومانسية في شبه الجزيرة الإيبيرية من خلال أمثال الزجالي، ومن المعلوم أن هذا القرطبي الأصيل بعد خروجه من قرطبة قضى شطرا من حياته الأخيرة في مدينة مراكش التي دفن فيها ومن هنا فإن مجموعه من الأمثال يقدم لنا من ذلك شواهد على التداخل اللغوي بين العدوتين ولاسيما على المستوى المعجمي أو القاموسي، وإنه لأمر طبيعي أن يحصل هذا التداخل بعد مايقرب من ثلاثة قرون من الوحدة بين المغرب والأندلس كانت مليئة بالتنقلات الكثيرة والمخالطات الواسعة مما من شأنه أن يقلص الفروق بين اللهجات العربية في الأندلس واللهجات

---

1. راجع أمثال العوام في الأندلس (القسم الثاني).



العربية في العدوة، وأظن أن الأستاذ كولان كان على حق عندما قال في معرض كلامه على عامية المغرب، في عصر الموحدين : «إن من حقنا أن نتساءل إلى أي حد كانت العربية الدارجة في المغرب مخالفة للعربية الدارجة في الأندلس»[1].

قلت آنفا إن التداخل اللغوي بين العدوتين في هذا العصر كان شيئا ملموسا على مستوى الألفاظ المستعملة، وهذا ما تشهد له النصوص والمعاجم التي ترجع إلى تلك الحقبة، وسأورد أمثلة من هذه الألفاظ فيما يلي :

. قطيم : وصمة يعير بها من بهم شذوذ جنسي، وهي في .Voc ص 583 وقد استعملت في الشعر الفصيح، ووردت في أمثال متعددة عند الزجالي رقم 165 ورقم 384 ورقم 488 ورقم 520 ورقم 527 ورقم 787 ورقم 961 ورقم 1664. وقد كان أبو العباس السبتي يتلفظ بهذه الكلمة كثيرا في مخاطبة بعضهم (الإعلام للمراكشي 1 : 240) والكلمة غير مستعملة اليوم.

. قطاع : درهم، وهي أيضا في .Voc ص 494 وقد وردت في أمثال متعددة عند الزجالي (انظر الفهرس) واستعملها ابن قزمان وغيره من الزجالين كما استعملها عبد الواحد ابن عاشر الفاسي الأندلسي الأصل في منظومته الفقهية، وذلك في قوله :

ثُم الصَّلاَة والزَّكَاة في القِطَاع والصَّوْم والحَج عَلَى مَن اسْتَطَاع

1. هسبيريين 1930.

والواقع أن الكلمة قاموسية فصيحة، جاء في القاموس للفيروزبادي : قطاع ككتاب الدرهم. ولكن استعمالها بفتح القاف شاع في الأندلس والمغرب في العصر الذي نتحدث عنه، ثم إنه لم يعد مستعملا في العهود المتأخرة، ولهذا فإن المثل الذي كان يقال في زمن الموحدين بهذه الصيغة :

حَاجَة بقَطَاع : يَهُودي يَقْضِيهَا. أصبحت صيغته بفاس في القرن الثاني عشر الهجري هكذا : حَاجَة بالدَّرْهَمَ : يَهُودِي يَقْضِيهَا.

- تور (أي حسكة أو شمعدان) وهي من الكلمات المذكورة في .Voc ص 279 وقد وردت في أحد أمثال الزجالي رقم 807 ونجدها مستعملة في مؤلفات العصر الموحدي مثل كتاب الاستبصار (ص 20) وقد رسمها محقق الكتاب بالثاء المعجمة، والكلمة قاموسية فصيحة، وهي واردة في الحديث النبوي، ولكن الجديد فيها هنا هو تطور الاستعمال من إناء يشرب فيه إلى شمعدان يستضاء به.

- الجوف (بمعنى الشمال) موجود في .Voc وفيها أيضا : ريح جوفي أي ريح الشمال، وهذا الاستعمال موجود في كتب الجغرافية القديمة وكتب الوثائق، ونجده كذلك في الشعر الأندلسي فمن ذلك قول ابن اللبانة يمدح ابن الأفطس :

وقَدْ كَانَ قُطْرُ الجَوْفِ كَالجَوْف يَشْتَكِي   سَقَاماً فَلَمَّا زُرْتَه زَارَه الطِّبُّ

فالجَوف الأول معناه الشمال والثاني هو المعدة ولابن الخطيب بيتان في السّها من النجوم الجوفية استخدم فيهما التورية بكلمة الجوف التي تحتمل معنيين فقال :



قالوا السُّها بادي النّحول كأنّه   متسترٌ تبدو مخاوف خوفِهِ

أتُراه يشكو قلتُ هذا ممكنٌ   والله يعلمُ داؤه من جوْفِهِ[1]

وإذا كانت كلمة القبلة بمعنى الجنوب ما تزال مستعملة فإن كلمة الجوف التي كانت تستعمل بمعنى جهة الشمال لم يبق لها هذا المعنى في الاستعمال الحالي.

- قطيع أي قنينة طويلة العنق، وهي في قاموس .Voc وجاءت في أمثال متعددة عند الزجالي (انظر الفهرس) وهي واردة أيضا في الأزجال والموشحات والأشعار، ومن ذلك قول ابن الطَّبْني:

لا تَسْقِني إلاَّ بكَاسٍ إذاَ   شَربْتُهَا تمْلِكُ عقْلي جَمِيع

وزَادَكَ الله سُرُوراً إذا   سَقَيْتَني بالجَام أو بالقطيع[2]

وقول ابن الإفليلي:

صَحِبْتُ القطيعَ ونَادَمْتُه   وأصْبَحْتُ في شُرْبِه ذا انقِطَاع

وأبصَرتُ أُنْسي بِه وحْدَه   كأُنسِ الرَّضيع بثَدْيِ الرَّضَاع[3]

ولم تعد هذه الكلمة المسموعة في طرب «الآلة» أو الموسيقى الأندلسية معروفة لدى عموم الناس.

---

1. نفح الطيب 6 : 465.
2. المغرب لابن سعيد 1 : 73.
3. نفسه.



ـ طرقون : صاحب الملاهي، وردت بهذا المعنى في .Voc ويستفاد من نص لابن الخطيب في الإحاطة أنها معروفة في أول عصر الموحدين، ونقل مؤلف كتاب «المعزى» أن أهل مراكش كانوا يطلقون هذه الكلمة على أبي العباس السبتي على سبيل السخرية وقد وردت الكلمة أيضا في شعر للفقيه عمر الزجال ، قال :

وقَدْ جَلَس الطرقُون بالبعُد مُطْرِقا يقول : نَصيبي أو أبُوح بكِتْمَاني[1]

ـ ضيف، ضيفة، بمعنى السيد والسيدة اللذين لهما خدم وحشم، والجمع أضياف، وقد جاء كل هذا في .Voc ص 356، استعمل وفي ثلاثة أمثال عند الزجالي رقم 497 ورقم 1339 ورقم 2061.

وسجل هذا الاستعمال بطرس القلعي، وعلى هذا الأساس نفهمه في رسالة لبوعبدل إلى الملكين الكاثوليكيين تبدأ هكذا : «إلى السلطان والسلطانة أضيافي ...» وقد ظل هذا الاستعمال معروفا في المغرب، ونقف عليه في نصوص مختلفة ومنها رسالة وجهها أهل مدينة أسفي إلى عمانويل الأول ملك البرتغال وهي تبدأ هكذا : «ضيفنا ومولانا السلطان ...».

ـ حلاّل بمعنى لص ويجمع على حلالين. والكلمة بهذا المعنى في .Voc ص 402 واستعملها المؤرخ البيدق بهذا المعنى وقد وردت في أمثال الزجالي.

وثمة كلمات ترجع في الأصل إلى العهد المذكور أو ماقبله، وماتزال حية إلى اليوم ومنها :

1ـ أزهار الرياض للمقري وراجع الكلمة في .Voc ودوزي.



- بنيِّس : إناء معين، والكلمة في .Voc ص 620 وتجمع على بنانيس، وقد وردت في نصوص أندلسية ومغربية متعددة وفي أمثال الزجالي رقم 6، ثم تنوسي الاستعمال الأصلي وبقي الاستعمال المنقول إلى لقب أصبح علما مستعملا إلى يومنا هذا تماما كما هو الشأن في كلمة برادة، وكلاهما الآن اسمان لعائلات في المغرب.

- فنيش للبغل أو البردون، وهي في .Voc ص 273 وتجمع على فنانيش، وقد ورد استعمال الفنيش في كتاب الأنيس المطرب لابن أبي زرع وذلك في سياق خبر مقتل المستنصر الموحدي (ص243) ثم تنوسي هذا المعنى بعد أن نقل اللفظ إلى حقل الألقاب التي تصبح أسماء عائلية أو أسماء شهرة، ومايزال هذا الاسم العائلي معروفا في المغرب إلى اليوم.

- فقّون. هذه الكلمة توجد كذلك في .Voc ص 156 وهي مأخوذة من الكلمة العجمية : فيقُه أي التين (عمدة الطبيب 1 : 147) والفقّون هو مانسميه بالباكور، ثم إن هذا المعنى تنوسي وأصبحت الكلمة بعد ذلك شهرة لعائلة قسنطينية أنجبت عددا من الأعلام الذين يحملون اسم الفقون أو الفكون، وقد نجد أمثلة من هذه الكلمات الأسماء التي هي من بقايا زمن الموحدين.

ثم إن نسبة كبيرة من ألفاظ Vocabulista المستعملة في القرن السابع الهجري وهو القرن الذي عاش فيه الزّجّالي ما تزال مسموعة في بلدان المغرب الكبير ومنها الكلمات التالية على سبيل المثال لا الحصر :

البَرَّاح (أي المنادي) ص 532 الرَّقّاص (من يمشي بالبريد) ص 328 السَّبّاط (النعل) ص 585 الزَّفّاط (الكذاب) ص 253 البْسَالَة (الفضول) ص 328 الدَّبِيلَة (الهم) ص 245 الحَوّاس (السارق وقاطع الطريق) ص 532 السماط (الزقاق) ومنه سماط العدول بفاس ص 276 الزرع (القمح) ص 271

الخَدِّية (المخدة) ص 263 الخوخة (خوخة الباب) ص 525 القندورة (الدرّاعة) القرينة (الكابوس) ص 272 الطروس (الكلب) ص 279 الخطارات (معروفة في مراكش وغيرها) ص 291 البجماط (نوع من البسكويت) ص 270 الفحص (البيداء) ص 277 أم الحسن (طائر مغرد) ص 522 الطيفور (إناء للأكل) ص 474 الفكية (الفاكهة) 400 المرجع (مساحة في الحقل) ص 235 الحنبل (نوع من الغطاء) ص 602 البندير (نوع من الدف) ص 610 المخفية (إناء للأكل) 620 الحضار (الكتاب) ص 572 اسفنّارية (الجزر) ص 512 القبلة (الجنوب) شائعة.

وهناك مظهر آخر من مظاهر التداخل بين لهجات الغرب الإسلامي في عهدي المرابطين والموحدين وهو المتعلق بالبربرية أو اللسان الغربي أو اللغة الغربية وهي Algarabia في الإسبانية و Charabia في الفرنسية، وأثر تداخلها مع اللهجات العربية في الأندلس والمغرب ملحوظ على مستوى الألفاظ وعلى مستوى التراكيب فبالنسبة إلى الأول نجد في .Voc مثل هذه الكلمات : تفرمة (البازي) ص 264. أسمس (مأدبة، نوع معين من الأكل) ص 318 والكلمة مستعملة في كتابات المؤرخ البيدق. تمغرة (وليمة معينة) ص 318 كما نجد في كتب لحن العامة الأندلسية كلمات أخرى منها أدغص أي اللبأ وأكزل أي المخصرة وكرانه أي الضفدع (ألفاظ مغربية : 40، 144، 308) وفي أمثال الزجالي طائفة منها كذلك منها : ازغار أي السهل والبسيط وأغلال أي الحلزون وترخص أي البيسارة التي تعمل من الفول.

وأما أثر البربرية في لهجات الغرب الإسلامي على مستوى التركيب فله أمثلة وقد ذكر بعضها الأستاذ كولان معتمدا على نصوص ترجع إلى العصر الذي نتحدث عنه، وقد استعمل ابن قزمان كلمات معدودات من البربرية في أزجاله على سبيل التظرف ولكن استعماله لها يدل على أن

هذه اللغة مسموعة في الأندلس، وقد قصَّ ابن مرزوق في المسند حكاية ابن زهر (ولعله ابو بكر الحفيد) مع أحد خلفاء بني عبد المؤمن (ولعله المنصور) فقد سمع أهل الحضرة (أي مراكش) يتخاطبون بينهم باللسان المصمودي فتشوّفَ لتعلّمه وعبر للخليفة عن رغبته فأمر أن تكتب له هذه اللغة وتذكر الحكاية أن الخليفة سأل ابن زهر بعد مدة طويلة عما حفظ منها فأجابه بأنه لم يحفظ إلا كلمة واحدة هي أوشّي أي اعطني ولما سمعها الخليفة أعطاه ما أرضاه وأمره أن يستمر في التعلم ولما مرت مدة أخرى من الزمن سأله هل حفظ شيئا جديدا فأجابه بأنه حفظ كلمة أخرى هي «رنّو» ومعناها زدني فضاعف له الخليفة العطاء ومهما يكن أمر هذه الحكاية فإن كتب البلدان مثل المسالك والممالك للبكري وكتب النّبات مثل المفردات لابن البيطار تحتوى على عدد كبير من الألفاظ البربرية في أسماء الأماكن والنبات مع ترجمتها إلى العربية، وفي الأخير فإن «التوبّونيميا» البربرية ما تزال متجذرة في شبه الجزيرة الإيبيرية[1].

وآخر ما أشير إليه باختصار شديد في موضوع التداخل هو المتعلق بالاختلاف في الشكل فأمثال الزّجالي توجد منها رواية حسب النطق الأندلسي ورواية أخرى متأخرة حسب النطق المغربي، وهنا جانب يحتاج إلى تفصيل وتمثيل.

وإذا كانت «أمثال الزّجّالي» ذات قيمة كبرى ومنفعة عظمى لدراسة العامية الأندلسية والمغربية في عصر الموحدين فإن ملعبة الكفيف

1ـ توسع الأخ الزميل الأستاذ محمد شفيق في هذا الموضوع في كتابه القيم : الدارجة المغربية مجال توارد بين الأمازيغية والعربية وهو في الحقيقة معجم لألفاظ العامية التي أصلها أمازيغي.

الزرهوني لها نفس القيمة والمنفعة تقريبا بالنسبة إلى حالة العامية في عهد بني مرين، وقد لقيت «أمثال الزّجالي» اعتناء خاصا وترحيبا كبيرا لدى كبار المعنيين بهذا الموضوع من أمثال الأساتذة عبد العزيز الأهواني وإميليو غرسية غومث وإحسان عباس ومحمود علي مكي ومحمد زنيبر ولا كرانخا وكورينت ولاثرو، وأما ملعبة الكفيف فإنه لم يمض عام وبعض عام على صدورها حتى ظهرت لها ترجمة إسبانية مع مقدمة وتعليقات[1]، وإني لفخور أن يقوم بهذا العمل شيخ المستشرقين في وقتنا وليست هذه هي المرة الأولى التي يقع فيها التلاقي بين أعمالي وأعماله، فقد تلاقينا في الأمثال الأندلسية إذ طبعت رسالتي على الآلة الكاتبة عام 1968 ثم نشرت عام 1971 وظهرت أعماله عن الأمثال الأندلسية في مجلة الأندلس فيما بين عام 1970 وعام 1972 ولهذا فإن كل واحد منا يحيل على الآخر كما توجبه الأمانة العلمية وقد يقع بيننا الاختلاف في القراءة أو الفهم، ولما نشرت مقامة طرفة الظريف قام بترجمتها ونشرت الترجمة في مجلة STUDIA ISLAMICA مع مقدمة نوه فيها بطرافة النص ومجهودي في تحقيقه، ثم تواصلت إشاراته إلي وإحالاته علي في إصداراته الأخيرة حول «الحمراء»، وأما ترجمته لملعبة الكفيف الزرهوني فقد نعتها بأنها شخصية أو خاصة Version personal ولم أفهم مراده بذلك إذ من الواضح أنه لا بد من نص يرتكز عليه في الترجمة، ولا شك في أن ترجمته وتعليقاته ما كانت ممكنة إلاّ بفضل النص الذي نشرته وشرحته وعرفت بصاحبه وظروفه وهو يعترف بهذا حين يقول في أول مقدمنه ما مؤداه : «من سوء الظن الاعتقاد أن هذا

1- El Gran Zejel Marroqui del ciego de Zarhun.

العمل يريد أن يتجاوز الطبعة العربية لملعبة الكفيف الزرهوني التي أنجزها صديقي العزيز الدكتور محمد بنشريفة إذ لا أحد يستطيع إنكار سبقه واكتشافه للمخطوط ونشره مع التعليق عليه والتقديم له بما يدل على سعة علمه» وقد لاحظ صديقي الكبير أني لم أتكلم على عروض الملعبة وبحرها والسبب في ذلك أن اهتمامي كان منصبا على المضمون التاريخي وغيره في النص أما الجانب الشكلي ولا سيما العروضي منه فقد توقفت فيه وأجلت النظر في بحثه آملا أن أعثر على نسخة أو نسخ قديمة وجيدة من هذه الملعبة.

ولنرجع الآن بعد هذه الجملة الاعتراضية إلى الجانب اللغوي في الملعبة، وسأنقل هنا ما كتبته في مقدمة الملعبة حول هذا الموضوع :

يرى المستعرب الفرنسي الأستاذ كولان أن جميع الأزجال المغربية التي ترجع إلى ماقبل العصر السعدي، قد نظمت باللهجة الأندلسية التي كانت بفضل أزجال ابن قزمان وغيره لغة الزجل «الكلاسيكية»، ويبدو أنه استند في إطلاق هذا الحكم على نماذج الأزجال المغربية التي أوردها **ابن خلدون** في المقدمة، ومنها نموذج ملعبة **الكفيف**، ومع تضلع الأستاذ كولان في اللهجات، وتمرسه بقراءتها ودراستها، فإن حكمه المذكور يضل قابلا للنقاش، فإذا كنا نعرف الكثير عن اللهجة الأندلسية بفضل وفرة نصوصها، فإننا لا نعرف طبيعة العامية المغربية القديمة، ولا مبلغ الفرق بينها وبين عامية **الأندلس** وهو فرق سجله **ابن خلدون** عقب سرده أزجال الأندلسيين والمغاربة فقال : «واعلم أن الذوق في معرفة البلاغة منها (أي من الأزجال) كلها انما يحصل لمن خالط تلك اللغة. وكثر استعماله لها، ومخاطبته بين أجيالها، حتى يحصل ملكتها كما قلناه في اللغة العربية، فلا يشعر الأندلسي بالبلاغة التي في شعر أهل المغرب، ولا المغربي بالبلاغة التي في شعر أهل الأندلس والمشرق، ولا المشرقي



بالبلاغة التي في شعر أهل الأندلس والمغرب، لأن اللسان الحضري وتراكيبه مختلفة فيهم، وكل واحد منهم مدرك بلاغة لغته وذائق محاسن الشعر من أهل بلدته»»،[1] وهذا الذي يقوله ابن خلدون لاينفي طبعا مستوى الفهم، فقد كانت أزجال ابن قزمان وغيره مقروءة في العراق والشام ومصر[2]. وكانت مزدوجات ابن شجاع التازي معاصر الكفيف الزرهوني مروية في الأندلس إلى جانب أزجال مدغليس وابن قزمان والدباغ المالقي[3].

ومهما يكن فإن ملعبة الكفيف تستعمل فعلا لغة الزجل الأندلسي، وتشتمل على ألفاظ معروفة في هذه اللغة، ولعلها كانت من الألفاظ المشتركة بين عامية الأندلس وعامية المغرب، فقد ذكر بعضها ابن هشام اللغوي الإشبيلي السبتي في كتابه لحن العامة، وهذه طائفة منها :

- بلج أي أغلق الباب بالبلج أي المغلاق. انظر رقم 194 وقد وردت في لحن العامة لابن هشام وفي .ALC 97 و.Voc ص 40، 521 وسيمونيت ص 438 ودوزي 1 : 108. ويقال البلاج - وجمعه بلاجة أو بلاجين - لصاحب هذه الحرفة، وسوق البلاجين في فاس معروف إلى اليوم بهذا الاسم. (انظر بيوتات فاس : 24 دار المنصور) وسمعت أن الكلمة مسموعة في منطقة الشاعر.

- ساف، وهو الباشق. انظر رقم 97 ولحن العامة لابن هشام، ودوزي 1 : 703 وما تزال الكلمة مسموعة في بعض المناطق بالمغرب.

1ـ المقدمة : 1474ـ 1475.
2ـ الزجل في الأندلس للدكتور الأهواني 69.
3ـ انظرما نشره الدكتور عبد العزيز الأهواني في مجلة معهد المخطوطات العربية.



- شابل، اسم سمك معروف إلى اليوم في المغرب يصطاد من الأنهار. انظر رقم 408 وابن هشام، والزجالي 2 : 1402، 437.

- شاشية، وهي القلنسوة. انظر رقم 225 وابن هشام وVoc ص 122 وص 280 و ALC. ص 117 وص 143 ودوزي 1 : 802 وهي شائعة في المغرب.

- عاد بمعنى بعد. انظر رقم 170 وقد ذكرها الزبيدي وابن هشام ووردت في .ALC و .Voc ودوزي 2 : 186 وماتزال مستعملة في المغرب. ووردت مرارا في أزجال ابن قزمان.

- فدان للموضع الذي يحرث أي الحقل، (رقم 456) وهي عند ابن هشام والزبيدي، واستعملها ابن قزمان بهذا المعنى. وانظر دوزي 2 : 246.

- قيطون بمعنى خيمة استعملها بهذا المعنى ابن قزمان وهي معروفة في المغرب. انظر رقم 343.

- عصا موسى، وهي تسمية أندلسية للثريا. انظر رقم 404.

- الزكروم : القفل والمغلاق. رقم 391. وهي مدونة في .Voc ص 188 وما تزال مسموعة في المغرب.

- الزز بمعنى صفع القفا. رقم 425 وهي مستعملة في الشعر الأندلسي فصيحه وعاميه، وفي أمثال الزجالي وغيرها وقد ذكرها الزبيدي في تاج العروس ثم قال : «وهي شائعة بالأندلس» وانظر ماكتبناه حول الكلمة في كتابنا : أمثال العوام في الأندلس 2 : 237.

- برّح بمعنى نادى، والبراح المنادي، رقم 298. وهي كلمة شائعة في النصوص الأندلسية والمغربية، ووردت في أمثال الزجالي 2 : 132، 230، 390.

ـ تور بمعنى حسكة أو شمعدان رقم 397 وقد وردت في الاستبصار : 20 وفي أمثال الزجالي 2 : 184 وهي في .Voc ص 278 وتور في اللغة إناء صغير، وفي الحديث : «وكان رسول الله يتوضأ بالتور».

ـ قارح بمعنى فرس مجرب وجمعه قُرَّاح. رقم 145، ووردت في أمثال الزجالي 2 : 353. وهي في .Voc وعند دوزي 2 : 325.

ـ مُجَّة بمعنى ثدي. رقم 440 والكلمة واردة في .Voc ص 467. ومما هو مشترك بين لهجة الملعبة واللهجة الأندلسية أيضا مايلي :

ـ المحافظة على كسر عين اسم الفاعل من الثلاثي مثل :

عادِل، فارِس، طائِل، سائِس الخ...

وهذا معروف في العامية الأندلسية وعامية منطقة جبالة في المغرب، وإليها ينتمي صاحب الملعبة، أما الشائع عند غير جبالة فهو الفتح.

ـ المحافظة على صيغة اسم الموصول : الذي. فاستعمالها هكذا متكرر في الملعبة، وهي المستعملة في أمثال الزجالي وأغلب النصوص الأندلسية العامية.

ـ ورود التنوين المفتوح، وهو نوع من التنوين شائع في الأمثال والأزجال، وقد تحدثت عنه في دراسة أمثال الزجالي. انظر ج 1 ص 282 ـ 281.

ـ استعمال «إكان» بمعنى لو، وأصلها إن كان انظر رقم 341.

ـ استعمال «بحل» للتشبيه، وهو استعمال ما يزال جاريا بسكون الباء في اللهجة المغربية إلى اليوم.

ـ استعمال «ترى» بمعنى «واذا به» انظر الأرقام 202، 230، 427. وهو استعمال أندلسي سجله معجم .Voc ص 390 .



وتستعمل أيضا بمعنى «ها هو». انظر دراستنا لأمثال الزجالي ج 1 ص 298.

- استعمال «لس» أي ليس. رقم 19.

- استعمال «هَوْلَ» أي هؤلاء. رقم 255. وترد كذلك في الأزجال الأندلسية (العاطل الحالي : 50) وهي في معجم .Voc ص 444.

- استعمال «ذوك» بمعن أولئك رقم 255.

وقد وردت في الملعبة أمثال عامية توجد عند الزجالي وابن عاصم ومنها :

اش دعانا لراس الاقرع... رقم 110.

الاعمش في حضرة العميا ... رقم 350.

لا مكان ولا إمكان. رقم 46.

اذا نزل لقضا عمت الأبصار. رقم 67.

زز قادسي رقم 425.

در في غزولك رقم 191.

وبعضها ما يزال مسموعا إلى اليوم.

إن هذا التداخل بين ملعبة الكفيف الزرهوني وبين النصوص الأندلسية من حيث الاستعمال يمكن تفسيره بما يلي :

- تأثر الزجال المغربي القديم بمحفوظه من الأزجال الأندلسية.

- اشتراك لهجتي الأندلس والمغرب في عدد كبير من الألفاظ التي تعتبر ألفاظا مغربية بالمعنى الواسع.

- تأثر لهجة منطقة جبالة التي ينتمي إليها الكفيف باللهجة الأندلسية بحكم القرب والجوار، ولأن أهل جبالة أو غمارة كانوا يقومون دائما



بفرض الجهاد في الأندلس ويتطوعون بدخولها من أجل ذلك ثم يعودون إلى ديارهم، ثم إن عددا كبيرا من الأندلسيين استقروا بمنطقة جبالة في أفواج متعاقبة، فرارا من الفتن التي كانت تنشأ في الأندلس، وخلال فترة الجلاء عن القواعد والمدن المفقودة ثم بعد الخروج الأخير من غرناطة وتوابعها.

ومع ما ذكرناه من مؤثرات أندلسية في الملعبة، فإنها تحتفظ بخصائص محلية، هي خصائص لهجة جبالة، وهذه المنطقة تمتد في شكل هلال من طنجة إلى تازا، وهي محفوفة بحزام من المدن هي النّكور وبادس وتيجساس وتطوان وسبتة والقصر الصغير وطنجة وأصيلة والقصر الكبير والبصرة وأسْجَن وبنى تاودة ووليلي وفاس، وقد انتشرت اللغة العربية في هذه المنطقة، بفضل قربها من هذه المراكز الحضرية، وارتباطها بالمسالك التجارية، وانتشار المدارس القرآنية وغيرها، وساعد في تعريبها أيضا مجاورتها للأندلس وصلتها بها، وقيام إمارات إدريسية وغيرها فيها.

ويذكر الإدريسي أن القبائل المجاورة لفاس - حيث نشأ صاحب الملعبة - كانت تتكلم بالعربية، قال: «ويسكن حولها (فاس) قبائل من البربر ولكنهم يتكلمون بالعربية، وهم بنو يوسف وفندلاوة وبهلول (بهاليل) وزواوة ومجاصة وغياته وسلالجون»[1].

وقد درس المستعربون مثل بروفنسال وكولان هذه اللهجة الجبلية في العقود الأولى من القرن العشرين[2]، وما تزال محتفظة ببعض الخصائص التي نجدها في ملعبة الكفيف الزرهوني.

---

1. نزهة المشتاق : 246 (الطبعة الإيطالية).
2. لبروفسال كتاب في لهجة ورغة ولكولان كتاب في لهجة تازة.

ومن أبرزها :

حذف الهاء من ضمير الغائبة في مثل قول الكفيف :

مِنّـا أي منها. رقم 7.

ما أصعبا أي ما أصعبها. رقم 51.

ما أشرا أي ما أشرها. رقم 51.

شرقا أي شرقها. رقم 49.

ومثل هذا كثير في الملعبة.

وفي بعض الحالات نجد الشاعر يقف على الهاء المذكورة بالسكون ويفتح ما قبلها كقوله :

ماشراها مليك ولا باعهْ. (أي باعها) رقم 14.

ومثل هذا الاستعمال معروف في لهجة أهل تطوان فهم يقولون في المثل : إذا جات تقودَهْ بشعرا ...

وقد جمع الشاعر بين الاستعمالين في قوله (رقم 5) :

كانت إذا ذكرت كره خَبْرا   وقال اسمَهْ يفرق الاخوان

أي كره خبرها، وقال : اسمها.

- حذف الهاء أيضا من ضمير الغائبين (والغائبات) كما في قوله :

بينَمْ أي بينهم. رقم 217.

لم أي لهم. رقم 341.

عِنْدَمْ أي عندهم. رقم 339.



ومثل هذا متكرر في الملعبة. وهو مما يميز لهجة جبالة عن غيرها.

- استعمال فعل «القى» بمعنى عمل كقوله:

حتى القى سلسلا لذاك الشان. رقم 31.

وما تزال مسموعة في مناطق جبالة وقد تنطق بالراء، وهي في لهجة غرناطة. انظر ALC. وقاموس دوزي.

- استعمال «فاه» من الأسماء الخمسة. ولا يوجد هذا الاستعمال في اللهجات العامية في حين أنه ما يزال موجودا في لهجة جبالة.

وثمة بعض الظواهر الصوتية في رسم النسخة الخطية الوحيدة للملعبة ككتابة الصاد سينا في الكلمات التالية:

- السحرا أي الصحراء. انظر الأرقام 317،36.

- يسورو = يصورو رقم 47.

- يسرح أي يصرح رقم 58.

- التسريح = التصريح رقم 58.

- السح أي الصح والصدق رقم 267.

- الحسرا = الحصرا رقم 352.

- الحسران أي الحصران والحصار رقم 471.

وكتابة الضاد دالا مثل:

- ودحا = وضحى أي وأضحى رقم 224.

وكتابة الزاي جيما مثل البيجان أي البيزان رقم 336.

وكتابة الجيم دالا مثل دشم أي جشم رقم 252.



ولكننا لا نعرف هل هذا يمثل لهجة جبالة أم لهجة الناسخ المجهول، ونشير بالمناسبة إلى الفرق الواضح في القراءة بين النسخة الخطية، وما ورد من الملعبة في مقدمة ابن خلدون وأزهار الرياض وقد أشرنا إلى بعض هذه الفروق في حواشي الملعبة .

ويبدو أن الكفيف كان يعرف الأمازيغية، فقد استعمل جملة من كلماتها، واستعان بها في بعض قوافيه، وهاهي الكلمات الواردة في الملعبة :

- ايسان أي الخيل رقم 116.
- اسردان أي البغال رقم 142.
- انزران أي المطر رقم 236.
- ايمزدغن أي السكان رقم 342.
- ازرزي أي الكلفة المخزنية، ومنها الكلمة المعروفة الزَّرْزَاي أي الحمال رقم 345.
- غيلاس أي النمر أو الذئب رقم 114.
- تاسا أي الوسط رقم 288.
- تيسدنان أي النساء رقم 221.

ومن المعروف أن شيخ الزجالين ابن قزمان استعمل في أزجاله بعض الكلمات البربربة مثل أشكد.

ونشير في النهاية إلى مستوى لغوي آخر في الملعبة وهو المستوى الفصيح، ويتجلى في طائفة كبيرة من الألفاظ المعجمية مثل الران، الزرق، القطعان، الشعراء، المعجر، الصافنات، وغيرها، كما يتجلى في التراكيب العربية التي لا ينقصها إلا الاعراب. ولا شك أن هذا يدل على ثقافة الشاعر وتمكنه المتين من اللسان العربي المبين.

ومن هذا العرض الموجز والمركّز فيما أحسب نعرف قيمة هذين النصّين الكبيرين المهمين واللذين قدما إلينا مادة جديدة وغزيرة وصححنا على ضوئهما عددا من المعطيات الأندلسية والمغربية وأذكر على سبيل المثال أن بعضهم تحدث عن الخرجة التي توجد فيها عبارة : دوش عملين[1]، وهي عبارة أتيح لي تصويبها في أزجال بن قزمان، وذلك بفضل ورودها في أمثال الزجالي[2].

إن الحظوظ التي أسعدتنا بالعثور على «أمثال الزجالي» و«ملعبة الكفيف الزرهوني» قد تسعدنا بالوقوف على نصوص أخرى تغني الدراسات اللغوية و«اللهجوية» في الأندلس والمغرب.

1ـ هو الأستاذ O.J. ZWARTJES. في أعمال الملتقى الذي ذكرته في هامش عنوان هذا البحث.
2ـ نشرت محرفة في Todo Ben Quzman وصوّبت في طبعة الأستاذ كورينت وأشار إلى تصويبي لها.

ملاحق (*)

*رأينا أن نعزز صورة المجتمع الأندلسي المغربي - كما استخلصناها من الأمثال - بنصوص مناسبة تزيدها وضوحا وتكون لها شاهدا وعليها دليلا.



عناصر السكان في الأندلس

من نفح الطيب للمقري



تحدثنا فيما سبق عن عناصر السكان في الأندلس الذين ورد ذكرهم في الآمثال ونعزز ذلك بهذا النص الذي نقتبسه من كتاب نفح الطيب للمقري :

«واعلم[1] أنّه لمّا استقرّ قدم أهل الإسلام بالأندلس وتتامّ فتحها صرف أهلُ الشام وغيرهم من العرب هممهم إلى الحلول بها، فنزل بها من جراثيم[2] العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابَهُم إلى أن كان من أمرهم ما كان.

فأمّا العدنانيون فمنهم خِنْدِف ومنهم قريش، وأمّا بنو هاشم من قريش فقال ابن غالب في فرحة الأَنفس : بالأندلس منهم جماعة كلّهم من ولد إدريس بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ومن هؤلاء بنو حَمُّود ملوك الأندلس بعد انتثار سلك بني أمية[3]، وأمّا بنو أمية فمنهم خلفاء الأندلس، قال ابن سعيد : ويُعْرفون هنالك إلى الآن بالقرشيين، وإنّما عَمَّوْا نسبتهم إلى أميّة في الآخر لمّا انحرف الناسُ عنهم، وذكروا أفعالهم في الحسين رضي الله عنه، وأمّا بنو زُهْرة فمنهم بإشبيلية أعيان متميزون[4]، وأمّا المخزوميون فمنهم أبو بكر المخزومي الأعمى[5] الشاعر المشهور من أهل حصن المدوَّر، ومنهم الوزير الفاضل في النظم والنثر أبو بكر بن زَيْدون ووالده الذي هو أعظم منه أبو الوليد

1ـ معظم هذا الفصل مأخوذ من كتاب فرحة الأنفس لأبي عبد الله محمد بن أيوب بن غالب الغرناطي من أهل القرن السادس الهجري وفيه ما هو مأخوذ من جمهرة ابن حزم قبله. وانظر بحث أنساب العرب حسبما في الجمهرة للأستاذ إلياس تيريس. مجلة الأندلس 1957.

2ـ جراثيم العرب : أصولها.

3ـ انظر أنساب الحموديين في جمهرة ابن حزم : 50 ـ 51 وأخبار دولتهم في البيان المعرب لابن عذاري (3 : 119 ـ 134).

4ـ من أشهرهم أبو الحسن علي بن أحمد الزهري الإشبيلي قاضي إشبيلية في عهد عبد المومن بن علي وله أولاد مترجمون وهم أبو بكر محمد وأبو القاسم عبد الرحمن وأبو المغيرة عوف. ونسبهم مرفوع إلى جدهم الداخل إلى الأندلس عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة. انظر الذيل والتكملة 5 : 162، 180 ـ 185 و6 : 433 والتكملة رقم 1861 وصلة الصلة : 100.

5ـ له ترجمة في الإحاطة 4 : 424، 427 وأخباره في نفح الطيب (الفهرس).



بن زيدون وزير المعتضد بن عبّاد[1]، وقال ابن غالب : وفي الأندلس مَن يُنسب إلى جُمَح، وإلى بني عبد الدار[2]، وكثير من قريش المعروفون بالفِهْريين من بني مُحارب ابن فِهْر، وهم من قريش الظواهر، ومنهم عبد الملك بن قَطَن سلطانُ الأندلس[3]، ومن ولده بنو القاسم الأمراء الفضلاء، وبنو الجَدِّ الأعيان العلماء[4]. ومن بني الحارث بن فهر يوسفُ بن عبد الرحمن الفهري سلطان الأندلس[5] الذي غلبه عليها عبدُ الرحمن الأموي الداخل، وجدّ يوسف عقبة بن نافع الفهري صاحب الفتوح بإفريقية[6]، قال ابن حزم : ولهم بالأندلس عَدَد وثروة، وأما المنتسبون إلى عموم كنانة فكثير وجلّهم في طُلَيْطلة وأعمالها، ولهم يُنسب الوَقَّشِيّون الكنانيون الأعيان الفضلاء الذين منهم القاضي أبو الوليد والوزير أبو جعفر ومنهم أبو الحسين بن جُبَير العالم صاحب الرحلة[7]، وقد ذكرناه في محله، وأما هُذَيل بن مدركة بن إلياس بن مُضر فذكر ابنُ غالب أن منزلهم بجهة أرْيُولة من كورة تُدْمير. وأمّا تميم بن مر بن أُد بن طابخة بن إلياس بن مضر فذكر ابنُ غالب أيضاً أنهم خلق كثير بالأندلس، ومنهم أبو الطاهر صاحب المقامات اللزومية[8]، وأمّا ضبة بن أد بن طابخة فذكر أنهم قليلون بالأندلس، فهؤلاء خندف من العدنانية.

---

1. انظر فيهما القلائد والذخيرة والمغرب وغيرها وثمة الحفيدان أحمد وزيدون المترجمان في الذيل والتكملة 1 : 368 والتكملة 1 : 335.
2. من أعلام العبدريين في الأندلس أصبغ بن عيسى العبدري (الصلة : 109) ومحمد بن إبراهيم العبدري الآبلي (نفح الطيب 5 : 244) وأبو العباس العبدري الميورقي مؤلف كتاب بهجة المهج، في بعض مناقب الطائف ووج. وثمة عبدريون آخرون في كتب التراجم ومن المنسوبين إلى جمح ابن شاطر الجمحي الذي كان يعيش في مراكش (نفح الطيب 5).
3. أخباره في الحوليات التاريخية.
4. من أشهرهم الحافظ أبو بكر ابن الجد، وثمة تأليف مطبوع في تراجم بني الجد في الأندلس والمغرب عنوانه : عناية أولي المجد.
5. أخباره في الحوليات التاريخية.
6. أخباره في الحوليات التاريخية.
7. انظر تراجمهم في الصلة : 617 والذيل والتكملة 1 : 197 و 5 : 595 ونفح الطيب 2 : 381.
8. انظر ترجمته في الصلة : 556.



وأما قيس عَيْلان بن إلياس بن مضر من العدنانية ففي الأندلس كثير منهم ينتسبون إلى العموم، ومنهم من ينتسب إلى سُلَيم بن منصور بن عكرمة بن خَصَفة بن قيس، كعبد الملك بن حبيب السَلمي الفقيه صاحب الإمام مالك رضي الله عنه، وكالقاضي أبي حَفص بن عمر قاضي قُرْطُبَة[1]، ومن قيس مَنْ ينتسب إلى هَوازن بن منصور بن عِكْرمة، قال ابن غالب : وهم بإشبيلية خلق كثير، ومنهم من ينتسب إلى بكر بن هوازن، قال ابن غالب : ولهم منزل بجَوْفي بلنسية[2] على ثلاثة أميال منها، وبإشبيلية وغيرها منهم خلق كثير[3]، ومنهم بنو حَزْم[4]، وهم بيت غير البيت الذي منه أبو محمد بن حزم الحافظ الظاهري، وهو فارسي الأصل. ومنهم من ينتسب إلى سعد بن بكر بن هوازن، وذكر ابن غالب أن منهم بغَرْناطة كثيراً، كبني جُودِيّ[5]، وقد رأس بعضُ بني جودي. ومنهم من ينتسب إلى سَلُول امرأة نُسب إليها بنُوها، وأبوهم مُرّة بن صعصعة ابن معاوية بن بكر بن هوازن. ومنهم من ينتسب إلى كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن. ومنهم من ينتسب إلى نُميَر بن عامر ابن صعصعة، قال ابن غالب : وهم بغَرْناطة كثير[6]. ومنهم من ينتسب إلى قُشَير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن

1ـ انظر ترجمة عبد الملك بن حبيب في ترتيب المدارك 4 : 122 وترجمة القاضي أبي حفص في الذيل والتكملة 8 : 222.

2ـ أي بشماليتها.

3ـ توجد تراجم بعضهم في الصلة والتكملة، ومن أشهرهم أبو حفص عمر بن الحسن بن عمر بن عبد الرحمن بن عمر الهوزني الذي يعرف بالشهيد قتله المعتضد عباد ظلما. انظر ترجمته في الصلة 1 : 381.

4ـ في الذيل والتكملة 1 : 122 كلام طويل على بني حزم هؤلاء وما يحصل من التباس بعضهم بالحافظ ابن حزم، ومنهم أبو بكر ابن حزم من شيوخ الطرطوشي (التكملة رقم 583) وأبو عمر أحمد بن محمد بن حزم الإشبيلي له تأليف في الرد على أبي بكر ابن العربي. الذيل والتكملة 1 : 407.

5ـ كانوا أمراء العرب في إلبيرة. انظر أخبارهم في المقتبس 3 : 123 ومن أعلامهم المتأخرين أبو الحسن ابن جودى تلميذ ابن باجة وجودي بن جودى انظر المغرب 2 : 109 ـ 110.

6ـ منهم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن علي النميري الغرناطي. انظر ترجمته في الصلة 2 : 559.



صعصعة، ومنهم بلج بن بشر صاحب الأندلس وآله[1]، وبنو رشيق. ومنهم من ينتسب إلى فَزَارة بن ذُبْيان بن بَغيض بن رَيْث بن غَطَفان بن سعد بن قيس عَيْلان. ومنهم من ينتسب إلى أشْجَع بن رَيْث بن غطفان، ومن هؤلاء محمد بن عبد الله الأشجعي[2] سلطان الأندلس. وفي ثقيف اختلاف، فمنهم من قال : إنّها قيسية، وإن ثقيفاً هو قَيْس بن منبه بن بكر بن هوازن، ومنهم بالأندلس جماعة، وإليهم ينتسب الحُرُّ بن عبد الرحمن الثقفي[3] صاحب الأندلس، وقيل : إنّها من بقايا ثمود.

وأما ربيعة بن نزار فمنهم من ينتسب إلى أسد بن ربيعة بن نزار، قال في فرحة الأنفس : إن إقليم هؤلاء مشهور باسمهم بجَوْفيّ مدينة وادي آش، انتهى، والأشهر بالنسبة إلى أسد أبداً بنو أسد بن خُزَيمة بن مدركة بن إلياس ابن مضر، ومنهم من ينتسب إلى مُحارب بن عمرو بن وديعة بن لُكيز بن أفْصَى بن دُعْمي بن جَدِيلة بن أسد بن ربيعة، قال ابن غالب في فرحة الأنفس : ومنهم بنو عطية أعيان غَرْناطة[4]، ومنهم من ينتسب إلى النَّمرِ بن قاسط بن هِنْب بن أفْصَى بن دُعْمي بن جَديلة بن أسد، كبني عبد البر الذين منهم الحافظ أبو عُمر بن عبد البر[5]. ومنهم من ينتسب إلى تَغْلب بن وائل بن قاسط بن هِنْب، كبني حَمْدين أعيان قُرْطُبة[6]، ومنهم من ينتسب إلى بكر ابن وائل، كالبكريين أصحاب أونبة وشَلْطيش الذين منهم أبو عُبَيد البكْري صاحب التصانيف[7].

---

1. له ترجمة في جذوة المقتبس : 170 والبيان المعرب 2 : 31 وله ذكر في الحوليات التاريخية.
2. انظر في ولايته على الأندلس البيان المعرب 2 : 28.
3. انظر في ولايته على الأندلس البيان المعرب 2 : 25.
4. منهم ابن عطية المفسر المشهور.
5. توجد ترجمته في مصادر متعددة منها جذوة المقتبس : 344 والصلة : 640.
6. انظر فيهم على سبيل المثال كتاب أعمال الأعلام : 252 ـ 254.
7. ترجمته على سبيل المثال في الصلة : 277.



وأما إياد بن نزَار، وقد يقال : إنّه ابن معد، والصحيح الأول، فينتسب إليهم بنو زُهْر المشهورون بإشبيلية وغيرهم[1].

واختُلف في القحطانية : هل هم من ولد إسماعيل أو من ولد هود، على ما هو معروف، وظاهر صنيع البخاري الأول، والأكثر على خلافه، والقحطانية هم المعروفون باليمانية، وكثيراً ما يقع بينهم وبين المُضربة وسائر العَدْنانية الحروب بالأندلس، كما كان يقع بالمشرق، وهم الأكثر بالأندلس، والملك فيهم أرسخ، إلا ما كان من خلفاء بني أمية، فإن القرشية قدّمتهم على الفرقتين، واسم الخلافة لهم بالمشرق، وكان عرب الأندلس يتميزون بالقبائل والعمائر والبطون والأفخاذ، إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر الداهية الذي ملك سلطنة الأندلس، وقصد بذلك تشتيتهم وقَطْع التحامهم وتعصّبهم في الاعتزاء، وقدّم القوّاد على الأجناد، فيكون في جند القائد الواحد فِرَقٌ من كل قبيل، فانحسمت مادة الفتن والاعتزاء بالأندلس، إلاَّ ما جاءت على غير هذه الجهة.

قال ابن حزم : جماع أنساب اليمن من جِذْمين : كَهْلان وحِمْير [ابني سبأ] بن يَشْجب بن يَعْرب بن قَحْطان بن عابر بن شالح بن أرفخشد ابن سام بن نوح، وقيل : قحطانُ بنُ الهمَيْسَع بن تَيْهان بن نبت بن إسماعيل، وقبل قحطان بنُ هود بن عبد الله بن ربّاح بن حارف بن عاد بن عَوْص بن إرم بن سام، والخُلف في ذلك مشهور، فمنهم كهلان بن سبأ بن يَشْجُب ابن يَعْرُب بن قحطان، ومنهم الأزْدُ بن الغَوْث بن نَبْت بن مالك بن زيد بن كهلان، وإليهم ينتسب محمد بن هانئ الشاعر المشهور الإلبيري[2]، وهو من بني المهلّب، ومن الأزد من ينتسب إلى غَسّان، وهم

1ـ لنا فيهم دراسة نشرتها جامعة ابن زهر بأكادير.
2ـ هو صاحب الديوان المعروف الذي نشره أولا الدكتور زاهد علي ثم أعاد نشره أخيرا الدكتور محمد اليعلاوي.

بنو مازن بن الأزد، وغسّان : ماء شَرِبُوا منه، وذكر ابن غالب أن منهم بني القُلَيْعي من أعيان غرناطة[1]، وكثير منهم بصالحَة قرية على طريق مالَقَة، ومن الأزد من ينتسب إلى الأنصار على العموم، وهم الجم الغفير بالأندلس.

قال ابن سعيد : والعجب أنك تَعْدَم هذا النسب بالمدينة وتجد منه بالأندلس في أكثر بلدانها ما يشذ عن العدد كثرة[2]، ولقد أخبرني من سأل عن هذا النسب بالمدينة فلم يجد إلاّ شيخاً من الخزرج وعجوزاً من الأوس.

قال ابن غالب : وكان جزء الأنصار بناحية طُلَيْطلة، وهم أكثر القبائل بالأندلس في شرقها ومغربها.

ومن الخزرج بالأندلس أبو بكر عُبَادة بن عبد الله بن ماء السماء[3] من ولد سَعْد بن عُبادة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو المشهور بالموشّحات، وإلى قيس بن سعد بن عبادة ينتسب بنو الأحمر سلاطينُ غَرْناطة الذين كان لسانُ الدين بن الخطيب أحدَ وزرائهم، وعليهم انقرض ملك الأندلس من المسلمين، واستولى العدوّ على الجزيرة جميعاً كما يُذكر.

ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى الأوس أخي الخزرج، ومنهم من ينتسب إلى غافق بن عَكّ بن عَدْنان بن هزّان بن الأزد، وقد يقال : عك بن عدنان

1ـ منهم ابن القليعي الوارد خبره في مذكرات عبد البر الزيري والشاعر نزهون القليعية.

2ـ من الأنصار الذين ذكر ابن حزم مواطنهم : بنو ربيع بن محمد بن ربيع من الأوس كانوا بقرطبة يتولون الأهراء (333) وبنو عثيم بن سفيان برية (347) وبقرطبة، وكانوا يحملون الألوية لخلفاء بني مروان (348)، وكان من ولد عبادة بن الصامت قوم يسكنون بالمدينة عندنا بباب العطارين بقرطبة يعرفون ببني هارون (354) ومن ولد مالك الأغر بنو حبيب وبنو قطنين البيازون الساكنون بقرية أختيانة من قبرة (323) ومن ولد النعمان بن بشير قوم بقرية شوش الأنصار من إشبيلية (364ـ 365) ولسعيد بن سعد عقب بالأندلس بقرية يقال لها قربلان من عمل سرقسطة (365).

3ـ ترجمته في الجذوة رقم 662 والصلة رقم 963 وغيرهما.

ـ بالنون ـ فيكون أخا معدّ بن عدنان وليس بصحيح، قال ابن غالب : من غافق أبو عبد الله بن أبي الخصال الكاتب[1]، وأكثر جهات شَقُورة ينتسبون إلى غافق[2]. ومن كهلان من ينتسب إلى هَمذان، وهو أَوْسِلة بن مالك بن زيد بن أوسلة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان[3]، ومنزل همذان مشهور على ستة أميال من غَرْناطة، ومنهم أصحاب غَرْناطة بنو أضْحى[4]، ومن كهلان من ينتسب إلى مَذْحِج، ومذحج : اسمُ أكَمَة حمراء باليمن، وقيل : اسم أم مالك وطيء ابني أدد بن زيد بن كهلان، قال ابن غالب : بنو سراَج الأعيان من أهل قُرْطُبة ينتسبون إلى مذحج. ومنزل طيء بقبلى مُرْسية ومنهم من ينتسبُ إلى مُراد بن مالك بن أدد، وحصنُ مراد بين إشبيلية وقُرْطُبة مشهور، قال ابن غالب : وأعرف بمراد منهم خلقاً كثيراً. ومنهم من ينتسب إلى عَنْس بن مالك بن أدد، ومنهم بنو سعيد مصنفو كتاب "المغرب" وقلعة بني سعيد مشهورة في مملكة غَرْناطة، ومن مَذْحج من ينتسب إلى زُبَيْد، قال ابن غالب : وهو مُنَبّه بن سعد العشيرة بن مالك بن أدد. ومن كهلان من ينتسب إلى مُرّة بن أدد بن زيد بن كهلان، قال ابن غالب : منهم بنو المنتصر العلماء من أهل غَرْناطة. ومنهم من ينتسب إلى عاملَة، وهي امرأة من قُضاعة ولدت للحارث ابن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد، فنُسب ولدها منه إليها، قال

1ـ هو كاتب المرابطين وترجمته في قلائد العقبان والإحاطة 2 : 388 ـ 418 وصلة ابن بشكوال : 575 ومعجم ابن الآبار : 149.

2ـ قال ابن حزم : ودارهم (أي غافق) بالأندلس معروفة باسمهم في الجوف في شمال قرطبة، منهم بنو أسلم ... ومنهم كان أمير الأندلس عبد الرحمن [الغافقي] ... وله عقب قد خمل بمرنيانة الغافقيين، بقرب إشبيلية على النهر الأكبر (369).

3ـ قال ابن حزم : ودار همذان بالأندلس البيرة (397) وهناك قرية همذان إلى الجنوب من غرناطة، (الإحاطة 1 : 118).

4ـ انظر في بني أضحى كتاب المغرب 2 : 108 والإحاطة 4 : 83.



ابن غالب : منهم بنو سماك القُضاة من أهل غَرْناطة، وقوم زعموا أن عَامِلَة هو ابن سبأ ابن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان، وقيل : هم من قُضَاعة. ومن كَهْلان خَوْلان بن عمرو بن الحارث بن مرّة، وقلعة خولان مشهورة بين الجزيرة الخضراء وإشبيلية، ومنهم بنو عبد السلام أعيان غَرْناطة، ومنهم من ينتسب إلى المَعافِر بن جعفر بن مالك بن الحارث بن مرّة، ومنهم المنصور بن أبي عامر صاحب الأندلس، ومنهم من ينتسب إلى لَخْمِ بن عدي بن الحارث بن مرّة، منهم بنو عَبّاد أصحاب إشبيلية وغيرها، وهم من ولد النعمان بن المنذر صاحبِ الحيرة، ومنهم بنو الباجي أعيان إشبيلية، وبنو وافد الأعيان. ومنهم من ينتسب إلى جُذام مثل ثَوَابة بن سلامة صاحب الأندلس، وبني هُود ملوك شرقيّ الأندلس، ومنهم المتوكل بن هُود الذي صحت له سلطنة الأندلس بعد الموحّدين، ومنهم بنو مَرْدَنيش أصحاب شرقي الأندلس، قال ابن غالب : وكان لجُذام جزء من قلعة رباح، واسم جُذام عامر، واسم لخم مالك، وهما ابنا عديّ. ومن كهلان مَنْ ينتسب إلى كِنْدَة، وهو ثَوْر بن عُفير بن عدي [بن الحارث] ابن مرة بن أدد، ومنهم يوسف بن هرون الرمادي الشاعر. ومنهم من ينتسب إلى تُجيبَ وهي امرأة أشْرَسَ بن السَّكُون بن أشرس بن كندة. ومن كهلان من ينتسب إلى خَثْعم بن أنمار بن آراش بن عمرو بن الغَوْث بن نَبَت بن مالك بن زيد بن كهلان، ومنهم عثمان بن أبي نِسْعَةَ سلطانُ الأندلس، وقد قيل : أنمار بن نزار بن معدّ بن عدنان ؛ انتهت كهلان.

وأمّا حمير بن سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان فمنهم من ينتسب إلى ذي رُعَين، قال ابن غالب : وذو رُعَين هم ولد عمرو بن حِمْيَر في بعض الأقوال، وقيل : هو من ولد سَهْل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغَوْث بن قَطَن بن عَريب بن زُهير بن أيمن بن

الهَمَيْسع بن حمير، قال : ومنهم أبو عبد الله الحنّاط الأعمى الشاعر[1]، قال الحازمي[2] في كتاب النسب[3] واسم ذي رُعَين يَرِيمُ بن أسد بن سهل، ووصل النسب، ومنهم من ينتسب إلى ذي أصْبَح، قال ابن حزم[4] : هو ذو أصبح ابن مالك بن زيد من ولد سبأ الأصغر بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس، ووصل النسب، وذكر الحازمي[5] أن ذا اَصبح من كَهْلان، وأخبر أن منهم مالك بن أنس الإمام، والمشهور أنه من حِمْير، والآصْبَحيون من أعيان قُرْطُبة، ومنهم من ينتسب إلى يَحْصُب، قال ابن حزم : إنه أخو ذي أصْبَح وهم كثير بقلعة بني سعيد، وقد تُعرف من أجلهم في التواريخ الأندلسية بقلعة يحْصب، ومنهم من ينتسب إلى هَوزن بن عَوْف بن عبد شمس بن وائل بن الغَوْث، قال ابن غالب : ومنزلهم بشرف إشبيلية[6]، والهوزنيون من أعيان إشبيلية[7]. ومنهم من ينتسب إلى قُضَاعة بن مالك بن حِمْير، وقد قيل : إنه قضاعة بن معدّ بن عدنان، وليس بمرضي، ومن قُضاعة من ينتسب إلى مَهْرَة كالوزير أبي بكر ابن عمار[8] الذي وَثَب على ملك مُرْسية، وهو مَهْرَة بن حَيْدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، ومنهم من ينتسب إلى خُشَين بن نمر بن وبرة بن تغلب حُلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، ومنهم من ينتسب إلى تَنُوخ، قال ابن غالب : وهو ابن

---

1. انظر في بني سراج الذخيرة 2/1 : 808 ـ 824 وقلائد العقبان : 200 والمغرب 1 : 115 ـ 117.
2. توجد ترجمته في جذوة المقتبس : 346 والمغرب : 1 : 392 والمطمح : 69 وفي غيرها.
3. قال ابن حزم (464) : ودار رعين بالأندلس الفحص المنسوب إليهم برية وترجمة ابن الحناط الأعمى الرعيني في الذخيرة 1/1 : 383 وجذوة المقتبس : 53 والصلة : 640 والتكملة : 387 والذيل والتكملة 6 : 221 ـ 227 والمغرب 1 : 121. ومن الرعينيين أبو الحسن صاحب البرنامج المعروف.
4. هو الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن أبي عثمان الحازمي الهمذاني (574) راجع ترجمته في ابن خلكان : 2 : 461 وطبقات السبكي : 4 : 119 وهو صاحب كتاب "مجلة المبتدي وفضالة المنتهي" في النسب، حققه الأستاذ عبد الله كنون (القاهرة : 1965).
5. انظر مجلة المبتدي : 66.
6. انظر الجمهرة : 430.
7. عجالة المبتدي : 17.
8. منهم أبو حفص الهوزني الشهيد.



مالك بن فَهْم بن نمر بن وَبَرَة بن تغلب، قال الحازمي[1] : تَنُوخ هو مالك بن فهم بن تَيْم الله بن أسد بن وبرة، ومنهم من ينتسب إلى بَلِيّ بن عمرو ابن الحاف بن قُضاعة، ومنهم البَلَوِيّون بإشبيلية[2]، ومنهم من ينتسب إلى جُهَينة بن سود بن أسْلَم بن عمرو بن الحاف بن قُضاعة، قال ابن غالب : وبقرطبة منهم جماعة، ومنهم من ينتسب إلى كَلْب بن وَبَرة بن تغلب بن حُلوان كبني أبي عبدة[3] الذين منهم بنو جَهْوَر[4] ملوك قرطبة ووزرائها، ومنهم من ينتسب إلى عُذرة بن سعد هُذيم بن زيد بن سود بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، ومنهم أعيان الجزيرة الخضراء بنو عُذرة[5].

ومن أهل الأندلس مَنْ ينتسب إلى حَضْر مَوْت، منهم الحضرميون بمُرْسية وغَرْناطة وإشبيلية وبَطَلْيَوس وقُرْطُبة، قال ابن غالب : وهم كثير بالأندلس، وفيه خلاف، قيل : إن حضرموت هو ابن قحطان، وقيل : هو حضرموت بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغَوْث بن جَيْدان - بالجيم - بن قطن بن العَريب بن الغَرْز بن نَبْت بن أيمن بن الهميسع ابن حمير، كذا نَسَقَ النسبَ الحازميُّ[6].

ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى سلاَمان، ومنهم الوزير لسان الدين بن الخطيب حسبما ذُكر في محله «نفح الطيب 1 : 290 -298. ط. إ. عباس».

1ـ قال ابن حزم (434) : ودار بني هوزن بالأندلس القريتان المذكورتان بهما بإشبيلية.
2ـ هو الشاعر المعروف خليل المعتمد بن عباد وقتيله.
3ـ عجالة المبتدي : 33.
4ـ حدد ابن حزم (443) منازل بلي بقوله : ودار بلي بالأندلس الموضع المعروف باسمهم بشمال قرطبة، وهم هناك إلى اليوم على أنسابهم، لا يحسنون الكلام باللطينية لكن بالعربية فقط نساؤهم ورجالهم ... وكانت لهم دار أخرى بكورة مورور أيضاً. ومن البلويين أبو الحجاج مؤلف كتاب ألف با ومنهم أبو القاسم البلوي الإشبيلي مؤلف تشبيب الابريز وغيره.
5ـ قال ابن حزم (450) ودار بني عذرة بالأندلس : دلاية، وبجيان منهم، وبالثغر منهم بنو فوارتش، ولهم عدد بسرقسطة.
6ـ انظر عجالة المبتدي : 49.



بيوتات البربر في الأندلس

من الجمهرة لابن حزم



وزداجة : منهم بنو دليم الفقهاء[1].

ملزوزة : منهم عوسجة الذي ينسب إليه بلاط عوسجة[2] بشَنْتَبَرية، ومنهم كان إبراهيم بن براح قاتل أزهر بن مهلب المولد الفارس المشهور الذكر[3] من أهل والبَة، من عمل شنت بريَّة.

مغيلة : منهم بنو إلياس، رَهْط الوزير أحمد بن إلياس[4]، وبنو زروال الأمراءُ بالمُنتَانيَة[5].

مكْناسة : منهم بنو وانْسُوس، رهْطُ الوزير سليمان بن وانْسُوس[6]،

زَناتة : منهم بنو الخروبّي[7]، وأصلُهم من لَقَنْت، وبنو اللَّيْث من شَنْت فِيلة، منهم يحيى بن محمد بن عبد الله بن هاشم ين اللَّيْث بن شبْل بن إيلاف بن بلاغ بن مَحرَّة بن زانا[8]، ويذكرون أنَّهم موالي الوليد بن عبد الملك. ومن زناتة أيضاً : بنو عزُّون، الأمراء بشَنْتَ بَرِيَّة، أخبرني الأمير عبد الرحمن بن عَزُّون أنَّهم ولدُ سعيد، الذي يُنسب إليه فَحْصُ سعيد بقرب شُوذَر، وهم قتلوا ثابت بن عامر المَدْيُونّي.

أمراء الثغر : بنو هُذَيْل، ليسوا من بني رَزِين، لكن من مَدْيُونة بنو عَبْدُوس : من سرُتَة، من صدَّينة. بنو غزْلون : من تيروال. بنو عميرة :

---

1. توجد تراجمهم في ترتيب المدارك 5 : 210، ط : 150 وتاريخ ابن الفرضي 1 : 44، 281.
2. في معجم البلدان : بلاط عوسجة : حصن بالأندلس من أعمال شنتبرية.
3. هو أحد بني مهلب المولّدين الخارجين عن الجماعة، انظر المقتبس 5 : 173، 252، 284.
4. هو أحمد بن محمد بن إلياس كان عاملا وقائدا ووزيرا في عهد عبد الرحمن الناصر انظر المقتبس 5 (الفهرس).
5. كان بنو زروال من أمراء الثغر الأعلى.
6. له ترجمة في جذوة المقتبس : 209 كان وزيرا للأمير عبد الله الأموي وولى ولده محمد الوزارة لعبد الرحمن الناصر. (البيان المغرب 2 : 164).
7. ولى بعضهم خططا في عهد عبد الرحمن الناصر ومنهم عبد الله بن محمد الخروبي ومحمد بن عبد الله الخروبي. انظر البيان المغرب 2 : 164 والمقتبس 5 (الفهرس).
8. ولاه عبد الرحمن الناصر حصون شمنتان بعد استسلام ابن الشالية صاحبها كما أنه ولي سبتة. المقتبس : 60، 448.



من شاطبة، من ألهاصة من نَفْزة بنو رَزين : بالسَّهْلة. بنو ذي النون : بَويْذة. بنو فرْفرن : من ماردَة. ومَدَلّين : من هوَّارة. بنو نبيه وبنو أبي الأَخْطَل : من شَذُونة. بنو الفَرَج : من وادي الحِجَارة. بنو مَضَى، من قَصْر مضى. بنو رَسين : من مَصْمودة بنو عزُّون : من زَنَاتة. بنو زَرْوال : من المُنْتَانية. بنو إلياس : من شَذُونة من مغيلة، حاشا بني أبي الأَدْهَم، فلا أدْري ممَّن هم[1].

الأمَراء أيضاً : كان الأمراءُ بالثَّغْر، ثُمَّ بشَنْتَ بَرِيَّة ووادي الحجَارة خاصَّةً من البَرْبَر بنو غَزْلون : بتِيروال. وبِلاَّل : من ألهَاصةَ من نَفْزة بنو رزين بالسَّهْلة، من هوَّارة بنو ذي النون بوبْذة، من هوَّارة بنو قِنَّة : من هوتوتة بنو الفَرَج بوادي الحجارة : من مصمودة بنو عَزُّون : من زنَاتة بنو أبي الأخطل : من مَلزُوزة بنو أبي الأَدْهم. بنو مَضَى، من مصْمودة بنو زروال : من مَغيلة بنو هُذَيْل : من مَدْيونة بنو عَبْدُوس : من [صدينة] بُسرتّة. بنو عَميرة بشاطبة، من ألهاصة. بنو أران : من مَصْمودة[2].

مَدْيونة : منهم كان ثابت بن عامر المدْيُونّي. خالُ بني ذي النون. والأمراء المعروفون ببني هُذيل بشَنْتَ بَرِيَّة لَيْسوا بني رزين، لأنَّ بني رزين إنَّما هم من هَوَّارة بلا شكّ، وكان نفرٌ منهم بقُرْطُبة : بنو الزَّجَّالي[3] الوزَرَاءُ، والقاضي مُنْذِرُ[4] بن سعيد سُوماتّي. وبنو الخَلِيع بتاكُرُنَّا ؛ وصاحبُ أمّ جَعْفَر بالجوف، وهو زَغْلَل بن يعيش بن فُرانك، الذي يُنسب إليه مَسْجدُ

1ـ كانت هذه الإمارات البربرية فيما يعرف بالثغر الأوسط والثغر الأعلى وأخبارها متفرقة في المقتبس لابن حيان والبيان المغرب لابن عذاري.

2ـ يلاحظ شيء من التكرار بين هذه الفقرة والتي قبلها وأسماء الأسر المذكورة وأعلامها واردة في الحوليات التاريخية كالمقتبس والبيان المغرب.

3ـ انظر كلامنا على الزجاليين في الجزء الثاني.

4ـ ترجمته في جذوة المقتبس : 326.

فُرانك بقُرْطُبة ابن لُبْ بن خالد[1]. منهم، ثمَّ من ألهاصة بن يطّوفت بن نَفْزاو : بنو طرينة[2] ابن غَزْلون، أمراء تِيرْوال. وبنو عميرة بشاطبة، وبنو نُعْمَان بشَنْتَ بَرِيَّة، رَهْطُ عامر بن فَرَج بن نُعْمان.

هوارة : منهم كان بنو القَمَرَاطي، جيرانُنا في الجانب الغَرْبي، وقد بادوا، وكان آخرُهم فَتى يُكنَّى أبا مَعْدِن، اسمُه طالُوت بن بِسْطَام بن العاصي، غالب وانقطع خَبرُه، ومنهم : بنو ذي النون، أمراء أقْلِيش ووَبْذة. ومنهم : بنو رزين، أمراء السَّهْلة. ومنهم : بنو فرفرين، وُلاةُ مَدَلِّين، وكان لهم ثروةٌ وعددٌ، منهم : خطَّار بن سعد بن فَرْفَرين، وأبو عمرو بن هاشم بن فَرْفَرين، وعمهما خَيْر بن فرفرين، كلهم ولِي مَدَلِّين[3]، ومنهم : بنو جَهْوَر المَرْشانيون، وهم من ولد أبي موسى عبد الرحمن بن موسى الفقيه[4]، المشبّه بالشَّعْبي في زمانه، [وكان] لهم [عددٌ و ثروةٌ]، وبقيت منهم الآن بقيَّةٌ صالحةٌ.

مَلْزوزة : منهم بنو تيه الأمراء بشَنْتَ بَرِيَّة[5]، وبنو أبي الأخطل الأمراء بها، وآلُ عامرِ بن وَهْب، الذي كان صاحِبَ وَبْذة[6] وأعمالنا، فثار عليه موسى ابن ذي النون، فقتله، وضبط البلد.

مَصْمُودة : منهم كان بنو سُفيان بن عبد ربّه الحاجب[7]، وقد بادوا، فما أعلمُ منهم بقيَّةً ؛ وبنو يحيى بن كثير، صاحب مالك[8]، وكانت لهم ثروةٌ وعَدَدٌ،

---

1. انظر أخباره في المقتبس (منشور) : 22، 23، 135، 136.
2. انظر بعض أخبارهم في المقتبس 5 : 325.
3. في معجم البلدان أنها حصن من أعمال ماردة.
4. ترجمته في طبقات الزبيدي : 175 ـ 176.
5. هي التي تسمى اليوم : Castro de Santaver وتقع على 60 كيلومترا شرقي مدينة وادي الحجارة.
6. في الروض المعطار أنها حصن على واد بقرب أقليش وفي معجم البلدان أنها مدينة من أعمال شنتبرية.
7. ولي الحجابة لعبد الرحمن الأوسط، انظر المغرب 1 : 50 والحاشية رقم 83 للدكتور محمود علي مكي في المقتبس (1973).
8. توجد ترجمة يحيى بن يحيى الليثي وأولاده على سبيل المثال في ترتيب المدارك 3 : 379، 4 : 421 ـ 424.

وقد بقيت لهم بقيَّة يسيرة. وبنو طريف من أشُونة، ومنهم كان الذي تنبَّأ بَبرْغَوَاطة[1] ؛ فاتَّبعوه على دينه، ومحمود وجمِيلَة أخْتُه المشهورة بالشجاعة والنجدة والفروسية ولقاء الفرسان ومبارزتهم في العساكر، وهما ابنا محمد عبد الجبّار بن زاقلة القائم بمارِدَة[2]. وبنو دَانس بن عَوْسَجة، كانوا أصحاب قُلُنْبَيْرة، وإلى جَدهم يُنسب قَصْرُ أبي دَانِس بالجوف ؛ ومسعود بن تاجيت بن محمد بن تاجيت بن متاع بن مسعود ابن الفرح بن راشد، صاحبُ مارِدَة هو وأبوه وجدُّه، وكانوا أصحاب قُورِيَة ولَجْدَانيَة ؛ ففرُّوا إذ غلب النصارى على تلك الجهة، وبنو مضَى بن تيهَلْت الأمراء، بقَصر مَضَى، وبنو سالم، الذين تُنسب إليهم مدينةُ سَالم، وتنسب مدينةُ الفَرَج[3] إلى ابنه الفَرَج بن سالِم، ومنهم : أبو جعفر المعروف بالتَّميمي صاحبُنا ـ رحمه اللّه ـ وهو تَمِيم بن عبد اللّه بن محمد بن يوسف بن الفَرَج، الذي تُنسب إليه مدينة الفَرَج، ابن سالم، الذي تُنسب إليه مدينة سالم، ابن ورعمال بن وكذات ابن أكلله بن مقر بن أكلله بن مسالة بن ناكور بن يوكافان بن مسقاط بن مصاد ابن مصمود، وهم مَوَالى بني مَخْزُوم، وكان لأبي جعفر ابنان بطَرَسُونة، التي بقرب تُطيلَة، في الثَّغر، وهما : عبد اللّه، وأحمد، وعقبُه بها.

أوْرَبة : منهم كان الذي وَلَى اليَشَة، وهو صَبْرون بن شَبِيب، ثمَّ وَليها ابنه وكِيل بن صَبْرون، ثمَّ عزله عبد الرحمن بن محمد الناصر.

زُوّاوة، من كُتامة : منهم بنو مُشرف الشَّقُنْديون. ومِن كُتامة أيضاً : بنو مُهَلّب، الذين كانوا أصحاب قَرْذَيرة وأشْبَرَفِيَّرة من عمل إلْبيرة[4] ؛ ومنهم

1ـ هو صالح بن طريف، انظر أخباره في المغرب للبكري : 134 ـ 141.
2ـ انظر أخباره في المقتبس 2 : 436 ـ 445.
3ـ تعرف بوادي الحجارة. معجم البلدان (فرج).
4ـ انظر في بني مهلب هؤلاء البيان المغرب 2 : 181.



كان محمَّد بن مُهَلَّب، كاتبُ مُفَرَّج الوزير، وبنو قاسم أصحاب البُنْت، وهم يَنْتمون فِهْريين بالحِلْف[1].

صِنْهاجة: منهم بنو الغليظ، رَهطُ أبي عبد الله محمد بن عبد الآعلى الأديب - رحمه الله[2] - ؛ وبنو دَرَّاج، رهطُ الشاعر أبي عَمرو أحمد بن محمّد بن دَرَّاج القسْطلي[3]؛ كان منهم محمد بن العاصي بن أحمد بن سليمات، من ولد ذر بن عيسى ابن درّاج. ومنهم بِبُلْكونة : يحيى بن ضَرِّيس، الذي صدم ابن حَفْصُون ؛ فأبْطل يده بالضربة المشهورة ؛ فلم يأكُل ابن حفصون بيمينه بعدها وعاش بعد ذلك نحو ثلاثين سنة، ومنهم بأشُونة بنو عبد الوهّاب، وهم من ولد ميمون قُوّادٌ وكتّابٌ وفقهاء، وقد خملوا، فما بقي منهم من يُعرف إلا رجلٌ له رحلة، حجَّ وطلب العلم والرواية والقرآن، وهو اليوم خطيب جامع قُرْطُبة، والمقرئ فيه، وهو : عبد الوهاب بن محمد بن عبد القُدُّوس بن يوسف بن أحمد[28]، وبنو طاهر بن مناع من أشونة».

الجمهرة لابن حزم 498- 502.

1ـ انظر في بني القاسم أصحاب البونت المغرب 2 : 395ـ 398 والبيان المغرب 3 : 215 وأعمال الأعلام : 239.
2ـ له ترجمة في جذوة المقتبس : 66 وهو من شيوخ ابن حزم.
3ـ ديوانه معروف، حققه وقدم له الدكتور محمود علي مكي.
4ـ له ترجمة في الصلة لابن بشكوال 1 : 362.



طبقات السكان في الأندلس وحرفهم

من بيوتات فاس الكبرى لابن الأحمر





* «وأهلها أي الأندلس على أربعة أجناس:

ـ **الجنس الأول** دخل إليها من بني هاشم الجم الغفير، من الحجاز واليمن والعراق والشام ومصر وبرقة وإفريقية والمغرب الأقصى،

ـ **الجنس الثاني** دخل إليها من سادات العرب وجراثيمهم ومواليهم الجم الغفير من سائر البلاد التي ذكرنا،

ـ **الجنس الثالث** دخل إليها من برابر المغرب وإفريقية الجم الغفير،

ـ **الجنس الرابع** في أهلها الذين دخل عليهم المسلمون منهم من أسلم واستقر بموقعه ومنهم من سبي عند الفتح واستقر بها، بقية عقبه ومنهم من أسلم بعد الفتح أو سبي بعد الفتح واستقر بها عقبهما وهذا الصنف على أجناس منهم الروم والجلالقة وقشتالة وأراغون والغريقين، والطوطين، من الأمم القديمة ومنهم أهل برس مدينة مستقر طاغية أفرانصيص المنسوب إلى افرنصية ومنهم عجم رومية ومنهم من كان من اليهود مستقرا بها قبل الفتح وأسلم عند الفتح أو بعده أو دخل إليها بعد الفتح وأسلم.

أما ينو هاشم وقريش وبنو إسماعيل وبنو قحطان فإنهم احترفوا في الحلول بها الحرف التي ليست بخاملة نحو تدريس العلم والتوريق على الكراسي وتحمل الشهادة والنساخة للكتب وتعليم الصبيان وإمامة المساجد والوقوف عليها من نحو إصلاح وقبض كراء وولاية نظارة وحسبة وكتابة عند الملوك ووزارة وولاية الأمور الصالحة.

* هذا النص ورد عرضا في كتاب بيوتات فاس الكبرى المنسوب لأبي الوليد ابن الأحمر ولعله يقدم صورة مجملة للمهن والحرف التي كانت تقوم بها طبقات المجتمع الأندلسي.



ومن احترف منهم فاحترف بفلاحة وخدمة جنات غلة وغرس ونسج حرير وبيعه غير منسوج وطيه وبيع بز أو تسبب بجلبه وبيع عطر وسبك شمع وبيعه ونسج غزل الكتان وبيع لبن البقر لمن يمخضه.

ومن تنفع منهم ببيع الفاكهة والخبز والخضر وهذا يخص منهم أهل الحسب والحياء وأما من هو من أهل التصرف والشورى فإنه يدخل في عدد الجيوش من أهل الحل والعقد.

وأما البربر فإنهم احترفوا بجلب البقر والقمح والسمن والزيت والعسل والصوف والدجاج والفواكه والملح والأعواد وخدمة الفحم والخشب ونحو ذلك وأهل الحاضرة منهم احترفوا ظفر الحلفاء وخدمة الأوعية أي السلل للزرع وفتل القنب والمحاريث والبرادع للبهائم والحبال والشطاطيب لكنس الديار وصيادة الطيور للأكل والحملان في الأسواق وحملان الزرع إلى الديار وبيعه في الأسواق وخرز الدلاء وجلب الماء والبناء وطبخ الجير والجبص ونحو ذلك.

وأما من أسلم من أهلها فمن كان منهم في البادية فاكتسبوا البقر والغنم والحرث والعسل وأهل الجبال منهم فكانوا يغرسون الجنَّات والفواكه وقطع الخشب وطبخ الفحم ومن ولى البحر منهم فكانوا يجلبون الحوت والسردين ويصنعون السفن وآلاتها إلى غير ذلك. وأما الموالي فأما من كان بالحاضرة منهم فكانوا يحترفون بالدباغة والحياكة والخرازة وبيع النعال المخروزة وبيع الحياك والجلالب ونسجها والضرب بالطبول والبنود والحجامة وحمل الموتى وحفر قبورهم ودواء المرضى وعلاج الجرح والمرض وطحن برحى وخرط عود والقيام بالمساجد والأذان بها ورصد وقت وبيع لحم ونجارة خشب وعظم سرج وصنع كسوة جياد وسرير مكحلة وخدمة فخار وغيره وسبك حديد وآلة الحرب وصنعة نحاس

ومبيت بالأسواق بالليل وحرس الفنادق وتسمير البهائم وحمل السلوع من بلد إلى بلد.

وأما من أسلم من اليهود فاحترف بخياطة الملف والثياب وظفر القيطان الذي يخاط مع الثياب ونسج العقد ونسج قلنسوة وتبطينها وصبغها وتصفيتها وحجامة وبلاجة ودلالة الأسواق وبيع لبن ممخوض وبيع وإصلاح نعل مخروز، وأما الموالي منهم فاحترفوا طبخ الخبز والسفنج والشواء وصنعة القدور للطبخ وبيعها وعصر الزيت وحملها والصابون وبيع ملح وحوت وشحم وصناعة فانيد وبيع أدوية وعشب وتسفير كتب وتجبيص الرباع وتزويق الخشب وتزليج الرباع وصناعة منسج للحياكة وصناعة الصفر وصباغة وخدمة حمّام وسقي ماء وسبك فداويش وشعرية وثريد ومقروط ورغائف بقصد البيع وبيع صوف وكتان وآلات الطرب والتغني بها والضرب للدنانير والدراهم وحلي النساء وخرط مرجان وبيعه وكراء أواني البنائين وحفر بير وتصفية معدن وخدمة الرخام.

والعرب الذين دخلوا إليها استقر أكثرهم بالحواضر، وأما البربر فمن كان من أهل الحاضرة استقر في المدن ومن كان من البادية استقر في القرى وأكثر جيوشها كانوا من العرب الذين دخلوا إليها إلى أن رجع أمرها إلى أمراء الغرب فأقرهم يوسف بن تاشفين اللمتوني الصنهاجي على ما كانوا عليه وأيدهم بجيوش الشورى فكانوا مددا لأهل الثغور إلى أن غلب الموحدون».

بيوتات فاس الكبرى لابن الأحمر



الأندلسيون
أشبه الناس باليونانيين



«وأهل الأندلس عرب في الأنساب والعزة والأئمة وعلو الهمم وفصاحة الألسُن وطيب النفوس وإباء الضيم وقلّة احتمال الذل والسماحة بما في أيديهم والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنيّة، هنديون في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم، بغداديون في ظرفهم ونظافتهم ورقّة أخلاقهم ونباهتهم وذكائهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم وجدّة أفكارهم ونفوذ خواطرهم، يونانيون في استيطانهم للمياه، ومعاناتهم لضروب الغراسات واختيارهم لأجناس الفواكه وتدبيرهم لتركيب الشجر وتحسينهم البساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر، فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة، ومنهم ابن بصال صاحب «كتاب الفلاحة» الذي شهدت له التجربة بفضله، وهم أصبر الناس على مُطاولة التعب في تجويد الأعمال ومُقاساة النَّصَب في تحسين الصنائع، أحذق الناس بالفروسية، وأبصرهم بالطعن والضرب...

ولما نفذ قضاء الله تعالى على أهل الأندلس بخروج أكثرهم عنها في هذه الفتنة الأخيرة المُبيرة تفرقوا ببلاد المغرب الأقصى من بر العدوة مع بلاد إفريقية، فأما أهل البادية فمالوا في البوادي إلى ما اعتادوه، وداخلوا أهلها وشاركوهم فيها فاستنبطوا المياه، وغرسوا الأشجار، وأحدثوا الأرحيَ الطاحنة بالماء وغير ذلك، وعلموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها، فشرفت بلادهم وصلحت أمورهم وكثرت مستغلاتهم وعمتهم الخيرات، فهم أشبه الناس باليونانيين فيما ذكرت ولأن اليونانيين سكنوا الأندلس فورثوا عنهم ذلك، وأما أهل الحواضر فمالوا إلى الحواضر واستوطنوها، فأما أهل الأدب فكان منهم الوزراء والكتاب والعمّال وجُباة الأموال والمستعملون في أمور المملكة، ولا يُستعمل بلدي ما وجد أندلسي، وأما أهل الصنائع فإنهم فاقوا أهل البلاد، وقطعوا معاشهم، وأخملوا أعمالهم، وصيروهم أتباعاً لهم، ومتصرفين بين أيديهم،

ومتى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدّة، وأفرغوا فيه من أنواع الحذق والتجويد ما يميلون به النفوس إليهم، ويصير الذكر لهم، قال : «ولا يدفع هذا عنهم إلا جاهل أو مبطل».

...ويكفي في الإنصاف أن أقول : «إن حضرة مراكش هي بغداد المغرب، وهي أعظم ما في بر العدوة، وأكثر مصانعها ومبانيها الجليلة وبساتينها إنّما ظهرت في مدة بني عبد المؤمن، وكانوا يجلبون لها صناع الأندلس من جزيرتهم[1]، وذلك مشهور معلوم إلى الآن. ومدينة تونس وإفريقية قد انتقلت إليها السعادة التي كانت في مراكش بسلطان إفريقية الآن أبي زكريا يحيى بن إبي محمد ابن أبي حفص، فصار فيها من المباني والبساتين والكروم ما شابهت به بلاد الأندلس... وأكثرها من أوضاع الأندلسيين».

نفح الطيب *3: 150 - 153.*

1. نفح الطيب 3 : 151 . 153 نقلا عن فرحة الأنفس لابن غالب.

النُّظُم والخُطط في الأندلس
لابن سعيد العنسي

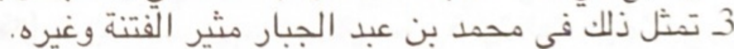


[1. السلطنة]

«كانت سلطنة الأندلس ـ على ما تقدم ـ من اختلاف الولاة عليها من سلاطين إفريقية، واختلافُ الولاة داعٍ إلى الاضطراب، وعدم تأثيل الأحوال وتربية الضخامة في الدولة، ولما صارت الأندلس لبني أمية وتوارثوا ممالكها وانقاد إليهم كل أبّي فيها وأطاعهم كل عصي عظمت الدولة بالأندلس وكبرت الهمم وتربّت الأحوال، وترتبت القواعد، وكانوا صدرا من دولتهم يخطبون لأنفسهم بأبناء الخلائف، ثم خطبوا لأنفسهم بالخلافة[1]، وملكوا من بر العدوة ما ضخمت به دولتهم، وكانت قواعدهم إظهار الهيبة، وتمكن الناموس من قلوب العالم، ومراعاة أحوال الشرع في كل الأمور، وتعظيم العلماء والعمل بأقوالهم، وإحضارهم في مجالسهم واستشارتهم، ولهم حكايات في تاريخ ابن حيّان، منها ما هو مذكور من توجّه الحُكْم على خليفتهم أو على ابنه أو أحد حاشيته المختصين[2]، وأنهم كانوا في نهاية من الانقياد للحق لهم أو عليهم، وبذلك انضبط لهم أمر الجزيرة. ولما خرقوا هذا الناموس كان أول ما تهتّك أمرهم، ثم اضمحل، وكانت ألقابُ الأول منهم الأمراء أبناء الخلائف، ثم الخلفاء أمراء المؤمنين، إلى أن وقعت الفتنة بحسد بعضهم لبعض، وابتغاء الخلافة من غير وجهها الذي رتبت عليه[3]، فاستبدّت ملوك الممالك الأندلسية ببلادها، وسُمُّوا بملوك الطوائف، وكان فيهم مَن خَطَب للخلفاء المروانيين وإن لم يبق لهم خلافة، ومنهم من خطب للخلفاء العباسيين المجمع على إمامتهم، وصار ملوك الطوائف يتباهَوْن في أحوال الملك، حتى في الألقاب، فآل أمرهم إلي أن تلقبوا بنُعُوت الخلفاء، وترفّعوا إلى

---

1. أول من خطب له بالخلافة هو عبد الرحمن الناصر وكان ذلك في سنة 316هـ، انظر الرسالة الصادرة عنه في هذا الموضوع في البيان المعرب 2 : 198 ـ 199.
2. يراجع في هذا كتاب قضاة قرطبة للخشني وكتاب ترتيب المدارك للقاضي عياض.
3. تمثل ذلك في محمد بن عبد الجبار مثير الفتنة وغيره.



طبقات السلطنة العظمى، وذلك بما في جزيرتهم من أسباب الترفّه والضخامة التي تتوزع على ملوك شتى فتكفيهم، وتنهض بهم للمباهاة، ولأجل توثبهم على النعوت العبّاسية، قال ابن رشيق القيرواني[1] :

مماّ يزهّدني في أرض أندلُس   تلقيبُ معتضِدٍ فيها ومعْتَمِدِ

ألقابُ مملكةٍ في غير مَوْضعها   كالهرّ يحكي انتفاخاً صَوْلَةَ الأسدِ

وكان عبّاد بن محمد بن عبّاد قد تلقب بالمعتضد، واقتفى سيرة المعتضد العباسي أمير المؤمنين، وتلقب ابنه محمد بن عبّاد بالمعتمد، وكانت لبني عباد مملكة إشبيلية ثم انضاف إليها غيرها.

وكان خلفاء بني أمية يظهرون للناس في الأحيان على أبّهة الخلافة، وقانون لهم في ذلك معروف، إلى أن كانت الفتنة، فازدرت العيونُ ذلك الناموس، واستخفّت به.

وقد كان بنو حمّود من ولد إدريس العلوي الذين توثّبُوا على الخلافة في أثناء الدولة المراونية بالأندلس يتعاظمون، ويأخذون أنفسهم بما يأخذها خلفاء بني العباس وكانوا إذا حضرهم منشد المدح أو من يحتاج إلى الكلام بين أيديهم يتكلم من وراء حجاب، والحاجبُ واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة، ولما حضر ابن مقانا الأشبوني أمام حاجب إدريس بن يحيى الحمّودي الذي خطب له بالخلافة في مالقة، وأنشده قصيدته المشهورة النونية التي منها قوله[2] :

1ـ ديوان ابن رشيق : 59، ونسبا في وفيات الأعيان 4 : 52 إلى ابن عمّار.

2ـ عبد الرحمن بن مقانا الأشبوني القبذافي أبو زيد من شعراء الذخيرة (لقسم الثاني : 309، وانظر المغرب 1 : 413 والحاشية في مصادر ترجمته).

وكـأنَّ الشّمْس لـمّـا أشْرقَتْ فانثَنتْ عنها عيونُ الناظرينْ

وجْهُ إدريس بن يحيى بن علي بن حـمود أميرِ المؤمنين

وبلغ فيها إلى قوله :

انـظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُوركم إنّـه من نـور ربّ العالمين

رفع الخليفة الستر بنفسه، وقال : انظر كيف شئت، وانبسط مع الشاعر، وأحسن إليه.

ولما جاء ملوك الطوائف صاروا يتبسّطون للخاصة وكثير من العامة، ويُظهرون مداراة الجند وعوام البلاد، وكان أكثرهم يحاضر العلماء والأدباء، ويحب أن يشهر عنه ذلك عند مُباريه في الرياسة.

ومذ وقعت الفتنة بالأندلس اعتاد أهل الممالك المتفرقة الاستبداد عن إمام الجماعة، وصار في كل جهة مملكة مستقلة يتوارث أعيانُها الرياسة كما يتوارث ملوكها الملك، ومرنوا على ذلك، فصعب ضبطهم إلى نظام واحد، وتمكن العدو منهم بالتفرق وعداوة بعضهم لبعض بقبيح المنافسة والطمع، إلى أن انقادوا إلى عبد المؤمن وبنيه[1]، وتلك القواعد في رؤوسهم كامنة، والثوار في المعاقل تثور، وتروم الكَرَّة، إلى أن ثار ابن هود، وتلقّب بالمتوكل، ووجد قلوبا منحرفة عن دولة بر العُدْوة، مهيّأة للاستبداد، فملكَ بأيسر محاولة، مع الجهل المفرط وضعف الرأي، وكان مع العامة كأنّه صاحب شَعْوَذة، يمشي في الأسواق ويضحك في وجوههم

---

1. من المعروف أنهم خضعوا قبل ذلك لحكم يوسف بن تاشفين وبنيه.
والضابط فيما يقال في شأن أهل الأندلس في السلطان أنهم إذا وجدوا فارساً يفرع الفرسان أو جواداً يبرع الأجواد تهافتوا في نصرته، ونصبوه ملكاً من غير تدبير في عاقبة، آل الأمر إلى ما يؤول إليه.



ويبادرهم بالسؤال، وجاء الناس منه ما لم يعتادوهُ من سلطان، فأعجب ذلك سفهاء الناس وعامتهم العمياء، وكان كما قيل :

أمورٌ يَضْحَكُ السفهاء منها ويبْكي من عَوَاقبها الحليمُ

فآل ذلك إلى تَلف القواعد العظيمة، وتملُّك الأمصار الجليلة، وخروجها من يد الإسلام.

[2ـ الوزارة]

وأما قاعدة الوزارة بالأندلس فإنّها كانت في مدة بني أميّة مشتركة في جماعة يُعيّنهم صاحبُ الدولة للإعانة والمشاورة، ويخصّهم بالمجالسة[1]، ويختار منهم شخصاً لمكان النائب المعروف بالوزير فيسمّيه بالحاجب، وكانت هذه المراتب لضَبْطها عندهم كالمتوارَثة في البيوت المعلومة لذلك[2]، إلى أن كانت ملوكُ الطوائف، فكان الملَكُ منهم ـ لعظم اسم الحاجب في الدولة المَرْوانية، وأنّه كان نائبا عن خليفتهم ـ يسمّى بالحاجب، ويرى أن هذه السّمة أعظم ما تُنوفس فيه وظُفر به، وهي موجودة في أمداح شعرائهم وتواريخهم. وصار اسم الوزارة عامّاً لكل من يُجالس الملوك ويختص بهم، وصار الوزير الذي ينوب عن الملك يُعرف بذي الوزارتين، وأكثر ما يكون فاضلاً في علم الأدب، وقد لا يكون كذلك، بل عالماً بأمور الملك خاصة.

[3ـ الكتابة]

وأمّا الكتابة فهي على ضربين : أعلاهما : كاتب الرسائل، وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس، وأشرف أسمائه الكاتب، وبهذه السّمة

1ـ عرف في الأندلس نظام تعدد الوزراء والوزير الأول المسمى بالحاجب وظهر في عهد عبد الرحمن توزيع الأعمال على الوزراء، انظر البيان المعرب 2 : 220.

2ـ منهم بنو أبي عبدة وبنو جهور وبنو شهيد وبنو حدير وبنو وانسوس وبنو الزجالي.



يخططه من يعظمه في رسالة. وأهل الأندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السّمة، لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة، فإن كان ناقصاً عن درجات الكمال لم ينفعه جاهُه ولا مكانه من سلطانه من تسلُّط الألسن في المحافل والطّعْن عليه وعلى صاحبه. والكاتبُ الآخر كاتب الزمام، هكذا يعرفون كاتب الجهبذة، ولا يكون بالأندلس وبرّ العُدْوة لا نصرانياً ولا يهودياًّ البتّة، إذ هذا الشغل نبيه يحتاج إلى صاحبه عظماء الناس ووجوهُهم.

[4. الخراج]

وصاحب الأشغال الخراجية في الأندلس أعظمُ من الوزير، وأكثر أتباعاً وأصحاباً وأجْدَى منفعةً، فإليه تميلُ الأعناق، ونحوه تمد الأكف، والأعمال مضبوطة بالشهود والنظار، ومع هذا إن تأثلتْ حالته واغتر بكثرة البناء والاكتساب نُكِب وصُودر، وهذا راجع إلى تقلب الأحوال وكيفية السلطان.

[5. القضاء]

وأما خُطّة القضاء بالأندلس فهي أعظم الخطط عند الخاصة والعامة، لتعلُّقها بأمور الدين، وكون السلطان لو توجّه عليه حكم حَضَر بين يدي القاضي، هذا وضعها في زمان بني أميّة، ومن سلك مسلكهم، ولا سبيل أن يتسمّى بهذه السّمة إلاّ مَنْ هو والٍ للحكم الشرعي في مدينة جليلة، وإن كانت صغيرة فلا يُطْلق على حاكمها إلا مسدّد خاصة، وقاضي القضاة يقال له : قاضي القضاة، وقاضي الجماعة.

[6ـ خطة الشرطة]

وأما خطة الشُّرْطة بالأندلس فإنها مضبوطة إلى الآن[1]، معروفة بهذه السِّمة، ويُعرف صاحبها في ألسن العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل، وإذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القَتْل لمن يجب عليه دون استئذان السلطان، وذلك قليل، ولا يكون إلا في حضرة السلطان الأعظم، وهو الذي يحدّ على الزنا وشرب الخمر، وكثير من الأمور الشرعية راجع إليه، قد صارت تلك عادة تقرّر عليها رضا القاضي، وكانت خطة القاضي أوقر وأتقى عندهم من ذلك.

[7ـ الحسبة]

وأمّا خطّة الاحتساب فإنّها عندهم موضوعة في أهل العلم والفِطَن، وكأن صاحبها قاض[2]، والعادة فيه أن يمشي بنفسه راكباً على الأسواق، وأعوانُه معه، وميزانُه الذي يزن به الخبز في يد أحد الأعوان، لأن الخبز عندهم معلوم الأوزان للربع من الدرهم رغيف على وزن معلوم، وكذلك للثُّمن، وفي ذلك من المصلحة أن يرسل المبتاع الصبيّ الصغير أو الجارية الرعْناء فيستويان فيما يأتيانه به من السوق مع الحاذق في معرفة الأوزان، وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره[3]، ولا يجسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون ما حدَّ له المحتسب في الورقة، ولا يكاد تخفى خيانته، فإن المحتسب يدسّ عليه صبيّاً أو جارية يبتاع أحدهما منه، ثم يختبر الوزنَ المحتسبُ، فإن وجد نقصاً قاس على ذلك حالَه مع الناس،

1ـ أي في القرن السابع، وفي العهد الأموي كانت هناك شرطة كبرى وشرطة صغرى ثم أحدث عبد الرحمن الناصر شرطة وسطى، انظر المقتبس 5 : 252، وكان يلي خطة الشرطة علماء أئمة مثل أبي بكر الزبيدي وأضرابه.

2ـ كان يدعى المحتسب وصاحب السوق.

3ـ هي التي تسمى تعريفة ودخلت إلى اللغات الأجنبية منها Tarifa في اللغة الإسبانية.



[6. خطة الشرطة]

وأما خطة الشرْطة بالأندلس فإنها مضبوطة إلى الآن[1]، معروفة بهذه السِّمة، ويُعرف صاحبها في ألسن العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل، وإذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القَتْل لمن يجب عليه دون استئذان السلطان، وذلك قليل، ولا يكون إلا في حضرة السلطان الأعظم، وهو الذي يحدّ على الزنا وشرب الخمر، وكثير من الأمور الشرعية راجع إليه، قد صارت تلك عادة تقرّر عليها رضا القاضي، وكانت خطة القاضي أوقر وأتقى عندهم من ذلك.

[7. الحسبة]

وأمّا خطّة الاحتساب فإنّها عندهم موضوعة في أهل العلم والفِطَن، وكأن صاحبها قاض[2]، والعادة فيه أن يمشي بنفسه راكباً على الأسواق، وأعوانُه معه، وميزانُه الذي يزن به الخبز في يد أحد الأعوان، لأن الخبز عندهم معلوم الأوزان للربع من الدرهم رغيف على وزن معلوم، وكذلك للثُّمن، وفي ذلك من المصلحة أن يرسل المبتاع الصبيّ الصغير أو الجارية الرعْناء فيستويان فيما يأتيانه به من السوق مع الحاذق في معرفة الأوزان، وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره[3]، ولا يجسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون ما حدَّ له المحتسب في الورقة، ولا يكاد تخفى خيانته، فإن المحتسب يدسّ عليه صبيّا أو جارية يبتاع أحدهما منه، ثم يختبر الوزنَ المحتسبُ، فإن وجد نقصاً قاس على ذلك حالَه مع الناس،

---

1. أي في القرن السابع، وفي العهد الأموي كانت هناك شرطة كبرى وشرطة صغرى ثم أحدث عبد الرحمن الناصر شرطة وسطى، انظر المقتبس 5 : 252، وكان يلي خطة الشرطة علماء أئمة مثل أبي بكر الزبيدي وأضرابه.
2. كان يدعى المحتسب وصاحب السوق.
3. هي التي تسمى تعريفة ودخلت إلى اللغات الأجنبية منها Tarifa في اللغة الإسبانية.



فلا تسأل عمّا يلقى، وإن كثر ذلك منه ولم يَتُبْ بعد الضرب والتجريس[1] في الأسواق نُفي من البلد. ولهم في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه[2]، لأنها عندهم تدخل في جميع المبتاعات وتتفرع إلى ما يطول ذكره.

[8. خطة الطواف بالليل]

وأمّا خطة الطواف باللّيل وما يقابل من المَغْرب أصحاب أرباع في المشرق فإنهم يُعرفون في الأندلس بالدرّابين، لأن بلاد الأندلس لها دُروب[3] بأغلاق تُغلق بعد العَتَمة، ولكل زُقاق بائتٌ فيه، له سراج معلّق وكلب يسهر وسلاح معدّ، وذلك لشطارة عامّتها وكثرة شرّهم وإغيائهم[4] في أمور التلصص، إلى أن يظهروا على المباني المشيدة، ويفتحوا الأغلاق الصعبة، ويقتلوا صاحب الدار خوف أن يقرّ عليهم أو يطالبهم بعد ذلك، ولا تكاد في الأندلس تخلو من سماع «دار فلان دُخلت البارحة» و«فلان ذبحه اللصوص على فراشه» وهذا يرجح التكثير منه والتقليل إلى شدّة الوالي ولينه، ومع إفراطه في الشدّة وكون سيفه يقطر دماً فإن ذلك لا يعدم، وقد آل الحالُ عندهم إلى أن قتلوا على عنقودٍ سرقه شخص من كَرْم وما أشبه ذلك، فلم ينته اللصوص.

[9. الأندلسيون والتشريع]

وأمّا قواعد أهل الأندلس في ديانتهم فإنّها تختلف بحسب الأوقات والنظر إلى السلاطين، ولكن الأغلب عندهم إقامة الحدود، وإنكار التهاون

---

1. وفي هذا قالوا : بحل محتسب، يضرب ويطوف. والتجريس : هو التشهير بالمعاقب وكأنهم كانوا يضعون في عنقه أجراسا أو جلاجل ولعل من هنا قولهم : فضيحة بجلاجل.

2. توجد القوانين المذكورة في كتب الحسبة الأندلسية لتي حفظت في المغرب وقد نشر بعضها المستعربان الفرنسيان بروفنسال وكولان وهي التي ألفها ابن عبدون والتجيبي وابن عبد الرؤوف.

3. يطلق الدرب في الأندلس والمغرب على الزقاق.

4. أي أنهم بلغوا الغاية في اللصوصية.



بتعطيلها، وقيام العامة في ذلك وإنكاره إن تهاون فيه أصحاب السلطان، وقد يلج السلطانُ في شيء من ذلك ولا ينكره، فيدخلون عليه قصره المشيد ولا يعبأُون بخيله ورَجْله حتى يخرجوه من بلدهم، وهذا كثير في أخبارهم. وأمّا الرجم بالحجر للقضاة والولاة للأعمال إذا لم يَعْدِلوا فكلَّ يوم.

[10ـ الأندلسيون والتفقّر]

وأمّا طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق في الدَّروزة[16] التي تُكْسِلُ عن الكد وتحوج الوجوه للطلب في الأسواق فمستقبحة عندهم إلى نهاية، وإذا رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على الخدمة يطلب سبّوه وأهانوه، فضلاً عن أن يتصدقوا عليه، فلا تجد بالأندلس سائلاً إلا أن يكون صاحب عذر.

[11ـ الأندلسيون والعلوم والآداب]

وأمّا حالُ أهل الأندلس في فنون العلوم فتحقيقُ الإنصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرصُ الناس على التميز، فالجاهل الذي لم يوفّقه الله لعلم يجهد أن يتميز بصنعة، ويربأ بنفسه أن يُرَى فارغاً عالَةً على الناس، لأن هذا عندهم في نهاية القبح، والعالم عندهم معظّم من الخاصة والعامة، يشار إليه ويحال عليه، ويَنْبُه قدره وذكره عند الناس، ويُكْرَم في جوار أو ابتياع حاجة، وما أشبه ذلك. ومع هذا فليس لأهل الأندلس مدَارس[2] تعينهم على طلب العلم، بل يقرءون جميع العلوم في المساجد بأجرة، فهم يقرءون لأن يعلموا لا لأن يأخذوا جارياً، فالعالم منهم بارع

1ـ كلمة فارسية معناها التسوّل ويقال اليوم الدروشة.

2ـ لم تظهر المدارس في الأندلس إلا في زمن بني الأحمر عندما بنى السلطان أبو الحجاج مدرسة غرناطة المسماة باليوسفية نسبة إليه. واشتهرت المدارس بالمغرب في عهد بني مرين.

لأنّه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه، وينفق من عنده حتى يعلم، وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء، إلا الفلسفة والتنجيم، فإن لهما حظا عظيما عند خواصهم، ولا يُتظاهر بهما خوف العامة، فإنّه كلّما قيل «فلان يقرأ الفلسفة» أو «يشتغل بالتنجيم» أطلقت عليه العامة اسم زنديق، وقَيّدَتْ عليه أنفاسه، فإن زل في شبهة رَجَمُوه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة، وكثيرا ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت، وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه وإن كان غير خالٍ من الاشتغال بذلك في الباطن على ما ذكره الحجاري، والله أعلم.

وقراءةُ القرآن بالسبع وروايةُ الحديث عندهم رفيعة، وللفقه رونق ووجاهة، ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك، وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوي الهمم في العلوم. وسِمَةُ الفقيه عندهم جليلة، حتى إن الملثمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه، وهي الآن بالمغرب بمنزلة القاضي بالمشرق، وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه لأنها عندهم أرفع السّمات. وعلم الأصول عندهم متوسط الحال، والنحو عندهم في نهاية من علوّ الطبقة، حتى إنهم في هذا العصْر فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه، لا يَزْداد مع هَرَم الزمان إلا جِدَّةً. وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه، وكل عالم في أيّ علم لا يكون متمكنا من علم النحو - بحيث لا تخفى عليه الدقائق - فليس عندهم بمستحق للتمييز، ولا سالم من الازدراء، مع أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عمّا تقتضيه أوضاع العربية، حتى لو أن شخصاً من العرب سمع كلام الشلوبيني أبي علي المشار إليه بعلم النحو في عصرنا الذي

غربت تصانيفه وشرَّقَتْ وهو يُقْرئ درسه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذي في لسانه؛ والخاص منهم إذا تكلم بالإعراب وأخذ يَجْري على قوانين النحو استثقلوه واستبردوه، ولكن ذلك مراعًى عندهم في القراءات والمخاطبات بالرسائل. وعلْمُ الأدب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات أنبلُ علم عندهم، وبه يُتقرب منْ مجالس ملوكهم وأعلامهم، وَمَنْ لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غُفْلٌ مستثقَل.

والشعر عندهم له حظ عظيم، وللشعراء من ملوكهم وجاهة، ولهم عليهم وظائف، والمجيدون منهم يُنشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة، ويوقّع لهم بالصّلات على أقدارهم، إلا أن يختل الوقت ويغلب الجهل في حين ما، ولكنّ هذا الغالبُ. وإذا كان الشخص بالأندلس نحويّاً أو شاعراً فإنّه يَعْظُم في نفسه لا محالة ويسخف ويُظهر العُجْبَ، عادةٌ قد جُبِلوا عليها.

[12ـ الزي الأندلسي في السلم والحرب]

وأما زِيُّ أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم، لا سيما في شرق الأندلس، فإن أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضياً ولا فقيها مشارا إليه إلا وهو بعمامة، وقد تسامحوا بشرقها في ذلك، ولقد رأيت عزيز بن خطاب أكبر عالم بمرُسِية، حضرةِ السلطان في ذلك الأوان، وإليه الإشارة، وقد خُطب له بالملك في تلك الجهة، وهو حاسرُ الرأس، وشَيْبُه قد غلب على سواد شعره. وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم من تَراه بعمَة في شرق منها أو في غرب، وابنُ هود الذي ملك الأندلس في عصرنا رأيته في جميع أحواله ببلاد الأندلس وهو دون عمامة، وكذلك ابن الأحمر الذي معظم الأندلس الآن في يده، وكثيراً ما يتزيّا سلاطينُهم وأجنادهم

بزيّ النصارى المجاورين لهم، فسلاحهم كسلاحهم، وأقبيتهم من الإشكرلاط وغيره كأقبيتهم، وكذلك أعلامهم وسروجهم.

ومحاربتهم بالتّراس والرّماح الطويلة للطعن، ولا يعرفون الدبابيس، ولا قسِيَّ العرب، بل يعدون قِسِيَّ الإفرنج للمحاصرات في البلاد، أو تكون للرّجالة عند المصافقة للحرب، وقليلا ما تصبر الخيل عليهم أو تمهلهم لأن يُوتِّروها، ولا تجد في خواص الأندلس وأكثر عوامهم مَنْ يمشي دون طَيْلَسان، إلاّ أنّه لا يضعه على رأسه منهم إلا الأشياخ المعظّمون، وغفائر الصوف كثيرا ما يلبسونها حُمْراً وخُضْراً، والصُّفر مخصوصة باليهود، ولا سبيل إلى يهودي أن يتعممّ البتّة، والذؤابة لا يرخيها إلا العالم، ولا يصرفونها بين الأكتاف، وإنّما يُسْدلونها من تحت الأذن اليسرى. وهذه الأوضاع التي بالمشرق في العمائم لا يعرفها أهل الأندلس، وإن رأوا في رأس مشرقي داخلٍ إلى بلادهم شكلاً منها أظهروا التعجب والاستظراف، ولا يأخذون أنفسهم بتعلُّمها لأنهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا غير أوضاعهم، وكذلك في تفصيل الثياب.

[13. تدبير الأندلسيين ومروءتهم]

وأهل الأندلس أشدُّ خلق اللّه بنظافة ما يلبسون وما يفرشون، وغير ذلك ممّا يتعلّق بهم، وفيهم مَنْ لا يكون عنده إلا ما يقوته يومَهُ، فيطويه صائماً ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه، ولا يظهر فيها ساعةً على حالة تنبو العين عنها.

وهم أهل احتياط وتدبير في المعاش وحفظ لما في أيديهم خوف ذلّ السؤال، فلذلك قد يُنسبون للبخل، ولهم مروءات على عادة بلادهم، لو فطن لها حاتم لفضّل دقائقها على عظائمه ؛ ولقد اجتزت مع والدي على قَرْية من قُرَاها، وقد نال منّا البرد والمطر أشدَّ النَّيل، فأوَيْنا إليها، وكنّا على

حالٍ ترقُّبٍ من السلطان وخلوّ من الرفاهية، فنزلنا في بيت شيخ من أهلها، من غير معرفة متقدمة، فقال لنا : إن كان عندكم ما أشتري لكم فحماً تسخنون به فإنّي أمضي في حوائجكم، وأجعل عيالي يقومون بشأنكم، فأعطيناه ما اشترى به فحما، فأضرم ناراً، فجاء ابنٌ له صغير ليصطلي، فضربه، فقال له والدي : لم ضربته؟ فقال : يتعلم استغنام مال الناس والضّجَرَ للبرد من الصغر، ثم لما جاء النوم قال لابنه :أعطِ هذا الشابّ كساءك الغليظة يزيدها على ثيابه، فدفع كساءه إليَّ، ولما قمنا عند الصباح وجدتُ الصّبيّ منتبهاً ويدُه في الكساء، فقلت ذلك لوالدي، فقال : هذه مروءات أهل الأندلس، وهذا احتياطهم، أعطاك الكساء وفضّلك على نفسه، ثم أفكَر في أنك غريب لا يعرف هل أنت ثقة أو لص، فلم يطب له منام حتى يأخذ كساءه خوفاً من انفصالك بها وهو نائم، وعلى هذا الشيء الحقير فقس الشيء الجليل» نفح الطيب 1 : 212 ـ 224 نقلا عن ابن سعيد.

من صور التعايش
بين أهل الأديان
في الأندلس



يهودي يخطر دمه في إخفاء مسلم فارّ من السلطان.

ـ تعتبر ثورة الربض (202هـ 818م) من الأحداث الكبرى في تاريخ الأندلس وقد انتهت بقتل بعض المدبرين لها وفرار بعضهم إلى مختلف الجهات واختفاء آخرين، ومن هؤلاء الفقيه طالوت الذي يحكي ابن حيان قصة اختفائه في النص التالي:

«وتوارى من كبار أهل النكث، الغالب عليهم اسم الربضيين[1] من رجال قرطبة بعد خروج فَلِّهم عنها، الفقيه طالوت بن عبد الجبار المعافري[2]، أحد من أخذ عن مالك بن أنس ونظرائه من أهل العلم، وشهر بالصلاح والفضل، وإليه ينسب المسجد والحفرة بداخل المدينة، وبها كان مسكنه. فلما حلت الدبرة بأهل الربض، فرَّ طالوت عن داره، فاستخفى عند رجل من اليهود جيرانه[3] وثق به، فتقبله اليهودي أحسن قبول، وحصَّن مكان تواريه لديه، واحتفى به جهده. فمكث عنده بأفضل حال حولا كريتا[4]، حتى سكنت الحال وصُفِّيت النائرة. وكانت بينه وبين أبي البسام، جد بني بسام هؤلاء الهرائين[5] وصلة مَتَّ بها إليه، وجاء أن يأخذ له بها أماناً من الأمير الحكم، يأمن به على نفسه، فيتصرف في شأنه لما طال مدى استخفائه، وثقل عليه مكانه عند اليهودي مئونة.

فلما همَّ بذلك ساء اليهودي تحوله عنه، ونصح له في اتهام ثقته بصاحب السلطان، وحلف له على رغبته في مقامه عنده حياته واستخفافه لمئونته وتبركه بثوابه لديه، فعصاه ولج في الذهاب عنه. وقصد أبا البسام صديقه خفية بين العشاءين، فلما جاءه أظهر الاستبشار به والقبول له، وسأله

1ـ هم الذين ثاروا سنة 202هـ، على الأمير الحكم بن هشام.

2ـ له ترجمة في ترتيب المدارك والتكملة لابن الأبار رقم 279 والذيل والتكملة 4 : 150ـ 152.

3ـ هذا يدل على التجاور في السكنى بين المسلمين واليهود والنصارى.

4ـ أي عاما كاملا.

5ـ هم القائمون على الأهرية أي مخازن الحبوب والغلال.



عن مكانه ـ كان ـ قبل مجيئه إليه، فخبره أنه كان عند رجل يهودي من جيرانه، اضطر إلى الاستخفاء عنده فأجمل فيه، فصوَّب رأيه في التحول إليه، ووعده بالشفاعة له إلى الأمير الحكم.

وبادر بالركوب إلى الأمير الحكم من وقته، وقد وكل بطالوت من يحرسه، فقال للأمير : ما رأيك في عجل سمين عاكف على مِذْوده[1] منذ سنة تلذُّ مطعمه ؟ فقال له : أنا على المنقلب الدارج[2] أحرص مني على ما يَفْضُلُهُ. فقال أبو البسام : إنما حَاجَيْتُك، وغير ذلك قصدي. طالوت طلبتك[3] رأس المنافقين عندي، قد أظفرك الله به. فقال له : قم فعَجِّل عليَّ به ! ووثب فجلس على كرسي بباب مجلسه، فجمع من نفسه، وجعل يفتل سباله[4] تغيُّظاً على طالوت.

فلم يلبث أن أدخل عليه يُتَلُّ[5] تَلاً، فلما مثل بين يديه جعل يقول : طالوت ـ يرددها ـ الحمد لله الذي أظفرني بك ! ويحك، أخبرني لو أن أباك أو ابنك قعدا مقعدي بهذا القصر، أكانا يزيدانك من البر والإكرام [على] ما فعلته بك؟ هل رددتك قط في حاجة لك أو لغيرك ؟ ألم أشاركك في حلوك ومرك؟ ألم أعُدْكَ مرات في عِلَلِك؟ ألم أشاركك في حزنك على زوجك، فمشيت في جنازتها راجلاً إلى مقبرة الربض، وانصرفت معك كذلك إلى منزلك ؟ وغير شيء من التوقير والتعظيم فعلته بك؟ فما الذي حملك على ما فعلته لي وقابلت به إجمالي حتى لم ترض بدون خلعي من سلطاني، والسعي لسفك دمي واستباحة حرمي وهتك ستري؟

1ـ المذود : معلف الدابة.
2ـ أي ما يدرج من الطير.
3ـ أي مطلوبك.
4ـ أي شعر شواربه.
5ـ أي يدفع.



فقال له طالوت : ما أجد في هذا الوقت مقالا أنجى من صدقك، إني أبغضتك لله وحده، فلم ينفعك عندي كل ما صنعته لي لحوط دنياي.

قال : فسُرِّيَ عن الأمير الحكم، وسكن غيظه، وملئ رقة على طالوت، وحيل بينه وبينه، فقال له : والله لقد آحضرتك وما في الدنيا عذاب إلا وقد عرضته على نفسي أختار أفظعه لك، فقد حيل بيني وبين ذاك، فأنا أعلمك أن الذي له أبغضتني قد صرفني عنك إليه. فانصرف في أمان الله تعالى، وطَامِنْ جأشك، وتصرف حيث شئت، وارفع إليَّ حاجاتك فلن تعدم مني يداً ما بقيت. فيا ليت الذي كان لم يكن ! فقال له طالوت : صدقت، فلو لم يكن كان خيراً لك، ولا مردَّ لأمر الله.

ثم قال له : أخبرني أين ظفر بك صاحبك أبو البسام ؟ فقال : أنا أظفرته بنفسي، وقصدته لوصلة كانت بيننا آستشفع به إليك، فأخفر ذمتي، وكان منه ما تراه، فقال له : فأين كنت في عامك قبله ؟ قال : عند رجل من اليهود ملت إليه بجواري، فآواني ولم يقصر في حفظي ولا قلق بمكاني.

فتهانف الحكم إلى أبى البسام وقال له : سوأةً لك ! رجل من اليهود أعداء الملة حفظ لهذا الشيخ محله من الدين والعلم فأخطر في إخفائه دمه وماله، وأنت رجل من أهل ملته وذوي صداقته ناقضت اليهودي فيما أسداه إليه، وهو من خيار أهل ملّتك وأولى برعايتك، فأثمت فيه ولؤمت ما شئت وأردت أن تزيدنا فيما نحن نادمون عليه من سوء الاتهام وسفح هذا الدم الحرام، لبئس الصاحب أنت ! أخرج عني قبحك الله فلا نرى وجهك.

وأمر بتوفير أرزاقه وطي فراش كرامته، ببيت وزارته، فتلك التي حطته لديه وأخملته ووصمت عقبه فلم يزالوا في ارتكاس وسفال إلى اليوم.

وبقي طالوت بعد إقالته مبرورا لدى الأمير الحكم محفوظا إلى أن توفي إلى مديدة من خروجه من نكبته، فأسي الأمير الحكم له وحضر جنازته بنفسه وأثنى عليه بصدقه».

المقتبس لابن حيان س 2 : 166ـ 196.



يوم الأحد يوم عطلة في الأندلس

جاء في كتاب المقتبس لابن حيان ما يلي :

«ولما توفي عبد الله بن أمية بن يزيد[1] - وإليه كانت الكتابة العليا مع الوزارة - تخلفه[2] وكان قريع من ينتحل الباغة في عصره.

وكان قومس مع بلاغته وجودة رسائله بصيرا بصناعة الكتابة الحسبانية عارفا بمعانيها العويصة، مدققا لحسباناتها الصعبة[3].

وكان أول من سن لكتاب السلطان وأهل الخدمة تعطيل الخدمة في يوم الأحد من الأسبوع والتخلف عن حضور قصره قومس ين انتنيان كاتب الرسائل للأمير محمد[4]، وكان نصرانيا دعا إلى ذلك لنسكه فيه[5]، فتبعه جميع الكتاب طلب الاستراحة من تعبهم النظر في أمورهم فانتحوا ذلك ومضى العمل آلى اليوم عليه[6]».

المقتبس : 138، 142(ط. 1973).

1ـ هو عبد الله بن محمد بن أمية بن يزيد من بيت كتابة للأمويين في الأندلس كان جده أمية بن يزيد كاتبا لعبد الرحمن الداخل وكان أبوه كاتبا للحكم بن هشام أما عبد الله فقد كتب لعبد الرحمن بن الحكم وابنه محمد وتوفي سنة 206هـ.

2ـ انتقد بعض معاصريه هذا التعيين ولكن الأمير قال إنه لا يبغي به بدلا لو أسلم ويقال إنه اعتنق الإسلام لما سمع ذلك وقد تسبب إسلامه في خصومات مع النصارى ويبدو أنه توفي بعد توليه بمدة قليلة وله ولد اسمه عمر ولي الكتابة كذلك وتوفي سنة 298هـ.

3ـ يبدو أنها مانت تتعلق بالضرائب والجزية.

4ـ هو الأمير محمد بن عبد الرحمن الثاني حكم من سنة 238هـ، إلى سنة 273هـ.

5ـ يبدو أنه بعد أن اعتنق الاسلام تنسك فيه أيضا فقد قال فيه بعضهم : «السجاد العباد حمامة هذا المسجد» يعني مسجد قرطبة الجامع.

6ـ أي إلى وقت تأليف المقتبس وهو منتصف القرن الخامس الهجري، ومما يؤكد هذا ما ورد في الزهرات المنثورة لابن سماك العاملي من أن يوم الأحد كان يوم راحة الخدمة في زمن المنصور بن أبي عامر. الزهرات المنثورة : 73 تحقيق الدكتور محمود علي مكي.



الاحتفال بالأعياد المسيحية في الأندلس



أشرنا فيما تقدم إلى الأمثال الواردة في ينير والميلاد والعنصرة وهي أعياد احتفل بها المسلمون مع النصارى في الأندلس وانتقد ذلك بعض الفقهاء فمن ذلك هذا النص الذي جاء في كتاب «الدر المنظم، في مولد النبي المعظم» لأبي القاسم العزفي[1]:

«وإن تعجب أيها الناصح لنفسه فعجب من إحصائهم لتواريخها والاعتناء بمواقيتها، فكثيراً ما يتساءلون عن ميلاد عيسى على نبينا وعليه السلام وعن ينّير سابع ولادته وعن العنصرة ميلاد يحيى على نبينا وعليه السلام[2]، فما أعانهم التوفيق، ولا القرين المرشد ولا الرفيق، أن يكون سؤالهم عن ميلاد نبيهم محمد صلى الله عليه وسلّم خيرة الله من خلقه، وذلك من شكر نعم الله به علينا بعض واجبه وحقه، هاديهم من ضلالتهم ومرشدهم من غيهم، العزيز عليه عنتهم، الحريص على هداهم الشديد عليه ضلالتهم وفتنتهم، الرؤوف الرحيم شفيعهم الذي ضوعف لهم به ثواب محسنهم، وتجووز عن مسيئهم بل جماهير عامتهم ودهمائهم، بل الذين يدعونهم بطلبتهم وعلمائهم لا يعرفون، بل يقتنعون بأنه عندهم في كتبهم ويكْتفون، والحمد لله فقد انتهى اليوم إلى العذراء في خدرها، والحرة المصونة في سترها، «ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة» بقيام حجتها وانقطاع عذرها، والله يعيذنا من الفتن ويقينا غوائل شرها»[3].

1ـ هو أبو القاسم محمد بن أحمد العزفي من أسرة سبتية عريقة كان والده قاضيا بها وتأمر أبو القاسم هذا بسبتة لما ضعفت دولة الموحدين ـ انظر ترجمته في أزهار الرياض 2 : 374 ـ 378.

2ـ كان عيد ميلاد عيسى في الأندلس يوم 25 ديسمبر وعيد ينَّير في أول يوم من السنة الميلادية وعيد العنصرة في 24 يونيو.

3ـ يشير أبو القاسم العزفي إلى دعوته إلى الاحتفال بليلة المولد النبوي الشريف وإشارته للخليفة المرتضى الموحدي بذلك وتأليفه له كتاب «الدر المنظم في مولد النبي المعظم» فصار يقوم بليلة المولد خير قيام، ويفيض فيه الخير والإنعام (البيان المغرب لابن عذارى ـ قسم الموحدين ـ : 446). وظهر الاحتفال بعد هذا عند بني الأحمر في غرناطة وبني مرين في فاس وبني عبد الواد في تلمسان واستمر في المغرب إلى يومنا هذا وقد قيلت بهذه المناسبة قصائد مولديات عديدة.



قال المؤلف رضي الله عنه :

وأضافوا التحفّى عنها بالسؤال، والمحافظة عليها والإقبال، من بدع وشنع ابتدعوها، وسنن واضحة أضاعوها، بموائد نصبوها لأبنائهم وصنعوها، وتخيروا فيها أصناف الفواكه وأنواع الطرف وجمعوها، وتهادوا فيها بالتحف التي انتخبوها، والمدائن التي صوروا فيها الصور واخترعوها، ونصب ذوو اليسار نصبات[1] في الديار كما نصب أهل الحوانيت فنضدوها، فقوم أباحوا أكلها لعيالهم وقوم منعوها، وجلوها كالعروس لا تغلق دونها الأبواب وفي منصتها رفعوها، وبعضهم أكل من أطرافها ثم باعوها.

ولقد ذكر لنا غير واحد من المسافرين أن النَّصْبة ببعض بلاد الأندلس - جبرها الله وأمنها - يبلغ ثمنها سبعين دينارا أو يزيد على السبعين لما فيها من قناطير السُّكر وأرباع الفانيد وأنواع الفواكه ومن غراير التمر وأعدال الزبيب والتين[2] على اختلاف أنواعها وأصنافها وألوانها وضروب ذوات القشور من الجوز واللوز والجلّوز والقسطل والصنوبر والبلوط إلى قصب السّكر ورائع الاترنج والنارنج والليم[3].

وفي بعض البلاد طاجن من مالح الحيتان ينفقون فيه ثلاثين درهما إلى نحوها، وقد شاهدت في بعض الأعوام سد الحوانيت ممن لا يبيع ما يحتاجون إليه كسوق القيسرية والعطارين وغيرهما من الأسواق، وفي

1- جمع نصبة وهي ضرب من الصحون توضع عليها الفواكه، (راجع دوزي).

2- غراير : جمع غرارة وهي التي تحمل فيها الحبوب ونحوها، ومثلها أعدال جمع عِدل، (راجع دوزي).

3- انظر وصف ابن قزمان لنصبات ينيّر في الزجل رقم 73 وأوله :

الحِلْون يعجِن ... والغِزْلان تباعْ

يفرح للينير ... من ماعه قِطاعْ

وفيه ذكر اللوز والقسطل والتمر والجوز والبلوط والتين والزبيب والجوز واللوز والترنج والليم.

ذلك لضعفائهم من الدلالين وغيرهم قطع المعايش وتعذر الأرزاق، ويطلقون الصبيان من المكاتب[1]، ويشربون بذلك قلوبهم حب البدع الرواتب، فهذه أفعالنا فهل منا من تائب، لائم لنفسه معاتب. وكان هذا في ينّير ثم صنعوا نحواً منه في العنصرة وفي الميلاد، فكيف لا ينشأ عن هذه الفتنة إلا مصر عليها ومائل إليها من الأولاد، إذ يلقون إليهم أنه من عمل مثل هذا العمل لم يخل عامه ذلك من رغد العيش وسعة الرزق وبلوغ الأمل، وربما جعلوا جمّارة تحت أسرّتهم تفاؤلا وأمارة ليكونوا في عامهم ذلك أكسى من الجمّارة[2] فهل سمعتم يا أولي الألباب، بأعجب من هذا العجاب. طاعة ذوي النهى والأحلام من الرجال، إلى الولدان وربات الحجال، وأرى أنه ما جرّ على أهل الأندلس هذا الإجوار النصارى دمرهم الله من جيران ومخالطتهم لتجّارهم، ومكاشفتهم عند الكينونة في إسارهم، ولذلك حُذِّرنا من تراءى النيران قال النبي صلى الله عليه وسلم أنا بريئ من كل مسلم مع مشرك لا تراءى ناراهما - وما سرى من ذلك إلى هذه العدوة[3] إلا بالاتباع لهم والقدوة، وما عبر من ذلك البر إلى هذا البر بدعة أشنع منها ولا أضر».

وقد تابع العزفي في انتقاده المذكور بلدية ومعاصره أبو إسحاق التلسماني الذي نظم بعد ظهور كتاب الدر المنظم قصيدة تقع في 185 بيتا منها.

1- أي يعطلون الدراسة ويغلقون المتاجر.

2- هذا مثل يوجد عند ابن عاصم رقم 10. والجمار هو قلب الدوم والنخل.

3- يعني المغرب.



دَعِ الأَعَاجم تذهب في مواسمها ... مذاهب اخترعتها شرَّ مخترع

إن الذي يحتذي في ذاك حذوهم ... مشارك لهم في الحادث الشنع

إن يقصدوا قصد ميلاد المسيح فقد ... غلوا به وأتوا في الكفر بالشنع

لنحن أولى به لكن خلافهم ... رقع لخرق متى أتركه يتسع

الناس يأتون فيه كل منكرة ... ويعكفون على الأصنام في البيع

فما لنا ولهم نقفو مواسمهم ... وبيننا مدنيات السيف والنطع

لا تهدين ولا تقبل هدية من ... يهدي إليك وذر تخصيصها ودع

ومنها :

حذار من محدثات الأمر والبدع ... حذار منها وسبل الرشد فاتبع

واسلك من الملة المثلى على سنن ... واربأ بطبعك أن بالطبع

ما للهداة وأعياد العداة أما ... يريغ عن رعيها روع امرئ ورع

وإن أفضل ميلاد نعظمه ... شرعا وأفضل يوم في الزمان رع ي

ميلاد من قد هدينا للرشاد به ... ومن به نرتجي أمنا لدى الجزع

ميلاد أكرم خلق الله كلهم ... طرا وأعظم مولود ومرتضع

ميلاد من وجبت سبقا نبوءته ... وآدم طينة في قبضة الصنع

محمد صلوات الله دائمة ... عليه في كل مصطاف ومرتبع

على هامش أمثال في المحتسب



مداعبة ابن الخطيب لمحتسب

وردت أمثال في الحسبة أشرنا إلى بعضها في هذه الدراسة ورأينا أن نعزز ذلك بإثبات رسالة إخوانية طريفة يهنئ بها كاتبها ابن الخطيب صديقا له هو أبو عبد الله محمد بن قاسم المعروف بالشديد بتوليه وظيفة الحسبة بمالقة قال ابن الخطيب :

«وولى الحسبة بمالقة حرسها الله تعالى، فخاطبته في ذلك أداعبه، وأشير إلى قوم من أضداده، وأولي الحمل عليه بما نصه :

يا أيها المُحتسِبُ الجزْلُ ... ومَن لديهِ الجِدُّ والهَزْلُ

تَهْنيكَ والشكرُ لمولَى الورَى ... ولايةٌ ليْس لهَا عزْلُ

كتبت أيها المحتسب، المنتمي إلى النزاهة المنتسب، أهنيك ببلوغ تمنيك، واحذرك من طمع نفس بالغرور تمنيك. فكأني وقد طافت بركابك الساعة[1]، ولزم لأمرك السمع والطاعة، وارتفعت في مصانعتك الطماعة[2]، وأخذت أهل الريب بغتة كما تقوم الساعة، ونهضت تقعد وتقيم، وسكونك الريح العقيم، وبين يديك القسطاس المستقيم[3]، ولابد من شرك ينصب، وجماعة على ذي جاه تتعصب، وحالة كبت بها الجناب الأخصب[4]، فإن غضضت طرفك، أبنت عن الولاية صرفك، وإن ملأت ظرفك، رحلت عنها حرفك، وإن كففت فيها كفك، حفك العز فيمن حفك[5] فكن لقالي المجبنة[6]

1ـ الساعة : جمع ساع، والمراد بهم هنا الذين يعملون مع المحتسب.

2ـ الطماعة : الطامعون، والريب جمع ريبة وأهل الريب هم المشكوك في أمانتهم.

3ـ يشير إلى الميزان الذي يكون مع المحتسب في تجواله.

4ـ يشير إلى ما يتعرض إليه صاحب المنصب من مؤمرات وطلاب امتيازات.

5ـ يشير إلى ما يتعرض له المحتسب من امتحان في النزاهة أو عدمها، والظرف : الإناء والحرف : الناقة.

6ـ المجبنة : تسمى في المغرب بالاسفنج وهي عبارة عن عجين من الدقيق والجبن يقلى ولم تكن المدن الأندلسية والمغربية تخلو من محلات المجبنات أو الاسفنج وقد قيل في ذلك بعض الأشعار، وقاليا أي كارها.



قاليا، ولحوت السلة ساليا، وابد لدقيق الحوارى زهد حواري[1]، وازهد فيما بأيدي الناس من العوارى، وسر في اجتناب الحلواء على السبيل السواء[2]، وارفض في الشواء دواعي الأهواء، وكن على الهراس[3]، وصاحب ثريد الراس[4]، شديد المراس، وثب على بايع طبيخ الأعراس[5]، ليثا مرهوب الافتراس، وأدب أطفال السوق [بالضرب] في السوق، سيما من كان قبل البلوغ والبسوق[6]، وصمم في استخراج الحقوق، والناس أصناف، فمنهم خسيس يطمع منك في أكلة، ومستعد عليك بوكزة أو ركلة، وحاسد في مطية تركب وعطية تسكب، فاخفض للحاسد جناحك، وسدد إلى حربه رماحك، وأشبع الخسيس منهم مرقة دسمة فإنه حنق، ودس له فيها عظما لعله يختنق، واحفر لشريرهم حفرة عميقة، فإنه العدو حقيقة، حتى إذا حصل، وعلمت أن وقت الانتصار قد وصل، فأوقع، وأوجع، ولا ترجع، والحق أقوى، وإن تعفو أقرب للتقوى. سدد الله إلى غرض التوفيق، وأغلقنا من الحق بالسبب الوثيق، وجعل قدومك مقرونا برخص اللحم والزيت والدقيق[7]، بمنه وفضله».

1- يوصيه بأن لا يقبل هدية من باعة المجبنات والسمك وباعة الدقيق الخالص الأبيض، والحواري واحد من الحواريين وهم يكونون زهادا.

2- السبيل السواء: الطريق المستقيم، وهو هنا يوصيه بعدم قبول أي شيء من باعة الحلواء والشواء.

3- الهراس: هو الذي يعد الهريسة وهي لون من لحم مخلوط مع قمح مدروس يعقد بشيئ من دقيق ويجعل فيه بعد إعداده شحم مذاب، وفي كتب الطبيخ الأندلسية ألوان من الهرائس.

4- ثريد الرأس: يفهم من الاسم أنه ثريد يعمل بلحم الرأس، وفي الكتب المذكورة ألوان من الثرائد، ويبدو أن الهرائس والثرائد كان يدخلها الغش وهذا يدعو إلى مراقبتها ومعاقبة من يثبت عليه شيء من ذلك.

5- طبيخ الأعراس: يبدو أنه طبيخ جاهز يشترى من الأسواق ليقدم في الأعراس أو الذي يفضل منها.

6- البسوق: العلو، وفي هذا إشارة إلى وجود الأطفال وتشغيلهم في الأسواق.

7- هذه هي المواد الغذائية الأساسية.



مجونية ابن الأزرق
في الأطعمة
الأندلسية المغربية



في الشعر العربي ولاسيما العباسي منه قصائد مجونية نجد عددا منها في ديوان ابن حجاج وابن سكرة ويتيمة الدهر ومن أشهر هذه القصائد دالية الأحنف العكبري وساسانية أبي دلف الخزرجي ونونية الواساني ومنها في الشعر الأندلسي نونية الفقيه عمر الزجال المالقي وهذه القصيدة التي ننشرها مع هذه الملاحق لما اشتملت عليه من أسماء الأطعمة الأندلسية والمغربية. أما قائل القصيدة ابن الأزرق فهو أندلسي من أهل القرن التاسع يقول إن الدهر جار عليه فأخرجه من وطنه وهو يشتاق إلى العودة إليه ويتشوق إلى أطعمة بلده وسأقتصر في هذا الملحق على هذا القسم من القصيدة ويمكن الرجوع إلى ما كتبناه عن هذا الشاعر ابن الأزرق في كتابنا : البسطي آخر شعراء الأندلس 123 ـ 128 : أما القصيدة فقد ذكرها المقري في نفح الطيب وقدم لها بقوله : «ومن مجون الأندلسيين هذه القصيدة المنسوبة لسيدي أبي عبد الله ابن الأزرق وهي :

عم باتصال الزمن	ولا تبالي بمن

ومنها نقتطف ما يلي :

واحسرتي وأسفي	زلت وضاعت فطتي
لو أنصف الدهر لما	أخرجني من وطني
وليس لي من جنة	وليس لي من سكن
أسرح الطرق وما	لي دمنة في الدمن
وليس لي من فرس	وليس لي من سكن
ياليث شعري وعسى	ياليت أن تنفعني
هل أمتطي يوما إلي الـ	شرق ظهور السفن
وأجتلي ما شئته	في المنزل المؤتمن
حينئذ أخلع في	هذي القوافي رسني

وتحسن الفكرة بالـ	عدوس والسمنسني[1]
واللحم مع شحم ومع	طوابق الكبش الثني[2]
والبيض في المقلاة بالـ	زيت اللذيذ الدهن[3]
وجلدة الفروج مشـ	ويا كثير السمن[4]
من منقذي أفديه من	ذا الجوع والتمسكن
وعلة قد استوى	فيها الفقير والغني
هل للثريد عودة	إليَّ قدْ شوقني[5]
تغوص فيه أنملي	غوص الأكول المحسن
ولي إلى الإسفنج شو	ق دائم يطربني[6]
وللأرز الفضل إذ	تطبخه باللبن[7]
وللشواء والرقا	ق من هيام أنثني
واسكت عن الجبن فإن	بنته تذهلني[8]
ظاهرها كالورد أو	باطنها كالسوسن
أي أمرئ أبصرها	يوماً ولم يفتتن
تهيم فيها فكر الأسـ	تاذ والمؤذن
لو كان عندي معدن	لبعت فيها معدنِي
لكنني عزمت أن	أبيع كمَّ البدنِ

1ـ سمنسني أو سمنتني : نوع من الطعام، دوزي 1 : 687 والعدوس : جمع عدس.

2ـ الكبش الثني : المقصود به الكبش السمين وقد تكررت عبارة الكبش الثني السمين في فضالة الخوان.

3ـ أنظر ضروب الألوان التي تعمل من البيض في فضالة الخوان.

4ـ ذكر ابن رزين في فضالة الخوان ألوانا عديدة تعمل من الدجاج.

5ـ الثريد : طعام معروق عند العرب، وقد عرفه أحدهم بقوله :

إذا ما الخبز تأدمه بلحم   فذاك أمانة الله الثريد.

وفي كتاب الطبيخ وفضالة الخوان ألوان عديدة من الثرائد التي عرفت في الأندلس والمغرب.

6ـ آلاسفنج لون يعمل من عجين الدقيق الطيب ويقلى في الزيت ويؤكل في الصباح ساخنا، ولم تكن تخلو منه مائدة في الفطور، وكان في كل جهة وفي كل سوق سفاج وأنظر فيه فضالة الخوان : 80 ـ 82.

7ـ أنظر صفة هذا اللون في كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس : 170.

8ـ بنت الجبن : المجبنة وهي الإسفنج وقد أشتهرت في الأندلس مثلما اشتهر الاسفنج في المغرب، وفي كتاب الطبيخ وفضالة الخوان كلام كثير عن عمل المجبنات وأنواعها.

والكم قد أكسبه	بعدُ ولايكْسبني
لا تنسبوا لي سفها	فالجوع قد أرشدني[1]
وهات ذكر الكسكسو	فهو شريف وسني[2]
لا سيما إن كان مصْـ	ـنُوعاً بفَتْل حسن
أرفع منهُ كُوراً	بهنَّ تَدْوي أذني
وإن ذكرت غيرٍ ذا	أطعمةٌ في الوطن
فأبدأ من المِثوِما	ت بالجبن الممكن
من فوقها الفرُوج قد	أنهي في التسمن[3]
وثن بالعصيدة الـ	ـتي بها تطرِيني[4]
لاسيما إن صُنعتْ	على يدي ممركن
كذلك البلياط بالـ	ـزيت الذي يقنعني[5]
تطبخه حتى يرى	يحمر في التلَون
والزبزين في الصحا	فِ حسب أهل البطنِ[6]
فاسمع قضاء ناصحٍ	يأتي بنصح بين
من اقتنى التفين فهـ	ـو الآن نعم المقتني
وإنَّ في شاشية الـ	ـفقير أنساً للغني[7]
تبعدني عن وصلها	عن وصلها تبعدني
تؤنسني عن اللقا	عن اللقا تؤنسني

1ـ عبر الشاعر في هذه الأبيات عن شغفه بالمجبنات ولشعراء الأندلس أشعار في مدحها ووصفها.
2ـ الكسكسو هو أشهر طعام شعبي في عموم بلاد المغرب.
3ـ أنظر صفة هذا اللون في فضالة الخوان : 166.
4ـ اسم العصيدة معروف بالمغرب وهي تكون من قمح مهروس أو غيره وبعد طبخه وإفراغه في إناء يوضع في وسطه زبد.
5ـ البلياط POLEDAS : كلمة عجمية يسمى لها لون من الطعام يشبه العصيدة.
6ـ الزبزين : عرفه ابن رزين في فضالة الخوان بأنه «حسو يعرفه الأندلسيون» بالزبزين وأهل العدوة «بالبركوكش» وما يزال معروفا في تونس وليبيا باسم البزين. وأنظر دوزي 1 : 579.
7ـ شاشية الفقير : لعلها هي التي سميت شاشية الوضيع في كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس وسميت شاشية الرقيع في فضالة الخوان. وصفتها فيهما واحدة.



فاضلعي إن ذُكرتْ	تهفو كمثل الغصن
كم رُمْتُ تقريبا لها	لكنه لم يهن
وصدُني عن ذاكَ قـ	ـلة الوفا بالثمن
إيه خليلي هذه	مطاعم لكنَّني
أعجبُ من ريقك إذْ	يسيلُ فوقَ الذقَن
هلْ نلتَ منها شبعاً	فذكرها أشبعني
وإن تكنْ جوعانَ يا	صَاحِ فكلْ بالأذن
فليسٍ عند شاعر	غيرُ كلام الألسن
يصورِ الأشياء وهـ	ـي أبداً لم تكن
فقولُه يريك ما	ليس يُرى بالممكن
فاسمح وسامحْ واقتنع	واطوِ حَشاك واسكن
ولنَنْصرِف فقصدنا	إطرافُ هذا الموطن

نفح الطيب 3 : 300 ـ 303.

من لا يتغاضى
لا يسلم له صاحب



أوردنا في ص 159، وما يليها أبياتا لابن مسعود القرطبي تشتمل على أمثال أو إشارات إليها ومنها قوله :

فعلتُ في آخر عمري كما

تفعل شاة السّوء بالحالبين

أصبت في نسكي وزهدي الذي

أصابه منذرٌ في البيرون[1]

والشاعر يشير إلى حكاية وجدناها في كتاب نفح الطيب ولم يمكن إدراجها في الحاشية هناك لطولها فرأينا أن نجعلها مع هذه الملاحق. ومنذر في البيت المذكور هو الأمير الأموي المنذر ابن محمد الذي حكم الأندلس من سنة 273 هـ إلى سنة 275 هـ وفيه قيل :

بالمنذر بن محمد صلحت بلاد الأندلس

والبيرون : لعله المذكور في النص التالي بأنه «الموضع الفلاني الذي بالجبل الفلاني المنقطع عن العمران» ولم أجد لهذا المكان ذكرا في المعاجم التي وقفت عليها، وفيما يلي نص الحكاية :

«وكان المنذر ابن الأمير عبد الرحمن الأوسط سيئ الخلق في أول أمره، كثير الإصغاء إلى أقوال الوشاة، مفرط القلق مما يقال في جانبه، معاقباً على ذلك لمَنْ يقدر على معاقبته، مكثر التشكي ممّن لا يقدر عليه لوالده الأمير عبد الرحمن، فطال ذلك الأمير، فقال لوكيل خاص به عارف بالقيام بما يكلّفه به : الموضع الفلاني الذي بالجبل الفلاني المنقطع عن

1ـ لعله الذي اسمه "البيرون" في شعر ابن مسعود القرطبي.



العمران تبني فيه الآن بناء أسكنُ فيه ابني المنذر، وأوصاه بالاجتهاد فيه، ففرغ منه، وعاد إليه فقال له : تُعلمُ المنذر أنني أمرته بالانفراد فيه، ولا تترك أحداً من أصحابه ولا أصحاب غيره يزوره، ولا يتكلّم معه البتة، فإذا ضجر من ذلك وسألك عنه فقل له : هكذا أمر أبوك، فتولى الثقة ذلك على ما أمر به، ولما حصل المنذر في ذلك المكان وبقي وحده، وفقد خَوله ومن كان يستريح إليه، ونظر إلى ماسُلبه من الملك ضجر، فقال للثقة : عسى أن يصلني غلماني وأصحابي أتأنَّسُ بهم، فقال له الثقة : إن الأمير أمر أن لا يصلك أحد، وأن تبقى وحدك لتستريح مما يرفع لك أصحابك من وشاية، فعلم أن الأمير قصد محنته بذلك وتأديبه، فاستدعى دواة وكتب إلى أبيه : إني توحشت في هذا الموضع توحشا ما عليه من مزيد، وعدمت فيه من كنت آنس إليه، وأصبحت مسلوب العز فقيد الأمر والنهي، فإن كان عقابا لذنب كبير ارتكبته وعلمه مولاي ولم أعلمه فإني صابر على تأديبه، ضارع إليه في عفوه وصفحه :

وإن أمير المؤمنين وفعله   لكالدهر، لا عار بما فعل الدهر[1]

فلما وقف الأمير على رقعته، وعلم أن الأدب بلغ به حقه، استدعاه فقال له : وصلت رقعتك تشكو ما أصابك من توحش الانفراد في ذلك الموضع، وترغب أن تأنس بخَوَلك وعبيدك وأصحابك، وإن كان لك ذنب يترتب عليه أن تطول سكناك في ذلك المكان، وما فعلت ذلك عقابا لك، وإنَّما رأيناك تكثر الضجر والتشكي من القال القيل، فأردنا راحتك بأن نحجب عنك سماع كلام منْ يرفع لك وينِم، حتى تستريح منهم، فقال هل سماعُ ما كنت أضجر منه أخف علي من التوحد والتوحش والتخلي ممّا أنا فيه من

1ـ البيت للأخطل في عبد الملك ابن مروان.

الرفاهية والأمر والنهي فقال له : فإذ قد عرفت وتأدبت فارجع إلى ما اعتدته. وعوّل علي أن تسمع كأنك لم تسمع، وترى كأنك لو تر، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «لوتكاشفتم ما تدافنتم»، واعلم أنك أقرب الناس إليَّ وأحبهم فيَّ، وبعد هذا فما يخلو صدرك في وقت من الأوقات عن إنكار عليَّ، وسخط لما أفعله في جانبك أو جانب غيرك، مالو أطلعني الله تعالى عليه لساغني، لكن الحمد لله الذي حفظ ما بين القلوب بستَر بعضها عن بعض فيما يجول فيها، وإنك لذو همة ومطمح، ومن يكن هكذا يصبر ويغض ويحمل، ويبدل العقاب بالثواب، ويصير الأعداء من قبيل الأصحاب، ويصبر من الشخص على ما يسوء، فقد يرى منه بعد ذلك ما يسر، ولقد يخف عليَّ اليوم منْ قاست من فعله وقوله، ولو قطعتهم عضوا عضواً لما ارتكبوه مني ما شفيتُ فيهم غيظي، ولكن رأيت الإغضاء والاحتمال لاسيما عند الاقتدار، أولى، ونظرت إلى جميع من حولي ممن يحسن ويسيء فوجدت القلوب متقاربة بعضها من بعض، ونظرت إلى المسيء يعود محسنا، والمحسن يعود ميسئا، وصرت أندم على من سبق له مني عقاب، ولا أندم على من سبق له مني ثواب، فالزم يابني معالي الأمور، وإن جماعها في التغاضي، ومن لا يتغاضى لا يسلم له صاحب، ولا يقرب منه جانب، ولا ينال ما تترقى إليه همته، ولا يظفر بأمله، ولا يجد معينا حين يحتاج إليه، فقبل المنذر يده وانصرف، ولم ينزل يأخذ نفسه بما أوصاه والده حتى تخلق بالخلق الجميل، وبلغ ما أوصاه به أبوه ورفع قدره».

نفح الطيب 3 : 574-577.

العلاقات بين
الأندلسيين والمغاربة



نجد في عدد من الأدبيات الأندلسية والمغربية إشارات إلى سوء العلاقة بين الأندلسيين والمغاربة، وتنعت هذه العلاقة في الأدبيات المذكورة بنعوت الكراهية والنفرة والعداوة والبغضاء والحسد، فمن ذلك قول الأديب المؤرخ الحجاري: «وأهل العدوة بالطبع يكرهون أهل الأندلس»[1] وقد كانت هذه العبارة ضمن خبر نقله المقري من كتاب المسهب يتعلق بجارية مغنية أهداها يوسف بن تاشفين إلى المعتمد بن عباد غنته أبياتا وقع في قلبه أنها عرضت بسادتها الملثمين فغضب ورمى بها في النهر فهلكت[2]. وقد أشار الأمير عبد الله الزيري في كتاب التبيان مرارا إلى بغض أهل الأندلس للبربر[3]، ويستخدم ابن الخطيب كلمة النفرة وتكررت عنده عبارة «النفرة الطبيعية بين الأندلسيين والمغاربة»[4].

وحسب أدبيات رواها ابن خلكان والمقري وغيرهما فإن تخوف أهل الأندلس من أهل العدوة قديم، وكان موجودا قبل دخول الإسلام إلى شبه الجزيرة، فقد نقل المقري عن بعض المؤرخين أن أهل الأندلس قديما «كان أهم الأمور عندهم تحصينها عمن يتصل به خبرها من الأمم فنظروا فإذا هو أنه لا يحسدهم على رغيد العيش إلا أرباب الشظف والشقاء والتعب... ولما كان البربر بالقرب منهم وليس بينهم سوى تعدية البحر ويرد عليهم منهم طوائف منحرفة الطباع، خارجة عن الأوضاع ازدادوا منهم نفورا، وأكثر تحذرهم من نسب أو مجاورة، حتى ثبت ذلك في طبائعهم، وصار بعضه مركبا في غرائزهم، فلما علم البربر عداوة أهل الأندلس وبغضهم لهم أبغضوهم وحسدوهم فلم تجد أندلسيا إلا

1. نفح الطيب 4 : 276. وقد تقدم ذكر هذا النص وغيره مما يرد في هذا الفصل وفي ذلك زيادة توضيح وتوكيد.
2. نفسه.
3. كتاب التبيان للأمير عبد الله بن بلقين : 24.
4. أعمال الأعلام : 227.



مبغضا بربريا وبالعكس إلا أن البربر أحوج إلى أهل الأندلس لوجود بعض الأشياء عندهم وفقدها ببلاد البربر»[1] وقد جاء في هذا الخبر الطويل أن ملكا حكيما من ملوك القوط نجح في اتخاذ طلسم بمدينة قادس حصن به جزيرة الأندلس من البربر وكان عبارة عن تمثال من نحاس أحمر يقف فوق بناء مربع على صورة رجل بربري له لحية وفي رأسه ذؤابة من شعر جعد وهو متأبط بصورة كساء قد جمع طرفيه على يده اليسرى بألطف تصوير وأحكمه وفي رجله نعل وقد مد يده اليمنى تجاه المغرب بمفتاح قفل قابض عليه مشير إلى البحر كأنه يقول : «لا عبور، وكان من تأثير هذا الطلسم في البحر الذي تجاهه أنه لم يُرقطُ ساكنا ولا كانت تجري فيه قط سفينة بربر حتى سقط المفتاح من يده»[2].

وقد ورد هذا الخبر بروايات مطولة في مصادر متعددة، وثمة خبر آخر ورد في الروض المعطار ونخبة الدهر ونفح الطيب ملخصه أن أهل المغرب الأقصى كانوا يضرون بأهل الأندلس لاتصال الأرض بينهم فشكوا حالهم إلى الإسكندر الذي اجتاز بهم فأحضر الفعلة والمهندسين وقصد مكان الزقاق وكان أرضا جافة فقاموا بأعمال تصفها الرواية بتفصيل كان من أثرها إغراق هذه الأرض الجافة واختفاؤها في قاع البحر[3]، وتوجد رواية غير هذه ذكرها ابن سعيد ومؤلف الاستبصار والحميري والمقري وغيرهم وتزعم هذه الرواية أنه كانت توجد قنطرة بناها الإسكندر كانت تمر عليها القوافل من ساحل طنجة إلى ساحل الأندلس في عرض واسع وعلو كبير وأنها غرقت وتضيف هذه الرواية

---

1. وفيات الأعيان 5 : 324 ونفح الطيب 1 : 246.
2. وفيات الأعيان 6 : 326 ونفح الطيب 1 : 246.
3. أنظر الروض المعطار (مادة قادس) وتحفة الألباب 90 ومعجم البلدان (مادة قادس).

أنها ربما بدت لأهل المراكب تحت الماء ويقال أنها ستنكشف في آخر الزمان ويجوز عليها الناس والله أعلم»[1] ومهما يكن الطابع الأسطوري لهذه الروايات فإن بها ما يشير إلى هذا التوجس الموجود بين الضفتين منذ القدم.

وقد شاء الله أن يكون فتح الأندلس على يد القائد المغربي طارق بن زياد وأن تصبح شبه الجزيرة الإيبيرية أرضا إسلامية وأن يتمثل فيها مجتمع يتألف من الإسبان الذين أسلموا والذين لم يسلموا ومن الفاتحين والداخلين من العرب والبربر وغيرهم، وقد ظهر في هذا المجتمع المتعدد الأعراق ما يظهر عادة في مثيله من حساسيات فظهر بعد الفتح صراع بين العرب والبربر ظاهر أحيانا وخفي أحيانا ولا سيما في عهد الولاة[2] وتطور في العصور التالية إلى كراهية بين عموم الأندلسيين والعنصر البربري ومن الغريب أن نظرة الاستعلاء على البربر أو التحقير لهم وجدت حتى لدى الأمويين الذين كان للبربر فضل كبير في قيام دولتهم، وصحيح أن بعض الأسر البربرية الأصل أدرك أعلامها بفضل جدهم واجتهادهم مراتب دينية ودنيوية في عهد الإمارة الأموية كبني يحيى الليثي وبني وانسوس وبني الزجالي وغيرهم لكننا نجد بعض الأخبار التي تدل على حساسية ما تجاههم.

فمن ذلك ما وقع لسليمان بن وانسوس مع الأمير عبد الله بن محمد الأموي، فقد كان هذا الرئيس وزيرا أثيرا عند الأمير المذكور وكان موصوفا بالأدب والعلم والعقل وعزة النفس ويروي المؤرخ الحميدي أنه دخل على الأمير يوما وكان عظيم اللحية، فلما رآه مقبلا جعل ينشد :

---

1. الروض المعطار : 509 (مادة البلاية) ومادة (الزقاق).
2. خصص المؤرخ حسين مؤنس فصلا كاملا لهذا الصراع في كتابه : فجر الأندلس : 140 ـ 207.



معلوفة كأنها جوالق نكداء لا بارك فيها الخالق

للقمل في حافاتها نقانق فيها لباغي المتكا مرافق

وفي احتدام الصيف ظل رائق إن الذي يحملها لمائق

ثم قال له : اجلس يا بريبري فجلس وقد غضب فقال : أيها الأمير إنما كان الناس يرغبون في هذه المنزلة ليدفعوا عن أنفسهم الضيم، أما إذا صارت جالبة للذل فلنا دور تسعنا وتغنينا عنكم، فإن حلتم بيننا وبينها فلنا قبور تسعفنا لا تقدرون على أن تحولوا بيننا وبينها ثم وضع يده في الأرض وقام من غير أن يسلم ونهض إلى منزله، فغضب الأمير وأمر بعزله ورفع دسته الذي كان يجلس عليه، وبقي كذلك مدة ثم إن الأمير عبد الله وجد فقده لغنائه وأمالته ونصيحته وفضل رأيه فقال للوزراء :«لقد وجدت لفقد سليمان تأثيره وإن أردت استرجاعه ابتداء منا كان ذلك غضاضة علينا ولوددت أن يبتدينا بالرغبة، فقال له الوزير محمد بن الوليد بن غانم : إن أذنت لي في المسير استنهضته إلى هذا فإذن له فنهض ابن غانم إلى دار ابن وانسوس ... فأبطأ الإذن عليه حينا ثم أذن له فدخل عليه فوجده قاعدا فلم يتزحزح له ولا قام إليه فقال له ابن غانم : ما هذا الكبر، عهدي بك وأنت وزير السلطان وفي أبهة رضاه تلقاني على قدم وتتزحزح لي عن صدر مجلسك وأنت الآن في موجدته بضدك ذلك فقال له : «نعم لأني كنت حينئذ عبدا مثلك وأنا اليوم حر، فيئس ابن غانم منه ورجع إلى الأمير فأخبره وابتدأ الأمير بالإرسال إليه ورده إلى أفضل ما كان عليه»[1].

---

1. جذوة المقتبس : 210 وبغية المقتبس : 287.

وهذا الأمير الذي خصه المؤرخ ابن حيان بسفر مطبوع من تاريخه المقتبس[1] كان يقول الشعر ويحب التندّر ولعله أراد أن يتندر بلحية وزيره ولكن هذا كان ذا أنفة وجد فلم يقبل النادرة وغضب لما فيها من سخرية وتصغير، وآل وانسوس كانوا من قبيلة مكناسة الذين دخلوا الأندلس زمن الفتح وعرفوا بالفضل والصلاح في قرطبة، وقد ذكر المؤرخ الرازي أسماء ست نسوة من بين بني وانسوس أدّين فريضة الحج في القرن الثالث الهجري، منهن أم الحسن بنت أبي لواء سليمان الوزير المذكور وقد حجت مرتين وتوفيت بمكة وكانت محدثة فقيهة سمع منها بقي بن مخلد شيخ المحدثين في الأندلس وقد ترجم لها ابن الآبار وابن عبد الملك[2].

ومن الأخبار التي تشعر بوجود هذه الحساسية في عهد الإمارة الأموية أيضا ما رواه المقري في نفح الطيب من أن محمد بن سعيد الزجالي كاتب الأمير عبد الرحمن بن الحكم كان وعبد الواحد بن يزيد الاسكندراني في مجلس فيه رؤساء فعرض عليهم فرس مطهم فتمثل فيه عبد الواحد بقول امرئ القيس :

على كل منصوص الذنابي معاود بريد السرى بالليل من خيل بربرا

ففهم الزجالي أنه عرض بأنه من البربر، فلم يحتمل ذلك وأراد الجواب فقال مدبجا لما أراده ومعرضا : أحسنُ عندي من ليل يُسري بي فيه على مثل هذا يوم على الحال التي قال فيها القائل :

ويوم كظل الرمح قصر طوله دم الزق عنا واصطفاق المزاهر

---

1. هو السفر الذي نشره الراهب ملتشور أنتونيه.
2. التكملة رقم 263 والذيل والتكملة 8 : 481.

عرض للأسكندراني بأنه كان يشهد مجالس الشراب واللهو ويتعلم الغناء في أول أمره فقلق الوزير وشكاه إلى الحاجب عيسى بن شهيد فسأل الزجالي فحكى له ما جرى وأنشد :

وما الحر إلا من يدين بمثل ما يدان ومن يخفي القبيح وينصف
هم شرعوا التعريض قذفا فعندما تبعناهمُ لاموا عليه وعنفوا[1]

ثم إن ما وصل إليه الأندلسيون من حضارة وعمران وسلطان في عهد الخلافة الأموية كان من بواعث تبجح أهل الأندلس على أهل العدوة وزاد شعورهم بالاستعلاء حينما أتيح لهم بسط نفوذهم على المغرب في عهد الناصر والمستنصر والمنصور ونجد ما يدل على ذلك في بعض القصائد التي مدح بها الحكم المستنصر لما ورد عليه خبر استيلاء قائده على قلعة حجر النسر آخر معقل للأدارسة وفي الفصل الذي خصصه المؤرخ الأندلسي ابن حيان لهذا الحدث ينعت الحسن بن كنون صاحب القلع وآخر الأدارسة بالمنتزي والملحد والفاسق وغيرها من النعوت القبيحة ويوجد مثل هذا وأشنع منه في قصائد الشعراء وهي وسائل الاعلام في ذلك الزمان، فمنها قصيدة لمحمد بن شخيص أنشدها أمام الحكم المستنصر أنحى فيها على الحسن بن كنون وآله وأفحش في هجائهم ومما جاء فيها :

أشابة تدعي في هاشم نسبا وما يصح لها في معشر نسب
عمي البصائر لم يسلس معاطفها إلى مساعي التقى دين ولا حسب
وزادها في عماها أن أولها القى العصا حيث لا علم ولا أدب

1ـ نفح الطيب 3 : 540.



نشت مع الوحش في دهماء ليس لها   في غير حسو الحسا رأي ولا أرب

ولو غدت من قريش في ذوائبها   لأوجبت نفيها الأحداث والريب

ويقول في الحسن بن كنون أيضا من قصيدة أخرى :

كيف يرجى بأن يوفي قريشا   حقها وهو من قريش نفيّ

قدمته الطغامُ أن قال جدي   حسني وليته حسنيّ

وقد تلاه في الأنشاد أمام الحكم أيضا عدد من الشعراء لم يكونوا أقل منه إسفافا وإفحاشا[1]. إن هذا الذي كان بين الأمويين المروانيين والأدارسة الحسنيين ما هو إلا فصل من فصول الصراع بين العدوتين، ومن ذيول هذا الفصل ما ذكره المؤرخ ابن حيان في المقتبس أيضا تحت العنوان الطويل التالي : «ذكر اجتباء الخليفة الحكم لفرسان البرابرة العدويين عقب اجتوائهم إياهم راكبا سبيل سلفه بني مروان في اجتنابهم واستحداثه هو الرغبة فيهم إثر رغبته عنهم وإعجابه بهم بعد ازوراره عنهم وما جر ذلك من الاستكثار منهم وإحسانه إليهم، فكان ذلك من بعده سببا لتقدمهم طوائف الجند الأندلسي وهدمهم للملك العادي وإلقاحهم للفتنة البربرية قضاء من المهيمن لم تكن له من دونه كاشفة»[2] وقد بين المؤرخ في هذا الفصل سياسة عبد الرحمن الناصر مع المغرب، فقد طمح إلى ملك فرضة بلد العدوة سبتة المرهوبة من تقحَّم أهلها ومن وراءهم من البرابرة عليه فحازها دون من كان قبله من آبائه استظهارا عليه وإليه»[3] ومن المعروف أن المغرب في هذه الحقبة كان مجالا لصراع

1ـ انظر ذلك كله في المقتبس (ط. ع الحجي) من صفحة 158 إلى 168.

2ـ المصدر نفسه 188 وقد نشر هذا الفصل وترجمه إلى الإسبانية زميلنا الراحل إمليو غرسية غومث في كتابه : gndalucia contra berbaria.

3ـ المصدر نفسه وقوله تقحم أهلها أو اقتحامهم وإقدامهم على امتلاك الأندلس.



بين العبيديين والأمويين[1]، وكان بعض زعماء المغرب كابن أبي العافية وغيره يميلون إلى عبد الرحمن الناصر ويكاتبونه[2]، ولكنه كان كما يقول ابن حيان «منطويا على الحذر من بوادرهم معتقدا قلاهم والازورار عنهم، مطيبا لهم بالإهداء والرفد غير مستدع لهم إلى العبور عليه، مقتنعا برجال أندلسه وصنائع سلفه غانيا بهم عمن سواهم لا يستخدم من البربر إلا أراذلهم من أشابتهم وأساودهم موقعا عليهم اسم الطنجيين مقتصرا بهم على أدنى الملاحق قاصرا لهم على أقل الرواتب مصرفا لهم في أشد الخدمة[3] ويزيد ابن حيان قائلا : إن الحكم المستنصر سار في أول أمره على سياسة والده فكان يمنع غلمانه وأجناده من التشبه بالبرابرة والاستعمال لشيء من زيهم في ملابسهم ومراكبهم حتى أنه وقعت عينيه في موكب له على غلام له راكب على فرس بسرج عدوى فأنكره إنكارا شديدا وأمر بعقاب العبد وإحراق السرج ثم إنه عدل عن هذه السياسة بعد أن امتحن بحرب الأدارسة المعتمدين على البربر أخوالهم وأنصارهم فلاقى من صدق مراس رجالهم وشدة بأسهم على قلة عددهم ما فلوا به عباب سيله[4]. ولم يتغلب عليهم إلا بعد أن أفرغ كثيرا من الأموال والأسلحة والأطعمة والعدد كما أنه اضطر إلى إسكانهم الأندلس صافحا عنهم وملحقا لهم بجنده، وقد بلغ عدد فرسانهم سبعمائة فارس، جميعهم من البربر لم يلبثوا أن حازوا الرياسة على عسكر الأندلس وحظوا بإعجاب الحكم الذي كان - وهو مريض - يتفرج على لعبهم بخيولهم ويقول لمن حوله : «انظروا إلى انطباع هؤلاء القوم على خيولهم فكأنما هم الذين عناهم الشاعر بقوله :

1ـ انظر على سبيل المثال الاستقصا ج 1 : 183 ـ 219.

2ـ المقتبس ج 5 من ص 256 فما بعدها. وقد أعاد نشرها زميلنا الأستاذ عبد الوهاب بنمنصور في العدد الأول من دورية الوثائق من ص 62 إلى ص 195.

3ـ المقتبس (ط. ع. الحجي).

4ـ نفسه.



فكأنها ولدت قياما تحتهم وكأنهم ولدوا على صهواتها[1]

ويضيف قائلا : «ما أعجب انقيادها لهم كأنها تفهم كلامهم، فيعجب سامعوه من سرعة تحول رأيه فيهم»[2] وقد ختم ابن حيان هذا الفصل بالإشارة إلى أن المنصور بن أبي عامر استظهر بهؤلاء على شأنه حين استولى على الملك، فعلاهم على طبقات أجناده واصطفاهم لنفسه فخاض بهم الدياجير في حياته»[3] وكان منهم بعد ذلك ما كان من إبطال الخلافة وتفريق الجماعة وإثارة الفتنة.

يستنتج من هذا أن الأندلس كانت مضطرة - لأسباب يطول شرحها هنا - إلى استعمال العنصر المغربي في جيشها، وقد بدا ذلك بقلة في عهد عبد الرحمن الناصر وتكاثر في آخر عهد ولده الحكم ثم بلغ الأوج زمن الحجابة العامرية، وبذلك حل فرسان العودة محل الملح في الطعام بيأسهم الشديد، وقاموا مقام الفولاذ في الحديد، لا يقاتل الأعداء إلا بهم، ولا تعمر الأرض إلا في جوارهم»[4].

وكان من مظاهر ذلك القرارُ الذي اتخذه آخر العامريين باستبدال لباس القلانس شعار الجند الأندلسي بلباس العمائم شعار المغاربة وهو أمر استغربه الأندلسيون واستنكروه[5]، وقد أدى هذا وغيره إلى نشوب تلك الفتنة التي اختلف المؤرخون القدماء في تسميتها حسب اتجاهاتهم فذوو

---

1. نفسه والبيت للمتنبي.
2. نفسه من ص 158 إلى 168.
3. نفسه ومعنى «فخاض بهم الدياجير» أنه اعتمد عليهم في غزواته التي تدعى بالصوَائف.
4. نفسه.
5. البيان المعرب 3 : 50 وما بعدها.



الدول الأندلسية أطلقوا عليها اسم الفتنة البربرية وأصحاب النزعة المغربية رأوا الأولى بها أن تسمى فتنة ابن عبد الجبار، وهو الأموي الذي ثار على آخر العامريين وتبعته العامة من الحرفيين في قرطبة وأمر أن ينادى في الناس : من أتى برأس بربري فله كذا فتسارع أهل قرطبة في قتل من قدروا عليه وارتكبت فظائع كثيرة وخرج معظم الأعيان من قرطبة وتفرقوا في جهات الأندلس[1]. وقد تمكن عدد من البربر من الانسحاب من قرطبة فنظموا صفوفهم وعادوا إلى الصراع مع الأندلسيين هذا الصراع الذي دام ثلاثين سنة تقريبا من سنة 399هـ إلى 428هـ بلغت فيه الحساسيات والعصبيات ذروتها وزاد حنق الأندلسيين على أهل العدوة، ونجد في كتاب البيان المغرب للمؤرخ ابن عذارى أمثلة عديدة لما وصل إليه ذلك الحنق الأخرق والحقد الأعمى[2]، ونجد ذلك أيضا فيما وصل إلينا من نبذ شعرية تعكس أصداء العداء والبغضاء للبربر، ومن أغربها ما نسب إلى سليمان الملقب بالمستعين بالله الذي قام أمره بسيوفهم[3] ومع ذلك يقول في أبيات له :

فواعجبا من عبشمي مملك   برغم العوالي والمعالي تبربرا
فلو أن أمري بالخيار نبذتهم   وحاكمتهم للسيف حكما محررا[4]

ومثله عبد الرحمن بن محمد الملقب بالمرتضى الذي يقول :

---

1. انظر أخبار هذه الفتنة في البيان المغرب لابن عذارى.
2. المصدر نفسه.
3. يقول شاعر أندلسي فيه وفي جنده من البربر :

لا رحم الله سليمانكم   فإنه ضد سليمان
ذاك به غلت شياطينها   وحل هذا كل شيطان
فباسمه ساحت على أرضنا   لهلك سكان وأوطان

4. انظر الأبيات بتمامها في نفح الطيب 1 : 429 ـ 430 وفيه أنه قالها مستريحا بها إلى خواصه فكانت من أعظم الأسباب في فساد دولته.



قد بلغ البربر فينا بنا ... ما أفسد الأحوال والنُّظْما
كالسهم للطائر لولا الذي ... فيه من الريش لما أصمى
قوموا بنا في شأنهم قومة ... تزيل عنا العار والغما
إما بها نملك أو لا نرى ... ما يرجع الطرف به أعمى[1]

ونجد مثل هذا لدى شعراء عصر الطوائف كالسميسر والمعتمد وابن عمار وابن حِصْن وذلك في شعرهم الذي قالوه أثناء الصراع بين ملوك الطوائف وخصوصا بين عباد المعتضد وبين بني زيري أصحاب غرناطة وبني يفرن حكام رندة وبني دمر أصحاب قرمونه وبني يرنيان أصحاب شذونة ولم ينقطع غمز الشعراء والكتاب ولمزهم حتى بعد أن أصبحت الأندلس تابعة للمغرب في عصر المرابطين، ومن ذلك فيما نحسب شعر اليكي في فاس وأهلها وأهاجي الأبيض في الزبير رمز السلطة المرابطية في الأندلس ورسالة ابن أبي الخصال في توبيخ جند المرابطين وشعر الأعمى التطيلي وابن بقي شكوى ضيغة الأدب في عهد المرابطين فمن ذلك قصيدة ابن عمار التي يهنئ فيها المعتضد العبادي بانتصاره على العز بن اسحاق البرزالي صاحب قرمونة وباديس بن حبوس صاحب غرناطة، ومما جاء فيها :

لك الله أن كانت عداتك بعضها ... لبعض فكل منهم جميعا إلى فرد
يهودا وكانت بربرا فانتض الظبا ... وانبئهم منها بالسنة لدّ
أقول وقد نادى ابن إسحاق قومه ... لأرضك يرتاد المنية من بُعد
لقد سلكت نهج السبيل إلى الردى ... ظباء دنت من غابة الأسد الورد

1ـ المصدر نفسه.

كأني ببادیس وقد حط رحله إلى الفرس الطاوي عن الفرس النهد
إلى الفرس الجاري به طلق الردى سريعا غنيا عن لجام وعن لبد
يحن إلى غرناطة فوق متنه كما حن مقصوص الجناح إلى الورد
ظفرت بهم فارتح واومض كؤوسها بروقا لها من عودها ضجة الرعد[1]

وله من قصيدة أخرى في تهنئة المعتضد أيضا :

شقيت بسيفك أمة لم تعتقد إلا اليهود وإن تسمت بربرا
أثمرت رمحك من رؤوس كما تهم لما رأيت الغصن يعشق مثمرا
وصبغت درعك من دماء ملوكهم لما علمت الحسن يلبس احمرا

ونجد مثل روح التشفي هذه عند ابن حصن أحد شعراء المعتضد إذ يقول :

به دمر الرحمن دمر وانطوى بنو يفرن أعدى الأعادي وأمرق
ومن آل يرنيان أنكث آمة لعهد وميثاق وأغوى وأفسق
ثلاثة رهط بدد الله شملهم أثافي كانوا للفساد ففرقوا[2]

ولم ينقطع هجاء الشعراء والكتاب لأهل المغرب وتعريضهم بهم حتى بعد أن أصبحت الأندلس في عصر المرابطين ومن ذلك ما قاله الشاعر اليكي في هجاء أهل فاس[3] وما قاله الشاعر الأبيض في هجاء الزبير الملثم أمير قرطبة ورمز السلطة المرابطية في الأندلس[4]، وقد بالغ الشاعر

1ـ قلايد العيان : 88 طبعة 1284هـ.
2ـ نفسه.
3ـ الذخيرة ق2 ج1 بنو يفون من زناتة استولوا بعد الفتنة على إقليم تاكرنا وعاصمته رندة ودمر فرع من بني يفرن وآل يرنيان كانوا في أركس وشدونة.
4ـ أورها التجيبي في كتابه زاد المسافر، انظرها في كتابنا عن التجيبي 333-334.



اليكي في هجاء الملثمين وكان يقتصر على البيتين ليحفظ شعره ويسير ذكره في الناس، فمن ذلك قوله :

في كل من ربط اللثام دناءة ولو أنه يعلو على كيوان
المنتمون لحمير لا كِنّهم وضعوا القرون مواضع التيجان[1]

وقوله :

رأيت آدم في نومي فقلت له أبا البرية إن الناس قد حكموا
أن الزراجين رهط منك قال إذن حواء طالقة إن كان مازعموا[2]

وقد ظهر بغض أهل الأندلس للمرابطين في رسالة معروفة لأبي مروان ابن أبي الخصال كان الأندلسيون يحفظونها[3].

أما في عهد الموحدين فقد ظهرت أدبيات شعرية ونثرية لها صلة بالحساسية بين البلدين الجارين، ومنها رسائل في المفاخرة بين المغرب والأندلس أو في المفاخرة بين بلد مغربي وبلد أندلسي أو في انتقاد العوائد في بعض المدن الأندلسية، ومن هذه الرسائل التي ذكرها المؤرخون رسالة المفاخرة بين الأندلس وبلاد العدوة لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد السلمي المرسي[4] وهو من كتاب الموحدين وهذه الرسالة مفقودة ولذلك فإننا لا نستطيع أن نعرف كيف أقام المفاخرة بين البلدين وهل كان منصفا أم متحيزا، أما أشهر هذا النوع من المفاخرات فهي التي نشأت عن نزاع بين الأديب الأندلسي أبي الوليد

---

1. المغرب 1 : 255.
2. زاد المسافر (طبعتنا) 333.
3. نفح الطيب 3 : 540.
4. زاد المسافر (طبعتنا) 332 - 333.



الشقندي والأديب المغربي أبي يحيى ابن المعلم الطنجي في التفضيل بين البرين وذلك في مجلس أمير سبتة الموحدي، فقد قال الشقندي : «لولا الأندلس لم يذكر بر العدوة ولا سارت عنه فضيلة، ولولا التوقير للمجلس لقلت ما تعلم، فقال الأمير : تريد أن تقول : أهل الأندلس عرب وأهل بر العدوة بربر، فقال حاش الله، فقال الأمير : والله ما أردت غير هذا فظهر في وجهه أنه أراد ذلك فقال ابن المعلم : تقول هذا وما الملك والفضل إلا من بر العدوة فقال الأمير : الرأي عندي أن يعمل كل واحد منكما رسالة في تفضيل بلده»[1] ومما يلفت النظر في هذه المفاخرة أنها كانت بانتداب من أحد أمراء الموحدين المستنيرين وأن الطرف المفاخر بالأندلس فيها كان قاضيا في خدمة الموحدين، مما يشعر بإنصاف هؤلاء في رعايتهم للعُدْوتين. كما أن القاضي الأندلسي كان ذكيا في استغلال المس بيوسف بن تاشفين انتصارا لبلده وانتقاصا لها من جهة، وتزلفا للموحدين الذين كان يرضيهم ذلك من جهة ثانية، ولكي يضمن الإغضاء عن عصبيته الأندلسية من قبل أهل الدولة التي كان يعيش في ظلها لم يجد بدا من تضمين مفاخراته بعض كلمات المجاملة والمداراة في جانب الدولة الحاكمة «فلولا هذه الدولة لما كان لكم على الناس صولة»[2].

وحسب رسالة الشقندي فإن المفاخرة كانت بالملوك والعلماء والأدباء والشعراء والشمائل ومحاسن المدن، ويبدو أن الشقندي كان البادئ بتدوين رسالته ولا شك في أن أديبنا الطنجي الذي لا نعرف شيئا عنه وعن رسالته اجتهد في استنباط مفاخر العدوة في الموضوعات المذكورة، وأنه وجد لا محالة ما يدافع به في كل ذلك ولم يصدق عليه هذا

---

1. المعجب : 240.
2. ترجمة في صلة الصلة لابن الزبير.



المثل الذي ضربه الشقندي : «ما تصنع الكيسة في البيت الفارغ»[1].
ولسنا ندري لماذا حفظت رسالة الشقندي وضاعت رسالة الطنجي، وقد نفترض أن هذه الأخيرة كانت مما استمد منه صاحب «مفاخر البربر» الذي عاش في العصر المريني على ما يبدو وفي هذه الرسالة يفتخر مؤلفها المجهول بطائفة من أعلام الأندلس ذوي الأصول المغربية كيحيى بن يحيى ومنذر بن سعيد وابن دراج وغيرهم[2] والواقع أن الفخر بالأعلام في نطاق المفاضلة بين العدوتين أصبح منذ امتزاجهما في عهد المرابطين ومن بعدهم مثار نزاع في معاجم الأعلام : فالشقندي مثلا يعد القاضي أبا حفص الأغماتي من حسنات الأندلس[3] وابن الأبار وابن الزبير يدعوهما التعصب إلى نظم عدد من آعلام العدوة المغربية في سلك الأندلسيين «ضنانة بعلمهم على العدوة»[4]، وقد انتقد ابن عبد الملك المراكشي هذا التعصب بشدة في مناسبات عديدة ودعاه ذلك التعصب الأندلسي إلى أن يقابله بحمية مغربية واضحة تبدت في دفاعه عن أدب الأندلسيين[5]، كما تجلت في نشدانه التفوق على الأندلسيين : ابن الأبار وابن الزبير، ومن مظاهر اعتزازه بمغربيته أنه اكتفى من زيارته للأندلس بوضع قدمه في الجزيرة الخضراء قائلا : «حصل لنا الغرض من مشاهدة بعض البلاد الأندلسية والكون بها والحمد لله على ذلك[6] ومن رأى الأستاذ غرسية غومث أن رسالة الشقندي كانت من نتائج فقدان الأندلس لاستقلالها ونظر المغاربة إليها بعين الازدراء ومحاولتهم التقليل من شأنها ولكننا إذا نظرنا إلى المسألة بعين الإنصاف نجد أن الشعور

1. نفح الطيب 4 : 181.
2. نفسه.
3. نفسه.
4. مفاخر البربر (ط، الرباط).
5. رسالة الشقندي في نفح الطيب 4 : 196.
6. التكملة.



الإقليمي كان عند الأندلسيين أقوى منه لدى المغاربة فهم كانوا يتجنون غالبا على أهل العدوة، ويتيهون عليهم بحضارتهم وعلمهم وأدبهم ويكشفون عن كرههم للمغاربة المقيمين بين ظهرانيهم حتى بعد توحيد البلدين في عهد المرابطين والموحدين، ونجد مظاهر من ضيقهم وتبرمهم بالجماعات المغربية المرابطة في الأندلس في رسائل البلوي[1]، أما في الأوقات العصيبة فقد كان سوء المعاملة ينسحب حتى على الأندلسيين ذوي الأصل المغربي، ومن أمثلة ذلك قول ابن سعيد في ترجمة أبي عمران بن سالم القلعي : «أخرج أهل القلعة ـ قلعة خولان ـ بيته بأسره لما ثاروا على المصامدة لأن نسبهم في هسكورة»[2] ويذكر في القدح أنه : «لما كانت فتنة ابن هود المشهورة أخرج عن بلده، وفرق بينه وبين ماله وولده»[3] وقد كان شيء من هذا يحدث أحيانا في العدوة للمغاربة ذوي الأصل الأندلسي كما نستشف ذلك من قول ابن حبوس الفاسي متشفيا في ابن عطية بعد نكبته :

أندلسي ليس من البربر   يختلس الملك من البربر[4]

بيد أن المغرب كان على العموم أرحب صدرا من الأندلس، فقد كان يستقبل جاليات الأندلس بسماحة وحفاوة ـ من جالية الربض حتى جالية المورسكيين ـ وقد يوجد ما يشي بشيء من الازورار عن الأندلسيين المهاجرين أحيانا ومرده في الغالب إلى تعاليهم على أهل البلد، وعدم حفظهم لتقاليده، وقلة رعايتهم لمآثره، ونكتفي من الأمثلة في هذا الباب على ما يقول ابن عميرة على لسان أهل سلا في مخاطبة جالية شرق

1ـ الذيل والتكملة 8 : 452.

2ـ انظر مقدمة تحقيقنا للسفر الثامن من الذيل والتكملة.

3ـ كتاب الشعر الأندلسي : 66 ترجمة د. حسين مؤنس.

4ـ رسائل البلوي ـ مخطوط الخزانة الحسنية.

الأندلس التي أقطعها الرشيد الموحدي مدينة الرباط : «وأنتم معشر الأندلسيين دافّة دفّت، ومادة جفت، وفقع عن أهله بان، ونبت في غير أرضه هان، وما نحسبكم إلا خشاشا لا يجد مغارا، وخفاشا أطير نهارا، فالمهاجر إلينا يجد الأوس والخزرج، ويركب الملجم المسرج، هذا أن أرضى الحسب وأهله وستر بعلمنا جهله، فأما إن عدا طوره وجفا زوره، وتهاون بخلافنا، ولم يحفظ مآثر أسلافنا، ففرخه قبل النهوض مصيد، وزرعه من قبل أن يهيج حصيد[1].

ومن مظاهر سماحة المغرب أنه كان دوما يغص بالكتاب والقضاة والوزراء وغيرهم من الأطر «الأندلسية»، حتى لكأن القاعدة كانت تقديم الأندلسيين على المغاربة في الخطط والوظائف[2] بينما قامت حملة قلمية اشترك فيها ثلاثة من أعلام كتاب الأندلس ضد كاتب فاسي اتخذه سلطان غرناطة كاتبا له[3] ويستغرب ابن سعيد استخدام ابن الأحمر الأول لأحد «حفاظ الموحدين» وهو محمد ابن خطاب الهنتاتي فيقول : «وكان من النادر أن اصطفاه رئيس الأندلس في عصرنا أبو عبد الله بن الأحمر فصيره كالعلم، وقلده مهماته ما بين خطتي السيف والقلم»[4].

وفي العصر المريني نجد ثلاثة نصوص في موضوع المراشقات القلمية بين الأندلسيين والمغاربة أولها «طرفة الظريف في أهل الجزيرة وطرف»، وثانيها «مفاخر البربر» وهو مسرد تاريخي محض وثالثها رسالة «المفاخرة بين مالقة وسلا» لابن الخطيب[5]. وقد أقام ابن الخطيب

---

1. المغرب 1 : 310.
2. اختصار القدح المعلي : 201.
3. زاد المسافر : 3 ـ 4.
4. كتابنا أبو المطرف 131ـ 132.
5. جاء في نفح الطيب نقلا عن ابن غالب أنه : «لا يستعمل بلدي ما وجد أندلسي».



مفاخرته بين البلدين على ثمانية أشياء هي : المنعة والصنعة والبقعة والشنعة والمساكن والحضارة والعمارة والإثارة (الفلاحة) والنضارة. ويقول حسين مؤنس أننا لا ندري شيئا عن السبب الذي حفز ابن الخطيب على إنشاء هذه المقامة فهو يقول في مستهلها إن واحدا من أصحابه يسأله أن يقوم بهذه المفاضلة فاستجاب لما طلب إليه"[1] ولكن الفقيه ابن علي السلوي الدكالي، الذي رد عليه بأرجوزة مطولة يوضح سبب إنشاء هذه المفاضلة فيما يلي :

والباعث الأقوى لذلك القول ... أن جاء معزولا بحال هول

فأنف الأعيان من خلطته ... وانتبذ الوزير في شَلّته

فلم يزر أحدهم مثواه ... ولا انتحى مفْردهم مغناه

فساءه الحال ورام هضما ... لأهلها فبثّ قولا أعمى[2]

ولعل ما يؤكد هذا أن ابن الخطيب كان ينال باستمرار من سلا وأهلها في شعره ونثره[3]، ونحسب أن مالقة وسلا في مفاضلة ابن الخطيب ليستا سوى رمزين للأندلس والعدوة، ويقول د. حسين مؤنس إنها كانت تعلة لما رمى إليه من تفضيل الأندلس على المغرب»[4] ويبدو أن هذه المفاخرة ظلت بدون رد إلى أن جاء المؤرخ ابن علي السلوي الدكالي فنهض للرد عليها بأرجوزة سماها : إتحاف أشرف الملا، ببعض أخبار الرباط وسلا، وهو يقول في أولها :

---

1. الذيل والتكملة 5 : 327. 350.
2. اختصار القدح المعلى : 22.
3. نشرت عدة مرات آخرها كان بتحقيق د. العبادي ضمن كتابه مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب.
4. تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس : 575 ـ 576.



إن الوزير ابن الخطيب قد كتب   بما يسوء أرضنا وما أصاب

أودع في «ريحانه الكتاب»   مقالة تخل بالأداب

فاضل بينها وبين مالقه   من الجزيرة فأبدى حمقه

وحكم ابن علي على مفاضلة ابن الخطيب بأنها مخلة بالآداب يصل إليه كلّ مؤرخ منصف فهذا الأستاذ حسين مؤنس الذي لم يقف على رد ابن الخطيب يصفها بأنها «حملة تخلو من الذوق على سلا، وهي مدينة طالما أوت ابن الخطيب وأحسنت إليه ولكن هكذا كان شأن الكثيرين من الأندلسيين مع المغرب ـ وغير المغرب ـ من البلاد»[1].

وأما النص الثالث وهو «طرفة الظريف في أهل الجزيرة وطريف» للشاعر عبد العزير الملزوزي فإنه عبارة عن مقالة في ذم المدينتين المذكورتين وأهلهما وذم الأندلسيين عامة، وقد حققناها ونشرناها مع دراسة حولها قديما ونقلها زميلنا الراحل أميليو غرسية غومث إلى اللغة الإسبانية، وهي من ملاحق هذا الجزء، وقد كتبت هذه المقامة في جو سياسي متوتر بين بني مرين وبني نصر كان له انعكاس على الحياة الأدبية فظهرت مراجعات ومجاوبات شعرية بين شعراء العدوتين[2] وكان منهم الملزوزي الذي كتب مقامته لما كان في ركاب أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق عند جوازه إلى الأندلس وخلال مقامه بالجزيرة الخضراء التي كانت هي وجهاتها تابعة يومئذ لبني مرين وقد وصف الملزوزي حال أهل الجزيرة وطريف وانتقد عوائدهم وسخر من لهجتهم، كما أنه ينعي على الأندلسيين تشبههم بالنصارى في لباسهم وكلامهم وسائر عوائدهم،

---

1. إتحاف أشرف الملا : 188 مخطوط الخزانة العامة بالرباط وقد طبع أخيرا.
2. نفح الطيب 8 : 386.



ويشنع عليهم في لباسهم «الغشكون» والزنار، وأكلهم الخنزير وشربهم العقار، وينعتهم بالجبْن ودناءة النفس وضعف الهمة، ويتحسر على تخليهم عن الخلال العربية والإسلامية ومهما يكن في بعض الانتقادات من مبالغة أحيانا فإنها تلتقي مع ملحوظات المؤرخين المعاصرين من أمثال ابن خلدون وابن الخطيب فحين عقد الأول في مقدمته فصله المعروف في أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه وسائر أحواله وعوائده، انتزع دليله على هذا الحكم مما شاهده وذكر أنهم «يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم»[1].

وهذا التشبه الذي يمثل عقدة نقص لدى فئات من الجماعة الأندلسية هو ما انتقدته قصائد الملزوزي وابن المرحل المشار إليها سابقا وهو أيضا ما ألحت «طرفة الظريف» في أكثر من موضع على التشهير به وتعرية ذلك التناقض بين تبجح بعض الأندلسيين بالأنساب العربية وتخليهم عن سنن العرب حتى لم يبق لهم من العروبة إلا الأسماء،

وقد اعتبر ابن خلدون أن هذه الحال داعية إلى التشاؤم وذكر أن الناظر إليها بعين الحكمة يستشعر أنها «من علامات الاستيلاء»[2].

ومن شواهد هذا المعنى في المقامة المذكورة ما يلي :

رأيتك للروم ذا خلة   وأنت على نهجهم تنهج
تزي بزي النصارى الكلاب   فأنت بزيهم تبهج

---

1. تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس : 576.
2. المصدر نفسه والكلام بين هلالين من «ومما يلفت النظر» إلى الاستيلاء مأخوذ من دراستنا «من منافرات العدوتين» المنشورة في صدر العدد الافتتاحي لمجلة كلية الآداب بالرباط يناير 1977.



لقد بعث منهمْ نضار النضار   بشيء يقال له البهرج

تركت الجدود وما أثلوا   فلا الدين باق ولا الملهج

إذا كنت لا تتقي ربنا   فما لك من شدة مخرج

وإني لأدري بطول المدى   بأنك عن ديننا تخرج

وذكر ابن الخطيب أن زي الجندي الأندلسي في مملكة غرناطة كان زي أضدادهم من جيرانهم الفرنجة. وبعد أن وصفه عاد فقال :«ثم عدلوا الآن عن هذا الذي ذكرنا[1] ويفهم مما ذكره أن الزي الذي عدلوا إليه يشبه أن يكون زي جند العدوى يومئذ، فهل يكون ذلك من أثر الانتقادات التي ذكرنا طرفا منها؟

إن أول نقطة تطالعنا في هذه المقامة هو نعت أهل الأندلس بالبخل وأكلهم وحدهم فرادى لا جماعة على مائدة واحدة كما يقتضي ذلك أدب المناسبات العامة ومع أن مؤلف النص يصف سلوك أفراد ضمه وإياهم مركب إلا أنه اتخذ منهم نموذجا أو عينة وعمم في حكمه فقال :

هذا دليل على أن ليس عندكم   يا أهل أندلس فضل ولا حسب

وقد نستشف هنا لهجة استعداء، وهذا ما يقتضيه أسلوب رسائل المناظرات ومهما يكن من أمر فإن ابن سعيد الذي وصف المجتمع الأندلسي من خلال تاريخه وواقعه كما خبره، قرر أن الأندلسيين "أهل احتياط وتدبير في المعاش وحفظ لما في أيديهم خوف ذل السؤال فلذلك قد ينسبون للبخل[2]، كما أن الأمثال الأندلسية تعكس شيئا من هذا أما

1ـ العبر لابن خلدون 7 : 409 ـ 456 ط. بيروت.

2ـ مقدمة ابن خلدون.



النقطة الثانية فهي ولع الأندلسيين بالتفاخر بالأنساب العربية ويتضح ذلك في هذه الفقرة التي يدير فيها المؤلف الحديث على لسان عشرة شخوص يمثلون فئات مختلفة من المجتمع الأندلسي فيهم المحارب والتاجر والصانع والعامل. ونراهم جميعا يحرصون - في زهو وفخر - على الانتماء إلى القبائل العربية المشهورة بمآتيها ومناقبها وهنا أيضا نجد النص متمشيا مع ما دأب عليه المفاخرون بعروبة الأندلس كابن سعيد وابن غريب والشقندي، ولا سيما في مقام المناظرة بين العدوتين ولكن صاحب النص ينزع إلى إبراز ما في هذا الانتماء من مفارقات بين أولئك القدماء «الذين جازوا مع طارق، وافتتحوا الأندلس وقتلوا البطارق وبين هؤلاء المتأخرين المتشبهين بالروم المتخلين عما أثل الأجداد»[1].

تلكم بعض الأدبيات التي تشير إلى ما كان بين الأندلسيين والمغاربة وقد نجد مثلها أو ما يشبهها بين أي بلدين متجاورين هنا وهناك.

1ـ نفسه.

المنافرات
بين العدوتين (*)

* سبق نشر هذا اللّحق في صدر العدد الأول من مجلة كلية الآداب بالرباط.



طرفة الظريف، في أهل الجزيرة وطريف

المقدمة



كان بين الأندلس والمغرب ما يكون أحيانا بين بلدين متجاورين من صراع متعدد الأشكال متنوع المظاهر، وهو صراع طبع تاريخ البلدين بطوابع يلمسها دارس هذا التاريخ في مختلف الميادين السياسية والثقافية والاجتماعية، وقد كان هذا الصراع سجالا بين العدوتين أشبه ما يكون بناموس المد والجزر على الشطآن.

وليس في نيتي هنا أن أعرض لشيء من تاريخ هذا الصراع في هذه المقدمة التي لا أريد بها سوى الإلمام ببعض ما كان لذلك الصراع من آثار في الصلات بين الأندلسيين والمغاربة وما كان يثور بينهم من مفاخرات دوِّن بعضها، وأهمل بعضها الآخر، ولم يصل إلينا مما دوِّن منها إلا القليل.

لقد كان من نتائج الصراع بين العدوتين أن أصبحت العلاقة بين الأندلسيين والمغاربة تنعت في بعض المناسبات بنعوت شتى، فالحجاري مؤلف المسهب يصفها بالكراهية ويقرر ذلك قائلا : «وأهل العدوة بالطبع يكرهون أهل الأندلس»[1] ومثله في هذا الأمير عبد الله الزيري[2]، وابن الخطيب يستخدم في هذا المقام كلمة «النفرة» وتكرر عنده استعمال عبارة «النفرة الطبيعية بين الأندلسيين والمغاربة» وما يشبهها[3]، وأطلق عليها مؤرخ آخر ألفاظ «العداوة» و«البغضاء» و«الحسد» وذلك في نص طويل نقتبس منه ما يلي : «فلما علم البربر عداوة أهل الأندلس وبغضهم لهم أبغضوهم وحسدوهم. فلم نجد أندلسيا

1. نفح الطيب، 6 : 12.
2. التبيان، 24.
3. أعمال الأعلام، 227.



إلا مبغضا بربريا وبالعكس»[1] وذهب المؤرخ المذكور إلى أن سبب ذلك ما بين الشعبين من فوارق عرقية واجتماعية وحضارية[2].

ويمكن أن نقرر منذ البداية أن الأندلسيين كانوا على العموم هم البادئين بالتجني على أهل العدوة الذين كان لهم الحظ الأوفر في فتح الأندلس والإسهام في بناء حضارتها أولا ثم الذوذ عن حماها والمحافظة على بقاء الإسلام فيها ثانيا.

لقد كان ما وصل إليه الأندلسيون من حضارة وعمران في عهد الأمويين من بواعث تبجحهم على أهل العدوة ثم زاد شعورهم بالاستعلاء، حينما أتيح لهم بسط نفوذهم على المغرب في عهد عبد الرحمان الناصر ومن جاء بعده.

أما تحاملهم على المغاربة أو ذوي الأصول المغربية في الأندلس فنجد بواكيره في بعض ما قاله الشاعر يحيى الغزال[3]، كما نلمس أماراته في قصة الزجالي والأسكندراني[4]، وقصة ابن وانسوس مع الأمير عبد الله الأموي[5]، ومعاملة «الطنجيين» الذين كانوا في جيش الناصر[6]، ولعلنا نراه بشكل أكثر وضوحا في تلك القصائد التي أنشدها شعراء الحكم المستنصر بمناسبة تغلبه على بقية الأدارسة بالمغرب[7]، ومما قاله أحد

---

1. نفح الطيب، 228.
2. المصدر نفسه، وعبارة ذلك المؤرخ كما نقلها المقري : «ولما كان البربر بالقرب منهم، وليس سوى تعدية البحر، ويرد عليهم (أي على الأندلسيين) منهم (أي من البربر) طوائف منحرفة الطباع خارجة عن الأوضاع ازدادوا منهم نفورا وأكثر تحذرهم من نسب أو مجاورة ...».
3. المصدر نفسه، 3 : 23.
4. نفح الطيب، 5 : 82.
5. جذوة المقتبس، 210.
6. المقتبس، 78، 190 تحقيق عبد الرحمن حجي.
7. المصدر نفسه، من ص 156 إلى ص 168.



هؤلاء الشعراء وهو ابن شخيص - وقد أسرف وأفحش في قصيدته بشهادة المؤرخ الأندلسي ابن حيان -:

وزادها في عماها أن أولها ألقى العصا حيث لا علم ولا أدب

نشت مع الوحش في دهماء ليس لها في غير حسو الحسى رأى ولا أرب[1]

هكذا ذهب هذا الشاعر المتعصب إلى أن المغرب بلد قفر خلو من العلم والأدب ليس فيه إلا الغوغاء والدَّهْماء والعامة العمياء.

وبلغ من ازورار الأندلسيين يومئذ عن كل ما هو من العدوة أن الحكم المستنصر وقعت عينه «على غلام راكب على فرس بسرج عدوى الصنعة" فأنكر ذلك إنكارا شديدا وأمر بمعاقبة الغلام وإحراق السرج بدار الجند قدامهم[2]. فهل يرمز هذا إلى شعور الأندلسيين بالتفوق حتى في ميدان الفروسية وما يتعلق بها؟ نحسب أن ذلك التصرف كان من قبيل الاحتراس من تسرب عدوى عوائد الفروسية المغربية إلى الأندلس والحفاظ على تقليد كان عبد الرحمان الناصر يعض عليه بالنواجذ إذ كان «مقتنعا برجال أندلسه، وصنائع سلفه، غانيا بهم عمن سواهم» وتمسك بهذا التقليد خلفه الحكم في أول عهده حيث إنه «شَدَّ يداً باستعماله، وربط قلبا على إبرامه، وأصبح أبين اعتقادا فيه، وأشد ذيادا لغلمانه وأحشامه وأجناده من التشبه بالبرابرة والتشكل بشكلهم والاستعمال لشيء من زيهم في ملابسهم ومراكبهم»[3] ولكن الأندلس كانت مضطرة - لأسباب يطول شرحها هنا - إلى الاعتماد على المغاربة

---

1. المصدر نفسه، 160.
2. المصدر نفسه، ص 190 - 191.
3. المصدر نفسه، ص 190.



في جيشها، وقد بدأ ذلك بقلة في عهد الناصر وتكاثر في آخر عهد الحكم ثم بلغ الأوج زمن الحجابة العامرية، وبذلك حل فرسان العدوة «محل الملح في الطعام ببأسهم الشديد، وقاموا مقام الفولاذ في الحديد، لا يقاتل الأعداء إلا بهم ولا تعمر الأرض إلا في جوارهم[1] وتجلى هذا الانقلاب في قرار آخر العامريين باستبدال القلانس رمز «الأندلسية» بالعمائم شعار «المغربية»، وطال استغراب الأندلسيين لهذا الانقلاب، وكثر استنكارهم له[2]، وأدى ذلك وغيره إلى نشوب تلك الفتنة التي يختلف المؤرخون في تسميتها حسب اتجاهاتهم فذوو الميول الأندلسية أطلقوا عليها «الفتنة البربرية»، وأصحاب النزعة المغربية رأوا الأولى بها أن تسمى «فتنة ابن عبد الجبار»[3] والحق أن أهل قرطبة هم الذين أوقدوا نارها فاحترقوا بلهيبها. ويعنينا من أمرها هنا أنها أججت حنق الأندلسيين على أهل العدوة[3م]، وبدا ذلك مرة أخرى فيما وصل إلينا من نبذ شعرية، ومن أغربها ما ينسب إلى المستعين بالله الذي قام أمره بسيوف كماة العدوة[4]. كما يبدو في غمزات عديدة لابن حيان المؤرخ، ثم يبدو فيما قاله بعض شعراء عصر الطوائف ومنهم السميسر[5] وابن دراج[6] والمعتمد ابن عباد[7] وابن عمار[8] وابن حصن الإشبيلي[9] فإذا

1ـ الذخيرة، ص 10، مخطوط بغداد.

2ـ البيان المغرب، 3 : 48.

3ـ المصدر نفسه، 3 : 76.

3م ـ في المصدر نفسه أمثلة عديدة لما وصل إليه ذلك الحنق الأخرق والحقد الأعمى راجع ص 75 وما بعدها.

4ـ نفح الطيب، 405 ـ 406.

5ـ الذخيرة، 2/1 : 372 والتبيان ... : 207، وأخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السلفى : 83 ـ 84 تحقيق د. إحسان عباس.

6ـ ديوان ابن دراج، 4 ـ 6، 91 ـ 92.

7ـ قلائد العقيان، 19.

8ـ قلائد العقيان، 88، 89 ـ 97.

9ـ الذخيرة (ترجمة ابن حصن في القسم المخطوط).

وصلنا إلى عصر المرابطين حين أصبحت الأندلس تابعة للعدوة وجدنا رد الفعل ضد العدوة وأهلها يتخذ لدى بعض الشعراء والكتاب صورا مختلفة نحسب أن منها شعر اليكي في فاس وأهلها[1]، وأهاجي الأبيض في الزبير، رمز «السلطة المرابطية في الأندلس[2]، ورسالة ابن أبي الخصال في توبيخ جند المرابطين[3]، وشكوى ضياع الآداب في عهدهم للأعمى التطيلي[4] وابن بقى[5].

ويبدو أن المفاخرات ـ بمعناها الدقيق ـ بين الأندلسيين والمغاربة لم تبدأ إلا في عصر الموحدين، وأول المفاخرات أو المفاضلات المدونة التي وصلت إلينا تلك التي جرت بين أبي الوليد الشقندي وبين أبي يحيى بن المعلم الطنجي. ومما يلفت النظر في هذه المفاخرة أنها كانت بانتداب من أحد أمراء الموحدين المستنيرين وأن الطرف المفاخر بالأندلس فيها كان قاضيا في خدمة الموحدين. مما يشعر بإنصاف هؤلاء في رعايتهم للعدوتين. كما أن القاضي الأندلسي كان ذكيا في استغلال المس بيوسف بن تاشفين انتصارا لبلده وانتصافا لها من جهة، وتزلفا للموحدين الذين كان يرضيهم ذلك من جهة ثانية، ولكي يضمن الإغضاء عن عصبيته الأندلسية من قبل أهل الدولة التي كان يعيش في ظلها لم يجد بدا من تضمين مفاخراته بعض كلمات المجاملة أو المداراة في جانب الدولة الحاكمة : «فلولا هذه الدولة لما كان لكم على الناس صولة»[6].

---

1. زاد المسافر، 79 ـ 80 ومعجم البلدان (مادة فاس).
2. زاد المسافر، 70.
3. راجع مقالة الأستاذ عبد الله كنون.
4. ديوان الأعمى القطيلي، 90 ـ 91.
5. قلائد العقيان، 278 ـ 280.
6. نفح الطيب، 4 : 181.



وحسب رسالة الشقندي فإن المفاخرة كانت بالملوك والعلماء والأدباء والشعراء والشجعان والشمائل ومحاسن المدن، ويبدو أن الشقندي كان البادئ بتدوين رسالته ولا شك في أن أديبنا الطنجي الذي لا نعرف شيئا عنه وعن رسالته اجتهد في استنباط مفاخر العدوة في الموضوعات المذكورة، وأنه وجد لا محالة ما يدافع به في كل ذلك ولم يصدق عليه هذا المثل الذي ضربه الشقندي : «ما تصنع الكيسة في البيت الفارغ»[1].

ولسنا ندري لماذا حفظت رسالة الشقندي وضاعت رسالة الطنجي، وقد نقدر أن هذه الأخيرة كانت مما استمد منه صاحب «مفاخر البربر» الذي عاش في العصر المريني على ما يبدو وفي هذه الرسالة يفتخر مؤلفها المجهول بطائفة من أعلام الأندلس ذوي الأصول المغربية كيحيى بن يحيى ومنذر بن سعيد وابن دراج وغيرهم[2] والواقع أن الفخر بالأعلام في نطاق المفاضلة بين العدوتين أصبح منذ امتزاجهما في عهد المرابطين ومن بعدهم مثار تنازع في معاجم الأعلام : فالشقندي مثلا يعد القاضي أبا حفص الأغماتي من حسنات الأندلس[3] وابن الأبار وابن الزبير يدعوهما التعصب إلى ضم عدد من أعلام العدوة المغربية في سلك الأندلسيين «ضنانة بعلمهم على العدوة»، وقد انتقد ابن عبد الملك المراكشي هذا التعصب بشدة في مناسبات عديدة ودعاه ذلك التعصب الأندلسي إلى أن يقابله بحمية مغربية واضحة تبدت في دفاعه عن أدب معاصريه من أهل المغرب وأنه لا يقل شأنا عن أدب الأندلسيين[4]، كما تجلت في نشدانه التفوق في تأليفه على الأندلسيين : ابن الأبار وابن الزبير، ومن مظاهر اعتزازه بمغربيته أنه اكتفى من زيارته للأندلس

1ـ نفح الطيب 4 : 182 وأمثال العوام في الأندلس ق 1 ص 206 وق 2 ص، 53.

2ـ مفاخر البربر.

3ـ نفح الطيب، 4 : 196.

4ـ الذيل والتكملة 8 : 157 ـ 225 مخطوط خ.ع.

بوضع قدمه في الجزيرة الخضراء قائلا : «حصل لنا الغرض من مشاهدة بعض البلاد الأندلسية والكون بها والحمد لله على ذلك[1]. ومن رأي الأستاذ غرسية غومس أن رسالة الشقندي كانت من نتائج فقدان الأندلس لاستقلالها ونظر المغاربة إليها بعين الازدراء ومحاولتهم التقليل من شأنها[2]. ولكننا إذا نظرنا إلى المسألة بعين الإنصاف نجد أن الشعور الإقليمي كان عند الأندلسيين أقوى منه لدى المغاربة فقد كانوا يتجنون غالبا على أهل العدوة، ويتيهون عليهم بحضارتهم وعلمهم وأدبهم، ويكشفون عن كرههم للمغاربة المقيمين بين ظهرانيهم، حتى بعد توحيد البلدين في عهد المرابطين والموحدين، ونجد مظاهر من ضيقهم وتبرمهم بالجماعات المغربية المرابطة في الأندلس في رسائل البلوى[3]، أما في الأوقات العصيبة فقد كان سوء المعاملة ينسحب حتى على الأندلسيين ذوي الأصل المغربي، ومن أمثلة ذلك قول ابن سعيد في ترجمة أبي عمران بن سالم القلعي : «أخرج أهل القلعة ـ قلعة خولان ـ بيته بأسره لما ثاروا على المصامدة لأن نسبهم في هسكورة»[4] ويذكر في القدح أنه «لما كانت فتنة ابن هود المشهورة أخرج من بلده، وفرق بينه وبين ماله وولده»[5] وقد كان شيء من هذا يحدث أحيانا في العدوة للمغاربة ذوي الأصل الأندلسي كما نستشف ذلك من قول ابن حبوس الفاسي متشفيا في ابن عطية بعد نكبته :

أندلسي ليس من البـربر   يختلس الملك من البربر[6]

---

1. المرتبة العليا : 132.
2. الشعر الأندلسي ص 66 ترجمة د. حسين مؤنس.
3. رسائل البلوي، مخطوط الخزانة الملكية بالرباط.
4. المغرب لابن سعيد، ج 1 ص 310.
5. اختصار القدم المعلى : 201.
6. زاد المسافر : 3ـ 4.



بيد أن المغرب كان على العموم أرحب صدرا من الأندلس، فقد كان يستقبل جاليات الأندلس بسماحة وحفاوة - من جالية الربض حتى جالية الموريسكيين - وقد نجد ما يشي بشيء من الازورار عن الأندلسيين المهاجرين أحيانا ومرده في الغالب إلى تعاليهم على أهل البلد، وعدم حفظهم لتقاليده، وقلة رعايتهم لمآثره، ونكتفي من الأمثلة في هذا الباب على ما يقول ابن عميرة على لسان أهل سلا في مخاطبة جالية شرق الأندلس التي أقطعها الرشيد الموحدي مدينة الرباط : «وأنتم معشر الأندلسيين دافة دفت، ومادة جفت، وفقع عن أهله بان، ونبت في غير أرضه هان، وما نحسبكم إلا خشاشا لا يجد مغارا، وخفاشا، أطير نهارا، فالمهاجر إلينا يجد الأوس والخزرج، ويركب الملجم المسرج، هذا إن أرضى الحسب وأهله، وستر بعملنا جهله، فأما أن عدا طوره، وجفا زوره، وتهاون بخلافنا، ولم يحفظ مآثر أسلافنا، ففرخه قبل النهوض مصيد، وزرعه من قبل أن يهيج حصيد»[1].

ومن مظاهر سماحة المغرب أنه كان دوما يغص بالكتاب والقضاة والوزراء وغيرهم من «الأطر الأندلسية"، حتى لكأن القاعدة كانت تقديم الأندلسيين على المغاربة في الخطط والوظائف بينما قامت حملة قلمية اشترك فيها ثلاثة من أعلام كتاب الأندلس في القرن السابع ضد أديب مغربي فاسي اتخذه أحد أمراء الأندلس كاتبا له[2]، ويستغرب ابن سعيد استخدام ابن الأحمر الأول لأحد «حفاظ الموحدين» وهو محمد ابن خطاب الهنتاتي فيقول : «وكان من النادر أن اصطفاه رئيس الأندلس في

1. أبو المطرف أحمد بن عميرة : 131- 132.
2. انظر قاعدة : «ولا يستعمل بلدي ما وجد أندلسي» في نفح الطيب نقلا عن ابن غالب ج 4 ص 148.

عصرنا أبو عبد الله بن الأحمر فصيره كالعلم، وقلده مهماته ما بين خطتي السيف والقلم»[1].

ونجد في العصر المريني ثلاثة نصوص في موضوع المراشقات القلمية بين الأندلسيين والمغاربة أولها : طرفة الظريف في أهل الجزيرة وطريف، وهو هذا الذي ننشره اليوم للمرة الثانية. وثانيها «مفاخر البربر» وهو مسرد تاريخي محض. أما النص الثالث فهو رسالة «المفاخرة بين مالقة وسلا» لابن الخطيب[2]، وقد أقام ابن الخطيب مفاخرته بين البلدين على ثمانية أشياء هي :

المنعة والصنعة والبقعة والشنعة والمساكن والحضارة والعمارة والإثارة (الفلاحة) والنضارة. ويقول حسين مؤنس أننا لا ندري شيئا عن السبب الذي حفز ابن الخطيب على إنشاء هذه المقامة فهو يقول في مستهلها إن واحدا من أصحابه سأله أن يقوم بهذه المفاضلة فاستجاب لما طلب إليه[3] ولكن الفقيه ابن علي السلوي الدكالي، الذي رد عليه بأرجوزة مطولة يوضح سبب إنشاء هذه المفاضلة فيما يلي :

والباعث الأقوى لذاك القول	أن جاء معزولا بحال هول
فأنف الأعيان من خلطته	وانتبذ الوزير في «شلته»
فلم يزر أحدهم مثواه	ولا انتحى مفردهم مغناه
فساءه الحال ورام هضما	لأهلها فبث قولا أعمى[4]

---

1. الكاتب هو ابن عابد الفاسي، وانظر الرسائل المذكورة، لابن عميرة والرعيني وابن الجنان في الذيل والتكملة س. 5 ق 1 من ص 327 إلى ص 350.
2. اختصار القدح المعلى : 22.
3. (نشرت عدة مرات)، وآخرها بتحقيق د. مختار العبادي في «مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب».
4. تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس : 575 ـ 576.



ولعل ما يؤيد هذا أن ابن الخطيب كان ينال باستمرار من سلا وأهلها في شعره ونثره[1]. ونحسب أن مالقة وسلا في مفاضلة ابن الخطيب ليستا سوى رمزين للأندلس والعدوة[2]، ويبدو أن هذه المفاخرة ظلت بدون رد إلى أن جاء المؤرخ ابن علي السلوي الدكالي فنهض للرد عليها بأرجوزة سماها : «إتحاف أشرف الملا، ببعض أخبار الرباط وسلا»[3] وهو يقول في أولها :

إن الوزير ابن الخطيب قد كتب   بما يسوء أرضنا وما أصاب

أودع في «ريحانة الكتاب»   مقالة تخل بالآداب

فاضل بينها وبين مالقه   من الجزيرة فأبدى حمقه[4]

وحكم ابن علي على مقالة ابن الخطيب بأنها مخلة بالآداب يصل إليه أي مؤرخ منصف فهذا الأستاذ حسين مؤنس الذي لم يقف على رد ابن علي يصفها بأنها «حملة تخلو من الذوق على سلا، وهي مدينة طالما آوت ابن الخطيب وأحسنت إليه ولكن هكذا كان شأن الكثيرين من الأندلسيين مع المغرب ـ وغير المغرب ـ من البلاد[5]».

لقد أبان الفقيه ابن علي من حب مكين لبلده وانتصار وثيق لها، واستطاع أن يسفه أحلام ابن الخطيب وينقض مطاعنه بما أتيح له من علم غزير ونفس طويل ودفاع برئ لا تشوبه شائبة من التعصب لأنه اقتصر فيه

---

1. آتحاف أشرف الملا،.... ص 133 مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

2. نفح الطيب ع : 386 وديوان ابن الخطيب : 79، 566، تحقيق محمد مفتاح، نسخة مضروبة على الآلة الكاتبة.

3. وجدت بعد كتابة هذا أن الأستاذ حسين مؤنس أحس بهذا فقال : «ولكن الأغلب أن هذه تعلة لما رمى إليه من تفضيل الأندلس على المغرب في صورة مفاخرة بين مينائين أندلسي هو مالقة ومغربي هو سلا» تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس 576.

4. أرجوزة تاريخية مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط.

5. أتحاف أشرف الملا .... ص 133.



على ما غاب عن علم ابن الخطيب من محاسن سلا في الأمور التي وقعت بها المفاضلة.

ويندرج نص «طرفة الظريف» في هذا السياق الذي عرضناه بشيء من الاختصار وهو يترجح بين الرحلة والمقامة في بعض أشكالها الأندلسية فهو من حيث العنوان أشبه ما يكون برحلة، ومحتواه عبارة عن ارتسامات مغربي عن طريف والجزيرة الخضراء وأهلهما كما أنه يقترب من طبيعة المقامة بخصائصها المعروفة. ويمكن ربطه من وجه آخر بضرب من ضروب الإنشاء عرف بين الخاصة والعامة، في الأندلس وهو ما يطلق عليه: ما اسمك يا أخا العرب[1]، ونجد في مقامة «حضرة الارتياح، المغنية عن الراح»[2] لابن البناء المالقي إشارة إلى هذا الضرب يقول فيها.

«وأول ما سمعت بالأندلس أيام الشباب، من بعض عوام الأصحاب، ما هو السؤال عن اسم المسؤول وأبيه، وصاحبته وبلدته التي تؤويه، وما تمثل به وما يغنيه»[3].

وطرفة الظريف تقترب من هذا الضرب ولا سيما في الفقرة التي تتضمن السؤال عن أسماء المسؤولين وأنسابهم وبلدانهم وحرفهم، ومن المؤسف أن النسخة الوحيدة من هذا النص الموجودة في مكتبة الأستاذ المنوني - الذي تكرم رحمه الله بإعارتها لنا - مبتورة الأول[3م]، ويبدو أنه ضاعت منها ورقة على الأقل وهي التي تشتمل على اسم الكاتب وأول الرحلة أو

---

1. تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس: 576.
2. في الذيل والتكملة للمراكشي إشارات في مواضع مختلفة إلى من ألف فيه، ومنه أراجيز على حروف الهجاء ولعل أقدمها أرجوزة ابن سعيد وعلى طريقتها أرجوزة ابن حريق البلسني وأرجوزة ابن قنون الإشبيلي وغيرهم.
3. مطبوعة على الحجر بفاس.
3م- حضرة الارتياح: 3.



المقامة، أما اسمها فنجده في آخرها حيث نقرأ ما يلي : «تمت طرفة الظريف في أهل الجزيرة وطريف» ولا نجد فيها ما يشعر بتاريخ كتابتها أو نسخها أو ناسخها، ويبدو من الخط أنها نسخة قديمة قد ترجع إلى القرن الثامن الهجري. وهي جزء من كناشة قال المرحوم المنوني إنها بخط أحمد بن علي البلوي الوادي آشي المتوفى عام 938هـ.

أما صاحب هذه الرحلة أو المقامة فلا نملك نصا قطعيا فيه لضياع أولها ـ كما ذكرنا ـ من جهة ولعدم ورود اسمها في المظان المعروفة من جهة ثانية ـ ولكن ثمة أدلة وردت في المتن قد تساعدنا على التعرف عليه ونسوقها فيما يلي :

1. يسمى صاحب الرحلة أو المقالة عبد العزيز وقد ورد هذا الاسم مرتين وهو وإن ورد مفردا فإنه يمثل العلامة الأولى في الاهتداء إلى صاحب الأثر الأدبي.

2. من حسن الحظ أنه ورد في المتن اسم معروف الهوية، معلوم الحيثية وهو «الفقيه الأسني أبو فارس عبد العزيز العمراني كاتب الخلافة» الذي يذكر المؤلف أنه كان «يختار دون الناس ائتلافه» وهو من رجالات العهد المريني الأول وتذكر مصادر التاريخ المريني أنه كان قاضي حضرة مراكش أي قاضي الجماعة في عهد يعقوب بن عبد الحق[1] وولده يوسف[2]، وتعترضنا ها هنا مشكلة حيث أنه يُحلّى في

1ـ كتب الأستاذ المنوني في وصف المجموع الذي يوجد به النص المذكور ما يلي : «ومن التذكرات الأندلسية في نسخة خاصة قطعة من مقيدات يذكرها صاحبها (ص 44) باسم» الدفتر وأغلبها بخط أندلسي يبدو من مقارنته أن كاتبه هو الوادياشي البلوى أحمد بن علي بن أحمد الأندلسي نزيل تلمسان وتلميذ أبي غازي ومن في طبقته وهي تبتدئ بمقالة في ذم الجزيرة الخضراء وطريف، سميت في آخرها (ص 10) طرفة الظريف، في أهل الجزيرة وطريف، غير أنها مبتورة الأول ولذلك لم يعرف اسم مؤلفه الذي قد يكون مغربيا، ثم يغلب على المجموعة بعد هذا تسجيل الإفادات والإنشادات، وضمنها مقتبسات من رحلة ابن رشيد : «ملء العيبة ...» إلى اقتباس من كتاب «الدرة المكنونة في محاسن أسطبونة» ومن كتاب الإحاطة لابن الخطيب مع بعض أشعار صاحب التذكرة ومقيدات مهمة بخط مغربي كاتبه من تلاميذ القاضي الحميدي (ص73) بها 100 ص من مسطرة مختلفة ـ مقياس 150/210 سم ...». مجلة المناهل ع، 2 ص 223.

2ـ روض القرطاس : 298 (ط، دار المنصور) والذخيرة السنية : 86.



النص بكاتب الخلافة بينما تقتصر مصادر التاريخ المريني على ذكره في سلك قضاة الجماعة بمراكش، ولكن هذه المصادر تذكر في سلك كتاب العلامة ليعقوب وولده يوسف عمرانيا آخر هو أبو عبد الله العمراني، وإذا كنا لم نقف على ترجمة للأول فإن الثاني مترجم به في مستودع العلامة، وفيها أنه «الشريف الفقيه الكاتب صاحب القلم الأعلى محمد بن الشريف الفقيه عمران العمراني الحَسَني[1]»، ولو وقفنا على اسم والد الشريف أبي فارس عبد العزيز لأمكن أن نعرف درجة القرابة بين الرجلين اللذين كانا في خدمة السلطانين المرينيين وربما كانا أخوين.

3. ورد في المتن أيضا ذكر شخص آخر وهو قاضي الجزيرة الخضراء ابن عذرة الذي كان يتولى أحكامها يومئذ. ولكننا لم نجد في المظان ما يقفنا على تعيينه وقد كان بنو عذرة أعيان الجزيرة الخضراء ومنهم أعلام مذكورون في كتب الصلات[2]».

4. وأخيرا يذكر المؤلف أنه كان موجودا في الجزيرة الخضراء، في صحبة المقام العالي السلطان أمير المسلمين دون تحديد اسمه[3].

تلك هي العلامات الواردة في النص والتي يمكن أن تهدينا إلى معرفة صاحبه ولقد سبق لي أن زعمت أنه عبد العزيز الملزوزي كبير شعراء بني مرين المعروف ولكن مع وضع علامة شك أمام الاسم[4].

إننا حين نرجع إلى ترجمة عبد العزيز أو عزوز الملزوزي في مصادرها - وأقدمها وأوسعها هي الإحاطة - [5] لا نجد ذكرا لطرفة الظريف، فهل

---

1. روض القرطاس : 375.
2. روض القرطاس : 375 والذخيرة السنية : 89.
3. مستودع العلامة : 48.
4. نفح الطيب 1 : 278.
5. أمثال العوام في الأندلس ق أ ص 206.



يكون ابن الخطيب أغفل ذكرها - إذا صحت نسبتها إلى الملزوزي - عن عمد وقصد لما تضمنته من هجاء لأهل الأندلس؟ أم الأمر لا يعدو أن يرجع إلى عدم وقوفه عليها ؟ الأقرب إلى طبيعة ابن الخطيب أنه لو اطلع عليها لما تردد في ذكرها والنعي على صاحبها.

ومهما يكن من أمر إغفال هذا الأثر الأدبي اللطيف - وإغفال الآثار وأصحابها شيء ابتلى به تاريخ المغرب مع الأسف - فإني أرجح نسبته إلى عبد العزيز المَلْزوزي، ذلك أن اسم عبد العزيز الوارد ذكره في النص بوصفه منشئا له والذي يدلنا النص نفسه على أنه ناثر شاعر من أقران قاضي الجماعة أبي فارس العمراني ومن جلساء أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق الذين يصحبونه في حله وترحاله لا يمكن - في تقديرنا - أن يكون إلا عبد العزيز الملزوزي وثمة دلائل أخرى يستأنس بها في تأييد هذه النسبة ومنها تشابه الأسلوب والنفس في هذا النص وفيما وصل إلينا من شعر الشاعر المريني الكبير سواء في الشكل أو في المضمون، فأما من حيث الشكل فيتمثل ذلك في سهولة النظم وسيولة القريحة وغلبة الطبع والارتجال، على الصنعة والاحتفال، وارتكاب بعض الضرائر الشعرية، وجميعها من مظاهر نظم الملزوزي ولا سيما في أرجوزته التاريخية.

وأما المضمون فمن مظاهر التشابه فيه بين هذا النص وغيره من شعر الملْزوزي أنه حين تحدث عن الجزيرة الخضراء في "طرفة الظريف" ذهب إلى أنها هي قرية الجدار الوارد ذكرها في قصة موسى والخضر واستغل هذا العنصر في تعليل ما خبره من بخل أهلها وشنع عليهم في ذلك بما اقتضته طبيعة المقامة.

وفي بائية الملزوزي الطويلة التي أنشدت بين أيدي أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق بمناسبة عيد الفطر من سنة 684هـ. في الجزيرة الخضراء



ذكر هذه المدينة وعناية أمير المسلمين بتجديدها، وما أنشئ له فيها من قصر ومشور، وعرض إلى قصة قرية الجدار فقال :

فقد حل الجزيرة والأماني ... تساعده وقصد الشرك خابا
أقام بها وألقى الرحل منها ... ببلدته الجديدة حين آبا
مكان القرية المشهور منها ... على ما أودع الله الكتابا
وقد ذكروا الجدار بها وفيها ... مكان الصخرة انتصب انتصابا
فصدق قولهم عنها فلوس ... بها وجدت مصورة عجابا
لها ألف من الأعوام زادت ... من المئين أربعة حسابا
وقد دثرت رسوم الربع منها ... فأحياها وقد كانت خرابا[1]

وليس بمستطاعنا الآن تحديد التاريخ الذي كتبت فيه «طرفة الظريف» ويدلنا منطوقها - ولا سيما آخرها - أنها ألفت بالأندلس خلال أحد جوازات أمير المسلمين، وأغلب الظن أن المقصود بأمير المسلمين الوارد ذكره في آخر هذه الرحلة المقامية، هو أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق، ومن المعلوم أنه جاز إلى الأندلس أربع مرات كان الملزوزي يصحبه فيها، بوصفه شاعر الدولة، ولسانها الناطق بمآثرها ومآتيها، المسجل لمفاخرها وأمجادها وقد كان نشاطه الشعري يغزر في أثناء تلك الجوازات، وفي أحدها - وهو الجواز الرابع - نظم في شهر شوال سنة 684 بالجزيرة الخضراء أرجوزته التاريخية المسماة : نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك[2]. وعلى فرض نسبة «طرفة الظريف»

1ـ ترجم به ابن الخطيب تقيدا بشرط كتابه وهو يقول في ذلك : «احتل بظاهر غرناطة في جملة السلطان أمير المسلمين أبي يعقوب وأمير المسلمين أبيه فاستحق الذكر لذلك».
الإحاطة : 276 مخطوط الاسكوريال، وراجع ترجمة الملزوزي في النبوغ ومشاهير المغرب للأستاذ كنون ومقدمة نظم السلوك للأستاذ عبد الوهاب بنمنصور.
2ـ روض القرطاس : 271 ـ 272.

للملزوزي ففي أي من هذه الجوازات يكون ألفها؟ تشعرنا الفقرة الأخيرة منها بهذا القنوط الذي اعترى حاشية السلطان وغيرهم من جند بني مرين من جراء طول المقام وتواليه بالأندلس وتشوقهم إلى الأهل والولد وذلك حين يقول : «ولما طال في الجزيرة المقام المتوالي في صحبة المقام العالي، خشيت أن تفسد الطباع، وتستنعج السباع، والجمر يخمد إن وضع في الرماد ولؤم الجزيرة يؤثر حتى في الجماد، وما زلت أدعو الله أن يهون في جواز السلطان، ويبلغنا الأوطان» وهذه الحال حصلت للناس خلال الجواز الأول الذي طال حتى كاد يقارب العام (من أول يوم في شوال سنة 673هـ إلى آخر يوم من رجب سنة 674هـ) ويشير ابن أبي زرع إلى ذلك فيقول : «وقنط بنو مرين من المقام بالأندلس وتشوقوا إلى لقاء أولادهم وديارهم فلما علم أمير المسلمين ذلك منهم جاز إلى العدوة[1]»، ويبدو أن هذا الملل من طول المقام انتشر بين من كانوا في صحبة المقام العالي» وأصبح السؤال الذي يدور بينهم هو : متى يرحل أمير المسلمين ؟ وهذا ما تنطق به الفقرة التالية من «طرفة الظريف» : «وما زلت أدعو الله أن يهون في جواز السلطان، ويبلغنا الأوطان، فقعدت يوم ارتحالي منها، ومسيرتي عنها مع الفقيه الاسني أبي فارس عبد العزيز العمراني كاتب الخلافة وكنت أختار دون الناس ائتلافه، فما زلنا نجيل في الرحيل الأفكار، ونكثر منه الإذكار» على أني أوثر أن يربط نصنا هذا ـ في إطاره العام الموسوم بروح الانتقاد والمشوب بالنزوع إلى الهجاء ـ بذلك الجو الأدبي المشحون بالمراجعات الشعرية بين شعراء البلاط النصري، وعلى رأسهم أبو عمرو بن المرابط، وشعراء البلاط المريني وفي مقدمتهم الملزوزي، وذلك في أعقاب دخول المرينيين

1ـ الإحاطة : 275 : مخطوط الاسكوريال.

إلى الأندلس، وإذا كان بنو مرين قد جازوا إلى الجزيرة استجابة لاستصراخ أهلها المتعدد واستنجادهم المتكرر، فإن ما كتب لهم فيها من نصر وتمكين، أثار موجة ابن الأحمر وبعث شكوكه «وظن بأمير المسلمين الظنون، واعترض فكره شأن يوسف بن تاشفين والمرابطين مع ابن عباد سلطان الأندلس»[1].

ولا يعنينا وصف الجو السياسي المتوتر والمتكدر الذي طبع العلاقات المغربية الأندلسية يومئذ، ولكن الذي يعنينا هنا هو انعكاس ذلك على الحياة الأدبية، وما حفلت به من مراجعات شعرية، تختلف لهجتها بين الاستعطاف والعتاب، والرضى والإعتاب، فمن ذلك قصيدة أبي عمرو ابن المرابط على لسان أميره ابن الأحمر ومطلعها :

هل من معين في الهوى أو منجد   من متهم في الأرض أو من منجد[2]

وهو نداء حار وقع فيه هذا الشاعر على الوتر الحساس عند أهل العدوة ألا وهو الجهاد، وقد أجاب على هذه القصيدة كل من عبد العزيز الملزوزي بقصيدة مطلعها :

لبيك لا تخش اعتداء المعتدي[3]

كما أجاب عنها أيضا مالك بن المرحل بقصيدته المعروفة :

شهد الإله وأنت يا أرض اشهدي   أنا أجبنا صرخة المستنجد[4]

---

1. روض القرطاس : 321.
2. العبر لابن خلدون ج 7 ص 409 (ط. بيروت).
3. المصدر نفسه ج 7 ط من ص 409 إلى ص 414.
4. المصدر نفسه ص 414.



وإذا كنا لا نعرف لهجة الملزوزي في قصيدته لأنها لم تقع إلينا فإن قصيدة ابن المرحل حافلة بالعتاب الرقيق حينا والشديد حينا آخر وقد خرج في آخرها إلى التقريع والتوبيخ وذلك حين ينتقد أخلاق الأندلسيين وجيشهم فيقول :

لولا رجال من مرين رفعوا منكم لكنتم بالحضيض الأوهد

لولا رجال من مرين قاتلوا عنكم لكنتم كالنساء الخرد

عهدي بجندكم الذين إذا رأوا علجا تولوا كالنعاج الشرد

يتشبهون بكل أغلف كافر في زيهم وكلامهم في المشهد

وطعامهم وخلالهم وشرابهم ومناكر يأتونها وسط الندى

وأجاب عن القصيدتين كاتب ابن الأحمر أبو عمرو بن المرابط بقصيدة يشى مطلعها بمضمونها :

قل للبغاة وللعداة الحسد[1]

ثم خفت هذه الحدة وجنحت المساجلات الأخيرة إلى التماس الصلح وطلب الرضى كما نرى في قصيدة ابن المرابط :

بشرى لحزب الله والإيمان[2]

وجوابها للملزوزي :

اليوم كن في غبطة وأمان[3]

---

1. المصدر نفسه ص 414.
2. العبر ج 7 ص 414.
3. المصدر نفسه ص 414.



ويبدو لنا - اعتمادا على ما ذكرناه بإيجاز - أن مقامة «طرفة الظريف» ألفت خلال هذه المعارك الأدبية الحامية الوطيس، ولعل ما يدل على ذلك هذا التشابه في المنحى والتوافق في المرمى بين ما ورد في قصائد الملزوزي وابن المرحل المشار إليها آنفا وما جاء في «طرفة الظريف» فهي تنعى على الأندلسيين تشبههم بالنصارى في لباسهم وكلامهم وسائر عوائدهم، وتشنع عليهم في لباسهم «الغشكون» والزنار، وأكلهم الخنزير وشربهم العقار، وتنعتهم بالجبن والبخل ودناءة النفس وضعف الهمة، وتتحسر على تخليهم عن الخلال العربية والإسلامية ومهما يكن في بعض هذه الانتقادات من مبالغة أحيانا فإنها تلتقي مع ملحوظات المؤرخين المعاصرين من أمثال ابن خلدون وابن الخطيب فحين عقد الأول في مقدمته فصله المعروف في أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، انتزع دليله على هذا الحكم مما شاهده هو وغيره من معاصريه من تشبه الأندلسيين بجيرانهم الجلالقة وذكر أنهم «يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم»[1].

وهذا التشبه الذي يمثل عقدة نقص لدى فئات من الجماعة الأندلسية هو ما انتقدته قصائد الملزوزي وابن المرحل المشار إليها سابقا وهو أيضا ما ألحت «طرفة الظريف»[2] في أكثر من موضع على التشهير به وتعرية ذلك التناقض بين تبجح بعض الأندلسيين بالأنساب العربية وتخليهم عن سنن العرب حتى لم يبق لهم من العروبة إلا الأسماء.

---

1. المصدر نفسه ص 414.
2. المقدمة.



وقد اعتبر ابن خلدون أن هذه الحال داعية إلى التشاؤم وذكر أن الناظر إليها بعين الحكمة يستشعر أنها «من علامات الاستيلاء». ومن شواهد هذا المعنى في مقامتنا ما يلي:

رأيتك للروم ذا خلة — وأنت على نهجهم تنهج

تزي بزي النصارى الكلاب — فأنت بزيهم تبهج

لقد بعت منهم نضار النضار — بشيء يقال له البهرج

تركت الجدود وما أثلوا — فلا الدين باق ولا الملهج

إذا كنت لا تتقي ربنا — فما لك من شدة مخرج

وإني لأدري بطول المدى — بأنك عن ديننا تخرج

وذكر ابن الخطيب كذلك أن زي الجند الأندلسي في مملكة غرناطة كان زي أضدادهم من جيرانهم الفرنج. وبعد أن وصفه عاد فقال: «ثم عدلوا الآن عن هذا الذي ذكرنا»[1] ويفهم مما ذكره أن الزي الذي عدلوا إليه يشبه أن يكون زي جند العدوة يومئذ، فهل يكون ذلك من أثر الانتقادات التي ذكرنا طرفا منها؟

نخلص في آخر هذه المقدمة إلى الإشارة إلى بعض مضامين نصنا الجديد، فأول ما يطالعنا منها هو نعت أهل الأندلس بالبخل وأكلهم وحدهم فرادى لا جماعة على مائدة واحدة كما يقتضي ذلك أدب

1ـ المصدر نفسه.



المناسبات العامة ومع أن مؤلف النص يصف سلوك أفراد ضمه وإياهم مركب إلا أنه اتخذ منهم نموذجا أو عينة وعمم في حكمه فقال :

هذا دليل على أن ليس عندكم   يا أهل أندلس فضل ولا حسب،

وقد نستشف هنا لهجة استعداء، وهذا مما يقتضيه أسلوب رسائل المناظرات ومهما يكن من أمر فإن ابن سعيد الذي وصف المجتمع الأندلسي من خلال تاريخه وواقعه، قرر أن الأندلسيين «أهل احتياط وتدبير في المعاش وحفظ لما في أيديهم خوف ذل السؤال فلذلك قد ينسبون للبخل»[1]. كما أن الأمثال الأندلسية تعكس شيئا من هذا[2] أما النقطة الثانية فهي ولع الأندلسيين بالتفاخر بالأنساب العربية ويتضح ذلك في هذه الفقرة التي يدير فيها المؤلف الحديث على لسان عشرة شخوص يمثلون فئات مختلفة من المجتمع الأندلسي فيهم المحارب والتاجر والصانع والعامل، ونراهم جميعا يحرصون - في زهو وفخر - على الانتماء إلى القبائل العربية المشهورة بمآتيها ومناقبها وهنا أيضا نجد النص متمشيا مع ما دأب عليه المفاخرون بعروبة الأندلس كابن سعيد وابن غالب والشقندي، ولا سيما في مقام المناظرة بين العدوتين ولكن صاحب النص ينزع إلى إبراز ما في هذا الانتماء من مفارقات بين أولئك القدماء «الذين جازوا مع طارق، وافتتحوا الأندلس وقتلوا البطارق» وبين هؤلاء المفاخرين المتشبهين بالروم المتخلين عما أثل الأجداد[3].

وينتقل المؤلف بعد هذا إلى حديث أقرب ما يكون إلى أدب الرحلات وذلك حين يصف جزيرة طريف والجزيرة الخضراء.

---

1. الإحاطة 1 : 142 (ط دار المعارف بمصر).
2. نفح الطيب 1 : 208.
3. أمثال العوام في الأندلس ق أ ص. 264.



فأما طريف فلا تستحق منه إلا سجعات معدودة، كلها دعاء عليها وهجاء لها ولقصبتها الحقيرة، ورائحتها الكريهة، بينما نراه يطيل الوقوف في الجزيرة الخضراء فيمعن في هجائها وهجاء أهلها وينعى عليهم بخلهم الشديد وقلة مروءتهم[1].

فهم يبخلون حتى بالماء والنار ولا يجدون غضاضة في بيع جرعة الماء وجذوة الموقد للغازي المجاهد والمتطوع الوافد، وأحسب أن هذه الفقرة لها دلالة خاصة تتجاوز الأبعاد الأدبية أو الفكاهية في النص، فقد أشعرتْنا بشيء من طبيعة العلاقات بين أهل البلد ومحلة السلطان المريني الذي اتخذ منه مقرا لتنظيم الجهاد في الأندلس، ولقد صورت لنا الأمثال العامية في حدود تعبيرها القائم على الإيجاز واللمح والرمز مظاهر من نظرة المجتمع الأندلسي في العصر الغرناطي إلى من اصطلح على تسميتهم بالغزاة، وفيها ما يشى بضيق الأندلسيين وتبرمهم بهؤلاء[2]. ولكن ما يحدثنا به النص ـ حتى مع استبعاد التهْويل في التصوير والمبالغة في التعبير ـ يفوق ما أومأت إليه الأمثال، ولعله يدل على رد الفعل السلبي لدى البلدي الساذج تجاه هذه الكثرة الكاثرة من الجند حين يمتلئ بهم بلد صغير كالجزيرة الخضراء، ولا شك أن معاملة كتلك التي عبر عنها النص لا تبعث الارتياح في نفوس المتطوعين من أهل العدوة الذين انتدبوا للجهاد في سبيل الله بالأندلس، بل إنها قد تثير اليأس وتصرف عن فريضة الجهاد، وهذا ما نقرؤه في البيتين التاليين :

إن كانت النار تشرى عند أندلس   فكيف يدخلها غاز مدى الأبد
على نذر إذا ما فارقت أندلسا   ترك الحصان وترك المال والولد

1ـ نفح الطيب 1 : 271 وما بعدها، 4 : 146.
2ـ أمثال العوام في الأندلس ق أ ص. 207 وما بعدها.

وفي هذين البيتين :

سأرحل من بلاد ليس فيها مكان للإقامة والقرار
أما والله إن منعوا جوازي رميت النفس في لجج البحار

ثم ينتقل النص إلى وصف وادي الجزيرة المسمى بوادي العسل والذي ما يزال يعرف بهذا الاسم مترجما إلى القشتالية : EL RIO DE LA MIEL فيهجوه ويؤلف هجاءه من التضاد الذي وجده بين اسمه وحقيقته ويحمل التسمية محمل المزح ويعدها من غلطات الأندلسيين مثلما غلطوا في نعت الجزيرة بالخضراء وهي بضد ذلك، وكذلك في تسمية بلد طريف وهو غير طريف، ويكشف مؤلف النص أن الجزيرة هي بلد الجدار الذي ورد ذكره في القرآن الكريم ذاهبا مع الرواية الأندلسية[1]، وما يتناقله أهل الجزيرة أنفسهم فيجد في ذلك مادة يبرر بها ما وجد من بخلهم.

إن هذا الوصف الذي نقرؤه في هذا النص عن طريف والجزيرة الخضراء يذكرنا في منحاه الهجائي بوصف العبدري ـ وهو معاصر لصاحب طرفة الظريف ـ لبعض البلدان، مع مراعاة ما بين الأسلوبين في الجد والهزل.

ولكننا إذا عارضنا هذا الوصف بالمأثور من وصف الجغرافيين الأندلسيين وجدنا الأمر مختلفا فالرازي يعد الجزيرة الخضراء «من أرشق المدن وأطيبها، وأرفقها بأهلها، وأجمعها لخير البر والبحر، وقرب المنافع من كل جهة»[2]. وابن سعيد يمتدح طبيعتها بمياهها الجارية وبساتينها النضرة. كما يمتدح نهرها ومتنزهاتها ويقول عن أيام قضاها بها :

---

1. الروض المعطار : 74 وناقل هذه الرواية وناشرها في الأندلس هو المحدث الأندلسي ابن وضاح.
2. المغرب ج. أ ص 320.



رعى الله أياما إذا سر غيرها   فأن سروري بعدها متكلف[1]

فهل تغير حال الجزيرة بعد ذلك أم أن هذا الهجاء ناتج عن جو النص العام الذي أشرنا إليه آنفا ؟

ومن أطرف ما في طرفة الظريف الفقرة التي تصف لهجة أهل الجزيرة ولا سيما في طريقة نطقهم الكاف وغلبة الأمالة على ألسنتهم، وهما من صفات اللهجة الأندلسية التي أشارت إليها مصادر أخرى[2]، ولكن الطريف هنا هو تركيب حكايات وحوادث مثل ما يحدث من سوء تفاهم بسبب اختلاف اللهجات.

وقد عرض صاحب النص طائفة من النوادر المركبة على موضوع الأمالة الأندلسية اختار لها شخوصا من ساحة المسجد ومجلس قاضي البلد الذي يعلو فيه لغط المتحاكمين.

وبعد، فلعله قد بدا الآن من خلال هذه المقدمة الموجزة ما للنص الذي نقدمه اليوم إلى القراء من فائدة أدبية وتاريخية واجتماعية، ولا شك أن العثور على مزيد من النصوص الطريفة، والعناية بنشرها ودراستها، مما يغني تراثنا ويهيئ لتقويمه تقويما شاملا ومتكاملا.

---

1. المصدر نفسه.
2. راجع كتابنا : أمثال العوام في الأندلس ق أ ص 282 وما بعدها وص 292.



طرفة الظريف،
في أهل الجزيرة وطريف

المتن



... قال عبد العزيز[1]، فكتمتُه ولكبدي أزيز، فقالوا لأحدهم : خُذْ ورِقنا[2] أيُّها الرَّجل الظَّريف، وسُقْ لنا بها من طرائف طريف[3]، فكان رجوعُه بالطَّرائف والظَّرْف، قبلَ أن يرتدَّ إلى الطَّرْف، فقلتُ إن الرَّايس صادق، وإنَّه بالمراسي حاذِق : فقمتُ وما خفْتُ من بَأسهم، وعلمتُ أن ذَلكَ أكثر لباسهم، فلمَّا اطَّلعتُ عليهم، ووصَلْتُ إليهم، رأيتهم حَوْصَلُوا[4]، وما بَسْمَلُوا، وأكَلُوا، وعنِّي نَكَلُوا[5]، وأخذَ كُلٌّ منْهم نصيبه، ولم يُشارِكْ في الأكل نَزيلَه ولا نسيبَه ،وسَمِعتُهم يذْكُرون العَنْكَمَة[6]، ويقولون لكلٍّ جُمْجُمَة جَمْجَمَة[7]، وكُلُّهم ينظُر صاحبَه شزْرا، ولم يشْدُدْ بِهِ أزْرا : وَهُو يُحَوصِلُ ويزْدَرِد، ولُقَمُه تَطَّرِد، فعندما أكَلوا اجْتَمَعوا، وأصْغَوا لمُحَدِّثهم واستَمعوا، فقُلْتُ لَهُم[8] خَيَّبكُم اللّه وقَبَّحكم، ومسَّاكم في الذُّلِّ وصبَّحكم، مالي رأيتكُم قبْلُ كالإخْوان، ففرَّقكُم ما سِيقَ في الخِوان، فأنشدتهم تَعْنيفا وتَخْفيفا، وما قصدت تَطْفيفا : [بسيط]

مِنْ أيِّ أرْضٍ خرجتُم إنَّ ذا عجَبٌ   لا تَرتَضي فِعْلَكُم عُجْمٌ ولا عَرَبُ
كنتم على الرَّحْل إخْواناً ففرَّقَكُم   ما في الخِوانِ فزال اللَّهْو والطَّرَبُ

1ـ عبد العزيز : انظر ما كتبناه في مقدمة هذا النص.

2ـ الورق : الدراهم.

3ـ طريف هي جزيرة طريف المعروفة اليوم باسم Tarifa
الروض 8، 127 من النص العربي. 12، 154 من النص الفرنسي. ومادة طريف في دائرة المعارف الإسلامية.

4ـ حوصلوا : ازدادوا.

5ـ نكلوا : تأخروا وتراجعوا.

6ـ العنكمة.

7ـ هكذا ورد القول مضبوطا ومنقوطا في الأصل، وهو مثل أندلسي جاء في أمثال الزجالي القرطبي كما يلي: لكل جمجمة جمجمة. والمثل يضرب في الاستئثار بالطعام والانفراد في الأكل وعدم دعوة الغير إليه أو اشتراكهم فيه فهو إذن من الأمثال التي تدعو إلى الأثرة المذمومة. انظر كتابنا : أمثال العوام في الأندلس ق 2 ص 285.

8ـ هذا في الأصل ولعل الأصوب : ولهم.



هلا أكلتُمْ جَميعاً لا أبالَكُمُ   وخَصَّ بعضُكُمُ بعضاً بمـا يَجِـبُ

فصرتم كيَتامى غابَ والِدُهم   فاظْهَروا الشُّحَّ في الميراثِ واحْتَسَبُوا

بَلْ أنْتُم ككلابٍ عند جيفَتهم   بعضٌ يـنـالُ وبعضٌ خَلْفَه يَثِبُ

هذا دليلٌ عَلَى أنْ ليس عِنْدَكُمُ   يـا أهْلَ أنْدلس فضلٌ ولا حسَبُ

فقاموا إلي سراعا، فلمْ يجدوني مُراعا، وقالوا إنْ كان الحسب فَمنْ قبائلنا ظَهر، ومنْ عند آبائنا الأقْدمين قَد اشْتَهر، فقلتُ : كُلُّ نجيبٍ نَبيه، يَفْخَرُ بنَفْسه لا بأبيه، فاعْرضوا عليَّ نَسبَكُم واذْكُروا بَيْن يَدَيَّ حَسَبكُم، فقالَ الأوَّل : أنا من الأَوْس، واسْمي طَوس، وصناعتي الرَّمْيُ بالقَوْس، وقال الثَّاني : أنا من الخَزْرَج، ولَقَبي المدرَج، وصناعتي تَبديلُ النُّضار بالبَهْرَج، وقال الثالث : أنا من كنْدَه، واسْمي شَنْدَه، وصناعتي الحياكةُ بجرُنْدُة[1] وقال الرابع : أنا من غَسَّان، واسْمي حسّان، وصناعتي نسْج الطَّيْلَسان، وقال الخامس : أنا من حِمْير، واسْمي مِهَير، وصناعتي نَقْلُ العثير[2]. وقال السادس : أنا من كنَانة، واسمي قَنَانَة، وبضاعتي حَمْلُ الكنَانَة[3]، وقال السابع : أنَا من لَخْمَ، واسْمي ضَخْم، وحِرْفَتِي الرَّقم، وقال الثّامن : أنا منْ جُذام، واسْمي جزام، وصنَاعتي نَسْج الحزَام، وقال التَّاسع : أنا مِن فزار، واسْمِي ندار، وحرْفَتي بَيْع الابزار، وقال العاشر : أنا منْ طَي، ولَقَبي زُرَّطى، وصناعتي النَّشْرَ والطَّي، فلمَّا عَرَضوا علي قبائلَهم، وذَكَروا آباءَهم وفَصَائلهُم، قلت : هؤلاء الذين جازوا مَعَ طارق، وافْتَتَحوا الأنْدَلُس وقَتَلوا البَطارِق، فطفقْتُ أدعو كُلَ أحَد بقبيله، وأذْكُر فَخْرَه وسُوءَ سبيله. فناديْتُ بطَوْس، المُنْتَسِب إلى الأوْس : [وافر]

---

1. جرندة؟.
2. العثير : الغبار والزبل.
3. الكنانة : جعبة السهام، وجعبة الرسائل كما هنا.

ألا يا طَوْسُ إنَّ الأوْسَ كانوا ضراغِمَةً إذا كانَ الطِّعانُ

رُكوبُهمُ السَّوابِقَ في الهياجي ودأْبُهمُ الفَصاحه والبيانُ

وهُمْ آووا وهُمْ نَصروا نَبِيّاً عليهِ الوحيُ نُزِّلَ والقُرانُ

إذا افْتَخَروا فهُمْ فَخَروا بِمَجْدٍ وعِزَّ ليسَ يُدْرِكُه الهَوانُ

فَمَا لَكَ يا طُوَيْسُ بهم فَخارٌ لأنَّكَ باخِلٌ نَدلٌ مُهانُ

بِنَفْسِك فافْتَخِر إن شِئْتَ فَخراً ودَعْ : أجدادُنا كانُوا وكانُوا

فَقَدْ تَلِدُ القَبيحَةُ ذاتَ حُسْنٍ وقد تَلِدُ المذَمَّمَةَ الحِسانَ

وقد يلد الشجاعُ جبانَ قَومٍ وقد يَلِدُ الضَّراغِمَةَ الْجَبانُ

وقَدْ يَرعى الحِصَانُ ربيعَ أرْضٍ وخِلْفَتُهُ يموتُ بِها الحِصانُ

كَذاكَ قَبيلَةُ الأشْرافِ تَفْنى ويُحْيِيها كَريمٌ لا يُهانُ

وإنَّك يا طُوَيْس بِضدٍّ هذا مُرادُكَ في الورى خَمْرٌ وبانُ

مَتى كَانَتْ جُدودُك يا طُوَيْسٌ لِباسُهم الزُنّانِرةُ الخِشانُ

فليت الأوْسَ ما ولدَتْ طُوَيْساً فَلَوْلاه لكانَ لَها الأمانُ

لَقَدْ غَيَّرتَ أصْلَكَ يا طُوَيْساً مُجاهَرَةً فَغَيَّرَك الزَّمانُ

ثُمَّ ناديتُ المدرَج، المُنْتَسِب لِلْخزْرَج : [متقارب]

سألتك بالله يا مدرَجُ أمَا هكذا كانت الْخَزْرَجُ

وهُمْ نصروا أحْمَدَ المُصْطَفى وكانَ العداةُ له أدلَجوا [1]

وكَمْ جدلُوا الأسْدَ وسْطَ الوَغى وكَمْ نَارَ حَرْبٍ بها أجَّجوا [2]

---

1. الادلاج سير الليل، والمقصود هنا ما كان من ترصد قريش للرسول ليلة الهجرة.
2. مدمج أي مبهم ومستور.

فَمَنْ ذا ينالُ مَدى فَخْرِهِمْ　　وفَخْرُهُم عَنْكم مُدمَجُ

بِنفسِكَ فافْخَرْ وخلِّ الجُدُودَ　　وفاخِرْ بِفِعْلِكَ يا مدرَجُ

رأيْتكَ للِرّومِ ذا خُلّةٍ　　وأنْتَ على نَسجِهم تَنسِجُ

تَزَيَّ بزيّ النَّصارى الكِلابِ　　فأنْتَ بِزِيِّهم تَبْهَجُ

لَقَدْ بعتَ مِنْهم نُضارَ النُّضارِ　　بشَيْءٍ يقالُ لَهُ البَهْرَجُ

تَركْتَ الجُدُودَ وما أثّلوا　　فلا الدِينُ باقٍ ولا المَلْهَجُ[1]

إذا كُنْتَ لا تَتَّقي ربَّنا　　فَمالكَ مِنْ شِدَّةٍ مَخْرَجُ

وإنّي لأدري بطولِ المَدَى　　بأنّكَ عَنْ ديننا تَخْرُجُ

فتَنَفَّسْت الصُّعَداء وقُلْتُ: إنّا لله تَغَيَّرت الأنصار فاعْتَبروا[2]

يا أولي الأبصَار وأنْشَدتُ: [كامل]

الْيَوْمَ صارَ البُخْلُ في الأمْصَارِ　　واللُّؤْمُ تَحْتَ عمائِمِ الأنْصارِ

لَوْ كانَ قَيْسٌ أوْ عَوانَةُ أبْصرا[3][4]　　فِعْلَ الأواخِرِ مِنْ بَني النَّجّارِ

وهُمُ تَغَيَّرَ دينُهُم ولباسُهُمْ　　وتَمَذْهَبُوا بِمَذاهِبِ الْكُفّارِ

عَضّوا أنامِلَهُمْ على أحْسَابِهِمْ　　وشَكَوْهُمُ في الحَشْرِ لِلْمُخْتارِ

ثُمَّ ناديْتُ بِشَنْدَة، المُنْتَسِبِ لكِنْدة : [بسيط]

1ـ الملهج : اللغة.

2ـ إشارة إلى قول الشاعر: ذهبت قريش بالمكارم والندى　　واللوم تحت عمائم الأنصار

3ـ قبس : هو قيس بن سعد بن عبادة.

4ـ عوانه : من زعماء الأنصار.

يا شِنْدَةُ ! كِنْدَةُ تُعْزَى لَهَا الفِطَنُ ... والنَّظْمُ والنَّثْرُ والأفْضالُ والمِنَنُ

من كِنْدَةٍ كانت الأشْعارُ واخْتُتِمتْ ... بِكِنْدَةٍ ثُمَّ لا شَيْءٌ يُرى حَسَنُ[1]

فالأوَّلُ المَلِكُ الضِّلِّيلُ شاعِرُها ... والآخرُ المُتَنَبِّي الشّاعِرُ الفَطِنُ

إنْ كُنْتَ يا شِنْدَةٌ بالأصْلِ مُفْتَخِراً[2] ... فاذْهَبْ فأنتَ لحاكَ اللّهُ مُمْتَهِنُ

كانوا أُسوداً وكانوا قَدْ سَمَوْا كَرَماً ... وأنْتَ ويحكَ فيكَ البُخْلُ والجُبُنُ

الخَيْلُ واللَّيْلُ والبَيْداءُ تَعْرِفُهُمْ[3] ... وأنْتَ يعرِفُكَ القَنُّوطُ[4] والْبُدُنُ[5]

فَلَوْ نَسَجْتَ عَلَى مِنْوالِهِمْ لَغَداً ... يَزْهُو بكَ الدَّهْرُ والأمْصارُ والمُدُنُ

لكِنْ نَسَجْتَ على مِنْوالِ حاكَتِنا[6] ... فَخانَكَ الدَّهْرُ واسْتَوْلَتْ بِكَ الْمِحَنُ

ثُمَّ ناديتُ بحسّان، المُنْتَسِبِ لغسّان : [كامل]

اسْمَعْ كَلامَ الحقِّ يا حَسَّانُ ... فأنَا الذي قَدْ شَيَّبَتْ غَسَّانُ

ما أنتَ أوَّلُ مَنْ تَنَصَّرَ مِنْهُمُ[7] ... وتَلاعَبَتْ بِعُقولِهِ الصُّلْبانُ

هُمْ أهْمَلُوكَ وَعَلَّموكَ طبيعَةً ... وَشَرِيعَةً يَرْضَى بها الشَّيْطانُ

فانظر «فتوح الشام» تعلم أنهم[8] ... قَدْ غَيَّروا دينَ النَّبيِّ وخانوا

وَجَدوا بَناتِ الرّومِ بيضاً كالدُّمى ... وحُلِيُّها الياقُوتُ والمَرْجانُ

فَتَنَصَّروا وتَدَجَّنوا مِنْ بَعْدِما[9] ... رَكَنُوا إلى الإسْلامِ يا حَسَّانُ

---

1. إشارة إلى القولة المعروفة : بدئ الشعر بكندة، وختم لكندة.
2. كذا في الأصل ولا أفهم معنى هذه الإضافة.
3. إشارة إلى قول المتنبي :
   الخيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم
4. القنوط : تعريب للكلمة الإسبانية : Canuto ومعناها : العصا دوزي 2 : 412.
5. لعلها جمع بدنة وهي الناقة أو البقرة أو البعير، ولعل المعنى أنه أصبح راعيا.
6. يفهم منه أن الحاكة معروفون من قديم بضعة النفس وسقوط الهمة.
7. يشير إلى تنصر جبلة بن الأيهم وغيره.
8. فتوح الشام : اسم كتاب معروف للواقدي.
9. أصل الدجن : الإقامة بالمكان، ولكنه في الاصطلاح الأندلسي اكتسب معنى إقامة المسلمين في ديار الكفر، ومنه اصطلاح المدجنين.

فَجُدُودك الإفْرَنْجُ فانْهَضْ نَحْوَهُمْ ... فَـهُنالك الأعْمَامُ والإخْـوانُ

لا فخْرَ عِنْـدَكَ أوَلٌ أوْ آخِـرٌ ... خَلِّ الفَخَار كَذَاك قومُكَ كَانُوا

ثُمَّ ناديتُ بِمِهْيَر، المُنْتَسِبِ لِحَمْيَر : [كامل]

يا مِهْيَرُ، قُطْبُ المفاخِرِ حِمْيَرُ ... ولهـا المَكَارِمُ والعَـلاءُ الأكْبَـرُ

مَلَكـوا المشارِقَ والمَغَارِب عَـنْوَةً ... وَزَهَـتْ بِمُلْكِهِم الدُّنا والأعْصُرُ

بِسُيوفِهِمْ قَهَـرَ التَّبَابِعَ تُبَّـعٌ[1] ... حتَّى أطَاعَتْ عُرْبُها والبَرْبَرُ

قَادُوا الجُيُوش إلى العِدا وتَمَلَّكوا ... حتَّى تَخَوَّف مَنْ آبوه الأصْفَرُ[2]

أما الـفَصاحَةُ والبَراعةُ والنّدى ... فَهُمُ الذين جميعها قَدْ أظْهروا

بِكَلامِهِم نَزَلَ الـقُرانُ مُبَيِّنـاً[3] ... لَمَّا حَوتْ كُلُّ الفصاحَةِ حِمْيَرُ

إنَّ العمائم في الوَغَى تيجانُهُم ... ورُكُوبُهُمْ فيها العِتَاقُ الضُّمَّرُ

هُمْ سَادَةُ العَرَبِ الـذين تسوَّدوا ... فَفَخَارُهُم عِنْدَ الوَرَى لا يُنْكَرُ

لوْ كُنْتَ تَفْعَلُ فِعْلَهُم يا مِهْيَرٌ ... مـا كُنْتَ جَهْلاً دونَهُم تَتَنَصَّرُ

بَنَوا الفَخارَ وأنْتَ تَهْدِمُ ما بَنَوْا ... وَصَفَتْ مواردُهُمْ وأنتَ تُكدِّرُ

عبّرت إذْ غيَّرْتَ سيرةَ مَنْ مَضَى ... مِنْ مَعْشَرٍ خَيْرَ الخِصَال تَخَيَّروا

فإذا سَكَتَّ سَكَتَّ ألفاً جَاهِـلاً ... وإذا نَطَقْتَ نَطَقْتَ خُلْفاً تبهر[4]

ثُمَّ ناديْتُ بِقنانَة، المُنْتَسِبِ لِكِنانَة : [وافر]

1ـ تبع : لقب ملك اليمن ... ولم يكن يلقب به إلا إذا كانت له حمير وحضر موت والجمع تبابعة وتبابع كما هو هنا.

2ـ أي حتى خاف بنو الأصفر وهم الروم.

3ـ هذا غريب، فالمعروف أن القرآن نزل بلغة قريش.

4ـ تضمين للمثل المعروف : سكت ألفا ونطق خلقا.

إلى كَمْ أنْتَ تَشْقَى يا قِنانَه	وتَذْهَبُ بالرَّسائلِ في الكِنانَه
بقَوْمِكَ تُضرَبُ الأمْثالُ فاسْمَعْ	لقَولِ النّاسِ : أفْصَحُ من كِنَانَه[1]
لَقَدْ أفْنَيْتَ عُمْرَكَ في المَعَاصي	وبَدَّلْتَ الفَطَانَةَ بالرَّطانَه
سَأَلْتُكَ بالّذي أوْلاكَ بُخْلاً	وأحْرَمَكَ السَّعادَةَ والدِّيانَه
إلى مَ تَسيرُ ويَحْكَ في الفَيَافي	وتَسْعى في مُراضاةِ الرِّيانَه[2]
فلا دينٌ ولاَ دُنْيا تَراها	ولاَ عِرضٌ يُصانُ ولا صِيانَه
أزِلْ عَنْكَ التشبُّه بالنَّصارى	وعُدْ لفَعالِ قَوْمِكَ يا زُعَانَه[3]

ثُمَّ ناديتُ بضَخْم، المُنْتَسِبِ للَخْم : [سريع]

يا ضَخْمُ سارَتْ بالمَعالي لَخْمُ	فالعَزْمُ والحَزْمُ لَها والفَهْمُ
والفَخْرُ والنَّثْرُ معاً والنَّظْمُ	لَوْ كُنْتَ يا ضَخْمُ لِفَخْرٍ تَسْمو

لَمْ يَمْشِ ما حازَتْ ويَبْقَى الرَّقْمُ

ثُمَّ نادَيْتُ بجُذام المُنْتَسِبِ إلى جُذام : [وافر]

بلاكَ اللّه باسْمِكَ يا جُذَامُ[4]	ولاقَتْكَ المَصائِبُ والحِمَامُ[5]
رَأَيْتُكَ يا جُذَامُ تَحيدُ عَمَّا	بَنَتْ مِن مَفْخرٍ قِدماً جُذَامُ
لَقَدْ نَامتْ جفونُكَ عَنْ عُلاها	وغَيْرُكَ عَنْ عُلاها لا يَنامُ
فَمالك قَدْ رَجَعْتَ فَتًى وَضيعاً	وقَوْمُكَ سادَةٌ غُرٌّ كِرامُ

---

1. أفصح من كنانة وأفصح من الكناني : من الأمثال، انظر كتابنا : أمثال العوام في الأندلس ق 1 ص 108.
2. الريانة : الوساخة.
3. زعانة : احمق (معجم دوزي 1 : 594).
4. دعا عليه أن يصيبه مرض الجذام.
5. الحمام : الموت.

أمِنْ هذى البلادِ كَسَبْتَ بُخْلاً ... فإنَّ أُناسَها كُلاًّ لئامُ
فقال نعم فدتْكَ النَّفسُ إنّي ... أتَيْتُ لأهْلِها وأنا غُلامُ
فما زالتْ بيَ الأيامُ حتّى ... تَعَلَّمْتُ الوضاعةَ يا هُمامُ
طِباعُ المرءِ تَنْقُصُ كُلَّ يَوْمٍ ... إذا ما طالَ عِنْدَهُم المُقَامُ
إذا صاحَبْتَهم في الدهرِ يوماً ... فإنَّكَ في الوضاعةِ لا تُلامُ

ثُمَّ ناديْتُ بِنزار، المُنْتَسِب لنزار : [سريع]

نِزارُ يا نِزارُ يا نِزارُ ... عَلَيْكَ في اللّوم هُوَ المَدارُ
ما أنْتَ إلاّ رَجُلٌ خَوّارُ[1] ... لِباسُكَ الغشكُونُ والزُّنّارُ
وآكِلُكَ الخِنْزيرُ والعُقارُ ... لا خَيْرَ يرجُو مِنْ يَدَيْكَ الجارُ
كَيْفَ وقَدْ هَذَّبَكَ الجِدارُ[2]

ثُمَّ ناديْتُ بِزُرْطِي، المُنْتَسِب لِطَي : [رجز]

يا زُرّطي يا زُرَّطي ... جَدِّيَ قُلْ حاتِمُ طَي
ذاكَ الكَريمُ والسَّخي ... أمّا أنا ما أنا شَيْ
إذا أتى وَقْتُ الغَذي ... آكُلُ وَحْدي في طَوَيْ[3]
فلَوْ تَراني يا أُخَي ... عِنْدي ضَوارٍ في النَّدي[4]
لا تَتْرُكُ الخِلّ الصّفي ... يَطْرُقْني بغَيْرِ شَيْ
إذا سَمِعْنَ طَيْ طَي ... جَاوَبْنَه بهَيَّ هَيْ

1ـ الغشكون : اسم لباس مثل القباء أو القميص : دوزي 2 : 213.
2ـ تلميح إلى مدينة الجدار المشهورة بالبخل التي يقال إنها الجزيرة الخضراء.
3ـ الطوى : البئر.
4ـ أي كلاب ضوار.

فلمَا سَمعوا شعْرَ زُرّطَي ماتوا ضَحكا، فَسرْتُ عَنْهم ولَمْ أَخَفْ دَركا، ولوْ لمْ أتَعَمّدْهُم بذلك لعَرّضوني للمهالك، واللّه يَعْلَم أنّي ما قُلْتُ إلاّ حقا، وما أظْهَرتُ مِن الحقاق إلا حُقا[1].

فَدَخَلْتُ طَرِيف، فَوَجَدْتُهَا بِضِدّ اسْمِها، فَدَعَوْتُ اللّه تَعَالى بمَحْوِ رسْمِها، ورأيتُ القَصَبَة[2]، أضيَقَ من أُنْبوب القَصَبَة، وكِدْتُ أهْلك بنَسيمها الأدْفَرَ[3] لَولا حُضُور المِسْك الأذْفر، فأنشدت : [كامل]

يا أهْل أنْدلُسٍ غَلِطتم ويحْكُمْ ... في اسْمِ الجزيرةِ عِنْدَكم وطَرِيف

سَمَّيتم الخَضْراءَ وهْي بضدِّها ... وكذا طريف وهْو غَيْرُ طريف

وأقسمتُ حينئذ بالذّي وضَع الغَبْراء[4]، ورفَع الخَضْراء[5]، لأُيمّمنّ الجزيرة الخَضْراء، فولّيْتُ عن طريف مُشمِّرا، وأتيتُ إلى الجزيرة مُتَنَمِّرا، فدخلتُها وخَلّيْتُ خَلْفي، زادي وعُدّتي وإِلفي، في يوْم كَثُر أُوارُه[6]، وظَهَر منْ ساكنها عَوارُه[7] لأنّي لَمْ أكن أعلَم أنَّهم أهلُ الجِدار[8]، الذّين عليهم في البُخْل المدار، فقلتُ لهم اسْقوني من الماءِ جَرْعة، فقدْ أصابَتْني غُلّةَ ولَوْعة، فقال

---

1. يشير إلى كثرة حقاق العجايبي. انظر أمثال الزجالي رقم 672.

2. يقصد قصبة طريف، وما تزال قائمة إلى يومنا هذا، وقد وقف عندها السفير المغربي ابن عثمان وقرأ الحجر المكتوب فيه تأسيسها في العصر الأموي، أما الرائحة الكريهة في طريف فقد أشار إليها ابن عثمان وذكر أن سببها أودية الماء المضاف الخارج من الديار وما يجتمع بها من قذرات كثيرة تبقى كذلك إلى أن يأتي السيل وقت المطر فيذهب الجميع إلى البحر. الإكسير : 188 تحقيق الأستاذ محمد الفاسي.

3. الادفر : الكريه النتن (بالدال المهملة) والاذفر بالذال المعجمة الطيب الرائحة.

4. الغبراء : الأرض.

5. الخضراء : السماء.

6. أواره : حرارته وقيظه.

7. أي بدا ما كان مستورا من عيبه.

8. ذهب عدد من أصحاب البلدان إلى أن «الجزيرة الخضراء» هي مدينة الجدار التي ورد ذكرها في سورة الكهف ومنهم البكري في المسالك والممالك ص 118 (تحقيق عبد الرحمان الحجي) والحميري في الروض المعطار ص : 74 وفيه : "أهل الجزيرة هذه هم الذين أبوا أن يضيفوا موسى والخضر عليهما السلام، وبها أقام الخضر الجدار وخرق السفينة، أما المفسرون فقد اختلفوا في تسمية مدينة الجدار، انظر أقوالهم في تفسير البحر المحيط لأبي حيان.



أحدُهم : هات حقّها، وتكون مُستحِقَّها، وإلاّ فالماءُ خَارجَ الجزيرة، ومَشاربُه غَزيرةَ، فأنشدت : [بسيط]

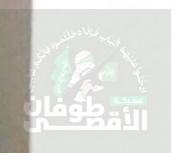
قدْ كنتُ أطمَعُ في الخضراءِ أسكنُها دهراً وألْـزَمُها بالأهـلِ والـوَلَـدِ
حَتَّى رأيتُ بهَا قوماً قدِ انْفـردوا باللُّوْمِ والبُخْلِ والتقتيرِ والحسدِ
إن جئتَ تطلبُ ماءً مِنْ ديارهـم قالوا لكَ : الماءُ يَجْرى خارجَ البلدِ
فـإن أتيتَ إلى نارٍ لتوقِـدَهـا قالوا : اشترِ النارَ وأقْربْ نحوهَا وقِدِ
إن كانت النارُ تُشرى عِنْد أَنْدَلُسٍ فكيف يدْخُلُها غازٍ مَـدى الأبَـدِ[1]
عَلَـيَّ نَـذرٌ إذا فـارقـتُ أُنْـدلساً تَرْكُ الحِصَانِ وتَرْكُ المالِ والعُدَدِ

فخرَجتُ عنْ ناديهم، وسرْتُ لأَشْرَبَ منْ واديهم، فوجدتُه مِلْحا أُجاجا، لا فُراتا ولا ثَجاجا، وقد تغيّر لونُه، وصارَ كالعَدَمِ كوْنُه، فقلت : [رجز]

سَألـتكم بربّـنـا عـزّ وجـلَّ هذا الذي تدعونَه وادي العَسَلْ[2]
فهَلْ قَصَدْتُمْ باسْمِهِ ضربَ المَثَلْ أوْ هَلْ وَجَدْتُمْ طَعْمَه مثْلَ العَسَلْ

فرجعتُ عنْه كأنّي ظمآنُ غرّه السّراب، إذْ وجدتُه كالْمُهْل يَشْوي الوجوه وبئس الشْراب[3]، ثمّ التفتُّ إلى جِدارٍ أخلقَ الزّمان بناءه، ولم يصرِفْ إليه

1ـ الغازي : المجاهد، جمعه غزاة، وقد أطلق هذا اللفظ على الجندي المغربي المرابط في الأندلس زمن بني مرين.
2ـ يقول ابن سعيد في المغرب 320 . 321، و«نهرها يعرف بوادي العسل سمي بذلك لحلاوته» أما ابن عبد المنعم الحميري فيقول : «وبقرب المدينة مدخل الوادي في البحر، عليه بساتين كثيرة ومهبطه من حيث تدخله السفن، ومنه شرب أهل الجزيرة، ويسمونه وادي العسل ويمده البحر إلى قدر شطر المدينة، وهو نحو نصف ميل».
الروض المعطار : 73.
3ـ من الآية 29 من سورة الكهف.



أحد اعتناءه، وقلتُ لمن حضَرَ من أهل الجزيرة، وقدْ ملأ من الماء زيرَه[1] : ما بالُ هذا الجدار قدْ هُدِم، أحَيٌّ صاحبُه أم عُدِم، فقال : هُوَ للْغُلامَيْن اليَتيمَيْن، الفقيرَيْن العديمَين، الّذي وجده الخَضِر يريدُ أن ينْقَضَّ فأقامه، ولَمْ يَسْتَطِع مَعَ صاحِبه صلى الله عليه وسلّم إقامه، وهذه القَرْيَةُ التي استَطْعَما أهلَها فأبوا أن يضيفوهما، وبخلوا عليهما بالطّعام وعنّفوهما، وشؤمُ الجدار معْروف، وبُخْل أهلِ قَرْيته في القُرآن موْصوف، فأنشدت : [وافر]

أتَرْجو الفضْلَ في أهل الجدار حَـذار حَذار لا تَطْمَعْ حَذار

أتاهم ليلةً موسى ومـوصى[2] فبـاتا بالطَّـوى خلْفَ الجِدار

إذا مَنَعـوا نَبـيّـهُمُ طعـامـا وصَاحِبَهُ فكيفَ يكونُ سار

فلَوْ علم الإلهُ هناكَ فَـضْلاً لَما تـركـوهـما تَحْتَ القفار

سأَرْحَـلُ مِنْ بلادٍ ليْس فيها مكـانٌ للإقـامـةِ والْقَـرار

أمـا واللّـه إنْ منعـوا جَـوازي رَمَيْتُ النَّفْسَ في لُجَجِ الْبحار

فما يُتَرجّى مِنْ قومٍ تغيَّرتْ ألسنتُهم وأَقوالُهم، وتبدَّلَتْ سيرهم وأحوالُهم، يرونَ الخطأ صَوابا، والمأثَم ثَوابا، قدْ قرأوا الخيانَة، قَبْل الدّيانة، وتعلَّموا الوضَاعَة، قبلَ الرَّضاعة : [كامل]

فكأنّها خُلِقَتْ مُوافِقةً لهم دون الْورى وكأنّما خُلقوا لها

---

1. الزير : الخابية، ويختلف شكل الزير وحجمه من بلد لآخر.
2. كذا في الأصل.

لا فرْقَ عندهم بينَ الْفَلَك والفَلَق، ولا بَيْن الملك والملَق، والحبَك والحَبَق، والشّرك والشّرق، والدَّرك والدَّرق[1]، قَدْ رجعَ سلامُهم سَليما، وكَلامُهم كليما[2]، فَقسْ على ذلك تُصبْ، فإنه على ذلك المنهاج نُصب، ومنْ غريب ما اتَّفقَ لي فيها، حين كنْتُ أُوافيها، أنى مَرَرْت بإمام يُصلّي بالنّاس، وهو يقْرأ قل أعوذ بربّ النّاس : [كامل]

قَدْ بدّلَ الوَسْواس بالوَسْويس وكـذلـك الـخَنَّاس بـالـخنِّيس

وكـذاك بَـدّلَ آيـةً فـي آيـةٍ حتى يُوَسْوِسَ في صُدور النّيس[3]

فَأَمْهَلْتُه ريثما أتمَّ صَلاتَه وقراءَتَه، ولبسَ عبَاءَتَه ومُلاءَتَه، فابْتدأتُه بأشَدِّ العتاب، وقُلتُ له : لم بدّلْتَ الكتاب، وإثْمه على الذينَ يُبدِّلونَه، ووزْره عليهم يحملونه، فأَقْسم أنَّه قرأَه كذلك على قُرّاء عَصْره، وأنَّ تلْك لغَة أهْلِ عُدْوته ومِصْرِه، فقلْتُ : [بسيط]

يا أهْلَ أندلُس مالي رأيتكُمُ أحْدثتم في كتاب اللّه ألحانا

نَبَذْتُموه وبـدَّلْـتم معـانيَـهُ عمَّا بمُصْحَف عُثْمان بن عفّانا

صلوا الصَّلاةَ ولا تقروا بها سُوراً فَقَدْ رددتمْ على فريق فُرقانا[4]

بدّلْتُم القولَ حتى قول خالقنا لَقَدْ أتيتُم لَعَمْرو اللّه بُهتانا

وإنْ دعوتُم لحنْتُمُ في دُعائِكمُ فكيفَ تَستَوجبون الدَّهْر غُفْرانا

رَبُّ العِباد غَنيٌّ عَنْ دُعائكم ونحنُ أيضاً عن التأمين أغْنانا

1ـ يشير هذا إلى نطق الكاف عند الأندلسيين، راجع المبحث المتعلق بهذا الموضوع في كتابنا : أمثال العوام في الأندلس، ص 292.

2ـ يشير إلى ظاهرة الأمالة في نطق الأندلسيين، انظر دراستنا لها في كتابنا أمثال العوام في الأندلس ق أ ص : 282 وما بعدها.

3ـ وردت كلمة النيس : الناس مكتوبة حسب الأمالة في معجم الراهب بطرس القلعي.

4ـ كذا في الأصل.

وجلستُ يوْماً عِنْد القاضي ابنِ عُذْرة[1]، وكنتُ في الأحكام لا أقْبلُ عُذْره، فإذا برَجل مُقْبَل، لدُموعه مُسْبَل، فلّما قَرُب منّا تَنَهَّد، وأنْشَدَ : [كامل]

أبْصرتُ شاباً يا فَقيهُ حكيما فأريْتُه ممّا ادّخرتَ عليما
أخذ الحَليم ورده في بيْتِه وأبى يُفارقُه فبتّ سَقيما

فأخذته بِظَاهِرِ قوْلِه ولَفْظه، وأنشدته جواباً بَعُدَ عن فَهْم القاضي وحفْظه : [كامل]

إنْ كانَ حقّاً ما تقولُ فإنّه عدلٌ رضًى فازدَدْ به تعظيما
تا اللّهِ لَوْ أُعْطَى عليماً مثله[2] ما بتُّ مُفْتقرا ولا مَهْموما

فلمّا سَمِعِ القاضي البَيْتَين، صفّقَ بالرّاحتين، وقالَ لي ويْحك قَدْ عَرَّضت نفسَك لإنكار الودائع، ونَصَبْتَ للنّاس الخدائع، فقُلْتُ له : أنْتَ بالمعاني جاهِل، وعَن الحَقائق ذاهِل : [بسيط]

وما انتِفاعُ أخي الدُّنْيَا بناظِرِه إذا استَوتْ عِنْده الأنوَارُ والظُّلَمُ[3]

وإذا بثانٍ أوْدَع رجُلاً مالا، واحتَمَلَه له احتِمالا، فلمّا قَرُب مِنْ موضعِ الأوّل، أنشد وأعْوَل : [كامل]

لي عِنْد هذا يابْنَ عُذْرَة ميلُ والميلُ[4] ميلي ساقَه الحَمِّيلُ[5]
أوْدَعتُه بالأمْس في صندوقِه فسخا بهِ كُلاًّ فمرّ الْميلُ

---

1. كان بنو أعيان الجزيرة الخضراء، وقد اشتهر منهم أعلام مذكورون في كتب التراجم (صلة الصلة : 66، 145).
وفي نفح الطيب : «من أهل الأندلس من ينتسب إلى عذرة... ومنهم أعيان الجزيرة الخضراء بنو عذرة». نفح الطيب أ. 278.
2. لعله ممال علام أي راية وعلم في لهجة الأندلسيين والمغاربة.
3. البيت للمتنبي من قصيدته المعروفة : وأحرّ قلباه ممن قلبه شبم.
4. الميل في جميعها بالأمالة : المال.
5. والحميل بالأمالة أيضا : الحمال.

فأجبتُهُ هـذا محالٌ باطِلٌ فـاذْهَبْ فإنّكَ أحمقٌ مذهولٌ

لا تَسْتَطيعُ الفُلْكُ تَحْمِلُ رُبْعَهُ كَيْفَ الصُّنَيْدِقُ ما لذاكَ سبيلُ[1]

قالوا جهلْتَ الحكْمَ فيما بيْنَنا قُلْتُ اذْهَبوا ما في الجزيرَةِ قيلُ

فَقام القاضي وقعد، ودَنى وابْتَعَدَ، وقال : لَقَدْ أَفْرَطت في العُقوق، وفَرَّطْتُ في أَخْذ الحُقوق، فقُلت لَهُ : هذا وأبيك الجوَاب، والّذي قُلتُ هُو الصَّواب، فَبَيْنما نَحْنُ نُطيلُ الكَلام، ونُكْثِر المَلام وإذا بثالثٍ قد ادّعى عَلَى رجُل أَنَّهُ قَتَل لَهُ حماما، ودمْعُه يَنسجم انسجَاما، وهو يَضربُ عَلَى خديه. بيَدَيْه، فَلمَّا دنا منّا تنفَّس الصّعداء، وأدْهش الأَقْرَبين والبُعَداء، وقال : [وافر]

ألاَ قُلْ لابْنِ عُذْرَةَ يا فَقيـهـا حَمَى أحكامَهُ وحَوَى العُلوما

فُديتَ ! أصَاب لي هذا حميما[2] فَخَلَّفَهُ صريعا لَـنْ يقوما

أتَيْتُ به من أسجَةٍ صَغيـرا[3] وكـنت أحبُّـه حُبّـاً عظيما

فـآنَسَنـي وكنتُ لَهُ أنيسا وصِرْتُ بِه، وإنْ يَجفو، رحيما

تـركْتُ الأمَّ تنْدُبُه وتَبْكـي كما بَكت الـهَديلَ بِه قَديما[4]

فَخُذْ لي يا بْنَ عُذْرَةَ مِنْه حَقّي فـما لاقَيْتُ مُذْ أودى نَديمَا

ثُمّ التَفتَّ إلى قاتِلِ حَمامه، وجاوبْتُه مُجَاوبَةً أَدْنَتْه لِحمَامِهِ : [وافر]

1- يقول هذا لأنه فهم الميل على أنه المسافة المعلومة وليس المال بالأمالة.

2- حميما أي حماما بالأمالة.

3- أسجه وهذا نطقها العامي كما في الأمثال وتكتب في كتب البلدان استجة، وهي مدينة تابعة لإقليم إشبيلية، الروض المعطار : 14 ودائرة المعارف الإسلامية.

4- الهديل : فرخ كان على عهد نوح عليه السلام مات عطشا أو ضيعة أو صاده جريح من الطير فما من حمامة إلا وهي تبكي عليه. القاموس.

فَقُلْتُ اسمَعْ مقالتَه وأوْجِزْ   وبَيِّنْ لي الطريقَ المُسْتقيما
أما تَخْشى إذا أنكرتَ يوماً   يخافُ بِه مُعاينُه الجحيما
ولا يَدْري الصّديقُ بِهِ صديقاً   ولا يسلُ الحَميمُ بِهِ حَميما
فقال : الحقُّ ما قَدْ قال خصْمي   نَعَمْ إنّي قَتَلْتُ لَهُ حَميما

فلمّا أقرَ بالقَتْل، واعْتَرَفَ بالخَتْل، قُلْت للحرَس خُذوه، وإيّاكُم أن تُنْقذوه، واحْمِلوه للْمَوْت، وعَجّلوا به للْفَوْت، فعندما رأى القاضي عزْمي، وإنْفاذَ حُكْمي، زَفَر زفرة الغَيْظ، وكادَ يَتَمَيَّزْ من الْغَيْظ، وقال رِفْقاً يا عَبْدَ العزيز، سَأَلْتُك بالمَلك الْعزيز، فَقَدْ خالَفْتَ في الأحْكَام، وحِدْتَ فيها عنْ منْهاج الحُكّام، فقلتُ له : تدبَّرْ أحكامي، تَتَعَجَّبْ مِنْ بدائع إحْكَامي، فإنّ الحَميم الصّاحب، والحَمَام النّادِب، فانْصَرَفْتُ وتركتُ القاضي على جهالته، وخلّفْتُه على ضَلاَلَته، وسألْتُ فتى لم يزلْ لَهُمّ مجاورا، وكانَ مُلْتَزِماً لأخْبارِهم، عارفاً بأخبارِهِمْ، لِمَ صارَ كلامُهم كَلِيما، وسَلاَمهم سليما، فقال : [وافر]

أبُثُّكَ يا فتى سرّاً خَفيا   به صارَ السَّلامُ لَهُمْ سَليما
وذلك أنّ موسى حين وافى   قَريَّتَهم[1] وصاحِبَه الكليما[2]
وقَدْ طلبا المضافَ فما أُضيفا   ولَمْ يجدا بها حُرّاً كريما
....[3]

1ـ القرية : نطق عامي للقرية : انظر أمثال العوام ق 2 ص 354.
2ـ كذا في الأصل، والكليم هو موسى ولو وضع موضع موسى الواردة في أول البيت لكان الأمر مقبولا.
3ـ يبدو أن بيتا سقط هنا يتضمن معنى الدعاء عليهم بأن تميل ألسنتهم أو ما أشبه ذلك.

لِكَيْ يـدْري الأنامُ بأنَّ مـوسى   عَـلَـيْه وخلّه بَخِلوا قديما

فـقِس أقْـوالَهُم بفَعيلِ كُـلاً   تَجِـدْ ما قلـتُه لك مُسْتقيما

ولما طالَ في الجزيرة المقام المتوالي، في صُحْبة المقام العَالي، خشيت أن تفسُدَ الطّباع وتَسْتَنْعج السِّباع[1] والجَمْرُ يخْمُد إنْ وُضِع في الرّماد[2]، ولؤمُ الجزيرة يؤثِر حتّى في الجَماد وما زلْتُ أدْعو الله أن يُهَوِّن في جوار السُّلْطان، ويبلِّغنا الأوْطان، فقعدت يَوم ارتحالي منْها، ومسيرتي عَنْها، مع الفقيه الأسنَى أبي فارس عبد العزيز العِمْراني كاتِب الخِلافة، وكنت أخْتارُ دونَ النّاس ائتلافَه، فما زلْنا نُجيل في الرّحيل الأفكار، ونُكْثِرُ منه الاذكار، وإذا بغُراب قد نَعَق، وادهش النّا (س) بعَق عق[3]، فأنشدت : [وافر]

إذا نعَقَ الغُرابُ على الجَزيرَه   فابْشِرْ إنَّ فُرقتَها يسيـرَه[4]

فقال الفقيه المذكور : [وافر]

فَعَوِّلْ أنْ نَجوزَ بغيرِ شَكٍّ   فـإنَّ عـجائبَ الدُّنْيا كَـثيرَة[5]

فوالله ما أتْمَمْنا البيتين بالارْتجال، إلاَّ وشرَعَ أمير المُسْلمين في الارْتِحال، فَعندما تركتُ الجزيرة خَلْفي، وطَمِعْتُ فِي اجْتماعي بإلْفي،

---

1. أي تصير السباع نعاجا.
2. هذا من قول الشاعر المتمثل به.
3. أي في عبوره وانتقاله إلى المغرب.
4. أبو فارس عبد العزيز العمراني (الذخيرة السنية : 86) والأنيس المطرب : 298، 375 روضة النسرين.
5. كذا في الأصل، بإهمال العين، وفي كتب اللغة بالغين وهي حكاية صوت الغراب.

نَظَرْتُ إليها بعدما أبعدتها، وأمسكْتُ لحيتِي في يدي وأنشدتُها : [وافر]

إذا ما عدتُ نحوكِ فاحْلِقيها بموسى أو بقار فانتِفيها
وقُل للجز (يرة) الخضْراء مهمَا[1] ركبتُ الفَلْكَ نحوكِ غرّقيها
فما أبْصرتُ في الخَضْراء إلاَّ وجوهاً (يَسْتبين) اللُّؤْمُ فيها[2]

---

1. الكلمة في الأصل غير تامة.
2. الكلمة ممحوة في الأصل، وقد أصاب الأبيات الثلاثة محو في الأصل فاكملناها بما يبدو أنه الصواب ...

نَظَرْتُ إليها بعدما أبعدتها، وأمسكْتُ لحيتِي في يدي وأنشدتُها : [وافر]

إذا ما عدتُ نحوكِ فاحْلِقِيها بموسى أو بقارِ فانتِفِيها

وقُل للجز (يرة) الخَضْراء مَهْمَا[1] ركبتُ الفَلْكَ نحوكِ غَرّقِيها

فما أبْصرتُ في الخَضْراء إلاَّ وجوهاً (يَسْتبين) اللُّؤْمُ فيها[2]

---

1. الكلمة في الأصل غير تامة.
2. الكلمة ممحوة في الأصل، وقد أصاب الأبيات الثلاثة محو في الأصل فأكملناها بما يبدو أنه الصواب ...

من مخطوطة
طرفة الطريف للملزوزي



بالسوق

بأسفل الدير عليهم وبكم في اسم الجزيرة غير كبير وكهوف
يسمسم للخضراء وفي بحر معا. وكثر الكهوف وفوق الكهوف
واستمت حسين الذي وضع الغبراء. ورفع الخضراء. ثم سمي الجزيرة
الخضراء. مولية عن الكهوف مشمرا. وانتبه إلى الجزيرة مسمر
مرحلتها وحلتنا حليمة. راجع مغربي والعي في يوم كثير او
وطنهم من نساكنها عوارة. لأني لم أكن أعلم أنهم أسفل الجدار الذي رفع
في الجعل الجدار. فقلت لهم أشعروني من المكان حتى عند فتكرا طالبه
علة ولوعة. فقال الجرمع فقال حفها ويكون منتخبها. ودرا ما
خارج الجزيرة. ومشاربه عن جزيرة ما نشر

من كتب أصح في الخضراء أسكنه في نظر والوفاء بالأمل والولد
حتى رأيت بها قوما سيرا نهم وأبا اللوم والبخل والتفتيش والحسد
إذ جئت تطلب ماء أخرج بابهم مالو الذي الماء يخرج خارج البلد
ملوا ابنه التي نال لتون فيها ما العوائد إكثار وامتنعوا عنها وفر
إذ جاءت الناس تشكو عشر أنس مكيدة بن جعلها غارم كما أبر
عليني نمر راح أمام منه أكر لسانه ثم الخطاب ثم المال والعرج

عوجت عن ناحيتهم. وسوف أشرب من ماء بهم. فوجدته ملحا أجاجا. لا با
وانعتاحا. ومن هنيئ لونه وكان كالعرم كونه فقلت

سالتكم بوحيا عن وجل فقال الذي كرعوله وأجي العسل
فهل بطريكم باسم صبر الينل. وفعل جيرتهم هنا مثل العسل

ورجعت عنه كأني هفان عن الشراب. إذ وجدته كالفهل بسواد الوجه
ويشر الشراب. ثم التفت الوجه أهلوا الأمر أن ماء له. ولم يجر في أحد إليه لعجل
وملك لمحتهم من أهل الجزيرة. ومن ملا من الجار وزيرة. ما بال مغن الذي
من مقدم. أحمي طاحبه أم عرض. فقال فهو كلعلا من البنيين الذي
العرس الذي جرء الحكم كبير بدأن بنقص ما أمانة. ولم يستطع مع
صلى الله عليه وسلم إمامته. وفعلة الفرية التي استعلنا أخطها ما بوا ان [illegible]
وحملوا عليهم بالطعام وعمتوا مكانا. وشوم الجوار مغربي. وكل [illegible]

بالسيف

يا أهل الأندلس عليكم وبخيلكم في اسم الجزيرة عنكم وكريف
مسميين للخضراء وفي بعض منها. وكنت أعرف وهو عجيب
وامتحنت حسبنا التي وصف العذراء. ورفع الحمراء. لا يصير الجزيرة
الخضراء. فوليت عن جوفها متحيرا. وأتيت إلى الجزيرة متيمما
مرحلتها وجلست خلفه. راجيا معرفتي واليقين في نوع كثيرا و
وكشف من شأنها عواره. لأني لم أكن أعلم أنهم أهل الجزيرة الذي يرجع
في البعض الهداء. فقلت لهم أشتهي من الماء جرعة. فتنكروا بالله
علة ولوعه. فقال أحدهم هات جفنها. ويكون منسحقها. ومن أما
خارج الجزيرة. ومشاربه عن جزيرة ما تيسر

فمن كنت أصبح في الخضراء أسكنها في مصرها والتي كنت بها الأهل والولد
حتى رأيت بها يوما منزلا نهج وأما اللؤم والبخل والتضييق [illegible]
إن جئت تطلب ماء أعني بارعهم ما والدخان تحرج خارج البلد
حلال نية الذي نزل للتومن فيها ما الوالتنسير لنار وأمن نحوها ومن
إن خصائص البلد تشرع عشر أندلس مكيف من جملتها غار مري تابر
عليهم نزاح أما زمن أندلس ثم الحطان من الملال والعرج

[illegible] عن تاج بهم. وسوف أشرب من ماء بهم. موجرته ملحا أجاجا. لا با
ولا غباجا. ومن عيبو لونه وكان كالعرم كونه فقلت

سائلكم موريا عن وجل فما الذي ترعوله واجي الغسل
فهل مطرتم باسم ضرب الليل. أم هل وجدتم طعمه مثل الغسل

ورجعه عنه كأني هان لعوده انتبهت. إذ وهونه كالهل يسود الوجه
ويبشر الشرف. ثم انتقد الرجال الحلو الماء. ولم جرفي أهل الأيام لعل
وملت لمجتمع من أهل الجزيرة. ومن ملا من الحار زبيرة. سأبال فهو الر
من مهلهم. أحي طاحبه ام عيرهم. فقال فهو كلعلا من البنين الـ
أهل مسنن الذي حجره الحكر كبيرا أن ينقص مما كانه. ولم ينقطع مع
صلى الله عليه وسلم إمامة. ومعيرة القرية التي أستطعمها أطعمها أبو أن
وجملوا عليها العجائب وعنفوا لها. وشؤم الجوار معروف. ونحل الـ

Margin notes (right margin): فهو مر [illegible] / [illegible] / [illegible] والبلع



ترجمة إسبانية
لطرفة الظريف



كان بين الأستاذ الكبير الراحل إميليو غرثية غومث وبيني صداقة دامت أربعين عاما، فقد عرفته في سنة 1962 عندما كان سفيرا في بيروت وكنت حينئذ مبعوثا إلى مركز اليونسكو الإقليمي لتدريب كبار موظفي وزارات التعليم في العالم العربي الموجود مقره في بيروت حيث قضيت سنة كاملة، ولما رجع إلى مدريد كنت أراه عند ورودي عليها، ثم جمعتنا أكاديمية المملكة المغربية منذ إنشائها سنة 1980 فكنا نلتقي في المغرب خلال دورتي الأكاديمية كل سنة وفي مدريد كلما زرتها، وقد رشحني لعضوية الأكاديمية الملكية للتاريخ التي وافقت عليها في اجتماعها يوم 25 يونيو 1982 ولما توفي أهديت إلى روحه كتابي عن ابن لبال الشريشي الذي صدر بعد وفاته، ويسعدني أن أثبت هنا ترجمته للطرفة اعتزازا بصداقته وتخليدا لتشارك في إبراز نص جديد يغنى مادة العلاقات التنافسية بين العدوتين[1] وفيما يلي صورة إهدائه :

A Mohammed Bencherifa,
con un gran abrazo
de su amigo
Emilio G. Gómez
Rabat 28-XI-81.

---

1. نُشر نص الطرفة في صدر العدد الأول من مجلة كلية الآداب بالرباط أما الترجمة فقد نشرت في مجلة STUDIA ISLAMICA.

UN VEJAMEN DE TARIFA Y ALGECIRAS (TRADUCCIÓN DE TURFAT AZ-ZARIF FI AHL AL-JAZIRA WA-TARIF)

Mi docto amigo marroquí el Prof. Mohammed Bencherifa publicó en la Majallat Kulliyat al-Adab wa-l'-ulum al-insaniyya de la Universidad Muhammad V de Rabat (n° 1, enero de 1977), con el título Min munáfarat al'-udwatain, un pequeño texto de valor literario escaso, pero de gran interés histórico y sociológico, que traduzco a continuación. Es acéfalo (debe de faltarle al menos un folio por delante) y hasta ahora único. Procede de la biblioteca privada del prof. al-Manini. Su título consta al final : Turfat az-zarif fi ahl al-Jazira wa-Tarif (=Novedad del elegante sobre los habitantes de Algeciras y Tarifa).

Quizá por ser acéfalo el texto en el ms. no consta el nombre del autor. M. Bencherifa, con su agudeza habitual, basándose en las alusiones del relato (mixto, como dice, de rihla y de maqama) y en algunas afinidades de temas, sugiere convincentemente en su erudita introducción que el autor puede ser 'Abd al-'Aziz (o'Azzuz) al-Malzuzi, poeta oficial del soberano marini Ya'qub ibn 'Abd al-Haqq. Lo biografía — sin hablar de nuestro texto — Ibn al-Khatib en la Ihata (ed. 'Inan, Cairo, IV, 1977, pp. 20-26). También es muy verosímil que la fecha del relato, como indica Bencherifa, sea entre 673 y 674 h. (= 1274-1275 J.-C.), tiempo en que Yatqüb residió en Algeciras durante su primera estancia (hizo cuatro) en al-Andalus. Malzüzi había de morir, encarcelado, en Fez el año 697 = 1297/8 (Ibn al-Khatib).





Como indica el título puesto a su estudio por el editor, nuestro texto entra en el género de «Disputas» (munafarat) entre las dos riberas del Estrecho de Gibraltas, que se llamaban mutuamente ' udwa : el Magrib musulmán y España. Tales «disputas» eran, como pasa siempre en casos análogos, las habituales entre países vecinos, encadenados por la geografía y obligados por la historia a vivir juntos, es decir, a amarse y odiarse al mismo tiempo ; en todo caso, a rivalizar, compararse, parangonarse, influirse y dominarse recíprocamente según las épocas, y a insultarse más a menudo que a elogiarse.

Por supuesto, tal situación y tales sentimientos son « constantes », antes y después de la dominación musulmana en la Península ibérica. Pero ahora tenemos que limitarnos al tiempo de esa dominación. Durante ella no faltaron ciertamente los motivos de recíproca fricción. Bastará enumerar los principales : entrada de contingentes beréberes con los conquistadores árabes y luchas entre ambos grupos ; intervención de los Omeyas en el África del Norte por razones estratégicas fundamentales y por su lucha contra los fatimíes ; venida de contingentes beréberes a al-Andalus en tiempos de Almanzor, fitna llamada — bien o mal — « beréber » y existencia de la taifa beréber de Granada ; intervenciones almorávides y almohades en al-Andalus, con pérdida de la independencia política de éste ; necesidad en que se vio la monarquía nazarí de Granada del apoyo militar y diplomático de los sultanes magribíes.

Estos hechos históricos, todos importantes, fomentaron la antes mencionada situación espiritual, la cual ha recibido varios nombres registrados por Bencherifa : repugnancia, aversión, enemistad, odio, envidia o rivalidad, etc. Algunos resultan demasiado fuertes. El más indicado, no cargando mucho su sentido, me parece el de nafra tabi'iyya {= repulsión



instintiva) que el propio Bencherifa ha comentado bien en el tomo I de su gran obra sobre los « proverbios vulgares » de Zajjali.

Los sentimientos de orgullo, espontáneo o herido, son en ambas partes análogos, agresivos y recíprocos. Dejando a un lado los apasionados insultos, en principio puede decirse que los Andaluces estriban sobre todo en su mayor nobleza árabe de origen, en el poderío del Califato Omeya y en su superioridad cultural durante dicho Califato y los Reinos de Taifas, mientras que los Magribíes insisten en su magnanimidad, en su hospitalidad (desde los tiempos en que acogieron a los sublevados del Arrabal contra Hakam I) y en la razón religiosa de haber contribuido eficazmente a la implantación del Islam en España, y, sobre todo, a haberlo defendido con los Almorávides y los Almohades y, ya en tiempos granadinos, con la intervención de los sultanes mariníes y con las masas de guzat (pl. de gaza) o combatientes en la guerra santa contra los Cristianos.

***

Toda esta lucha ideológica y esta rivalidad en varios terrenos, incluido el cultural, se ha reflejado como era inevitable y lógico en la literatura de los dos países, puede decirse que en muchos de sus géneros. Reunir todos los textos en ambos bandos es labor no hecha todavía y que no será fácil llevar a cabo exhaustivamente. Señalemos sólo tres campos. Uno es el de la poesía en todas las épocas y en sus mejones representantes. Otro, no menos fecundo, es el de los antólogos e historiadores, también a lo largo de los siglos (aquí destacaré sólo el clarividente pasaje del gran Ibn Hayyan en la parte del Muqtabis referente a Hakam II). Por último, para el postrer periodo están los proverbios. De este tema (refranes vulgares



sobre los guzat) se ha ocupado con brillantez el propio Bencherifa en su Zajjali (vol. I).

***

La literatura «específica» sobre el tema conocida hasta ahora y a la cual vamos a limitarnos es reducida en ambos bandos.

Para los tiempos almohades tenemos la Rísala fi fadl al-Andalus de Shaqundi, finísimo escrito desde el punto de vista literario y no menos fino y hábil desde el diplomático (el autor podía atacar duramente a los Almorávides, pero no a los Almohades). La contrapartida de at-Tanji no ha llegado a nosotros.

Para los tiempos mariníes tenemos, del lado magribí, los Mafákhir al-barbar (editados por Lévi-Provençal y que es una compilación histórica útil, pero no artística) y nuestro texto actual ; y, del lado andaluz, la Mufakharat Malaqa wa-Sala de Ibn al-Khatib.

***

Interesado desde hace muchísimo tiempo por el tema des de el punto de vista andaluz, publiqué primero la Mufakhara de Ibn al-Khatib (en «Al-Andalus» II [1934], pp. 183-196); después la Risala de Shaqundi en tomito de 1933, hace mucho tiempo agotado, y, por último, el texto y traducción del pasaje del Muqiabis de Ibn Hayyan aludido poco más arriba. Los tres textos han sido reeditados por el Departamento de Árabe de la Universidad de Barcelona en 1976, con nuevo prólogo mío, bajo el título Andalucía contra Berbería.

Como en un pleito hay que oír siempre a las dos partes y como — por descontado — no quiero apasionarme en el litigio

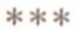


(ni creo que los eruditos actuales debamos hacerlo), traduzco ahora el nuevo texto del lado magribí que ha descubierto y publicado Bencherifa.

Sólo me atrevería a absolver parcialmente a Ibn al-Khatib de los pecados de agresión brutal, de injusticia y de ingratitud contra Salé de los que le acusé hace tiempo en términos que luego han revalidado otros escritores. Como Ibn al-Khatib escribió su Mufakhara casi tres cuartos de siglo después del vejamen de Malzuzi es posible que no hiciera más que responder a la agresión, injusticia y posible ingratitud con que éste procedió antes respecto a Tarifa y Algeciras. Por lo demás, el opúsculo de Ibn al-Khatib fue contestado en una urjuza (poema en metro rajaz), casi contemporánea de nuestra, de Ibn 'Ali Salawi Dukkali, aún inédita.

***

No voy a resumir aquí el texto de Malzuzi, que — repito — no es de gran calidad literaria. Indicaré sólo los motivos de sus más acres censuras : 1° Vejamen de Tarifa y Algeciras (en contra de muchos geógrafos : aquí se dice lo que se quiere) ; 2° Deformación grotesca y caricaturesca (increíble en esos extremos) de la avaricia de los Andaluces ; 3° Esnobismo nobiliario de los Andaluces y su degeneración respecto a las tribus árabes de origen (puede relacionarse con textos de Ibn Khaldun) ; 4° Imitación servil que hacían los Andaluces de los Cristianos (puede relacionarse con textos de Ibn Sa'id, Ibn al-Khatib, etc.) ; 5° Peculiaridades lingüísticas del habla andaluza, como la confusión de k y q y la imela (con exageración evidente en el último punto).





La versión, a mi estilo de siempre, no es absolutamente literal, sino lo bastante literaria para que pueda ser legible a los que entiendan español. Los muchos versos van traducidos (salvo un solo texto) en dos endecasílabos españoles cada uno, lo cual hace que en muchísimos casos un verso tenga más sílabas en árabe que en español. Y es que resulta más fácil y más exacto condensar que no inventar rellenos. La anotación es lo más parca que me ha sido posible y se reduce siempre a las correcciones al texto que creo indispensables y a las elucidaciones más precisas. Al lector no arabista que quiera conocer otros detalles sobre personas o circunstancias citadas en la obrita remito a la Encyclopédie de l'Islam, nueva edición no concluida (de la A a la mitad de la K) o a la edición anterior (de la mitad de la K a la Z).



TRADUCCIÓN

. . . Dijo 'Abd al- 'Aziz[1] : «Lo oculté con ruido de mis tripas ». Mandaron a uno de ellos : «Tú, que eres hombre listo, toma nuestro dinero y tráenos con él buenas cosas de Tarifa ». Volvió ese tal con un envoltorio de buenas cosas, en un abrir y cerrar de ojos. Yo [me] dije : « Este jefe dice la verdad y sabe bien lo que hay que hacer ».

Me levanté sin temer de ellos mal ; pero luego comprendí que eso era uno de sus engaños. Porque cuando los avisté y llegué a ellos, los vi tragar sin decir « en el nombre de Dios »[2]. Comían sin hacerme el menor caso. Cada uno de ellos tomaba su parte, sin dar nada de ella a su huésped ni a su pariente. Les oi mencionar el egoísmo[3] y que decían : « A cada cual lo suyo »[4]. Cada cual miraba de reojo a su compañero, para no darle ánimos de pedirle nada[5], y él engullía y embaulaba sin perder bocado. Apenas comieron, otra vez se juntaron y pusieron a oir y prestar atención a su recitador.

Yo les dije : « ¡ Dios os desampare, os afee y os hunda sin cesar en la vileza! ? Por qué os veía antes como hermanos y luego os distanció el contenido de las fuentes? » Y les recité con dureza y desprecio, sin pretender echarles en cara todo lo que sentía [basit] :

> ¿ De qué tierra salisteis ? Lo que veo
> ni al árabe ni al bárbaro se ajusta.
> Como hermanos viajabais ; mas las fuentes
> os separaron. Se acabó la broma.
> ¿ Por qué no coméis juntos, miserables,
> tomando cada cual su parte justa ?
> Como huérfanos sois que — muerto el padre —
> sacan cuentas, avaros, de la herencia,
> o cual perros en torno a una carroña :



coge uno algo y tras él otro se lanza.
Esto es prueba — Andaluces — de que os falta
todo merecimiento y noble cuna.

Vinieron a mi corriendo, pero no me asustaron. « Tocante a la nobleza — dijeron —, salió de nuestras tribus y la hicieron famosa nuestros antepasados». «El auténtico noble — les repliqué — se jacta de sí mismo y no de su padre. Pero exponedme vuestros linajes y exhibidme vuestras genealogías ».
El primero dijo : « Soy de Aws, me llamo Taws, y mi oficio es ballestero ».
El segundo dijo : « Soy de Khazraj, mi apodo es al-Múdraj, y mi oficio es cambiar oro por moneda de baja ley ».
El tercero dijo : « Soy de Kinda, me llamo Shinda, y mi oficio es tejer redes[6] ».
El cuarto dijo : « Soy de Gassan, me llamo Hassan, y mi oficio es tejer tailasanes ».
El quinto dijo : « Soy de Himyar, me llamo Mihyar, y mi oficio es barrendero ».
El sexto dijo : « Soy de Kinana, me llamo Qinana, y mi oficio es cartero ».
El séptimo dijo : « Soy de Lakhm, me llamo Dakhm, y mi oficio es bordador ».
El octavo dijo : «Soy de Judam, mi nombre es Judam, y mí oficio es hacer cinturones ».
El noveno dijo : «Soy de Fizar, mi nombre es Nizar[7], y mi oficio es vender especias ».
Y el décimo dijo : « Soy de Tayy» me apodo Zurratáy y mi oficio es plegar y desplegar[8] ».
Una vez que me dijeron sus tribus y que me mencionaron sus antepasados y títulos, dije : « ¿ Y éstos son los que pasaron la mar con Tariq, conquistaron al-Andalus y mataron a los patriarcas[9] ? » Púseme entonces a llamar a cada uno por su



tribu y a ponderar la gloria de ésta al par que la vileza de su sucesor. Empecé por Taws, el descendiente de los Aws [wáfir] :

Eran, oh Taws, las gentes de tu tribu
cual leones, en tiempo de combate.
Veloces cabalgaban el desierto.
De buen decir usaban y elocuencia.
Al Nabí — acogedores — ayudaron,
que recibió el Corán desde los cielos.
Ufanos, con razón reivindicaban
gloria y honor ; no los tocó vileza.
¿ Por qué te jactas tú, Tawsillo, de ellos,
si eres cobarde, avaro y miserable ?
Habla de ti; mas déjalos tranquilos :
se extinguieron, bien muertos, los abuelos[10]
Pare la fea a veces una hermosa ;
pare la denostada a la impoluta ;
los valientes engendran pusilánimes ;
engendran los cobardes a leones.
Pace el corcel primaverales pastos.
y, al secarse la yerba, el corcel muere.
También se extingue a veces, grande tribu
y un noble no manchado la revive.
Tú, oh Tawsillo, procedes al contrario :
no tienes otro afán que pan[11] y vino.
¡ Oh Tawsillo ! ¿ De cuándo se ciñeron
tus abuelos groseros cinturones[12] ?
Si los Aws engendrado no te hubieran
— ¡ ojalá ! — gozarían mejor fama,
Tawsillo, tú manchaste tu linaje
frente a todos y el Sino te ha manchado.



Luego llamé a al-Múdraj, el descendiente de los Khazraj [mu.taqarib] :

¡ Te conjuro por Dios, Múdraj ! No fueron
tus abuelos así, los Khazrajíes.
A Ahmad el Escogido socorrieron
cuando algunos de noche lo acechaban[13].
¡ Qué a menudo en la lid fueron leones
y atizaron el fuego de la guerra !
¿ Alcanzar alguien puede su renombre ?
Nunca estuvo al alcance de tus manos.
Habla de ti y a tus abuelos deja ;
de tus hechos ufánate, tú, Múdraj.
Te veo en amistad con los Cristianos
y que en todo les sigues la corriente.
Los perros de Cristianos se atavían
y tú con ese atuendo te paseas.
Les vendes quintaesencias de oro puro
por la falsa moneda que fabrican.
Dejaste a tus abuelos y sus obras :
no queda en ti ni religión ni lengua.
Si no de nuestro Dios respeto tienes,
nunca saldrás del trance en que hoy te hallas,
y bien yo sé que al cabo de algún tiempo
te alejarás de nuestra fe por siempre.

Suspiró hondamente diciendo : « ¡ Todo sea por Dios ! Cambiaron los Ánsares. Reflexionad con los clarividentes[14] ».
Seguí recitando [kamil] :

Hoy reina en esta tierra la avaricia.
« Ruindad cela el turbante en los Ánsares[15] »



Si Qais y 'Awana contemplar pudieran
que los Banu n-Najjar, sus descendientes,
de religión mudaron y vestidos,
adoptando el vivir de los ínfleles,
sus dedos se mordieran de despecho,
quejándose ante el Puro en la asamblea.

Luego llamé a Shinda, el descendiente de los Kinda [basit] :

Shinda : vienen de Kinda inteligencia,
prosas y versos, dádivas, favores.
En Kinda comenzó la poesía
y acabó : no hubo ya ningún acierto,
pues fue el primero nuestro rey errante
y el último el agudo Mutanábbi[16].
No te ufanes, oh Shinda, de esa cuna ;
vete — ; Dios te confunda ! — ; eres esclavo.
Fueron ellos leones generosos :
tú añades avaricia a cobardía.
« Noches, dunas, caballos los conocen »[17],
y a ti sólo el« canuto » y los corpiños[18].
De tejer en su estilo, se gloriaran
contigo tiempos, tierras y ciudades ;
pero como tejiste a nuestro estilo,
vencióte el Sino y te abrumó la prueba.

Luego llamé a Hassan, el descendiente de los Gassan [K_mil] :

Oye, Hassan, palabras verdaderas.
Yo bien lo sé : Gassan ha envejecido [19].
No fuiste tú el primero en ser apóstata
ni en perder la cabeza por las cruces.
Una moral te inspiran y te enseñan
y una ley que complacen al demonio.
Leerás en las « Conquistas de la Siria »[20]



que la fe del Profeta traicionaron.
Por Bizantinas blancas cual muñecas[21],
que enjoyaban jacintos y corales,
cristianos y mudéjares[22] se hicieron,
tras haberse apoyado en los muslimes.
Tus abuelos son Francos[23]. Ve con ellos ;
que allí tienes hermanos y parientes.
No te queda un motivo de jactancia.
No te ufanes. Tus gentes así fueron,

Luego llamé a Mihyar, el descendiente de los Himyar [k_mil] :

Himyár es el pivote de las glorias.
Las gestas suyas son y la excelencia.
Sojuzgaron Oriente y Occidente.
Prez del Tiempo y del mundo fue su reino.
Un Tuba* sometió a los otros Tubbac[24],
dominando a los árabes y bárbaros.
Sus tropas victoriosas se impusieron
a quienes hijos son del Amarillo[25].
En cuanto a buena lengua, pluma y dádivas,
en ellos estuvieron manifiestas.
El Corán revelado fue en su lengua[26],
cuando Himyar fue en el decir maestro.
Su turbante en la lid era corona.
En piafantes corceles cabalgaban,
señores de los árabes vasallos.
Nadie les niega gloria entre los hombres.
De haber — Mihyar — seguido su conducta,
no los negaras por cristiano hacerte.
Levantaron las glorias que tú hundes.
Era pura la aguada que tú enturbias,
Erraste al renegar de tus mayores.
que las prendas mejores escogieron.



« Te callaste mil veces, ignorante,
y por fin el que habló fue tu trasero[27] ».

Luego llamé a Qinana, el descendiente de los Kinana [wafir] :

¿ Hasta cuando, Qinana, a fatigarte
vas, llevando las cartas en valija ?
Tu gente relucía en los refranas.
Oyes : « Habla mejor que el de Kinana »[28].
Mas tú pasas tu vida en el pecado ;
cambiaste el buen hablar por una jerga.
¿ Quién te metió en el alma la avaricia ?
¿ Quién te impide feliz ser y piadoso ?
¿ Dónde vas, ay de ti, por los desiertos,
corriendo para dar gusto a Riyana[29] ?
Ni riqueza ni honor verás ningunos,
no hay incólume honor ; ya no hay modestia.
No quieras parecerte a los Cristianos.
Vuélvete, lerdo[30], a obrar como tu gente.

Luego llamé a Dakhm, el descendiente de los Lakhni [sari] :

¡ Oh Dakhm ! Los Lakhm se fueron con sus glorias,
pues arranque, valor, juicio eran suyos,
así como el orgullo, y prosa y verso[31].
Si a tu gloria te alzases, quedarían
lo que logróse antaño... y tus bordados[32].

Luego llamé a Judam, el descendiente de los Judam [wafir] :

¡ Judam, que Dios te pruebe con tu nombre[33],



y te vengan más males y la muerte !
Triste veo, Judám, que te desvías
de aquella gloria que Judám lograse.
Tus ojos se han dormido y no la atrapas,
cuando otros por lograrla no se duermen.
¿ Por qué te echas atrás, ruin caballero,
viniendo de señores altos, nobles ?
¿ Adquiriste avaricia en estas tierras,
por ser sus moradores todos viles '?

Respondió[34] :

¡ Mi alma pueda servirte de rescate !
Vine a ellos cuando aún era un mozalbete
y, al cabo de los días que pasaron,
aprendí sus bajezas, oh magnánimo,
pues la virtud del hombre mengua siempre
conforme vas viviendo más con ellos.
Entre ellos permanece sólo un día,
para no ser tildado de bajeza.

Luego llamé a Nizar, el descendiente de los Fizar [sari] :

Nizar, oh mi Nizar, oh Nizar, mira :
en torno de ti gira hoy el oprobio.
No pasas hoy de ser un hombrecillo
que ciñe con el cinto su camisa[35]
y que come marrano y vino bebe.
De tus manos favor no espera nadie.
¿ Cómo así no, si te ha educado el« muro »[36] ?

Luego llamé a Zurratay, el descendiente de los Tayy [rajaz] :
¡ Oh Zurratay, oh Zurratay !



Mi abuelo — di — fue Hátim Táyy,
el generoso aquél, sin par.
Yo, en cambio, hoy día, nada soy.
A solas como, al almorzar,
cabe mi pozo[37] mi yantar.
Ay hermanito, si me ves
tengo unos perros en redor
que ni al más íntimo llegar
dejan, si nada ha de aportar,
y que cuando oyen : « ¡ Tay, Tay, Tay!»,
responden : « ¡ Ven, ven [, y verás) ![38] »

Al oír los demás los versos de Zurratay se murieron de risa.
Y yo los dejé a todos sin temer lo que me pudiera pasar. De no

haberme sincerado así, me habrían expuesto a la muerte[39].
Y Dios sabe que no he dicho más que la verdad y que no he enseñado más que del lobo un pelo[40].
Entré en Tarifa y la encontré contraria a su nombre[41]
A Dios pedí que la borrase del mapa. Vi su alcazaba, más estrecha que el cañuto de la cañavera, y habría estado a pique de morir por su repugnante hedor de no llevar conmigo almizcle del bueno. Recité [kamil] :

¡ Ay Andaluces ! Bien errasteis cuando
disteis nombre a Algeciras y a Tarifa.
A una « Verde »llamasteis, y es lo inverso,
y Tarifa no es nada « extraordinario[42]».

Juré entonces por El que abajó la tierra y levantó el cielo que me dirigiría a Algeciras. Salí de Tarifa remangándome [43] y me fui a Algeciras enojado.
Entré en Algeciras — dejando tras de mí comida, equipaje



y a mi amigo — un día de mucho calor. Se me aparecieron enseguida las tachas de sus habitantes. Y es que yo no sabía que eran « la gente del muro »[44] a los que se suele poner como prototipo de avaricia. Díjeles : « Dadme un sorbo de agua, porque tengo una sed angustiosa ». Y me contestó uno de ellos : « Daca su precio y la tendrás. Si no, agua hay fuera de Algeciras; que las fuentes son caudalosas ». Entonces recité [basit].

Vivir en Algeciras deseaba
cierto tiempo y morar con mi familia ;
pero vi gente en ella incomparable
por envidia, avaricia y por vileza.
Si vas a pedir agua de sus casas
te dicen : « Cógela fuera del pueblo »,
y si buscas el fuego en una hoguera :
« Paga, y después arrimarás tu astilla ».
Pero, si has de comprar aquí hasta el fuego,
¿ cómo puede existir gazi[45] que venga ?
Con tal de verme fuera, votos hago
de dejar mi caballo y mi dinero.

Salí de su compañía y me fui a beber de su río ; pero no lo encontré dulce ni abundante, sino como sal amarga, con el color alterado. Su ser era como el no ser. Recité [rajaz] :

Por el Señor Altísimo y Honrado :
¿ El Río de la Miel llamáis a esto ?
¿ Es que queréis darle aire refranesco
o es que ignoráis la miel a lo que sabe[46] ?

Me volví como el sediento al que engañó el espejismo, pues lo encontré « como el bronce [fundido] que abrasa los rostros : ¡ qué asquerosa bebida![47] »
De allí me dirigí al « muro » [48] cuya construcción arruinó



el tiempo y al cual nadie dedicó cuidados. Luego dije a un algecireño que andaba por allí y que acababa de llenar de agua su tinaja : « ¿ Por qué está derruido este muro ? ¿ Vive su dueño o ha muerto ? » Me respondió : « Era de los dos muchachos huérfanos y pobres, que murieron. Lo encontró al-Khadir cuando iba a derrumbarse, y lo reparó ; pero no pudo repararlo de acuerdo con su Compañero (a quien Dios bendiga y salve). Porque este pueblo es aquel en que ambos pidieron de comer a sus habitantes, los cuales negáronse a

hospedarlos, mostrándose con ellos avaros de comida, e insultándolos. El mal agüero del 'muro' es sabido, y la avaricia de los habitantes del pueblo en que se encuentra la describe el Corán ». Entonces recité [wafir] :

> ¿ De las « gentes del muro » esperas algo ?
> ¡ Cuidado, ten cuidado, no lo busques !
> Al-Khadir y Moisés, cuando vinieron
> cabe el pozo [49] y el muro pernoctaron,
> pues, como les negaron la comida,
> para el camino les faltaban fuerzas.
> (De haber sabido era con Dios ventaja [50],
> no habríanles dejado en las afueras).
> Me he de marchar de tierra en que no existe
> lugar en que morar y aposentarme.
> Juro por Dios que, si embarcarme impiden,
> me arrojaré del mar entre las olas.

¿ Qué puede esperarse de gente que han corrompido sus lenguas y palabras y cambiado sus tradiciones y costumbres ; que creen acierto el error y mérito el crimen ; que estudian la traición antes que la religión y aprenden antes de la lactancia el envilecimiento ? [kamil] :

> Di : La ruindad creada es para ellos,



y ellos fueron creados para ruines [51].

No distinguen entre « esfera astronómica » [falak] y « astilla » [falaq], ni entre « ángel » [malak] y « adulación » [malaq], ni entre « correa » [habak] y « albahaca » [habaq], ni entre « sol saliente » [sharq] y « red » [shark], ni entre « abismo » [darak] y « adarga » [dar aq] [52].

Su salam [saludo] se convierte en salim [sano] ; su kalam [lenguaje] en kalim [interlocutor] [53]. Calcula por estos ejemplos y verás, pues por ese estilo anda todo.

Una de las raras cosas que me sucedieron en Algeciras, al llegar a ella, es que pasé junto a un imam que rezaba con los fieles, y al leer : « Di : me refugio en el Señor de los hombres... », [kamil]

al-waswasi trocaba en al-waswisi,
lo mismo que al-khannasi en al-khannisi,
y así una aleya en otra transformaba,
hasta «insufla en los pechos de la nisi [54]».

Esperé a que, termínada su oración y su lectura, se vistiera la 'aba'a y el manto, y entonces le abordé con los más severos reproches, diciéndole : « ¿ Por qué alteras el Libro ? Quienes lo hacen pecan gravemente, y es un crimen que sobre ellos pesa ». Pero me juró que así lo había aprendido de los lectores coránicos de su tiempo, y que tal era la lengua de la gente de esta ribera y del país. Entonces dije [basit] :

¿ Osáis, gente de al-Ándalus, la lengua
corromper en el Libro revelado ?
Lo abandonáis cambiando las ideas
con que 'Utman ibn' Affan fijó su texto [55].
Rezad, mas no leáis azoras nuevas,



entrando en herejías divisoras.
Las voces trabucáis, aún las divinas.
Vive Dios, que incurrís en vil calumnia.
Si rezáis, pero errando en las plegarias,
¿ cómo vais a obtener perdón un dia ?
No ha el Señor menester de vuestras preces,
ni de decir «amén» nosotros mismos.

Me senté un día al lado del cadí Ibn 'Udra [56] y no pude arbitrar excusa a sus sentencias.
Así, vino un hombre lagrimeando copiosamente y, al acercarse de nosotros, suspiró y recitó [kamil] :

¡ Oh faquí! Vi una vez un listo joven
y le enseñé un' aalim de mi tesoro.
Tomó el'alim y lo metió en su casa.
Volvérmelo no quiere, y ando enfermo [57].

Tomando al pie de la letra sus palabras y expresiones, le recité como respuesta, bien lejos de la comprensión y ciencia del cadí :

Si es verdad lo que dices, ese mozo
justo es y bien procede. ¡ Hónralo mucho !
Por Dios, que si un 'al_m así topara,
no me creería pobre ni apenado.

Al oír el cadí estos dos versos dio palmadas [de rabia] y prorrumpió : « ¡ Ay de ti ! Has osado negar los depósitos y das pie a los engaños de las gentes ». Respondí : « Ignoras el sentido de las palabras y te desentiendes de la verdad » [basit] :

« ¿ Le sirve el ojo al hombre, cuando iguales
las luces son para él con las tinieblas ? [58] »

Un segundo litigante había dejado cierto dinero en depósito



a un individuo, haciéndolo transportar a casa de éste. Al acercarse a nosotros el depositario, recitó gimiendo [kamil] :

> Ben 'Udra, tengo un mil en casa de éste,
> y ese mil es mi mil, que le he llevado
> con mi hammil, y lo metí en su cofre.
> Pero el lo repartió : mi mil no existe (59).

Le respondí :

> Todo eso es un absurdo y un embuste.
> Vete de aquí, gran necio redomado.
> Ni un cuarto de ello cabe en una barca,
> ¿ya caber va en arquilla ? ¡ No hay manera !

Dijeron :

> No sabes nuestro estilo de sentencias.

Pero exclamé :

> Idos : no hay una mil en Algeciras (60).

El cadí no podía estarse quieto ni hallar sosiego. « Te excedes — me dijo — en la rebeldía, y te has propasado en violar el derecho ». Le repliqué : « ¡ Por tu padre ! La mía es la verdadera respuesta y cuanto expuse es lo justo ».
Mientras discutíamos largamente y amontonábamos reproches, vino un tercer pleitista acusando a un hombre de haberle matado un pichón [hamam]. Le corrían las lágrimas de desesperación y se abofeteaba las mejillas. Al acercarse de nosotros, suspiró hondo y sorprendió a próximos y remotos con decir (61) [wafir] :

> Di a Ben 'Udra : ¡ Faquí que la justicia



proteges y reúnes los saberes !
¡ Vive en paz ! Un hamím este sujeto
me hirió y dejó tendido para siempre.
Desde Écija [62] lo traje pequeñito,
y acabé por tomarle gran apego.
Nos hacíamos mutua compañía.
Cariño le mostraba, si era esquivo.
Sollozando la madre lo lloraba [63],
como suelen de siempre las palomas.
Cumple en él, oh Ben 'Udra, mi derecho,
pues, desde que murió, no hallo otro amigo.

Entonces me volví al matador del pichón, y di una opinión que le acercó a su muerte, diciéndole [wafir}:

Ya oíste lo que alega. Dime, breve,
bien clara la verdad. sin un rodeo.
¿ No temes, si perjuras, ese Día
en que horror dará el Fuego a quien lo vea,
en que ni amigo conocer va a amigo,
ni hará el íntimo al íntimo preguntas [64]?

Respondió :

Es cierto lo que ha dicho la otra parte :
Sí que es verdad : yo le mata un hamima.

Al oírle reconocer el asesinato y confesar el crimen, dije a los guardas : « Prendedlo — ¡ ay de vosotros si lo soltáis ! —, llevadlo al verdugo y acabad pronto con él ». Al ver el cadí mi decisión y mi expedita sentencia, lanzó un resoplido de indignación y estuvo a pique de estallar de cólera. « ¡ Oh 'Abd al-Aziz — dijo —, te pido compasión por el Rey Glorioso !



Te extralimitaste en la sentencia y te has apartado en ella del camino del buen juez. » Le repliqué : « Examina mi sentencia y asómbrate de mi juicio maravilloso, porque hamim es el amigo íntimo y el ave que zurea [pichón] es hamam » [65]. Y con esto me fui, dejando al cadí en su ignorancia y abandonándolo en su extravío.

A un joven que llevaba tiempo entre los algecireños y que, por tratar a sus sabios, conocía sus costumbres, le pregunté por qué su kalam [lenguaje] era kailm [interlocutor] y su salam [saludo, paz] era salim [sano]. Me respondió [wafír] :

> Mozo, voy el secreto a revelarte
> de por qué su salamu es el salimu.
> Fue la razón que el día que vinieron
> Khadir y El que con Dios habló [66] a esta aldea
> sus gentes les negaron hospedaje :
> ni un solo noble generoso hallaron.
> [Cual castigo les dieron de su falta,
> que las áes en íes transformaran,][67]
> para que se supiese cómo fueron
> con Moisés y su amigo, antaño, avaros.
> Compara sus palabras con los hechos,
> y encontrarás ser justo lo que digo.

Al alargarse en Algeciras mi estancia continuada, en el séquito de la Alta Majestad [68], temí que se envileciera mi carácter ; que los leones se volvieran corderos [69] ; que la brasa se apagase al contacto de la ceniza, y que la ruindad de Algeciras influyera hasta en lo inanimado. No cesé, por tanto, de pedir a Dios que facilitase al Sultán cruzar la mar, haciéndonos retornar a la patria.

El día en que por fin había de salir de Algeciras y partir



de ella, me reuní antes con el ilustre faquí Abu Faris 'Abd al-'Aziz al-Imrani, secretario del Califato [70] cuya amistad prefería a cualquier otra. No parábamos de revolver nuestros pensamientos en torno a la partida, y de desearla de continuo, cuando graznó un cuervo [71], dejando a las gentes atónitas con su'aq'aq. Entonces recité [wafir] :

> Si oyes, que grazna el cuervo en Algeciras,
> alégrate, pues pronto has de dejarla,

y el mencionado faquí continuó :

> Confía, sin dudar, que bogaremos ;
> que hay mucha maravilla en este mundo.

Y, por Dios, no habíamos acabado de improvisar estos dos versos cuando el Emir de los Musulmanes resolvió partir [72] Al dejar Algeciras tras de mí, deseando reunirme con los míos, la miraba conforme iba quedándose lejos, y, cogiéndome la barba entre las manos, le dije a Algeciras [73] [wafir] :

> Si vuelvo a ti, a navaja me la rapas,
> tras mesarla, o con pez me la depilas.

Y dije al Creador de Algeciras :

> Si me embarco otra vez para Algeciras.
> hunde en la mar la nao en que navegue,
> pues no vi en Algeciras más que rostros
> en los que está patente la vileza.

FIN DE LA TURFAT AZ-ZARIF FIL AHL AL-JAZIRA WA-TARIF

Emilio GARCÍA GÓMEZ
(Madrid)



NOTAS

(1) Como el texto es acéfalo, la traducción de este comienzo tiene por fuerza algo de conjetural.
(2) Los musulmanes empiezan a comer diciendo bi-smi llah (= en al nombre de Dios).
(3) 'Ankama, que no figura en los diccionarios ni explana el editor. A mi juicio, viene de'an-kum ([separado] de vosotros).
(4) El texto tiene un refrán árabe vulgar (variación para la palabra ílnal en Bencherifa, Zajjali, II, p. 285) que tiene que significar eso.
(5) Shadda azra-hu está negistrado en el Suppl. de Dozy con esa acepción.
(6) El texto dice : al-hiyaka bi-Jarunda (= tejer en...). — Jarunda es Gerunda (= Gerona), pero puede haber error por otro topónimo. — Ha'ik (= tejedor) tiene un valor algo despectivo, y, según Dozy, Suppl. era el que tejía jaiques, o el que tejía lana o algodón, o el redero o tejedor de redes (Alcalá). ¿Podría tratarse de «tejer algodón venido de Gerona »? — Por otra parte J.r.ndh se parece gráficamente mucho a Jazirah, aunque falte el articulo. — ¿No será «tejer en Algeciras » ? Claro que se opone la rima.
(7) El texto, por posible errata : Nidar. Véase más adelante.
(8) Al-nashr wa-t-tayy es, en Retórica, el nombre de una figura que aquí no parece tener nada que hacer. Traduzco literalmente : «plegar y desplegar» (= ¿lo que hace un vendedor de telas?).
(9) Al-batariq (= patriarcas). Parece aludir a los eclesiásticos visigodos.
(10) Refrán o frase proverbial.
(11) Texto : banu (en rima). El editor sugiere el romance pan. Pese a la terminación (el latín es pañis, -is ... -em}, puede tener razón, por tratarse de la rima. No veo otra solución.
(12) Zunnar, pl. zananir, designa el cinturón especial que estaban obligados a llevar los Cristianos como distintivo discriminatorio.
(13) Ahmad es como Muhammad (= el Profeta). Se traía de las asechanzas de sus enemigos la noche de su fuga (hégira).
(14) Adaptación de Corán III-ll : Inna fa d' lika ibratan li-'uli l-absari {= Verdaderamente en eso hay materia de reflexión para los clarividentes).
(15) Segundo hemistiquio de un famoso verso antiguo. Los Ánsar (= Ayudadores) fueron los Árabes que desde el comienzo se pusieron del lado del Profeta.
(16) Frase conocida : la poesía empezó con un poeta de Kinda (el anteislámico Imru'-l-Qais = « el rey errante ») y acabó con otro poeta de Kinda (el gran Mulanabbi, del siglo IX).
(17) Ligero cambio en un famoso verso de Mutanabbi (ed. Yáziji, p. 343). El gran poeta habla en 1° persona : «me conocen... »
(18) Texto : al-qannutu wa-l-badanu. — Qannüt es el romance «cañutoLo » o « canuto » que (véase Simonet, Glos.) puede tener acepciones de sastrería, como « bobina ». — Badán es « cuerpos », que tiene en Dozy, Suppl., una clara acepción de sastreria ; por eso traduzco « corpiños ». — Todo parece indicar que ambas



voces se refieren a sastrería. La hipótesis del editor de que qannut es «cayado » y badán es « reses », aludiendo al oficio de pastor, no me convence.
(19) No puedo entender lo impreso en el texto : Fa-'ana lladi qad shayyabat Gassanu. Leo, sin gran convicción : Fa-ana la-'adri qad...y traduzco en consecuencia.
(20) El famoso libro Futuh ash-Sham de Waqidi
(21) Dumá es el pl. de dumya = figura, Ídolo, estatua de mármol, muñeca de marfil (juguete).
(22) « Mudejares» es, en mi traducción, un anacronismo y una distorsión geográfica ; pero la raiz usada por el autor en tadajjana (= vivieron entre cristianos) es DJN, cuyo participio II es mudajjan, origen del español « mudejar ».
(23) Ifranj. En el contexto histórico aquí aludido son los Bizantinos.
(24) Texto : bi-suyufl-him qahara t-tababita tubba'un. — Tubba'es el título de los reyes del Yemen (que se dice no tomaron hasta reinar en Himyar y Hadramaut), y el pl. es tababi'. Pero aquí la tradución resulta algo extraña. Habría, quizá que suponer que tababi' está por tawabi'con valor geográfico.
(25) Man abu-hu l-Asfaru (= quienes tuvieron por padre al Amarillo). Banü l-Asfar (= los hijos del Amarillo, los pálidos) eran los de la raza de Jafet : aquí, los Bizantinos.
(26) El editor expresa con razón su extrañcza por esta frase, ya que el Corán fue revelado en el árabe de Quraish.
(27) Adaptación al verso del viejo refrán Sakata alfan wa-nalaqa khalfan (= Se calló mil veces y habló por detrás). Cf. Freytag, Arabum Proverbia, I, p. 603.
(28) Refrán : cf. Bencherifa, Zajjali, 1, p. 108 (ex Zubaidi).
*(29) El editor no explica. Acaso es un pueblo cerca de Málaga que *Abd Allah el Ziri cita dos veces en su K. at-tibyan.*
(30) El editor lee este vocativo Zu' ana, y no explica. Posiblemente hay que leer ru' ana. En la raíz R'N hay multitud de sentidos despectivos o insultantes.
(31) Aparte otros muchos grandes poetas, Mu' tamid de Sevilla era lakhmi.
(32) El interpelado dijo antes ser « bordador » o «recamador», palabra esta última aún viva en español (de ROM).
(33) Como nombre común, judam significa « elefantiasis ».
(34) Extrañamente, el «respondió » (fa-qala) forma parte del verso. Lo mismo ocurre varias veces más adelante. Para mayor claridad, también en los demás casos, lo sacamos del verso, sin advertirlo.
(35) Para gashkun (= camisa), cí. Vocabulista, Simonet y Dozy, Suppl. (es palabra que viene de gascón, por vascón, de la Gascuña). Recuérdese basquiña. — Para zunnar (= cinturón), cf. supra, p. 12, nota 5.
(36) Para esta alusión al « muro » (jidar), cf. infra, p. 19, nota 4.
(37) Aquí, y luego infra (p. 20, nota 1), parece ser que tuway es «pozo». Se trata de una acepción rara. De hecho en el Vocabulista, s. «puteus », hallamos : bir, mutwi, buwayir.
(38) «Verás como te destrozamos » anuncian los ladridos de los perros.
(39) Lee conjcturalmente li-1-mahlak.



(40) Sustituyo con csla frase española otra árabe, que en español sería extraña y tiene parecido sentido.
(41) Tarifa tomó nombre de Tarif, el primer expedicionario a España, como en prueba ; pero su sentido es « nuevo, extraordinario ».
(42) La actual Algeciras se llamaba en árabe al-Jazira al-Khadra' (= la Isla Verde). Para Tarifa, cf. nota anterior.
(43) « Para no mancharme con el lodo o suciedad de Tarifa ».
(44) Nueva alusión al « muro ». Otra vez remitimos a la p. 19, nota 4, infra.
(45) Gazi era el participante magribí en la <i guerra santa » contra los Cristianos de España, voluntario o no, más bien no ; personaje temido y odiado por los Andaluces, pese a que — por lo menos en principio — los defendía.
(46) Tradución conjetural de los dos últimos endecasílabos (todo el verso árabe). Resulta además extraña la repetición de la rima al-casal (== la miel).
(47) Corán XVIII-28.
(48) En el Corán XVI 11-59 ss. figura la célebre historia de Moisés y el « servidor de Dios » (el enigmático, discutidísimo y legendario al-Khadir o al-Khidr). Ambos llegan a la « confluencia de los dos mares » (majma' al-bahrain) y desde allí les ocurre una serie de cosas extraordinarias. La única que nos interesa aquí es que arribaron a una ciudad en la cual se negaron a darles hospitalidad y nada de comer. En ella al-Khadir reparó un muro a punto de caerse, con gran extrañeza de Moisés. La explicación que posteriormente da al-Khadir a Moisés es que ese muro, perteneciente a dos muchachios huérfanos, ocultaba enterrado bajo él un tesoro que Dios tenia dispuesto no hallaran los huérfanos hasta ser mayores. Lo de la « confluencia de los dos mares » hizo pensar a algunos que era el Estrecho de Gibraltar, e identificaron «la ciudad inhospitalaria del muro » con Algeciras. De eso se hace eco el autor con la peor intención.
(49) Cf. supra p. 17, nota 4.
(50) El editor imprime : Fa-lau' alima l-llahu hunaka fadlan... Como no lo entiendo, leo y traduzco : Fa-lau 'alimu huna li-llahi fadlan...
(51) Adaptación de un verso antiguo.
(52) Por estos ejemplos se ve que los Andaluces confundían en la pronunciación el k y el q.
(53) La «imela » (palabra que existe en el Diccionario académico español) es el fenómeno lingüístico del dialecto coloquial árabe-español que transformaba la a en i (ejemplos clásicos : al-banna == albañil, Báb ar-ramla =Bibarrambla, etc.).
(54) Se trata de la azora an-Nas (Corán CXIV) que dice en árabe : Qul : A'udu bi-Rabbi n-nasi ¡ ... min sharri l-waswasi al-khannasi / alladi yuwaswisu fi suduri an-nasi (Di : Busco refugio en el señor de los Hombres / ... contra la maldad del Tentador fartivo / que susurra en los pechos de los Hombres). El autor acusa a los Andaluces de desfigurar el texto coránico leyendo : waswisi, khannisi y nisi.
(55) Sabido es que la Vulgata coránica fue compilada y fijada en tiempos del tercer Califa, 'Utman.
(56) Los Banü 'Udra eran una noble familia árabe establecida en Algeciras, algunos de cuyos miembros constan en los diccionarios biografieos,



(57) Lo que dice el demandante es haber mostrado a un joven entendido la señal ('alam) bajo la cual escondía un tesoro, y que el joven, aprovechándose de la «señal», se lo llevó. Pero como pronunciaba 'alim en vez de 'alam, lo que el autor dice comprender es que dio a conocer a un joven entendido un « sabio » cuyo trato era uno de sus tesoros, y que el joven se aprovechó del trato de ese sabio y lo acaparaba.
(58) Verso de Mutanabbi, ed. Yaziji, p. 342.
(59) La anécdota se basa en que el árabe mal (= dinero) se pronunciaba en al-Andalus, por la imela, mil (= milla) produciéndose el consiguiente equivoco. De igual modo, hammal (= mozo de cuerda) se pronunciaba hammil.
(60) La longitud de la medina amurallada de Algeciras no llegaría, por lo que se ve, a una milla (aproximadamente 1 1/² km.)
(61) La anécdota se basa en que el árabe hamam (= palomo, pichón) se pronunciaba en al-Andalus, por la imela, hamim (=amigo íntimo), produciéndose el consiguiente equívoco. La muerte de un pichón ajeno podia producir una indemnización ; la de un amigo era un asesinato y acarreaba la pena capital.
(62) El ms. tiene por lo visto, 's.j.h, en cuya grafia ve al editor el vulgarismo Isija (hoy Écija). Me temo que, por el metro, haya que leer mini stijatin, que es lo mismo porque en español sí dan siempre ç, z.
(63) En la poesía árabe, como en otras (la española entre ellas), se supone que el zureo de la paloma (y más el de la tórtola) es gemido y llanto.
(64) Corán LXX-10, entre las descripciones y signos del Juicio final,
(65) Cf. p. 23, nota 2.
(66) Cf. p. 19, nota 4. — « El que habló con Dios » o « Interlocutor » (Kailm) es sobrenombre de Moisés, por la conversación que con Dios sostuvo en el Sinaí.
(67) Creo con el editor que hay que suplir aquí un verso, que falta en el ms., y que debería decir algo parecido a lo suplido.
(68) Al-Maqam al-'Ali, manera de designar al Principe de los Musulmanes marini, probablemente Ya'qub ibn' Abd al-Haqq.
(69) Utilización de un verso antiguo.
(70) Fue cadí de Marrakush bajo Ya'qub ibn' Abd al-Haqq, y está citado en el Qirt_s y en otras fuentes (si es que no se trata de un hermano).
(71) La visión, o el graznar, de un cuervo anuncia para los árabes la separación. Por eso es «la separación de los amantes» y al ave se le llama gurab al-bain (= cuervo de la separación), que es naturalmente de mal agüero. Aquí, en cambio, es feliz augurio, porque los dos personajes están deseando « separarse » de Algeciras y abandonarla.
(72) Cf. supra p. 24, nota 4. La fecha fue 674 h (= 1275 J.C.).
(73) En árabe son tres versos, muy estropeados a lo que parece en el ms. El editor dice suplir algunas palabras. Pero los tres versos no pueden estar dirigidos a Algeciras, sino sólo el primero. Los otros dos van dirigidos — creo — a Dios, incluyendo la indicación : « dije etc. ». Por eso, donde el editor lee : wa-qui li-l-Ja-[zirati] l-Khadra' : Mahma..., que falta al metro, yo leo conjeturalmente : iva-qultu li-Khaliqi] l-Khadra' : Mahma...



فهرس الأعلام



ـ غ ـ

ـ ف ـ







فهرس البلدان



فهرس الأشعار









يصدر
ضمن سلسلة معالم
سنة 2006



الثمن : 80. درهما